

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


كتابي
44
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الأول
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٥٩٠٨٤٥٥

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كتابي
(العدد رقم 44)

مرتفعات ويذرنج
الجزء الأول

إميلي برونتي

إعداد: حلمي مراد



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «اميلى برونتى»

الجزء الأول

كلمة المحرر:

الشقيقات الخالدات!

عزيزي القارىء..

منذ قدمت لك الترجمة الكاملة لقصة «شارلوت برونتى) الخالدة (جين إير) وأنا أتوق إلى أن أقدم لك هذه القصة «الشقيقة) بدورها، (مرتفعات ويذرنج) التى تفوق (جين اير) روعة وخلودًا.. بل وتفوقها مكانة فى موازين التراث الأدبي العالمي الذي تعتز به الانسانية جمعاء..

وحين أضع هاتين القصتين «الكلاسيكيتين) الخالدتين فى مرتبة «الشقيقتين) فإنما أعنى بذلك معناه المزدوج: فهما شقيقتان فى «جوهما) القصصى، ولونهما الأدبى - كما سترى - من ناحية.. وهما من الناحية الأخرى نتاج عبقرية مؤلفتين شقيقتين هما «شارلوت برونتى) - مؤلفة (جين اير) - و(اميلى برونتى)، مؤلفة (مرتفعات ويذرنج).

أسرة العبقرية.. والفواجع!

وهذا يسوقنى إلى كلمة قصيرة عن أسرة «برونتى) التى أنجبت الشقيقات الثلاث، بل العبقريات الثلاث، والمؤلفات الثلاث: «شارلوت)، و«إميلى) ثم صغراهن «آن) برونتي!

ومن عجب أن الشقيقات الثلاث تشابهن فى.. كل شئ تقريبًا!.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى، وهزالهن البدني، وقصر أعمارهن، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت!

تشابهن فى نبوغهن الأدبى، وخلودهن، فاقترن اسم كل منهن بقصة من روائع الأدب الإنسانى - وكان نصيب صغراهن «آن) من هذا الإنتاج قصة (آجنس جراى)، التى تروى قصة مربية للأطفال، وإن كان نصيب هذه القصة من الشهرة أقل من نصيب (جين اير) و(مرتفعات ويذرنج)..

وتشابهن فى هزال أبدانهن، وقصر أعمارهن، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذي قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل - فماتت به شارلوت فى سن التاسعة والثلاثين (1816 - 1855).. وماتت به «اميلى) فى سن الثلاثين (1818 – 1848).. ثم ماتت به «آن) فى سن التاسعة والعشرين (1820 – 1849)!

طفولة حزينة

والواقع أن فواجع أسرة «برونتى) لا تقف عند هدا الحد، (ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذي تتسم به قصصهن جميعًا!).. فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد: الأب، وهو قس «ابروشية) بجهة (هاروث) بإنجلترا.. وزوجته، ثم أطفالهما الستة، وكانوا خمس بنات وولد، هم بالترتيب: ماريا، اليزابيث، شارلوت، برانويل (وهو الابن الذكر)، ثم اميلى، وأخيرًا «آن). وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذي يليه نحو سنة واحدة فقط، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى (ماريا) فى سن السابعة، والصغرى (آن) فى عامها الأول!

وهكذا صارت (ماريا)، وهي بعد فى سن السابعة، بمثابة (الأم) للصغار الخمسة الآخرين!.. وبعد أربع سنوات، ألحق الأب الحزين ابنتيه الكبيرتين (ماريا) و(اليزابيث) بمدرسة داخلية - هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى قصة جين اير، باسم «لووود).. لذلك لم يكن غريبًا أن ماتت الأختان الكبريان فى تلك المدرسة، تاركتين لأبيهما الثاكل شقيقاتهما

الثلاث، وشقيقهما الوحيد (برانويل).

فضل البيئة، والتربية، على موهبتهن الأدبية

وجلب القس شقيقته لترعى أطفاله الأربعة. وكان بيته فى (الأبروشية) فسيحًا متعدد الحجرات، تحيط به فى الخارج الأحراش والغابات ذات الجمال الأخاذ، فى كافة فصول العام. وفى داخل الدار كانت الخادمة (تابى) تروى للصغار قصص العائلات الغريبة الأطوار التى تقطن القصور والضياع المتباعدة فى تلك المنطقة من مناطق مقاطعة (يوركشاير)!.. كما كان الأب يعنى بتعليم صغاره ويتحدث إليهم كما لو كانوا كبارًا.. وعودهم أن يطالعوا الكتب والصحف، ويناقشوه فى محتوياتها.. وهكذا شبوا وقد أنمى الإطلاع فيهم ملكة الخيال والتصور..

ومنذ صباهن اتجهت ميول الشقيقات الثلاث نحو الأدب.. بينما مال شقيقهن الوحيد (برانويل) إلى الرسم، بالإضافة إلى مواهبه الاخرى فى الكتابة، والدراسة، والحديث البارع!.. على أنه حين جاء أوان ترجمة هذه المواهب فى الحياة العملية، منى بفشل ذريع فى جميع الميادين، فأدمن الخمر.. ثم برزت موهبته الكبرى فى العثور على مبررات لهذا الفشل!.. وهكذا صار الفتى الذي كان موضع فخر شقيقاته، وآمالهن، مجلبة للخجل والعار!.. وإذ يئسن من أن يصبح مصدر دخل للأسرة، عمدن إلى البحث عن أعمال كمربيات لدى الأسر الثرية، وهي المهنة الوحيدة الشريفة للعوانس الفقيرات فى ذلك العصر.. ثم رحلت شارلوت واميلى إلى (بروكسل) حيث اشتغلتا زمنًا بالتدريس، لكن صحة إميلى بدأت فى التدهور، واشتد بها الحنين إلى أحراش (يوركشاير)، فعادتا إلى وطنهما.. وهناك بدأتا تمارسان مع شقيقتهما الثالثة كتابة القصة ونظم الشعر، فنشرن ديوانهن الأول بتوقيعات مستعارة لثلاثة أشقاء وهميين - من الرجال - بأسماء: (كارر، وايليس، واكتون بيل)!

وبرغم فشل الديوان من حيث الزواج ولفت أنظار النقاد، فإن مجرد رؤية الشقيقات الثلاث لإنتاجهن مطبوعًا على الورق، كان كافيًا لإشعال حماسهن من أجل تحقيق أحلامهن الأدبية الواسعة، فلم تعد تستطيع قوة أن توقف انطلاقتهن!.. وهكذا عكفت (شارلوت) على كتابة (جين إير)، و(آن) على كتابة (آجنس جراى)، و(اميلى) على كتابة (مرتفعات ويذرنج).. وكانت الأخيرة هى أول قصة من الثلاث ترى النور.. نور المطبعة!

وكانت (إميلى) قد (حملت) هذه القصة زمنًا فى عقلها وقلبها، وهي راقدة فوق أحواض نبات (الخلنج)، تحت أشعة شمس الربيع، أو وهي ترقب دوامات الجليد فى أيام ديسمبر القارسة. وبرغم أن القصة نشرت تحت ذلك الاسم (الرجالي) المستعار، فقد رجح القراء أن المؤلفة إمرأة، لكنهم تخيلوها امرأة مغامرة عركت الحياة الصاخبة. وإلا لما استطاعت تصوير العواطف (بهذا العنف، والجموح، والقوة الدافقة!).. وما درى الواهمون أن المؤلفة لم تعش إلا حياة الراهبات الناسكات!

وبدأت إميلى تسعل.. لكنها أبت الاستكانة لعلاج، بل رفضت زيارة الطبيب.. فسارت نحو النهاية بخطى حثيثة. وحتى فى يوم وفاتها ذاته، ارتدت ثيابها، وهبطت من غرفتها، وجلست تكتب كالعادة!.. فماتت (واقفة)، أو (على خشبة المسرح) كما يشتهى الممثلون!

ولم يستطع أحد أن يتعرف فى أبطال (مرتفعات ويذرنج) على أشخاص عرفتهم (إميلى) فى حياتها.. لكنهم أشخاص يستطيع أن يتعرف عليهم كل من يعرف الانسانية.. فى كل زمان ومكان!.. فمن بوتقة أحراش (يوركشاير) الضارية الغامضة، وبقايا قصص المربية (تابى) نصف المنسية، وببصيرة المتصوفة التى تنفذ إلى حقائق الحياة والموت.. كتبت اميلى برونتى عن.. حب أقوى من الموت!

هل هى قصة حب؟

على أنها ليست قصة حب، وإن كانت هي قصة عن الحب!.. فلقد عرفت إميلى بوحي من قلبها المستوحش أن الحب ليس على الدوام رقيقًا، سعيدًا.. وإنما هو قد يكون قاسيًّا، ضاريًا، لا ضمير له!.. وقد يمزق سكينة النفس كما تمزق العاصفة سكون الغابة!.. لكنها عرفت أيضًا أنه قد يتسامى فيغدو أعظم، وأجل قدرًا من المحبين أنفسهم!

وتتوالي الأجيال، ويشب كل جيل فيجد (مرتفعات ويذرنج) تنتظر نفرًا منه ليجد فيه .. مصداقًا لحبه، العنيف، العفيف، المتسامى.. وسيظل هناك دائمًا عشاق يرون فيها مرآة لعواطفهم الشخصية، التى تهيم فى وديان بعيدة عن تلك التى تهيم فيهاعواطف عامة الناس!

وقد يروق لك إذا زرت انجلترا أن ترى البيت الذي يقولون إنه مسرح أحداث هذه القصة.. وإن لم تجد شخصًا يؤمن حقًّا بأن شبح (كاترين) قد تسلق يومًا نافذته!

وقد يروق لك أن تزور البيت الذي عاشت فيه أسرة (برونتى) بضاحية (هاورث)، وكتبت فيه (إميلى) (مرتفعات ويذرنج).. إلخ.. ومن أجل هذا حرصت على أن أزود هذه الطبعة بكل ما استطعت الحصول عليه من صور نادرة لتلك الأماكن التاريخية..

والآن، دعنى أخلى بينك وبين البدء فى قراءة هذه التحفة الأدبية الإنسانية الرائعة، التى ستوافيك ترجمتها الكاملة الأمينة هذه فى ثلاثة أجزاء من هذا الحجم..

والله ولى التوفيق،

حلمى مراد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

1801

عدت للتو من زيارة مالك الدار التى استأجرتها، وهو الجار الوحيد الذى يكدر صفو العزلة التى أنشدها.. ولعمرى إن هذه قطعة من الريف رائعة الجمال حقًّا، وما أحسبنى كنت مهتديًا - فى انجلترا كلها - إلى مكان ينأى عن ضجة المجتمع وضوضائه مثلما ينأى هذا المكان.. إنه الفردوس المنشود لعدو البشر!.. وأنا ومستر (هيثكليف) خير اثنين اتفقت مشاربهما بحيث نقتسم هذه الوحشة فيما بيننا.. يا له من شخص عظيم!.. إننى لا أظنه قد أدرك كيف هفا إليه قلبى ومال، عندما رأيت عينيه السوداوين تضيقان فى حذر وريبة، وتنسحبان تحت حاجبيه - بينما كنت أدنو منه على ظهر جوادي - ثم عندما توغلت أصابعه فى عزم وإصرار داخل أغوار صدريته - وأنا أعلن أسمي له - كأنما تحتمى بها حتى لا تمتد لمصافحتى..

قلت: (مستر هيثكليف!)

فكان الجواب إيماءة يسيرة.. واستطردت أقول:

- إننى مستر لوكوود، المستأجر الجديد لبيتك يا سيدي. وقد بادرت إلى الحضور للتشرف بزيارتك فى أول فرصة أتيحت لى بعد مقدمى، لأعبر لك عن رجائى فى ألا أكون قد أثقلت عليك بإلحاحى فى طلب استئجار (ثرشكروس جرانج)، إذ علمت بالامس أنك كنت تفكر فى..

فقاطعنى وهو يرتد إلى الوراء مجفلًا: «إن (ثرشكروس جرانج) مملوكة لى يا سيدي، وما كنت لأسمح لمخلوق بأن يثقل على مادام فى استطاعتى أن أحول دون ذلك. ادخل..).

وقد انطلقت هذه الكلمة الأخيرة من بين أسنانه المطبقة وكأنما كانت تعبر عن رغبته فى أن (أذهب إلى الشيطان)! بل إن البوابة التى كان يستند اليها لم تبد أية حركة ودية تستجيب بها لهذه الدعوة.. وأحسب أن هذا الموقف منه إنما حفزنى وشد من عزمى على تلبية دعوته، إذ شعرت بالميل نحو رجل يبدو أشد منى غلوًا فى التحفظ والنفور من الناس..

وإذ رأى صدر جوادى يدفع الحاجز فى رفق، مد يده فأزاح السلسلة التى كانت البوابة مغلقة بها، ثم استدار دفعة واحدة، ومضى يتقدمنى فى الممر المرتفع.. حتى إذا ما بلغنا الفناء صاح مناديًا: (جوزيف.. خذ جواد مستر لو كوود، وأحضر بعض النبيذ)

وقد أوحى لى هذا الأمر المزدوج بفكرة خامرتنى وحدثت بها نفسي قائلًا: (لا ريب أن هذا كل ما فى المؤسسة من خدم وحشم!.. فلا عجب إذا ترعرع العشب بين البلاط وكانت الماشية هى الأداة الوحيدة لتشذيب الأسوار النامية!)

أما جوزيف فكان رجلًا مسنًا، لا بل شيخًا عجوزًا.. أو لعله كان مفرطًا فى الشيخوخة برغم ما يبدو عليه من صحة قوية وعضلات مفتولة.. فتمتم فى همهمة مكتومة تنم عن السخط، وهو يأخذ بعنان جوادى: (ليكن الله فى عوننا)..

بينما أخذ فى الوقت نفسه يحملق فى وجهي فى غلظة وتبرم، بحيث حدست - إمعانًا منى فى السماحة - أنه لابد فى حاجة إلى (العون الإلهى) ليساعده على هضم غذائه، وأن ابتهالاته التقية لا شأن لها بمقدمى المفاجىء غير المنتظر!

و(مرتفعات ويذرنج) هو اسم الدار التى يسكنها مستر هيثكليف. وكلمة (ويذرنج) اصطلاح

اقليمى ذو دلالة خاصة فى وصف جلبة الرياح التى يتعرض لها موقع الدار فى الأجواء العاصفة. وهم ولا ريب يستمتعون بالهواء النقى المنعش طوال أيام العام فى هذا المكان المرتفع، كما أن في وسع المرء أن يحدس قوة الرياح الشمالية التى تهب على حافة المرتفعات حين يتأمل ذلك الانحناء الشديد لسيقان أشجار (الشربين) الضامرة القليلة المتناثرة خلف الدار، وتلك السلسلة من الأغصان المدببة الخالية من الأوراق، وقد مدت أطرافها جميعًا فى اتجاه واحد كأنها تستجدى الشمس حرارتها ودفأها.. ومن حسن الحظ أن المهندس الذي شيد الدار كان من بعد النظر بحيث أقامها متينة قوية، وجعل نوافذها ضيقة غائرة فى الجدران، ووقى زوايا البناء بأحجار كبيرة بارزة.

وقبل أن أجتاز عتبة الدار تمهلت قليلًا لأتأمل فى إعجاب عددًا من النقوش الغريبة الشكل المتناثرة فوق الواجهة، وعلى الأخص فوق الباب الرئيسى، حيث تبينت - وسط غمرة من الرسوم تمثل سباعًا ذات أجنحة ومناقير، وغلمانًا عراة بغير حياء - تاريخًا محفورًا هو (1500)، واسمًا هو «هيرتون إيرنشو».. وكنت أود أن أبدى بعض التعليقات أو أطلب نبذة موجزة عن تاريخ المكان من صاحبه المتجهم الوجه، لولا أن هيئته عند الباب كانت تبدو كأنما تريد منى التعجيل بالدخول أو المبادرة إلى الرحيل.. ولم يكن بى ميل أو رغبة فى الاستزادة من ضيق صدره وحدة خلقه قبل أن أتفحص خفايا مسكنه من الداخل.

وإن هى إلا خطوة خطوتها حتى وجدت نفسي فى حجرة الجلوس العائلية التى تلي الباب مباشرة، دون أن يتوسطهما دهليز أو ردهة.. وهم يطلقون عليها فى هذه الأنحاء اسم (البيت) تجوزًا، إعلاء لقدرها عندهم، وتشمل عادة المطبخ وحجرة الجلوس معًا. ولكنى أعتقد أن المطبخ فى (مرتفعات ويذرنج) يقع فى مكان آخر من الدار - أو هذا على الأقل ما تبينته - إذ بلغت مسامعى من مكان سحيق غمغمة الكلام وقعقعة الآنية، وفى الوقت نفسه لم أجد حول الموقد الضخم أثرًا للشواء والسليق أو خبز الفطائر، ولم ألمح على الجدران بريق القدور النحاسية أو المصافى اللامعة الحديثة الطلاء.. ومع ذلك كان أحد أركان القاعة يعكس الضوء والحرارة من صحاف واسعة مصنوعة من الصفيح السميك، تناثرت بينها أباريق وقنانى من الفضة، وقد رصت صفوفًا طبقة بعد طبقة فوق (بوفيه) عريض يرتفع حتى يبلغ السقف.. وكان هذا الأخير غفلًا لم تمسسه يد بطلاء أو دهان، ودقائقه الداخلية ظاهرة للعيون المتفحصة، إلا رقعة منه كان يخفيها إطارمن الخشب مثقل بما يتدلى منه من فطائر دقيق الشوفان المجففة وأفخاذ البقر والضأن والخنازير المقددة. وكانت على الجدار فوق المدفأة بنادق عتيقة مختلفة الأشكال قبيحة المنظر، ومسدسان هائلان داخل جرابين من الجلد، كما رصت على رف المدفأة ثلاث علب ذات رسوم زاهية صاخبة وضعت على سبيل الزينة.. وكانت أرضية القاعة من حجر أبيض مصقول، والمقاعد من طراز عتيق ذات طلاء أخضر وظهور مرتفعة مستقيمة، إلا مقعدًا او اثنين من المقاعد السوداء الثقيلة كانا فى ركن معتم من القاعة.. وكانت تقبع فى فجوة تحت (البوفيه) كلبة رائعة الخلقة من كلاب الصيد، ذات لون أحمر قاتم، حديثة عهد بولادة فوج من صغارها، وقد أحاط بها سرب من الجراء الصغيرة التى لا تكف عن الصراخ، على حين كان عدد آخر من الكلاب، رابضًا فى بعض منافذ الحجرة الأخرى.

ولم يكن المسكن والأثاث يلوحان على شىء من الغرابة أو الشذوذ لو أنهما كانا لريفى بسيط من أهل الشمال، من أولئك الرجال ذوي الأسارير التى تنضح بقوة الشكيمة. والسيقان القوية التى تنبض عضلاتها فى السراويل المحكمة الضيقة عند الركبتين، و(الطزالق) الطويلة اللامعة.. ولو أنك تجولت فى دائرة محيطها خمسة أميال أو ستة بين هذه التلال، فى الوقت الملائم بعد العشاء، لوجدت الكثيرين من أمثال هذا الانسان، وقد جلس كل منهم فى مقعده المريح ذى المسندين، وقدح الجعة يفور أمامه بالزبد والحبب فوق مائدة مستديرة.. أما مستر هيثكليف فإن التباين العجيب كان واضحًا بينه وبين

مسكنه وطراز معيشته: فهو فى هيئته داكن البشرة أشبه بالغجر، بينما هو فى ثيابه ومسلكه سيد مهذب لا يختلف عن سراة الريف ونبلائه. وقد يكون قليل الاحتفال بهندامه إلى حد ما، ولكنه، مع ذلك الإهمال فى العناية بنفسه، لا يبدو شاذًا أو منفرًا للأبصار، إذ كان ممشوق القوام رشيقًا.. وهو إلى ذلك يبدو مكتئبًا ضيق الصدر دومًا، وربما خاله بعض الناس على قدر من الكبر والخيلاء السوقية التى تنم عن ضعة الأصل، ولكن شعورًا من الميل إليه انبعث من أعماقى يحدثنى بأن الأمر لم يكن كذلك البتة، وأدركت بغريزتى أن تحفظه إنما ينبع من نفوره من إظهار عواطفه فى ضجيج وعجيج، ومن تبادل العواطف والمجاملات فى مظاهرات علنية!.. فهو يسدل على حبه وبغضائه ستارًا من الكتمان، كما يرى أن إبداء الحب أو البغضاء نحوه ضرب من القحة.. ولكن لا أحسبنى أعدو سريعًا نحو النتائج قبل الأوان، وأرانى أغدق عليه من صفاتى الشخصية فى سخاء، فقد تكون لدى مستر هيثكليف أسباب أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التى لدى، عندما يقبض يده ويخفيها فى طيات ثيابه حين يرى من يسعى إلى التعرف به.. ومالى لا أعترف بأن تكوينى يكاد يكون غريبًا غير مألوف؟.. لقد اعتادت أمى العزيزة أن تقول لى إننى لن يكون لى بيت مريح تسكن إليه نفسي. وقد ثبت لى فى الصيف الماضى أننى لا أستحق البتة أن يكون لى بيت وأسرة. فبينما كنت أستمتع بشهر من الطقس الجميل على شاطىء البحر، ألقت إلى المصادفة برفقة مخلوقة من أوفر خلق الله فتنة وسحرًا، وكانت تلوح فى ناظرى الهة معبودة طالما أنها لم تكن تعيرنى انتباهًا.. على أنى لم أصارحها بحبي بالكلمات قط، ومع ذلك فإن كانت للنظرات لغة مفهومة فلا بد أن أشد الناس غباء أدركوا أننى غارق فى حبها حتى أذنى!.. وقد شعرت الفتاة بعاطفتى أخيرًا، وراحت ترد لى النظرة بالنظرة وتنطق عيناها بأحلى وأشهى ما يتخيله إنسان.. فما الذي فعلته أنا؟.. إننى أعترف بذلك والخجل يملؤنى.. لقد انكمشت فى نفسي فى برود عجيب. أشبه بانكماش القوقعة!.. كنت لدى كل نظرة منها أزداد انزواءً وبرودًا وانكماشًا. حتى أخذت البريئة المسكينة تشك فى صدق حدسها. وتكذب ما أنبأتها فراستها وحواسها، وما لبثت أن غمرها الخجل والارتباك لخطئها المزعوم، فأغرت أمها بالرحيل عن المكان!.. وهكذا وصمنى هذا التحول الغريب في مسلكى بصفة الرجل المجرد عن المشاعر الذي يتعمد القسوة ليحطم قلوب العذارى، وأنا وحدي الذي أعلم كم كنت مظلومًا فى هذه السمعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واتخذت مجلسى عند طرف المدفأة قبالة المقعد الذي كان مضيفى يتقدم نحوه، وأردت أن أقطع فترة الصمت الذي ساد بيننا لحظة، فحاولت أن أربت على الكلبة الأم التى كانت قد فارقت صغارها وأتت تتشمم أقدامى من الخلف فى ضراوة، وقد قوست شفتها إلى أعلى وكشفت عن أنياب بيضاء يسيل منها اللعاب اشتهاء لشىء تنشبها فيه!.. ولكن مداعبتى لم تلق منها قبولًا، وإنما أثارت زمجرة طويلة مخيفة ما إن انبعثت من حلقها حتى تلتها زمجرة أخرى من مستر هيثكليف الذي ركلها ركلة شديدة وهو يقول لى:

- خير لك أن تدع الكلبة وشأنها، فإنها لم تعتد أن نفسدها بالتدليل، كما أننا لا نقتنيها لتكون مسلاة لنا..



حاولت أن أربت على الكلبة الأم التي كانت قد فارقت
صغارها وأتت تتشمم أقدامي من الخلف في ضراوة..

ثم مضى فى خطوات سريعة نحو باب جانبى وهو يصيح من جديد: جوزيف!.. فغمغم جوزيف من أعماق القبو بألفاظ غير مفهومة، ولكنه لم يبد ميلًا إلى الصعود، فاندفع سيده يهبط إلى القبو خلفه، وتركنى وجهًا لوجه مع الكلبة الخبيثة، وقد انضم إليها اثنان من كلاب الرعاة الخشنة الشعر البشعة المنظر، شاركاها فى فرض رقابة دقيقة على حركاتى.. وإذ كنت لا أتوق إلى الاتصال من قرب أو من بعد بأنياب هذه الطغمة ومخالبها، فقد جلست ساكنًا بلا حراك. غير أننى وقد مللت السكوت وخيل إلى أن الكلاب لا تفهم الإهانات الضمنية، عكفت - لسوء الحظ – على تحريك وجهي حركات ساخرة من (الثلاثى الأثيم).. وكأنما أثار (السيدة) شىء ما فى محياى، فإذا بها تنقض على ركبتى فجأة وقد تملكها غضب شديد.. ودفعتها إلى الخلف دفعة قوية، وأسرعت أضع المائدة حائلًا بينى وبينها، غير أن هذا المسلك أثار (الخلية) بأسرها ضدى، فإذا بستة من الأعداء ذوات الأربع، من جميع الأحجام والأعمار، تتدفق إلى ميدان المعركة من أوكار خفية، وإذا بى أحس بأعقابى وأطراف سترتى هدفًا لهجوم المعتدين.. فتناولت محرك النار من المدفاة، ورحت أدفع به عنى كبار المحاربين بقدر ما وسعنى من جهد وحيلة، غير أنى اضطررت فى الوقت نفسه إلى الصياح عاليًا فى طلب النجدة من بعض سكان المنزل ليعيد الأمن والسلام إلى الحجرة!

وصعد مستر هيثكليف وخادمه سلم القبو فى تثاقل وقد لاح عليهما الغضب والحنق - ولست أظنهما قد أسرعا فى خطوهما ثانية واحدة عما ألفاه - برغم أن منطقة المدفأة كانت مسرحًا لعاصفة عاتية من الزمجرة والنباح وصيحات الغضب!.. ولكن أحد سكان المنزل كان - لحسن حظي - أسرع منهما إلى المبادرة بنجدتى، فقد اندفعت نحونا سيدة قوية البنية ذات ساعدين عاريين وثوب مشمر عند الوسط، ووجنات متوردة من لفحات النار، ومضت تفرق بينى وبين أعدائى وهي تستخدم مقلاة في يدها تلوح بها؛ ولسانًا بليغًا كان له أثره الحاسم فى وقف العدوان، إذ هدأت الزوبعة فجأة كأنما مستها عصا ساحر بارع!.. وكانت السيدة ما تزال تلهث كأمواج البحر حين تهب عليها عاصفة عاتية، عندما دخل سيدها إلى المسرح، سألنى وهو يحدجنى بنظرة سخط لم يكن فى وسعى أن أحتملها بعد هذه المعاملة الجافية:

- ماذا حدث بحق الشيطان؟

فأجبته صاخبًا: (بحق الشيطان فعلًا يا مستر هيثكليف! فإن قطيعًا من الخنازير تملكته الشياطين لا يؤوى فى جوفه من الأرواح الشريرة ما تؤويه حيواناتك هذه يا سيدي!.. إنك كمن يترك شخصًا غريبًا بين فصيلة من النمور..!)

فقال وهو يضع الزجاجة أمامى، ويعيد المائدة إلى مكانها:

- انها لا تتحرش بالأشخاص الذين لا يمسون شيئًا.. والكلاب إذا كانت يقظة ساهرة إنما تؤدى واجبها المفروض.. هل لك فى كأس من النبيذ؟

- كلا وشكرًا..

- إنها لم تعضك، أليس كذلك؟

- لو أنها فعلت لكنت قد تركت أثرًا منى لا يزول على الفاعل الخبيث!

فلانت أسارير مستر هيثكليف فيما يشبه ابتسامة عابرة وقال:

- هيا.. هيا.. لقد استبد بك الانفعال يا مستر لوكوود، فخذ قليلًا من النبيذ.. والحق أن الضيوف فى هذه الدار نادرون، وهم من القلة بحيث لا نعرف، أنا والكلاب التى قنيتها،

كيف نستقبلهم.. فى صحتك ياسيدى!

فانحيت أمامه أرد له التحية، ثم شربت نخبه، وقد بدأت أتبين مبلغ السخف فى أن أجلس متجهمًا عبوسًا بسبب سوء مسلك حفنة من الكلاب الأوغاد. وفضلًا عن ذلك كرهت أن أتيح لمضيفى المزيد من التسلية على حسابى بعد أن اتجهت سخريته إلى هذه الوجهة.. ولعله رأى بفطنته أن من الحمق أن يُغضب مستأجرًا طيبًا، فإنه أطلق نفسه على سجيتها وانطلق يتحدث إلىّ فى أسلوبه المقتضب، عن الموضوع الذي خاله مشوقًا لى، وهو الحديث عن مزايا الدار التى استأجرتها لأعتكف فيها وأستجم. وعما قد يكون فيها من مساوئ.. ولقد وجدته جم الذكاء بارع الحديث، يجيد معالجة المواضيع التى طرقناها، حتى بلغت الجرأة - قبيل انصرافى - حدًّا جعلنى أندفع فأعده بزيارة أخرى فى اليوم التالى.. وما من ريب فى أنه لم يكن راغبًا فى المزيد من تطفلى عليه، ولكنى سوف أذهب لزيارته برغم ذلك، فمن المذهل حقًّا ان أحس بنفسى رجلًا اجتماعيًّا يحب الاختلاط ومعاشرة الناس، بالمقارنة به!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثانى

كان عصر الأمس قارس البرد كثيف الضباب، فأحسست ميلًا إلى قضاء الأمسية بجوار المدفأة فى مكتبى، بدلًا من خوض الوحول والأحراش إلى (مرتفعات ويذرنج).. فلما فرغت من تناول غذائى (ملحوظة: إننى أتغدى هنا بين الثانية عشرة والواحدة، إذ أن مدبرة المنزل - وهي سيدة فى منتصف العمر، تسلمتها مع البيت كأنها بعض أثاثه الثابت! - لم تستطع، أو لم تشأ، أن تفهم رغبتى فى تناوله فى الخامسة).. صعدت الدرج متثاقلًا إلى الطابق العلوي، تتراوحنى هده النية المتكاسلة، ثم خطوت إلى حجرتى، ففوجئت بفتاة من الخدم تبرك أمام المدفأة وقد أحاطت بها الفرش ودلاء الفحم، محاولة إطفاء اللهب بأكوام من الرماد أثارت حولها غبارًا كثيفًا مروعًا.. فردنى هذا المنظر على أعقابى، وأسرعت بتناول قبعتى، وما لبثت بعد مسيرة أربعة أميال أن بلغت بوابة حديقة (هيثكليف) فى اللحظة المناسبة بحيث نجوت من ندف الثلج الذي بدأ ينهمر فيملأ الجو بما يشبه الريش المتطاير..

وكانت الأرض، عند قمة التل الكئيبة الباردة، صلبة يغطيها جليد أسود، بينما كان البرد يبعث القشعريرة فى كل جارحة من بدنى.. واستعصت علىّ السلسلة ولم أستطع نزعها، فتسلقت البوابة وانطلقت أعدو فوق الممر المرصوف بالبلاط، والذي تتاخمه من الجانبين شجيرات عنب الديب المتناثرة بغير نظام أو ترتيب.. فلما بلغت الباب رحت أطرقه، وما من مجيب، حتى آلمتنى مفاصل أصابعى، وكان الجواب الوحيد الذي تلقيته من داخل المنزل هو نباح الكلاب وزمجرتها..!

وجعلت أقول فى نفسي ساخطًا: (لعنة الله عليكم أيها الأنذال المناكيد سكان هذا المنزل!.. والله إنكم لتستحقون النفى الأبدى عن أمثالكم من البشر جزاء جلافتكم وسوء لقياكم للضيوف.. إننى، على الأقل، ما كنت لأدع بابى موصدًا فى رائعة النهار، ولكنى لن أبالي وسوف أدخل المنزل على كل حال!)

وإذ استقر عزمى على ذلك، أمسكت بسقاطة الباب ورحت أهزها فى قوة وعنف، فإذا بجوزيف ذى السحنة الكئيبة يطل برأسه من كوة مستديرة فى مخزن الغلال، ويصيح بى:

- ماذا تريد؟.. إن السيد هناك فى الحقل، وعليك أن تنعطف عند نهاية الممر إذا أردت أن تتحدث اليه..

فهتفت أجيبه:

- ألا يوجد فى المنزل من يفتح لى الباب؟

- لا يوجد سوى السيدة، ولن تفتح لك ولو مكثت تطرق الباب حتى الليل!

- لماذا؟.. ألا يمكنك أن تخبرها من أكون يا جوزيف؟

- محال أن أفعل، فلا شأن لى بهذا..

وما لبث رأس الوغد أن توارى داخل الكوة!

وبدأ الثلج ينهمر غزيرًا كثيفًا، فأمسكت بمقبض الباب لأشرع فى محاولة أخرى، عندما أقبل من الفناء خلفي شاب فى مقتبل العمر، لا يرتدى معطفًا، ويحعل فوق كتفه مذراة للدراس، فصاح بى أن أتبعه.. وبعد أن اجتزنا حجرة للغسيل ومررنا بساحة مرصوفة تحوي مخزن فحم، ومضخة مياه، وبرج حمام، وصلنا أخيرًا إلى القاعة الفسيحة الدافئة التى استقبلت

فيها أول مرة. وكانت تشع بهاء وبهجة في وهج النار العظيمة المستعرة فى المدفأة، والتى تندلع من كتل الفحم وشرائح الحطب وأوراق الشجر الجافة.. وشد ما سررت إذ لمحت بجوار المائدة - التى كانت محملة بالكثير من الطعام المعد للعشاء - تلك السيدة التى ذكرها جوزيف، فإذا بى أرى مخلوقة لم يخطر ببالى قط أننى ملاقيها فى هذا المكان.. وانحنيت أمامها محييًا، وانتظرت أن تدعونى للجلوس، إلا أنها راحت تتطلع إلى وقد استندت إلى ظهر مقعدها، وظلت جامدة فى مكانها لا تريم ولا تنبس ببنت شفة!.. فقلت:

- يا له من جو فظيع!.. أخشى يا مسز هيثكليف أن يكون الباب قد حمل عواقب إهمال خدمكم وتراخيهم، فقد لقيت عناء شديدًا فى إسماعهم صوت طرقاتى...

ولكنها لم تفتح فمها بكلمة. كنت أنظر اليها متفرسًا، فكانت تحدجنى بأنظارها دون أن تطرف عيناها!.. ومهما يكن من أمر فإنها ظلت تحملق فى بنظرات ثابتة باردة خالية من أى معنى أو اكتراث، حتى انتابنى الضيق والحرج..

وعندئذ قال الشاب فى غلظة: (اجلس.. سوف يحضر عما قليل..).

فأطعته وجلست صامتًا.. ثم تنحنحت وحاولت أن أنادى (جونو) الشريرة التى تنازلت فى هذا اللقاء الثانى وهزت طرف ذيلها هزات يسيرة دليلًا على سابق تعارفنا.. وما لبثت أن قلت:

- هذه كلبة جميلة حقًا!.. هل تنوين التخلى عن الصغار يا سيدتى؟

فقالت ربة الدار الجميلة فى اقتضاب: (إنها ليست ملكى).. ولكنها نطقت بهذه العبارة فى لهجة أشد تحفظًا ونفورًا مما كان يمكن أن يجيبنى بها هيثكليف نفسه!.. ومع ذلك فقد استطردت أقول وقد تحولت نحو كومة تقبع ف مكان معتم وتكتظ بما يشبه القطط:

- آه!.. إن حيواناتك الأليفة المفضلة بين هذه إذن؟

فأجابتنى فى ازدراء: (ما أعجبها نخبة من الحيوانات المدللة!) - فقد شاء سوء طالعى أن يكون ما أشرت إليه كومة من الأرانب الميتة! - وارتبكت، فتنحنحت ثانية واقتربت بمقعدى من النار، ثم عدت أكرر تعليقاتى على سوء الحالة الجوية فى تلك الأمسية، فقالت:

- ما كان ينبغى أن تغادر منزلك..

ثم نهضت ومشت إلى رف المدفأة وهي تهم بتناول اثنتين من العلب الملونة الموضوعة فوقه.. وكان مجلسها محجوبًا عن الضوء، أما الآن فقد استطعت أن أرى وجهها وقوامها فى جلاء. كانت نحيلة الجسم لا يكاد يبدو عليها أنها جاوزت سن المراهقة، كان قوامها فاتنًا، أما وجهها فكان أبدع وأرق وجه أتيح لى أن أراه من قبل: دقيق الملامح، ناصع البياض، وكانت خصلات شعرها الشبيهة بلون سنابل القمح، أو بالأحرى الذهبية اللون، تنسدل على عنقها البض الجميل.. وكانت لها عينان لو لانت نظراتهما قليلًا لغدا لهما سحر لا يقاوم!.. ومن حظ قلبى السريع التأثر والحساسية أن العاطفة الوحيدة التى كات تطل منهما كانت تتذبذب بين الزراية والاستخفاف وقلة الاكتراث، وبين نوع من اليأس والقنوط كان وجوده فيهما أمرًا بالغ الغرابة والشذوذ!

كانت العلب بعيدة نوعًا عن متناول يدها، فبدرت منى حركة لمعاونتها، وإذا بها تستدير نحوي فى وحشية كما يفعل البخيل الشحيح إذا هم أحد بمعاونته فى إحصاء ذهبه، وهي تندفع قائلة:

- لست فى حاجة لمعونتك، ففى وسعى أن آخذها بنفسى..

فأسرعت أقول لها: (أرجو المعذرة..).

وأخذت تربط مرولة فوق ثوبها الأسود الأنيق، ثم أمسكت بملعقة ملأى بأوراق الشاى كانت تهم بوضعها فى الإبريق، غير أنها توقفت لتسألنى: (هل دعيت لتناول الشاى؟).

فأجبتها: (يسرنى أن أنال قدحًا عنه..).

فعادت تقول: (ولكن هل دعيت؟).

عندئذ قلت وأنا أحاول الابتسام: (كلا.. ولكنك صاحبة الشأن فى دعوتى). فطوحت بالشاى والملعقة معًا إلى داخل العربة ثانية، وعادت إلى مقعدها فى نفور واشمئزاز، وقد تغضن جبينها، واختلجت شفتها السفلى القانية كطفل يهم بالبكاء!

وفى الوقت نفسه كان الشاب قد ألقى على كتفيه سترة رثة بادية القدم، ثم وقف بقامته المنتصبة أمام النار المتأججة، وهو يحدجنى من علٍ من ركنى عينيه بنظرة تفيض بالحقد والضغينة، كأن بيننا ثأرًا قاتلًا لم ينتقم له بعد!.. وبدأت أتساءل إن كان من الخدم أو السادة، فقد كان ثوبه وحديثه كلاهما سواء فى الخشونة والغلظة، كما كان خاليًا تمامًا من مظاهر الرقى التى تبدو على مستر ومسز هيثكليف.. وكان شعره الأسمر كثيفًا مجعدًا خشنًا غيرمنسق، شعر فوديه1 يتدلى فوق صدغيه كالدببة!.. أما يداه فكانتا سمراوين خشنتين أشبه بأيدى الفعلة والعمال.. ومع ذلك كان مسلكه يتسم بالحرية والانطلاق، بل بالتعالى والأنفة، لا يُظهر شيئًا من ذلك الاحترام والاهتمام اللذين يبديهما الخدم نحو سيدة الدار.. وإذ كنت لا أملك دليلًا واحدًا على حقيقة مركزه، فقد رأيت من الأفضل أن أكف عن الالتفات إلى مسلكه العجيب.. وما لبث مقدم هيثكليف، بعد دقائق خمس، أن خلصنى من حيرتى وارتباكى إلى حد ما، فقلت له وأنا أصطنع الجذل لرؤيته:

- هأنت ذا ترى يا سيدى أننى حضرت وفاء بوعدى.. ولكنى أخشى أن يحبسنى هذا الجو الصاخب فى منزلك نصف ساعة، إذا وسعنى رحابك هذه الفترة..

فأجاب وهو ينفض رقائق الثلج البيضاء عن ثيابه:

- نصف ساعة؟.. إنى لأعجب كيف تختار ذروة العاصفة الثلجية للتجول خارج منزلك خلالها!.. هل تعلم أنك إنما تخاطر بتعريض نفسك للضياع وسط المستنقعات؟.. إن الذين ألفوا هذه البرارى غالبًا ما يضلون الطريق فى ليلة كهذه، وفى وسعى أن أوكد لك بأنه لا ينتظر أن تتغير حالة الجو عن قريب..

- ربما استطعت أن آخذ دليلًا من بين غلمانك، على أن يبقى فى (الجرانج) حتى الصباح.. فهل يمكنك أن تستغنى عن أحدهم؟

- كلا.. لا يمكننى ذلك.

- آه.. حقًّا؟.. حسنًا لا بد لى إذن من أن أعتمد على فطنتى..

- هراء!

وفى تلك اللحظة صاح ذو السترة البالية وهو يحول نظراته الثاقبة الضارية عنى إلى السيدة الشابة: (ألا تريدين إعداد الشاى؟)

ولكننا قالت تسأل هيثكليف عنى: (هل سيتناول «هو» شيئًا منه؟)

- أسرعى باعداده حالًا!

وقد انثالت هذه الكلمات من فمه فى وحشية منقطعة النظير بحيث انتفضت مجفلًا.. وكانت اللهجة التى قيلت بها تنم عن خلق حاد وصدر ضيق، حتى لم أعد ميالًا إلى وصف هيثكليف بأنه شخص عظيم كما خلته فى بادئ الأمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فلما تم اعداد المائدة دعانى إليها فى جفاء بقوله: (هيا يا سيدي.. قرب مقعدك إلى الأمام). وهكذا اجتمعنا جميعًا حول المائدة، بما فى ذلك هذا الشباب الفظ الخشن، وأخذنا نلوك طعامنا وقد ران علينا صمت كئيب..

وظننت من واجبى أن أبدد تلك السحابة التى تخيم فوقنا، ما دمت السبب فى انعقادها فى الجو - فما أحسب من المعقول أن يجلسوا كل يوم على هذه الحال من العبوس والعزوف عن الكلام.. كذلك من المحال، مهما يكن من حدة طباعهم وسوء خلقهم، أن يكون ذلك التجهم الشامل هو طابع أساريرهم المألوف - وهكذا بدأت أقول فى الفترة بين ارتشاف قدح من الشاى واستقبال قدح آخر:

- ما أغرب ما تطبعه العادة من أثر فى أذواقنا وأفكارنا!.. إن الكثيرين لا يمكنهم أن يتصوروا إمكان وجود السعادة فى حياة تُقضى على هذا النمط من النفى المطلق عن العالم، كالحياة التى تقضيها يا مستر هيثكليف.. ومع ذلك أستطيع القول بأنك وقد أحاطت بك أسرتك، ومعك زوجتك المحبوبة كالملاك الحارس على بيتك وقلبك..

فقاطعنى قائلًا، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية ساخرة:

زوجتى المحبوبة؟.. أين هى.. زوجتى المحبوبة؟ -

!أعنى مسز هيثكليف.. زوجتك -

حسنًا.. نعم.. آه!. لعلك تقصد أن روحها قد تولت مهام الملاك المشرف على (مرتفعات - ويذرنج)، وحامى أقداره ومصائره حتى بعد أن فني جسدها.. هل هذا ما تعنيه؟

وإذ ألفيتنى قد ترديت فى زلة حمقاء، رحت أحاول أن أصلحها.. وكان ينبغى لى أن ألحظ التفاوت العظيم فى السن بين الاثنين، بما لا يجعلهما خليقين أن يكونا رجلًا وزوجته. كان أحدهما فى نحو الأربعين، وهي سن النضج العقلى التى قلما ينتاب الرجل فيها هوس الزواج عن حب من الفتيات الصغيرات – فإننا إنما نحتفظ بهذه الأحلام لتكون عزاءنا وسلوانا فى سن الشيخوخة الأخيرة! - أما الأخرى فلا يبدو أنها بلغت السابعة عشرة!

وعندئذ ومضت الحقيقة أمام خاطرى فقلت لنفسى: (لعل زوجها هو هذا المهرج الذي يجلس عند مرفقى، ويشرب نصيبه من الشاى فى طست، ويأكل خبزه دون أن يغسل يديه!.. إنه هيثكليف الصغير ولا ريب، وهذه عاقبة من تدفن نفسها حية!.. قد ألقت بنفسها بين يدي هذا الحيوان الشرس لمجرد أنها تجهل وجود أشخاص خيراً منه بكثير.. يا لرحمة السماء!..لابد لى من أن أكون على حذر مما قد أسببه لها من ندم على سوء اختيارها!).. وربما لاح هذا الخاطر الأخير مليئًا بالغرور والخيلاء من جانبى، ولكن الواقع أنه لم يكن من ذلك فى شئ، فقد روعنى من جارى أنه أدنى إلى أن يكون منفرًا حقًا، تعافه النفس.. أما أنا فكنت أعلم، من تجاربى الماضية، أننى أدنى إلى أن أكون ساحرًا جذابًا!!

وفى تلك اللحظة كان هيثكليف يستطرد قائلًا:

- إن مسز هيثكليف هى زوجة ابني..

فكان فى قوله ما طابق حدسى وتخمينى.. ولكنه إذ قال ذلك، تحول نحوها يرمقها بنظرة غريبة تفيض بالحقد والكراهية، إلا أن تكون عضلات وجهه قد خلقت بالغة الشذوذ والانحراف بحيث لا تعبر – كسائر الناس – عما يعتمل فى نفسه! وعندئذ تحولت إلى جارى الفتى قائلًا فى خفة ونزق:

- آه!.. طبعًا، لقد فهمت الآن، فأنت المالك المحظوظ لهذه الحورية الساحرة!

ولكن تلك الزلة الثانية كانت أدهى وأمر!.. فقد رأيت وجه الفتى يحتقن بالدماء، ورأيته يستجمع قبضته وينم مظهره عن النية المبيتة للانقضاض علىّ.. غير أنه ما لبث أن استعاد سيطرته على مشاعره وانفثأت عاصفة غضبه فى سيل من اللعنة القاسية التى وجهها لشخصى، فحرصت على التظاهر بعدم الالتفات إليها.. بينما قال مضيفى:

- لم تكن موفقًا فى ظنونك يا سيدي، فإن أحدًا منا لم يوهب حظ امتلاك حوريتك الساحرة.. لقد مات زوجها، وسبق أن قلت إنها زوجة ابني..

- وهذا الشاب هو؟

- إنه ليس ابنى قطعًا..

وابتسم هيثكليف ثانية، كما لو كانت نسبة أبوة هذا الدب إليه ضربًا من المزاح الجرئ.. وفى الوقت نفسه كان الفتى يزمجر:

- إن اسمى هيرتون إيرنشو.. وأنصح لك أن تحترمه!

فأجبته: «إننى لم أبد نحوه شيئًا من عدم الاحترام).

وكنت أضحك فى سرى من تلك الخيلاء التى أعلن بها اسمه.. ورأيته يحدجنى بنظرة طويلة لم أعن بمبادلته إياها طويلًا خشية أن يبعثنى الإغراء على صفعه، أو تنطلق منى قهقهة السخرية عالية مدوية..

وبدأت أشعر عن يقين بأن المكان يضيق بى فى محيط هذه العائلة البهيج!.. فقد طغت كآبة الجو النفسى للمكان على المباهج المادية المحيطة بى وجردتها من سحرها الدافئ الجميل، وعزمت على أن ألتزم الحذر فى الإقدام على زيارة هذا البيت مرة ثالثة..

وإذ كانت مهمة الأكل قد انتهى أمرها، ولم ينبس واحد منهم بكلمة فى حديث مما يتبادله الناس فى مثل هذه الاجتماعات، فقد اقتربت من النافذة لأتبين حالة الجو.. ويا لسوء ما رأيت!.. كانت ظلمة الليل قد أسدلت أستارها قبل الأوان، واختلطت معالم السماء والتلال فى دوامة واحدة رهيبة من الرياح الصاخبة والثلج الكثيف الخانق.. فلم أتمالك نفسي من الصياح:

- ما أحسبنى أستطيع العودة لمنزلى الآن بغير دليل، فالثلج يوشك أن يغمر الطرق ويخفى معالمها، وحتى لو ظلت مكشوفة، فإن الظلام من الحلكة بحيث لا أكاد أميز خطوة واحدة أمامى!

وكان هيثكليف يقول للشاب: (هيرتون.. عليك أن تسوق هذه الشياه الاثنتا عشرة إلى رواق المخزن، وتضع أمامها لوحًا من الخشب ليمنع تسربها منه.. فسوف يغمرها الجليد إذا بقيت فى الحظيرة طوال الليل..)

واستطردت أقول وقد تزايد انفعالى:

- ماذا ترانى فاعلًا الآن؟

ولم يجب أحد على سؤالى، فلما التفت خلفى لم أجد غير جوزيف وقد أتى يحمل دلوًا به عصيدة للكلاب، بينما كانت مسز هيثكليف منحنية فوق نار المدفأة وهي تتسلى بإشعال حزمة من عيدان الثقاب كانت قد سقطت من فوق رف الموقد عندما أعادت علبة الشاى إلى موضعها فوقه.. فلما وضع جوزيف حمله على الأرض أخذ يجيل فى الحجرة نظرات فاحصة ناقدة، وما لبث أن قال بصوته الحاد الذي يشبه الصرير:

- شد ما أعجب كيف يطيب لك الوقوف هنا فى بلادة وخمول بينما انصرف الجميع لشأنهم.. ولكنك طُبعت على السوء ولا فائدة من الكلام معك، فلن يجدي ذلك فى إصلاح مسلكك الذميم الذي سينتهي بك إلى الشيطان رأسًا كما سبقتك إليه أمك من قبل!

وخيل إلىّ لحظة أن هذه الدرة من درر الفصاحة كانت موجهة لشخصى، وإذ كنت قد بلغت من الحنق والسخط حدًّا لا يحتمل المزيد، فقد خطوت نحو الوغد العجوز وفى عزمى أن أركله بقدمى ركلة تلقى به إلى خارج الحجرة، لولا أن مسز هيثكليف ردتنى إلى الصواب عندما سمعتها تجيبه:

- ألا تخشى أيها الشيخ المنافق المفترى أن يصيبك مس من الشيطان كلما ذكرت اسمه على لسانك؟.. إننى أنذرك بأن تكف عن إثارتى وإلا رجوته أن يختطفك فيسدى إلى بذلك جميلًا خاصًّا!.. مهلًا.. انظر يا جوزيف..

وتناولت من فوق أحد الأرفف كتابًا طويلًا أسود اللون، ثم استطردت تقول: (سوف أريك كيف تقدمت فى دراسة السحر الأسود وممارسته شأوًا بعيدًا، لن ألبث أن أجعل منه عما قريب موطنًا سهلًا لى!.. إن البقرة الحمراء لم تمت بمحض الصدفة يا جوزيف، وآلام الروماتيزم التى تحل بك ليست من نفحات العناية الإلهية!)

فغمغم الشيخ لاهثًا: (آه.. الشريرة!. الشريرة!. اللهم نجنا من السوء!)

- كلا أيها الخبيث.. فأنت طريد رحمته!.. امش من هنا وإلا أصابك منى أذى جسيم.. سوف أصنع لكم جميعًا تماثيل من الشمع والصلصال، ومن يجرؤ منكم على تجاوز الحدود التى أرسمها فسوف.. لا، لن أقول ماذا سيحل به، ولكنكم سوف ترون.. اذهب.. امش من هنا، فهأنذا أسلط عليك نظراتى..

واصطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحقد والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين، وإذا بجوزيف يهرول خارجًا، وقد سرت فى بدنه رعدة فزع حقيقى، وهو يتمتم أثناء انصرافه بالصلوات والدعوات التى تتخللها كلمة (يا للشريرة!.. يا للشريرة!).. بينما كنت أغالب الضحك ظنًا منى بأن مسلكها ليس إلا نوعًا من المزاح الرهيب..



طعنت الساحرة الصغيرة نظراتٍ تفيض بالحقد والكراهية

ت بها عينيها الجميلتين، وإذا بجوزيف يهرول خارجًا..

فلما وجدت بعد ذلك أننا أصبحنا منفردين، حاولت أن أثير اهتمامها بما أنا فيه من كرب.. فقلت فى لهفة:

- أرجو أن تغفرى لى إزعاجك يا مسز هيثكليف، فإنى على يقين من أنك - وأنت صاحبة هذا الوجه الصبوح - لا يسعك إلا أن تكونى طيبة القلب عطوفًا.. فهلا أرشدتنى إلى بعض علامات الطريق حتى أستهديها السبيل إلى منزلى؟.. إننى الآن ليست لدى أية فكرة عن طريق الوصول إليه، أكثر مما يمكن أن يكون لديك عن طريق الوصول إلى لندن!

فأجابت وهي تتهاوى على أحد المقاعد ومعها شمعة موقدة وذلك الكتاب الطويل الأسود مفتوحًا:

- خذ الطريق الذي قدمت منه!.. هذه نصيحة موجزة ولكنها الوحيدة المجدية التى أستطيع أن أسديها إليك..

وإذا سمعت أننى وجدت ميتًا فى بركة ماء أو حفرة مليئة بالجليد، فهلا يهمس لك - ضميرك بأنك مسئولة عن ذلك إلى حد ما؟

وكيف ذلك؟.. ليس فى وسعى أن أرافقك بنفسى، وهم لن يسمحوا لى بالذهاب إلى نهاية - ..سور الحديقة

فهتفت قائلًا:

- أنت؟.. إنه ليسوؤنى أن أسألك اجتياز عتبة هذه الحجرة، مرضاة لى، فى مثل هذه الليلة.. إنما وددت أن تدلينى على الطريق لا أن ترينى إياها.. أو تقنعى مستر هيثكليف بأن يرسل معى دليلًا يرشدنى..

من تريد؟.. ليس هنا سواه وسوى إيرنشو وزيللا وجوزيف.. فأيّنا تريد أن يكون الدليل؟ -

- ألا يوجد غلمان فى المزرعة؟

- كلا، هذه جماعتنا كلها..

- ..إننى إذن مضطر إلى البقاء هنا

- ..هذا أمر يمكنك أن تتفق عليه مع مضيفك. أما أنا فلا شأن لى به

وعندئذ انبعث صوت هيثكليف الصارم من ناحية المطبخ وهو يصيح بى:

لعل لك فى ذلك درسًا يعلمك ألا تقوم بمزيد من تلك الجولات الطائشة بين هذه التلال. - أما عن بقائك هنا، فليس لدى معدات لإيواء الضيوف، وعليك أن تشاطر هيرتون أو جوزيف ..فراشه إذا فعلت

- ..يمكننى أن أنام على مقعد فى هذه الحجرة

فأجابنى الشقى البذىء اللسان:

- كلا.. كلا.. فالغريب غريب سواء أكان غنيًا أم فقيرًا.. وليس مما يوافقنى أن أبيح حرمات مسكنى لكائن من كان عندما أكون غافلًا عنه!

وبلغ صبرى نهايته بهذه الإهانة الصارخة، فصحت معربًا عن اشمئزازى، واندفعت أتخطاه نحو الفناء، مرتطمًا بإيرنشو فى عجلتى، فقد كان الظلام من الحلكة بحيث لم أتبين مسالك

الخروج.. وبينما كنت أهيم على وجهي فى الظلام سمعت (عينة) أخرى من المجاملات الرقيقة المهذبة التى يتبادلونها فيما بينهم!.. فقد لاح الشاب بادىء ذى بدء مظاهرًا لى متطوعًا لنصرتى، إذ قال:

- سوف أذهب معه حتى المتنزه..

فصاح به سيده - أو كيفما كانت الصلة التى بينهما – قائلًا:

- سوف تذهب معه إلى الجحيم!..ومن الذي سيعنى بالجياد؟

فغمغمت مسز هيثكليف فى رقة كانت أكثر مما توقعت:

- إن حياة رجل لهى أكثر أهمية من إهمال الجياد ليلة واحدة.. ولابد لشخص ما أن يذهب معه..

فتحول هيرتون نحوها قائلًا فى غلظة:

- لن أذهب بأمر منك!.. وإذا كنت تقيمين وزنًا له، فخير لك أن تصمتى..

فأجابته فى حدة:

- أرجو أن يراود شبحه أحلامك إذن!.. كما أرجو ألا يجد مستر هيثكليف مستأجرًا آخر للجرانج حتى يصبح ركامًا وأنقاضًا!

وعندئذ غمغم جوزيف، الذي كنت أتقدم ناحيته، قائلًا:

- اسمعوا!. اسمعوا!. إنها تصب اللعنات عليهم!

وكان يجلس على مرمى السمع منا، يحلب الأبقار فى ضوء فانوس يضعه على الأرض بجانبه، فبادرت إلى التقاطه دون استئذان أو إعتذار، واندفعت نحو أقرب باب جانبى فى السياج، وأنا أهتف بهم أننى سوف أعيده لهم فى الغد..

ولكن الشيخ المأفون انطلق يصيح وهو يطاردنى:

- يا سيدا!.. يا سيدي!.. لقد سرق الفانوس!.. هيا يا (جناشر)، هيا يا (وولف) اذهبا وراءه.. أمسكاه!

وهكذا ما كدت أهم بفتح الباب الصغير، حتى كان الوحشان ذوا الشعر الكثيف قد انقضا على عنقى، فألقيا بى إلى الأرض، وانطفأ المصباح، بينما انفجر هيثكليف وهيرتون معًا يقهقهان فى سرور وابتهاج جعل شعورى بالغضب والهوان يبلغ الذروة.. ومن حسن الحظ أن الوحشين كانا أكثر اهتمامًا بالزمجرة والنباح، ونشر مخالبهما، والتلويح بذيليهما، من تذوق لحمى وهما ينهشانى حيًا!.. ولكنهما ما كانا يطيقان منى حركة أو نهوضًا، فاضطررت برغمى أن أظلّ راقدًا فى مكانى حتى طاب لسادتهما الأشرار أن يخلصونى من هذا الكرب.. ووقفت أنتفض حنقًا وغيظًا، وقد طارت قبعتى، فرحت أهيب باللئام أن يدعونى أنصرف على الفور – وإلا تعرضوا لخطر جسيم إذا احتجزونى دقيقة واحدة أخرى! - كما انثالت من فمى عبارات الوعيد والتهديد، مختلطة غير متناسقة أشبه بالهذيان، منذرة إياهم بالانتقام الرهيب، فكانت بما تنطق به من حقد عميق غير ذى قرار. أشبه بأقوال الملك «لير) بطل شكسبير المعروف!

واشتد بى الانفعال، واستعر أوار الغضب، حتى سال الدم من أنفى غزيرًا، وما زال هيثكليف

يقهقه مسرورًا، وما زلت ماضيًا فى التعنيف والتأنيب.. ولست أدرى كيف كان يمكن أن ينتهي هذا المشهد، لولا تدخل شخص أكثر منى تعقلًا وأكثر من مضيفى رحمة وإحسانًا.. تلك هى زيللا - مدبرة المنزل البدينة - التى اندفعت أخيرًا من داخل الدار لتسأل عن سبب هذه الجلبة.. وكانت تظن أن بعضهم قد اعتدى علىّ اعتداءً عنيفًا، وإذ كانت لا تجرؤ على مهاجمة سيدها، فقد مضت تطلق «مدفعية) لسانها على الوغد الصغير، وهي تصرخ قائلة:

- الله الله يا مستر إيرنشو!.. إنى لأتساءل عما أنت بسبيله بعد ذلك!.. ترى هل بلغ بنا الأمر إلى حد ذبح الناس على عتبة دارنا؟.. أرى أن هذا المنزل لم يعد يصلح لى بعد الآن!..انظر إلى الفتى المسكين.. إنه يوشك على الاختناق.. تعال يا هذا.. تعال.. فما ينبغى أن تذهب وأنت على هذه الحال.. ادخل، وسوف أعالجك مما حل بك.. والآن، أمسك نفسك!

وإذ كانت تنطق بهذه الكلمات الأخيرة، أراقت فوق رأسى فجأة إناء من الماء المثلج، انحدر فوق ظهرى، ثم جذبتنى إلى داخل المطبخ.. وتبعنا مستر هيثكليف، وقد تلاشى مرحه العارض سريعًا، وحل محله ذلك التجهم المألوف..

ولما كنت فى أسوأ حالات المرض، وقد حل بى الدوار والإعياء، فقد اضطررت برغم أنفى إلى قبول البقاء تحت سقف منزله.. وأما هو فقد أمر (زيللا) بأن تعطينى كأسًا من البراندى، وما لبث أن توارى فى الحجرات الداخلية.. وفيما كانت المرأة الطيبة تشاطرنى الأسى على ما أصابنى من سوء الحال، وقد بدأت أنتعش قليلًا على أثر الشراب الذي قدمته لى تلبية لأمر سيدها، راحت تساعدنى فى الوصول فى الفراش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

أوصتنى زيللا، وهي تتقدمنى على الدرج، بأن أخفى ضوء الشمعة، وألا أحدث صوتًا يكشف أمري، إذ أن لسيدها رأيًا عجيبًا فى الحجرة التى كانت تود أن تضعنى فيها، ولا يرضى بالسماح لأي انسان بأن يدخلها.. وسألتها عن السبب فأجابتنى بأنها لا تعرف لذلك سببًا، فلم تقض فى هذا المنزل إلا عامًا أو عامين، كما أن أعمالهم الغريبة المحيرة كانت من الكثرة بحيث لا تستطيع ملاحقتها بالفضول وحب الاستطلاع!

وإذ كان الإعياء والحذر قد نالا منى بما لا يجعلنى أهلًا للفضول بدورى، فقد أغلقت باب الحجرة وتلفت حولى باحثًا عن الفراش.. كان أثاث الحجرة كله مؤلفًا من مقعد واحد وصوان صغير للثياب، ثم خزانة كبيرة من خشب البلوط ذات فتحات مربعة فى أعلاها أشبه بنوافذ العربات.. فاقتربت من تلك الخزانة وتطلّعت بداخلها فوجدتها نوعًا فريدًا من المضاجع العتيقة الطراز، أقيمت على نحو ملائم لتماشى ضرورة تخصيص حجرة لكل فرد من أفراد العائلة.. والواقع أنها كانت مخدعًا صغيرًا، كما كانت قاعدة النافذة التى تقع بداخلها تصلح كمنضدة.. ودفعت مصراع الباب المنزلق، ثم دخلت تلك المقصورة ومعى الشمعة المضيئة، ورددت الباب إلى مكانه فأغلقته.. وعندئذ فحسب شعرت بالطمأنينة والأمن من رقابة هيثكليف الصارمة، وكل إنسان سواه!

وكانت قاعدة النافذة، حيث وضعت شمعتى، تحوي فى ركن منها كومة من الكتب قليلة العدد تعلوها الرطوبة والعفن، كما كانت هى نفسها مغطاة بكتابة مختلفة تخدش طلاءها.. ومع ذلك فلم تكن تلك الكتابة إلا اسمًا واحدًا تكرر نقشه بمختلف أنواع الحروف، الكبيرة والصغيرة، فكنت أرى تارة (كاثرين إيرنشو) ثم يتغير إلى (كاثرين هيثكليف)، ويتغير من جديد إلى (كاثرين لينتون).. إلخ.

أسندت رأسى إلى النافذة فى تراخ وخمول، ومضيت أعيد هجاء اسم كاثرين إيرنشو - هيثكليف - لينتون، مرة تلو الأخرى، حتى غمضت عيناى.. ولكنى ما كدت أغفو خمس دقائق، حتى انبثق من الظلام وميض ساطع من الحروف البيضاء التى راحت تتراقص كالأشباح الوثابة وتملأ الجو باسم كاثرين على مختلف صوره وأشكاله!.. فجاهدت حتى أيقظت نفسي لأطرد ذلك الاسم الدخيل، وعندئذ تبينت أن ذبالة الشمعة قد مالت على أحد الكتب العتيقة وعطرت المكان برائحة الجلد المحترق!.. فسحقت طرف الفتيل بين أصابعى، وجلست مكروبًا مما أعانيه من البرد والغثيان، ناشرًا الكتاب المعطوب فوق ركبتى، فوجدته نسخة من التوراة طبعت بحروف صغيرة، تفوح منه رائحة العطن المروعة، ووجدت فى أوله صفحة بيضاءتحمل هذه العبارة:(هذا كتاب كاثرين إيرنشو)، ثم تاريخًا يصل إلى ربع قرن مضى.. وما لبثت أن تركته ورحت أتناول باقى الكتب واحدًا بعد الآخر، حتى فحصتها جميعًا، ووضح لى أن (كاثرين) هذه كانت تعنى بانتقاء مكتبتها، كما تبينت من رثاثة الكتب أن صاحبتها كانت تحسن استعمالها، وإن كان ذلك فى غير أغراض القراءة فحسب.. فقلما كان يخلو فصل من فصول هذا الكتاب أو ذاك من تعليقات - أو هذا ما يبدو على الأقل - كتبت بالمداد فى كل فراغ تركته المطبعة!.. وكان البعض لا يعدو جملًا غير متماسكة، بينما اتخذ البعض الآخر شكل مذكرات يومية منتظمة، كتبت بخط صبيانى سقيم.. وشد ما ابتهجت عندما رأيت فى الجزء العلوي من ورقة بيضاء خالية من الكتابة، (لعلها اعتبرت كنزًا ثمينًا عندما اكتشف أمرها أول مرة)، رسمًا كاريكاتوريًا بديعًا لصديقنا جوزيف، كان بالغ الاتقان برغم بدائيته!.. وكأنما أضرم ذلك نيران الاهتمام فى نفسي بكاثرين المجهولة، فبدأت على الفور أفك رموز خطها الهيروغليفى الباهت. وكان أول ما طالعنى منه:

) إنه يوم أحد فظيع!.. ولكم أود أن يعود أبى ثانية، فإن (هندلى) ينوب عنه على نحو بغيض.. ومسلكه نحو هيثكليف يزداد شناعة... لذا عزمت أنا وهيثكليف على التمرد.. وخطونا الخطوة الأولى هذا المساء. كان المطر ينهمر طوال اليوم غزيرًا، فلم نستطع الذهاب إلى الكنيسة، ومن ثم كان لا بد لجوزيف من أن يجمعنا للصلاة فى المخزن العلوي الصغير.. وبينما كان هندلى وزوجته يستمتعان بالجلوس فى الطابق السفلى أمام نار المدفأة المريحة - وأقسم أنهما كانا يفعلان أى شىء إلا القراءة فى الإنجيل - كنت أنا وهيثكليف وصبي الحقل المسكين نتلقى الأمر بحمل كتب الصلوات والصعود إلى المخزن العلوي حيث جلسنا صفًا واحدًا، فوق زكيبة ملأى بالقمح، ونحن نئن ونتأوه ونرتجف من البرد، وندعو الله أن تمشى القشعريرة فى بدن جوزيف أيضًا لعله يوجز فى العظة التى سيلقيها على مسامعنا.. ولكنه كان أملًا خائبًا!.. فقد دام القداس ثلاث ساعات كاملة.. ومع ذلك كان أخى من الصفاقة بحيث صاح متعجبًا، وهو يرانا نهبط الدرج: (ماذا؟.. هل انتهت الصلاة بهذه السرعة؟)

(وكان مباحًا لنا عادة، فيما مضى، أن نقضي أمسيات أيام الآحاد فى اللعب، على شرط ألا نثير جلبة أو ضوضاء.. أما الآن فالضحكة الخافتة تكفي لإرسال كل منا ليركع فى ركن قصي. وكان الطاغية يقول: (إنكما تنسيان أن لكما سيدًا هنا.. ولكنى سوف أسحق أول من تسول له نفسه أن يخرجنى عن طورى.. إننى مصر على الهدوء الشامل والصمت المطلق.. آه!. هل أنت الذي فعلت هذا يا ولد؟.. فرانسيس يا عزيزتى، شديه من شعره عند مرورك به فقد سمعته يطقطق أصابعه!..) فجذبته فرانسيس من شعره عن طيب خاطر، ثم مضت لتجلس على ركبتى زوجها، حيث مكثا ساعة يتضاحكان ويتبادلان القبل والأحاديث الفارغة كأنهما طفلان غريران، فى مداهنة سخيفة يخلق بنا أن نخجل منها!.. أما نحن فقد قبعنا فى فجوة (البوفيه)، ودبرنا لنفسينا جلسة مريحة بقدر ما سمحت به إمكانياتنا فى هذا المكان الضيق.. وكنت قد ربطت مرولتينا معًا، وعلقتهما ستارًا، عندما قدم جوزيف من جولته فى حظائر الماشية، فإذا به يجذب الستار فينتزعه من مكانه، ثم يلطمنى ويقول فى صوت كنقيق الضفادع: (إن السيد لم تجف دماؤه فى قبره بعد، ولم ينقض يوم الأحد المقدس، وما زال صوت تلاوة الإنجيل فى آذانكما، ومع ذلك تجسران على اللعب والضحك؟.. العار لكما واللعنة عليكما!.. اجلسا فى سكون أيها الطفلان الفاسدان، فهناك كتب طيبة تكفيكما للقراءة إذا أردتما.. اجلسا خاشعين وفكرا فى صلاح روحيكما الشريرتين!)

(وإذ قال ذاك أرغمنا على الجلوس فى وضع يتيح لنا أن نتلقى شعاعًا خافتًا من وهج المدفأة البعيدة يكفي لأن نتبين سطور الكتب السخيفة التى ألقى بها إلينا.. ولم أستطع احتمال هذا التكليف. فأمسكت بالكتاب القذر الذي كان من نصيبى وطرحت به إلى وجار الكلب مقسمة على أننى أمقت الكتب الطيبة!.. أما هيثكليف فقد رمى بكتابه إلى نفس المكان ولكن بركلة من قدمه.. وعندئذ انقضت الصاعقة، فقد صاح قسيسنا الورع:

- يا سيد.. يا مستر هندلى!. تعال إلى هنا حالًا!.. لقد مزقت مس كاثى ظهر غلاف (درع الخلاص).. ووضع هيثكليف قدمه على الجزء الأول من (الطريق الفسيحة نحو الدمار!).. إنه لعار كبير أن تتركهما يمعنان فى هذا المسلك الدميم.. آه!. إن الرجل العجوز ما كان ليدعهما دون علقة ساخنة... ولكنه ذهب!

) فأسرع إلينا هندلى من فردوسه بجوار المدفأة، وأمسك أحدنا من قفاه، والآخر من ذراعه، ثم قذف بنا إلى المطبخ الخلفى حيث أكد لنا جوزيف تأكيدًا قاطعًا بأن الشيطان سوف يأتى فى طلبنا.. وإذ ارتاح بالنا إلى ذلك، مضى كل منا إلى أحد الأركان وجلسنا ننتظر مقدمه!.. أما أنا فقد أخذت هذا الكتاب ومحبرة كانت فوق رف فى المطبخ، وفتحت باب المنزل قليلًا ليسمح بدخول الضوء، وظللت أكتب نحو عشرين دقيقة.. وأما رفيقى فقد نفد

صبره واقترح أن نستولي على معطف المرأة التى تمخض الزبد، ونحتمى به من المطر ثم نمضي لنركض بين البرار ى - وهو اقتراح لطيف حقًّا، فلو حضر عندئذ العجوز ذو السحنة الكئيبة فربما اعتقد أن نبوءته قد تحققت - ولن نزداد بللًا او بردًا تحت المطر عما نحن عليه هنا..)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحسب أن كاثرين قد نفذت مشروعها. لأن العبارة التى تلت ذلك طرقت موضوعًا آخر.. ويبدو أنها كتبتها والدموع تنهمر من عينيها، قالت:

(ما كنت أحلم البتة أن هندلى سوف يجعلنى أبكى بمثل هذه الحرقة يومًا من الأيام!.. إن رأسى يؤلمنى ألمًا شديدًا حتى لا أكاد أطيق وضعه فوق الوسادة، ومع ذلك لا أستطيع أن أكف عن البكاء.. يا لهيثكليف المسكين!.. إن هندلى يصفه بالمتشرد، ولا يريد أن يدعه يجلس معنا أو يأكل معنا بعد الآن.. كذلك يقول إننى وهيثكليف لا ينبغى أن نلعب معًا، وينذر بطرده من المنزل إذا عصينا أوامره.. بل لقد راح يوجه اللوم لوالدنا (رباه! كيف يجرؤ على ذلك) لأنه أحسن معاملة هيثكليف، ثم اقسم بأنه يلزمه حده ويضعه فى الموضع اللائق به!).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأ النعاس يراود أجفانى، فهومت فوق صفحة الكتاب المعتمة، وسرح بصري من الكتابة المخطوطة إلى الحروف المطبوعة، فرأيت عنوانًا طُبع بالمداد الأحمر على سبيل الزخرفة، كان نصه: (سبعون فى سبعة[2]، وأول الواحد والسبعين الأولى!..عظة تقية ألقاها المحترم جابس براندرهام فى كنيسة جيمردون صو). وبينما كنت أكد عقلى، وأنا بين النوم واليقظة، لاستنتاج ما يمكن أن يعالجه جابس براندرهام فى موضوعه هذا، تهاويت على الفراش واستغرقت فى النوم.. ولكن واأسفاه!.. قد تآمرت علىّ آثار الشاى الردئ والخلق السيىء! وإلا فأى شىء آخر يمكن أن يجعلنى أقضي مثل هذه الليلة المروعة؟.. إننى لا أذكر البتة ليلة أخرى أستطيع مقارنتها بهذه، منذ أن أدركت معنى الاحساس بالالم والفزع..!

وقد بدأت الأحلام تطيف بى، حتى قبل أن أنقطع عن الشعور بالمكان الذي أرقد فيه.. فخيل إلىّ أن الصباح قد حل، وأننى خرجت منصرفًا إلى منزلى، ومعى جوزيف مرشدًا لى.. وكان الثلج يغمر طريقنا، عميقًا كثيفًا، فكنا نتخبط فى مسيرنا، عندما أخد رفيقى يضجرنى بلومه المتكرر لى إذ لم أحضر معى (عكاز الحاج)، قائلًا إننى لن أستطيع دخول الدار مالم يكن معى واحد منها، بينما كان فى الوقت نفسه يلوح فى زهو بهراوة ضخمة ذات رأس ثقيل، فهمت أنها هى التى يطلق عليها هذا الاسم.. وظللت لحظة أعدها سخافة بالغة منه أن يزعم احتياجى لمثل هذا السلاح حتى أستطيع دخول منزلى الخاص.. ما لبثت أن ومض فى فكرى خاطر جديد: إننى لست ذاهبًا إلى هناك، وإنما نحن نمضي إلى حيث نسمع السيد جابس براندرهام الشهير يلقى عظته: (سبعون فى سبعة)، وأن واحد منا - جوزيف، أو الواعظ أو أنا - قد يكون (أول الواحد والسبعين الأولى).. وأننا سوف يشهر بنا علانية، وتوقع علينا عقوبة الحرمان من الكنيسة..

ووصلنا إلى الكنيسة.. وكنت قد مررت بها فى اليقظة أثناء جولاتى بين البرارى، مرتين أو ثلاثًا.. وهي تقع فيما يشبه الكهف المرتفع، على مستشرف من الأرض، بين تلين، بالقرب من مستنقع يقال إن النفايات الرطبة التى تملؤه تفى بجميع أغراض التحنيط للجثث القليلة التى أودعت الأرض هناك!.. وقد ظل سقف الكنيسة قائمًا حتى الآن، ولكن لما كانت مخصصات القس لا تعدو عشرين جنيهًا فى العام. ومنزلًا من حجرتين ينذر الجدار الفاصل بينهما بتحويلهما عاجلًا إلى حجرة واحدة، فإن أحدًا من رجال الدين لم يعد يقبل القيام

بأعباء وظيفة القس لهذه الكنيسة، سيما وقد ذاع أمر تلك الحقيقة الواقعة، وهي أن قطيع رعيته يفضل أن يدعه يموت جوعًا على زيادة راتبه بنسًا واحدًا يدفعونه من جيوبهم!.. ومهما يكن من أمر، فقد كان الاجتماع الذي عقده جابس، فى الحلم، حافلًا بحشد من المستمعين الذين أرهفوا سمعهم له.. وبدأ يلقى عظته.. يا إلهي!.. أى قداس هذا؟.. لقد قسمه إلى أربعمائة وتسعين قسمًا، كل منها من الامتلاء بحيث يكفي خطبة منبرية عادية، وكل يناقش خطيئة مستقلة!.. ولست أدرى من أين أتى بكل هذا العدد من الخطايا؟.. كذلك كانت له طريقته الخاصة فى تفسير عبارته، فكان يبدو أن (الأخ) منا لابد أن يأثم عدة آثام مختلفة فى أية مناسبة.. وكانت كلها ذات طابع مفرط فى الغرابة، وكلها خطايا عجيبة لم تخطر لى على بال قط من قبل!

أواه!.. ما أشد الكلال الذي حل بى!.. فكم تلويت، وتثاءبت، وهومت، ثم انتعشت!.. وكم قرصت نفسي، ونخست جلدى، وفركت عينى، وكم نهضت ثم جلست، وكم وكزت جوزيف بمرفقى ليخبرنى بما إذا كان القس المحترم سوف يفرغ من عظته قط!.. ولكن كان قد قضى علىّ بأن أسمعها كلها.. وأخيرًا بلغ (أول الواحد والسبعين الأولى)!.. وعند هذه المصيبة الداهمة، هبط على الوحي فجأة وشعرت بدافع يحركنى للقيام واتهام جابس براندرهام باقتراف الخطيئة التى لا يحتاج المؤمن معها إلى غفران.. فهتفت أقول:

- لقد احتملت يا سيدي، وأنا أجلس بين هذه الجدران الأربعة فى وضع واحد لا يتغير، رؤوس مواضيع خطبتك الأربعمائة والتسعين، وغفرتها لك!.. كنت، سبعين مرة فى سبع، اختطف قبعتى وأوشك على الانصراف.. ولكنك كنت، سبعين مرة فى سبع، ترغمني - على نحو لا يصدقه العقل - على استعادة مقعدى.. والأربعمائة والتسعون الأولى عى أكثر مما نطيق.. أيها الأخوة الشهداء، عليكم به!.. جروه من منبره، واسحقوه سحقًا حتى تحولوه إلى ذرات، وحتى لا يعود المكان الذي طالما عرفه من قبل، يعرفه بعد ذلك..

وتمهل جابس لحظة وهو يحدجنى فى رصانة وقد اتكأ على وسادته، وما لبث أن صاح فجأة:

- أنت الرجل المنشود!.. لقد كنت، سبعين مرة فى سبع، تفغر فاك متثائبًا، فيتقلص وجهك.. ولكنى ظللت، سبعين مرة فى سبع، أراجع نفسي، وأتشاور مع روحى!.. انظروا.. هذا ضعف بشرى!.. وهو أيضًا مما يمكن غفرانه!.. لقد أتى أول الواحد والسبعين، أيها الأخوة، فهاكم نفذوا فيه العقاب المكتوب.. إنه شرف لا يناله إلا القديسون!

وعند هذه العبارة الختامية، اندفع الجمع كله محيطًا بى فى كتلة واحدة، وقد رفع كل منهم (عكاز الحاج) الذي يحمله.. وإذ كنت لا أحمل سلاحًا أرفعه دفاعًا عن نفسي، فقد بدأت أناضل جوزيف، الذي كان أقرب المهاجمين لى وأشدهم ضراوة، محاولًا انتزاع عكازه.. وفى غمرة هذا الحشد الزاخر، كانت الهراوات تتقارع معًا، وكانت اللطمات الموجهة إلىّ تهوى على رؤوس وجماجم أخرى!.. وما لبثت الكنيسة كلها أن أصبحت تردد صدى رنين الطرقات والطرقات المضادة، وأصبحت يد كل رجل مرفوعة على جاره.. أما براندرهام، الذي لم يرد البقاء عاطلًا، فقد تدفقت حميته فى وابل من الدقات العالية على ألواح منبره، كان لها دوى ورنين بحيث أدت فى النهاية، لفرط ارتياحى الصامت، إلى إيقاظى من النوم!.. وماذا كان ذلك الشىء الذي أوحى بهذه الضجة الهائلة؟.. ما الذي لعب دور جابس فى ذلك الشغب؟.. إنه لم يكن إلا غصنًا من شجرة شربين، كان يمس نافذتى كلما هبت الريح، فتقرع ثماره الجافة زجاج النافذة.. ورحت أصغى لحظة، بين الشك واليقين، حتى تحققت من سبب انزعاجى، فاستدرت فى الفراش وأغفيت من جديد.. وعندئذ بدأت أحلم ثانية، فكان حلمًا أشد سوءًا من سابقه!

فى هذه المرة رأيتنى أرقد فى خزانة البلوط، وأسمع فى وضوح زفيف الرياح وهطول

الثلوج، وأسمع كذلك غصن الشربين اللعين وهو يعود إلى معاكساته الصوتية السابقة، فكنت أنسبها إلى مصدرها الحقيقى.. لكنه أضجرنى كثيرًا إلى حد جعلنى أصمم على إسكاته ما استطعت.. وخيل إلىّ أننى نهضت من رقادى، وحاولت رفع مزلاج النافذة، فوجدت الخطاف مثبتًا فى الحلقة باللحام - وهي حالة لاحظتها فى يقظتى ونسيتها فى الحلم! - فغمغمت محنقًا: (لابد لى من إسكاته مع ذاك).. ثم دفعت قبضة يدي فى النافذة دفعة قوية اخترقت الزجاج، ومددت ذراعى إلى الخارج لأمسك بالغصن اللجوج، فإذا بأصابعى تطبق - بدلًا منه - على أصابع يد صغيرة باردة كالجليد!.. وأصابنى هذا الكابوس بفزع هائل غزير، وحاولت أن أجذب يدي إلى داخل النافذة، ولكن اليد الصغيرة تعلّقت بها فى قوة! وإذا بصوت يفيض بالحزن والألم يغمغم بما يشبه الأنين، قائلًا: (دعنى أدخل.. دعنى أدخل)، فقلت وأنا لا أكف عن النضال لتخليص يدي: (ومن أنت؟) فأجاب الصوت فى نبرات متهدجة: (كاثرين لينتون).. (لست أدرى لماذا فكرت فى اسم (لينتون) مع أننى قرأت اسم (إيرنشو) أكثر من لينتون عشرين مرة؟!). واستطرد الصوت الحزين يقول: (ها أنذا أعود إلى منزلى، وكنت قد ضللت طريقى بين البرارى والأحراش)، وبينما كان يقول ذلك تبينت وجه طفلة صغيرة، غير واضح المعالم تمامًا، يطلّ علىّ من خلال النافذة.. فأمدنى الفزع المروع بقسوة رهيبة، فإننى عندما وجدت محاولاتى لدفع هذا المخلوق الفظيع بعيدًا، غير مجدية. جذبت معصمه نحو حافة الزجاج المحطم ورحت أحكه ذهابًا وجيئة حتى انبثق الدم منه وتدفق على الفراش.. وكان ما يزال ينوح: (دعني أدخل)، وهو يتشبث بقبضته الباردة على أصابعى، فكاد الفزع يؤدى بى إلى الجنون، وأخيرًا قلت: (وكيف أستطيع؟.. حل عنى أولًا إذا شئت أن أدعك تدخل!).. وعندئذ تراخت الأصابع النحيلة. فأسرعت بسحب يدي إلى الداخل خلال الثغرة، وأخذت أكوم الكتب فى صف هرمي أمامها، ثم سددت أذنى لأحول دون بلوغ هذه التوسلات الأليمة إلى مسامعي.. وخيل إلى أننى مكثت أسدهما زهاء ربع ساعة، ومع ذلك ففى اللحظة التى رحت أصغى فيها ثانية، عادت صيحات الأنين الأليمة تتردد من جديد، فصحت قائلًا: (اذهبى لحالك، فلن أدعك تدخلين قط، ولو ظللت تتوسلين عشرين عامًا).. فقال الصوت الحزين: (إنها عشرون عامًا.. عشرون عامًا!.. لقد لبثت ضالة شريدة عشرين عامًا!..) وفى الوقت نفسه بدأت أسمع صرير احتكاك خافت فى الخارج. وأخذت كومة الكتب تترنح كأن يدًا تدفعها.. فحاولت أن أقفز من الفراش، لكننى عجزت عن تحريك جارحة فى جسدى، فأطلقت صيحة مدوية، وقد غمرنى فزع جنونى.. وسرعان ما تبينت، فى خزى وارتباك، أننى إنما أرسلت صيحة حقيقية، ليست من تصوير الخيال فى الحلم، إذ سمعت وقع أقدام مسرعة تقترب من باب الحجرة، وإذا بشخص يدفع الباب بيد قوية فيفتحه، بينما أخذ بصيص خافت من الضوء يلوح خلال الفتحات المربعة بأعلى الخزانة. وجلست فى الفراش، والرعدة ما تزال تسري فى بدنى، أجفف العرق المتصبب من جبيني.. وبدا التردد على الداخل، وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة كأنما يحدث نفسه، حتى قال أخيرًا فيما يشبه الهمس، وفى لهجة من لا يتوقع أن يسمع جوابًا: (هل من أحد هنا؟) وقدرت أن من الخير أن أعترف بوجودى، لأننى تبينت صوت هيثكليف ولهجته، وخشيت أن يمضي فى تفتيش الحجرة لو لبثت صامتًا.. وإذ استقر عزمى على ذلك، استدرت وفتحت باب الخزانة المنزلق..

ولن أنسى ما حييت ما أحدثته هذه الحركة من أثر!

وكان هيثكليف يقف بالقرب من المدخل، يرتدى قميصه وسراويله، ويحمل فى يده شمعة تتساقط قطراتها الذائبة على أصابعه، وقد شحب وجهه حتى غدا فى لون الجدار الأبيض القائم خلفه!.. وما إن انبعث صرير الخشب وأنا أفتح الباب، حتى أجفل مرتاعًا كأنما أصابته صدمة كهربائية، وطارت الشمعة من يده إلى مسافة بضعة أقدام، فبلغ من شدة اضطرابه أنه لم يستطع التقاطها إلا بصعوبة بالغة..

ووددت أن أجنبه هوان الظهور بمظهر الجبان الرعديد بعد ذلك، فهتفت قائلًا: (إنه ليس إلا ضيفك يا سيدي!. ومن سوء الحظ أننى صرخت أثناء نومي بسبب كابوس مخيف أصابنى.. وإنى آسف إذا كنت قد أزعجتك!)

فوضع مضيفى الشمعة على أحد المقاعد، بعد أن تبين استحالة حملها فى يده ثابتة، وبدأ يقول: (يا إلهي!.. أخزاك الله يا مستر لوكوود!.. ألا ليتك كنت فى..)

وكان يغرس أظافره فى راحتيه، ويشدد الضغط على أسنانه ليخفى رعدة فكيه، وهو يستطرد قائلًا:

ومن الذي أرشدك إلى هذه الحجرة؟.. من هو؟.. فقد استقر عزمى على طرده من البيت - فى التو واللحظة!

فقفزت من الفراش إلى الأرض، ورحت أجمع ثيابى فى عجلة وأهم بارتدائها، قائلًا:

إنها خادمتك زيللا.. ولن أبالي إذا طردتها يا مستر هيثكليف، فإنها تستحق ذلك عن - جدارة!.. وأحسبها أرادت الحصول على دليل جديد - على حسابى - بأن المكان تسكنه الأرواح الشريرة.. حسنًا!.. إنه يموج بالأشباح والعفاريت فعلًا!.. وقد أحسنت صنعًا بإغلاقك هذه الحجرة ومنعك أحدًا من دخولها، فإن أحدًا لن يحمد لك أن تأخذه سنة من النوم فى وكر الشياطين هذا!

فقال هيثكليف: (ما الذي تعنيه؟.. وما هذا الذي تفعله؟.. ألا عد إلى فراشك وأتمم ليلتك مادمت هنا.. ولكن بحق السماء لا تكرر هذه الضجة الفظيعة، فما من شئ، يمكن أن يبررها إلا أن يكون هناك من حاول ذبحك!)

لو أن تلك الشيطانة الصغيرة استطاعت الدخول من النافذة لخنقتنى على الأرجح!.. ولكن - ليس فى نيتى أن أحتمل المزيد من قسوة أسلافك الكرام الميتين مرة أخرى. ألم يكن المحترم جابس براندرهام من أخوالك؟.. وتلك الشيطانة الصغيرة، (كاثرين لينتون) - أو (إيرنشو)، أو كيفما كان اسمها - لا ريب أنها كانت ذات روح خبيثة متقلبة. لقد أخبرتنى أنها ظلت تذرع الأرض طوال هذه الأعوام العشرين، ولعمرى إنه لجزاء حق على خطاياها المميتة، ما فى ذلك شك أو ريب!

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى ذكرت اقتران اسم هيثكليف بإسم كاثرين فى الكتاب الذي كان قد تسرب من ذاكرتى حتى عاد إليها ثانية على هذا النحو.. وأحسست بالخجل والخزى لقلة تبصرى، ولكنى، دون أن أظهر شيئًا من الشعور بجرمى، أسرعت أتابع القول: (الحقيقة يا سيدي هى أننى قضيت الشطر الأول من الليل فى..)

وعند هذا الحد توقفت ثانية، فقد كنت على وشك أن أقول: (فى تصفح هذه الكتب القديمة)، وبذلك كنت أفشى علمى بمحتوياتها من الكتابة المطبوعة والمخطوطة.. فتراجعت ومضيت أقول: (.. فى هجاء الإسم المنقوش على حافة النافذة، مرة بعد مرة، وهي كما ترى مهمة رتيبة قصدت منها جلب النوم إلى جفونى، كعد الأرقام أو..)

وإذا بهيثكليف يقاطعنى فى صوت كقصف الرعد، وقد تملكته ثورة غضب ضارية: (ماذا .. يمكن أن يكون قصدك من مخاطبتى على هذا النحو؟.. كيف؟.. كيف تبلغ بك الجرأة إلى هذا الحد، وتحت سقف بيتى؟.. يا إلهي!.. لابد أنه مجنون إذ يقول ذلك!)

وراح يقرع جبهته فى غضب مروع.. أما أنا فقد حرت بين استنكار لهجته، أو متابعة تفسيرى لما حدث.. ولكنه كان يبدو من شدة التأثر وعمقه، بحيث أشفقت عليه واستطردت فى الحديث عن أحلامى، مؤكدًا أننى لم أسمع قط باسم (كاثرين لينتون) من قبل، ولكن

إدمانى قراءته مرة بعد مرة طبع فى ذهنى أثرًا لم يلبث أن تجسد على هيئة شخص عندما لم تعد لى أية سيطرة على خيالى..

وكان هيثكليف، أثناء حديثى، يتقهقر خطوة بعد أخرى إلى ما وراء الفراش، ما لبث أخيرًا أن جلس على الأرض حتى كاد الفراش يحجبه عن أنظارى.. وأدركت من أنفاسه اللاهثة المتقطعة أنه يناضل نضالًا شاقًّا فى سبيل التغلب على تأثره العنيف المفرط، وإذ كنت لا أحب ان أظهر له أننى قد لحظت نضاله هذا، فقد رحت أتابع ارتداء ملابسى، محدثًا جلبة مقصودة، ثم نظرت فى ساعتى، وناجيت نفسي عن طول الليل، قائلًا:

- ماذا؟.. الساعة لم تبلغ الثالثة بعد؟.. لقد كدت أقسم أنها تجاوزت السادسة!.. إن الوقت فى ركود هنا، ولا بد أننا أوينا إلى فراشنا حقًّا فى الثامنة!

فأجابنى مضيفى، وهو يكتم أنينه، ويكفكف عبرة ترقرقت فى عينيه، كما وضح لى من حركة ذراعه التى رأيت ظلها على الجدار: (بل دائمًا نأوى إلى الفراش شتاء فى التاسعة، ونستيقظ فى الرابعة).

ثم أضاف بعد لحظة: (يمكنك أن تذهب إلى حجرتى يا مستر لوكوود.. فنزولك الآن فى هذا الوقت المبكر سوف يحدث ارتباكا فى المنزل، كما أن صرختك الصبيانية قد ذهبت بالنوم من عينى إلى الشيطان!)

- ومن عينى أيضًا.. ولكن سوف أتمشى فى الفناء حتى يطلع النهار ثم أنصرف لشأنى.. ولا حاجة بك لأن تخشى تكرار تطفلى عليك بالزيارة، فقد شفيت تمامًا الآن من داء نشدان المتعة بصحبة الناس، سواء فى الريف أو المدن.. فالعاقل إنما ينبغى له أن يجد فى نفسه صحبة كافية!

فغمغم هيثكليف: (إنها صحبة ممتعة!.. والآن، خذ الشمعة واذهب حيثما تشاء، سوف ألحق بك بعد قليل.. ولكن عليك أن تتجنب الفناء لأن الكلاب مطلقة السراح فيه، وحجرة الجلوس لأن (جونو) تقوم بالحراسة هناك.. ويمكنك أن تقتصر طوافك بين السلالم والممرات.. ولكن أذهب عنى الآن، وسوف أنزل بعد دقيقتين..).

فأطعته، لمجرد رغبتى فى مغادرة هذه الحجرة.. ولكنى إذ وقفت حائرًا لا أدرى إلى أين تقودنى تلك الممرات الضيقة، شهدت - برغم أنفى - منظرًا أشبه بتمثيلية عن الخرافات والخزعبلات يقوم بها مضيفى، ويناقض - على نحو عجيب - ما يبدو عليه من عقل واتزان.. فقد مضى نحو الفراش، وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيها، وهو ينفجر فى نوبة من النشيج والبكاء المتصل، كأنما أفلت منه زمام سيطرته على مشاعره، ويقول فى عويل: (ادخلى!.. ادخلى!.. تعالى يا كاتى.. آه!.. تعالى مرة أخرى!. أواه!.. يا حبيبة القلب.. أصغى إلى هذه المرة يا كاثرين أخيرًا!).



وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيها، وهو
ينفجر في نوبةٍ من النشيج والبكاء المتصل..

غير أن الشبح أظهر تلك النزوة المألوفة لدى الأشباح، فلم يبد أية إشارة تنم عن وجوده.. وهكذا الأشباح إذا دعيت لم تلب!.. ولكن الثلج والرياح كانت قد اقتحمت النافذة وراحت تزمجر فى أنحاء الحجرة، وإذ بلغت مكانى أطفأت لهب شمعتى..

وكان فى ذلك الفيض من اللوعة والأسى، الذي صاحب هذيانه، ما ينم عما يلاقيه من عذاب فظيع، بحيث أخذتنى الشفقة عليه ورثيت لحاله، وأغضيت عن جنونه، فبادرت إلى الانسحاب وقد تملكنى الأسف إذ أنصت له، واستبد بى الضيق إذ قصصت عليه ذلك الكابوس المضحك، بعد أن شهدت ما سببه له من حزن بالغ، وإن كان سبب ذلك مما يدق على فهمي.. وهبطت الدرج فى حذر إلى الطابق الأسفل، حتى استقر بى المقام فى المطبخ الخلفى، واستطعت أن أشعل شمعتى ثانية من لهب نار خافتة كومت جذواتها فى المدفأة.. ولم يكن فى المكان حس أو حركة إلا قطة رمادية اللون مخططة الفراء، نهضت فى تراخ من مجثمها بجوار المدفأة، وحيتنى بمواء يفيض بالتذمر والسخط!

وكان أمام الموقد دكتان خشبيتان، على شكل قوسين، يكادان يحيطان به، فأستلقيت على إحداهما، بينما ارتقت، القطة (جريمالكين) الدكة الأخرى.. وكنا كلانا نهوم من النعاس قبل أن يغزو أحد مكان خلوتنا هذه، ثم إذا بجوزيف يهبط علينا فوق سلم خشبى كان يختفي فى السقف خلال باب مسحور، أحسب أنه يؤدى إلى مخزنه العلوي، فألقى نظرة منكرة على اللهب الضئيل الذي كان يتراقص بين قضبان الموقد بعد أن حركت جذوات الفحم، ثم أزاح القطة عن مرقدها المرتفع بحركة من يده، واحتلّ مكانها، وبدأ يحشو بالطباق غليونه القصير، الذي لا يعدو الثلاث بوصات طولًا.. وكان من الواضح أن وجودى فى خلوته المقدسة كان يعد ضربًا من القحة المخجلة التى تجاوزت الحد بحيث لا يجدي معها احتجاج أو اعتراض.. ومن ثم فقد وضع أنبوبة الغليون بين شفتيه دون أن ينطق بكلمة، وشبك ذراعيه فوق صدره، وراح ينفث الدخان فى قوة.. فتركته يستمتع بلذته دون أن أعكر عليه صفوه، حتى إذا ما فرغ من امتصاص آخر حلقان الدخان، وأطلق من صدره تنهدة عميقة، نهض من مجلسه وغادر المكان فى رصانة ووقار مثلما جاء..

وما لبثت أن ولجت المطبخ خطوات أخرى أكثر خفة ومرونة، ففتحت فمى لأقول: (صباح الخير)، ولكنى أطبقته ثانية دون أن أنطق بهذه التحية، فقد كان هيرترن إيرنشو يتمتم «بصلواته) فى غمغمة خافتة، وفى سلسلة من اللعنات يوجهها لكل شىء يلمسه، بينما كان ينقب فى أحد الأركان عن معول أو مجرفة ليزيح بهما الجليد أو ليشق طرقًا خلاله. بعد أن ألقى على الأريكة نظرة خاطفة، وهو يبسط منخريه، دون أن يفكر فى تبادل التحية معى أو مع القطة!.. وحدست، من هذه الاستعدادات التى يقوم بها، أن الخروج أصبح مباحًا، فتركت مقعدى الصلب، وهممت بأن أتبعه إلى الخارج.. ولكنه لحظ حركتى هذه، فأشار بطرف معوله نحو باب داخلى، مبينًا لى فى تمتمة غير مفهومة أن ذلك هو المكان الذي ينبغى أن أذهب إليه إن أردت تغيير موضعى.

ووجدت الباب يؤدى إلى حجرة الجلوس - أو «البيت) كما يسمونها - حيث كانت نساء الدار قد استيقظن فعلًا وانصرفن إلى شئونهن.. كانت (زيللا) تستحث الشرر المتطاير من لهب الموقد على دخول المدخنة، بواسطة منفاخ كبير الحجم، بينما ركعت مسز هيثكليف بجوار المدفأة، وهي تقرأ فى كتاب على وهج النار، وترفع يدها أمام عينيها لتتقى حرارة الموقد. وكانت تبدو مستغرقة فى القراءة، لا تنقطع عنها إلا لتؤنب الخادمة عندما يتطاير الشرر ناحيتها، أو لتدفع عنها، بين آن وآخر، أحد الكلاب الذي كان يمد أنفه إلى الأمام ليتشمم وجهها. ودهشت إذ رأيت هيثكليف أيضًا هناك. كان يقف بجوار النار، وظهره إلى ناحيتى، وهو يختتم مشهدًا عاصفًا مع (زيللا) المسكينة التى كانت بين الحين والآخر تتوقف عن عملها لترفع طرف مرولتها وتكتم بها أنينًا مؤلمًا..

وفى اللحظة التى ولجت فيها باب القاعة كان يتحول نحو زوجة ابنه، وينفجر صائحًا فيها، مستخدمًا صفة لا يمكن إثباتها كتابة:

- وأنت.. أنت أيتها الـ.. الحقيرة!..ها أنت ذى تعودين إلى كسلك وخمولك ثانية.. إن الباقين يخدموننى نظير لقمتهم، أما أنت فتعيشين على صدقتى وإحسانى!.. دعى هذه النفايات التى فى يدك، وابحثى عن عمل تؤدينه.. سوف تدفعين لى غاليًا ثمن ابتلائى بوباء وجودك أمام ناظرى دائمًا.. هل تسمعين أيتها الفاجرة اللعينة؟

فأطبقت السيدة الشابة كتابها ورمت به فوق أحد المقاعد، وقالت:

- سون أدع النفايات التى فى يدي، لأن فى وسعك أن ترغمنى على ذلك لو رفضت.. ولكنى لن أعمل شيئًا، مهما أطلقت لسانك بالسباب والشتائم، إلا ما يروق لى أن أفعله!

فرفع هيثكليف يده، بينما وثبت السيدة إلى مسافة تأمن فيها تلك اليد التى يبدو من الواضح أنها ذاقت وطأتها من قبل.. وإذ كنت لا أحب أن أستقبل بمشهد عراك كالذي ينشب بين القطط والكلاب، فقد تقدمت إلى الأمام بغتة، كأننى متلهف إلى مشاركتهم دفء النار، وكأننى خالى الذهن عن أى شىء من هذا الشجار الذي قطعته عليهم. والحق أن كلًا منهما كان من الكياسة بحيث أرجأ إظهار المزيد من هذه الخصومة، ووضع هيثكليف قبضتيه فى جيوبه، ليكون بمنجاة عن الإغراء باستخدامهما، أما مسز هيثكليف فقد قوست شفتها، ومشت إلى مقعد بعيد حيث وفت بوعدها ألا تفعل شيئًا بأن جلست ساكنة كالتمثال خلال بقية الفترة التى مكثتها بينهم. ولم تكن فترة طويلة، فقد رفضت مشاركتهم فى طعام الإفطار وانتهزت فرصة بزوغ أول شعاع من الفجر للفرار إلى الهواء الطلق الذي وجدته وقتئذ صافيًا، ساكنًا، شديد البرودة كالثلج..

وهتف بى مضيفى يستوقفنى قبل أن أبلغ نهاية الحديقة، ثم عرض علىّ أن يرافقنى خلال البرارى والمستنقعات.. وحسنًا فعل!.. فإن سفح التل من الناحية الأخرى كان أشبه ببحر عجاج من الجليد الأبيض.. وكانت النتوءات والفجوات لا تكشف عما يقابلها من مرتفعات أو منخفضات فى الأرض.. أما الكثير من الحفر فقد امتلأت إلى حافتها، على حين اختفت سلاسل بأكملها من الأكمات والروابى - مما تلفظه المحاجر - من الصورة التى ارتسمت فى ذهنى أثناء مسيرى بالأمس. وكنت قد لاحظت على جانب من الطريق صفًا من الحجارة القائمة، تفصل بين الواحد والآخر ست ياردات أو سبع، يمتد على طول البرارى المقفرة، وقد أقيمت تلك الحجارة وطليت بالجير لتكون مرشدًا للمارة فى الظلام، أو عندما ينهمر الثلج كما حدث بالأمس فيطمس معالم المستنقعات العميقة على كلا الجانبين فلا تبين من الطريق الصلدة.. ولكن، فيما عدا نتوء قذر يبدو للأعين هنا وهناك، فقد اكتفت قوائم الحجارة حتى لكأنها تلاشت من الوجود!

وكان رفيقى كثيرًا ما يجد من الضرورى أن يحذرنى ويطلب منى أن أتحول إلى اليمين أو إلى اليسار، بينما كان يُخيل إلىّ أننى أتبع المنعرجات الصحيحة للطريق. ولم نتبادل إلا القليل من الحديث حتى توقف عند مدخل حديقة (ثراشكروس)، قائلًا إننى لن أكون عرضة للخطأ بعد ذلك.. وكان وداعنا قاصرًا على انحناءة سريعة، ما لبثنا أن افترقنا بعدها. وتابعت مسيرى معتمدًا على معلوماتى الشخصية، إذ كان كوخ الحارس مهجورًا لم يجد من يسكنه بعد. وكانت المسافة من البوابة حتى (الجرانج) لا تعدو ميلين، ولكنى أعتقد أننى جعلتها أربعة أميال بما حدث لى من التيه بين الأشجار ومن الغوص حتى رقبتى فى حفائر الثلج! - وهي حالة لا يقدرها إلا أولئك الذين خبروها فعلًا! - ومهما يكن من أمر، وكيفما كان تجوالى فى الحدائق، فقد كانت الساعة تدق الثانية عشرة عندما كنت ألج باب المنزل، ومعنى ذلك أننى قطعت فى كل ساعة ميلًا واحدًا من المسافة العادية بين منزلى ومرتفعات ويذرنج..

واندفعت مدبرة منزلى وتوابعها لتحيتى وهن يهتفن فى ضجة عالية أنهن قد قطعن الأمل نهائيًا فى عودتى سليمًا. كان كل إنسان يظننى قد هلكت فى الليلة الماضية، وكانوا فى حيرة من طريقة البحث عن جثمانى!.. فطلبت إلى الجميع أن يركنوا إلى الهدوء والسكون بعد أن رأونى أرجع سالمًا، ثم مضيت أجر قدمى المتثاقلتين إلى الطابق العلوي، وقد سرت البرودة فى جسدى حتى شغاف قلبى، فأصابته بالخدر.. وبعد أن استبدلت بملابسى ثيابًا جافة، ورحت أذرع الأرض ذهابًا وجيئة نحو ثلاثين أو أربعين دقيقة استجلابًا للدفء، مضيت إلى حجرة المكتب خائر القوى كأننى قطيطة صغيرة.. بل لقد كنت من الضعف والخور بحيث لم أشعر بمتعة النار المتأججة فى الموقد، ولا بالقهوة الساخنة، التى ينبعث البخار منها، والتى أعدتها لى الخادم لأستعيد بها قواى الضائعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

ألا ما أعجب تقلباتنا مع الأهواء، كأننا ديك (دوارة الريح) المختال!.. فأنا.. أنا الذي كنت عاقدًا العزم على الاحتفاظ بنفسى بمنأى عن أية صلة اجتماعية، والذي حمدت حسن طالعى إذ هدانى إلى النزول ببقعة تكاد مثل هذه الصلة فيها أن تكون مستحيلة عمليًا.. أنا، ذلك التعس الضعيف الإرادة. قد اضطررت فى النهاية إلى الاستسلام وإلقاء السلاح، بعد أن ظللت حتى الغسق أصارع الوحدة والسأم، فاتخذت من الرغبة فى الاستفسار عن بعض الشئون الخاصة باحتياجات المنزل، ذريعة لأرغب إلى (مسز دين) - عندما أحضرت لى العشاء - بأن تجلس معى، ريثما أتناول طعامى، راجيًا فى قرارة نفسي أن تكون ثرثارة عريقة، فإما أن ينشطنى حديثها، أو يسلمنى إلى النعاس..

بدأت أقول لها:

- لقد عشت هنا زمنًا طويلًا.. ألم تقولى أنك فى خدمة السيد منذ ستة عشر عامًا؟

- بل ثمانية عشر يا سيدى.. فقد حضرت عندما تزوجت سيدتى، لأقوم على خدمتها ورعاية شئونها.. وعندما قضت نحبها، احتفظ بى السيد لأكون مدبرة منزله..

فغمغمت قائلا: (ذلك حق..)

وتلت ذلك فترة من الصمت – حتى لقد خشيت ألا تكون ثرثارة كما رجوت - فيما عدا الحديث عن شئونها الخاصة التى لا تكاد تهمنى فى كثير أو قليل.. ومهما يكن من أمر فإنها بعد أن أخلدت إلى التفكير برهة، وقد وضعت قبضتيها على ركبتيها، وخيمت على محياها المتورد سحابة من التأمل وإمعان الفكر، انبعثت تقول:

-آه!.. شد ما تبدلت الأحوال منذ ذلك الحين!

- نعم.. وأحسبك شهدت الكثير من التغيرات؟

- أجل.. ومن المتاعب كذلك..

فقلت لنفسى: (آه!.. سوف أنحو بالحديث ناحية مالك الدار وأسرته، فهو خير موضوع نبدأ به.. ثم إننى أود أن أعرف تاريخ تلك الفتاة الأرملة الحسناء، وهل هى من أهل الإقليم أم أنها، كما هو الأرجح، غريبة عنه، حتى أن ذلك (الوطنى) العبوس لا يعترف بقرابتها له..)

وإذ عزمت على ذلك، سألت مسز دين لماذا أجر هيثكليف (ثراشكروس جرانج)، مفضلًا أن يعيش فى مركز ومسكن يقلان عنه شأنًا؟!.. وختمت السؤال بقولى:

- أم أنه ليس من الثراء بحيث يستطيع الاحتفاظ بالقصر، فى مستوى رفيع؟

فقالت:

- الثراء ياسيدى؟.. إن أحدًا لا يعرف كم لديه من المال الذي يزداد سنة بعد أخرى!.. نعم.. نعم.. أنه من الثراء بما يكفيه للإقامة في دار خير من هذه بكثير، ولكنه شحيح بخيل، ويده مغلولة إلى عنقه.. ولو فكر مرة فى أن ينقل عشه إلى الجرانج، فإنه ما إن يسمع عن مستأجر طيب حتى لا يطيق أن تفوته فرصة إقتناء بضع مئات أخرى.. وإنى لأعجب كيف يستبد الجشع بالناس إلى هذا الحد عندما يكونون وحيدين فى هذه الدنيا!

- يبدو أنه كان له ولد؟

- نعم، كان له ولد ومات..

وهذه السيدة الشابة، مسز هيثكليف. أهى أرملة ذلك الابن؟ -

- نعم..

من أين ترينها قدمت أصلًا؟ -

لماذا يا سيدى؟.. انها ابنة سيدي السابق، رحمه الله.. وكان اسمها وهي عذراء (كاثرين - لينتون). إننى أنا التى غذوتها وربيتها، تلك الصغيرة المسكينة.. كم أود لو ينتقل مستر هيثكليف إلى هنا، حتى يجتمع شملنا ثانية.

فهتفت فى دهشة: (ماذا؟.. كاثرين لينتون؟)

ولكنى ما كدت أفكر لحظة حتى أدركت أنها لا يمكن أن تكون) كاثرين ذات الشبح) التى ظهرت لى.. فأردفت قائلًا:

إذن فإن شاغل هذه الدار قبلى كان اسمه لينتون؟ -

- لقد كان كذلك.

- ومن هو إيرنشو.. هيرتون إيرنشو الذي يعيش مع مستر هيثكليف؟ هل هما قريبان؟

- كلا، فهو ابن أخ مسز لينتون الراحلة، والدة «كاثرين)..

هو ابن خال السيدة الشابة إذن؟ -

- نعم.. كما كان زوجها ابن عمتها.. فقد تزوج هيثكليف شقيقة مستر لينتون..

لقد رأيت اسم «إيرنشو) منقوشًا فوق الباب الأمامى لمرتفعات ويذرنج، فهل هى أسرة - قديمة؟

وعريقة جدًا يا سيدى.. وهيرتون هو آخر سلالتها كما أن عزيزتنا (مس كاتى) -(كاثرين)- - آخر سلالة أسرة لينتون.. ولكن هل ذهبت إلى مرتفعات ويذرنج يا سيدي؟.. إننى أسألك المغفرة لتطفلى، ولكنى وددت أن أعرف كيف حالها!

مسز هيثكليف؟.. إنها تبدو فى خير صحة، كما إنها رائعة الحسن.. ومع ذلك فإنى أحسبها - غير سعيدة تمامًا!

آه!.. لهف قلبى عليها!.. أن ذلك لا يدهشنى.. ولكن كيف كان مبلغ ارتياحك إلى السيد؟ -

إنه شخص أدنى إلى الغلظة والخشونة يا مسز دين.. أليس هذا خلقه؟ -

إنه خشن كحد المنشار، وصلب كالصخر الصلد.. وكلما أقللت من التداخل معه كلما كان - ذلك خيرًا لك وأجدى..

لابد أن تكون الحياة قد تداولته بين سرائها وضرائها حتى غدا بهذه الغلظة والفظاظة.. - هل تعرفين شيئًا عن تاريخ حياته؟

إنها كحياة الطائر الفضولى يا سيدى!.. وإنى أعرف كل شىء عنه ما خلا أين ولد، ومن - كان أبواه، وكيف حصل على المال بادىء ذى بدء.. أما هيرتون فقد خرج صفر اليدين كالعصفور الذي نتف ريشه!.. إن الفتى المنكود هو الوحيد، فى هذه المنطقة كلها، الذي لا

يعرف كيف كان ضحية الغش والخداع!

- حسنًا يا مسز دين.. إنك تسدين إلى معروفًا لو حدثتنى بطرف من أنباء جيرانى، فإنى أشعر بأننى لن أنال الراحة التى أنشدها لو أويت الآن إلى الفراش. لذلك أرجو أن تجلسى معى ساعة فنتحدث معًا..

- آه!. بالتأكيد يا سيدي!.. سوف أحضر معدات الحياكة ثم أجلس معك ما طاب لك أن تستبقينى.. ولكنك أصبت ببرد، فقد رأيتك ترتعش، ولابد لك من عصيدة ساخنة لتخرج البرد من بدنك!

وهرولت المرأة الطيبة خارجة من الحجرة، فاقتربت بمقعدى من النار، وقد أحسست برأسى ينبض بالحرارة المرتفعة، على حين كانت القشعريرة لا تكف عن جسدى لحظة.. وفضلًا عن ذلك، كنت شديد الانفعال، إلى درجة السخف، وقد ازداد التوتر فى أعصابى وفكرى.. وقد سبب لى ذلك أن شعرت، لا بالتعب والإعياء، بل بالخوف (وما يزال ذلك شأنى حتى الآن) من العواقب الخطيرة التى سوف تنجم عن أحداث اليوم والأمس.. وما لبثت مسز دين أن رجعت بعد قليل، تحمل إناء ينبعث منه البخار، وسبتًا لأدوات الحياكة، فوضعت الأول على الرف المجاور للمدفأة، ثم قربت مقعدها، وقد بدت عليها الغبطة بأن وجدتنى محبًا للرفقة والعشرة!

وبدأت تقول، دون أن تنتظر دعوة جديدة للحديث:

(قبل أن أحضر لأقيم هنا، كنت أقيم بصفة دائمة فى مرتفعات ويذرنج، إذ كانت أمى مربية مستر (هندلى إيرنشو)، وهو والد (هيرتون)، واعتدت أن أمضى الوقت فى اللعب مع الأطفال، كما كنت أقوم بقضاء بعض الحاجات أيضًا، وأساعد فى تذرية (الدريس)، وأحوم حول المزرعة متأهبة لأداء ما يمكن أن يكلفنى به أى شخص هناك..

وفى صباح يوم من أيام الصيف الجميلة - وأذكر أن ذلك كان فى بداية موسم الحصاد -) نزل مستر إيرنشو الكبير، جد هيرتون، مرتديًا ثياب السفر، وبعد أن ألقى إلى جوزيف بأوامره عما ينبغى عمله خلال ذلك اليوم، تحول نحو هندلى وكاثى[3]، ونحوى - إذ كنت أجلس معهما وأشاركهما طعام الإفطار - وقال مخاطبًا ولده: (والآن أيها الرجل الصغير، إننى راحل إلى ليفربول اليوم، فما الذي تريد أن أحضره لك معى؟ فى وسعك أن تختار ما تريد، ولكن ليكن شيئًا صغير الحجم لأننى سأذهب وأعود سيرًا على الأقدام، والمسافة ستون ميلًا ذهابًا ومثلها فى الإياب، وهي كما ترى مشقة طويلة!).. فطلب هندلى كمنجة، وعندئذ تحول نحو مس كاثى، ولم تكن وقتئذ قد جاوزت السادسة من العمر وإن كان فى استطاعتها أن تمتطى صهوة أى جواد فى الحظيرة، فاختارت أن تكون هديتها سوطًا.. ولم ينسنى، فقد كان طيب القلب عطوفًا ولو أنه كان يعمد إلى القسوة والصرامة أحيانًا، فوعدنى بأن يحضر لى ملء جيبه من التفاح والكمثرى.. وبعدئذ قبل طفليه، وودعنا جميعًا، ثم انطلق فى رحلته..

وقد بدت أيام غيابه الثلاثة دهرًا طويلًا لنا جميعا، وكانت كاثى الصغيرة لا تفتأ تسأل عن موعد عودته.. وكانت مسز إيرنشو تتوقع حضوره فى موعد العشاء من مساء اليوم الثالث، فراحت تؤجل تناول الطعام ساعة بعد أخرى، دون أن يظهر ما يدل على مقدمه.. وأخيرًا أدرك الطفلين الإعياء من كثرة ما ذهبا إلى البوابة ليطلا على الطريق.. ثم أطبق الظلام واحتلك الليل وأرادت أمهما أن تضعهما فى الفراش ولكنهما توسلا إليها فى أسى أن تدعهما ينتظران والدهما.. وأخيرًا، فى الساعة الحادية عشرة تمامًا، إذا بمزلاج الباب (السقاطة) يرفع فى هدوء، وإذا بالسيد يدخل فيلقى بنفسه على أحد المقاعد، وهو يضحك ويتأوه فى وقت معًا، ويأمر الجميع بأن يبتعدوا عنه، لأنه يكاد يقع صريعًا من التعب، ثم يقسم بأنه لن

يمشى مثل هذه المسافة مرة أخرى ولو أوتي تيجان الممالك الثلاث..

وأردف قائلًا: (ولقد كنت فى نهايتها أجرى حتى كدت أهلك...)

وتمهل لحظة ثم فتح معطفه الفضفاض الذي كان يضم طرفيه بين ذراعيه، واستطرد يقول:

- انظرى هنا يا زوجتى!.. إننى لم أغلب على أمري من شىء فى حياتى كهذه المرة.. ولكن يجب أن ننظر إليه كهبة من الله، وإن كان لونه القاتم يجعله أشبه بعطية من الشيطان!..

وتزاحمنا جميعًا حوله، أما أنا فقد تلصصت من فوق رأس مس كاثى لأرى غلامًا قذرًا أسود الشعر يرتدى أسمالًا مهلهلة، وفى سن تسمح له بالمشى والكلام، بل الواقع أن وجهه كان يبدو أكبر سنًا من مس كاثى، ومع ذلك فعندما وقف على قدميه، راح يحملق بأنظاره حواليه وينطلق فى رطانة لم يستطع أحدنا أن يفهم شيئًا منها.. وقد تملكنى الذعر. بينما كادت مسز إيرنشو تطوح به خارج الباب، وهي تثور فى وجه زوجها لتسأله كيف استساغ أن يجلب إلى المنزل هذا الجرو الغجرى، على حين أن لهما طفلين يقومان باطعامهما والعناية بهما؟.. ثم ما الذي ينوى أن يفعله بهذا «الشىء»؟ وهل أصابه الجنون حتى يحضره؟.. وقد حاول السيد أن يشرح لها الأمر، لكنه كان شديد الإعياء حقًا، يكاد التعب يورده حتفه، وكل الذي استطعت أن أتبينه، خلال صياحها وتعنيفها له، ما ذكره عن رؤيته لهذا (الشىء) فى شوارع ليفربول شريدًا يكاد يهلك جوعًا، وهو كالأبكم لا يستطيع أن يرشده إلى داره أو أهله، فحمله وراح يسأل عن أهله، ولكن أحدًا فى المدينة لم يعرف من أين أتى، ومن صاحبه.. وإذ كان وقته ونقوده محدودين، فقد فضل أن يعود به إلى داره بدلًا من البقاء وإنفاق المزيد من النقود فى غير طائل هناك، لأنه كان قد قرر ألا يتركه حيث وجده.. وحسنًا!. لقد كان ختام هذا المشهد أن هدأت سيدتى وسكنت حدة غضبها وتذمرها، وأن طلب إلى مستر إيرنشو أن آخذ الغلام فاغسل بدنه وألبسه ثيابًا نظيفة، وأدعه ينام مع الطفلين..

وكان هندلى وكاثى قد اكتفيا بالنظر والإصغاء، حتى عاد السلام بين الزوجين، وعندئذ بدأ كلاهما يفتشان جيوب أبيهما بحثًا عن الهدايا التى وعدهما بها.. وكان هندلى صبيًا فى الرابعة عشرة، ولكنه عندما أخرج من المعطف العظيم ذلك الشىء الذي كان يدعى (كمنجة) قبل أن يصبح حطامًا، أجهش بالبكاء فى صوت عال.. أما كاثى فعندما علمت أن السيد قد فقد سوطها أثناء عنايته بالغلام الغريب، فقد عبرت عن شعورها بأن ابتسمت، ثم بصقت على الغلام الصغير، فاستحقت أن تنال، جزاء ما تجشمت من عناد، لطمة عنيفة من والدها، لتتعلم كيف يكون مسلكها أكثر رقة وأدبًا فى المستقبل!.. وقد أصر الطفلان على رفض السماح للقيط بالنوم معهما فى الفراش، أو حتى فى حجرتهما.. ولم أكن أكثر منهما سماحة، فوضعت الطفل على (بسطة) السلم، مؤملة أن أجده فى الصباح وقد اختفى من الدار.. وشاءت الصدفة، أو لعل صوت مستر إيرنشو قد اجتذبه، فإذا به يزحف حتى باب حجرة السيد، فوجده راقدًا أمام الباب عندما غادر حجرته فى الصباح... وقام السيد بالتحقيق فى كيفية وجوده هناك، فاضطررت إلى الاعتراف، وكان جزاء خستى وقسوتى أن طردت من المنزل!..

وكانت هذه بداية العهد بدخول هيثكليف فى نطاق الأسرة..

فلما عدت ثانية بعد أيام قلائل (إذ أنى لم أعتبر طردى نهائيًا) وجدت أنهم قد عمدوه باسم (هيثكليف)، وهو إسم ابن لمستر إيرنشو مات طفلًا، وأصبح هذا الاسم بمثابة إسم ولقب له منذ ذلك الحين... كما وجدت أنه ومس كاثى قد أصبحا صديقين حميمين... أما هندلى فكان يبغضه، وإذا شئت الحق فإننى كنت أكرهه كذلك، وهكذا تعاونا معًا على إيذائه والإيقاع به على نحو مزر.. لأننى لم أكن من التعقل بحيث أدرك ما أقترفه من ظلم. كما أن

السيدة لم تقف يومًا فى صفه، أو تنطق بكلمة لإنصافه، عندما كانت تراه موضع الإساءة...

أما هو فكان طفلًا صبورًا دائم التجهم. ولعل سوء المعاملة قد جعله أشد صلابة، فإنه كان يحتمل لطمات هندلى دون أن يطرف عينًا أو يذرف دمعة، كما أن قرصاتى لم تكن تحرك فيه أكثر من شهقة عميقة وهو يحملق بعينيه كأنه هو الذي أصاب نفسه مصادفة دون أن يكون لأحد ذنب فيما أصابه! وكان هذا الاحتمال سبب ثورة مستر إيرنشو الكبير عندما اكتشف اضطهاد ابنه للغلام اليتيم المسكين، كما كان يدعوه... وكان قد اشتد تعلقه بهيثكليف إلى حد غريب، وأصبح يصدق كل ما يقوله (وهو من هذه الناحية لم يكن يقول إلا القليل كما كان يلتزم الصدق عادة) ويقوم بتدليله أكثر مما يدلل كاثى التى كانت شقية عنيدة لا تستحق التدليل!..

وهكذا كان هيثكليف منذ البداية ينمى المشاعر الشريرة فى المنزل، حتى إذا ما قضت مسز إيرنشو نحبها، وكان ذلك بعد أقل من عامين من مقدمه، كان السيد الشاب هندلى قد تعلم أن يعتبر أباه طاغية لا صديقًا، وأن يعد هيثكليف مغتصبًا لعواطف أبيه، ولامتيازاته الخاصة.. وكان يزداد مرارة كلما أمعن التفكير فى هذه الإساءات، وكنت أمالئه وأعطف على مشاعره... فلما مرض الأطفال بالحصبة، وكان علىّ أن أرعاهم، وأن آخذ على عاتقى للتو مسئولية العناية بهم وتمريضهم باعتبارى المرأة الوحيدة بالمنزل، تغيرت آرائى... وكان هيثكليف مريضًا إلى حد خطير، وبينما كان يرقد فى أسوأ حالاته كان يود دائمًا أن أظل بجوار وسادته.. وأحسبه قد شعر بأننى فعلت الكثير من أجله، ولم يكن من الفطنة بحيث يحدس أننى ما فعلت ذلك إلا مضطرة.. ومهما يكن من أمر، فلا بد لى من القول بأنه كان أهدأ طفل نهضت بالعناية به ممرضة قط.. وكان الفرق بينه وبين الطفلين الآخرين هو الذي أرغمنى على أن أغدو أقل تحيزًا.. فقد ضايقتنى كاثى وأخوها إلى حد مروع، بينما كان هو كالحمل لا يشكو ولا يتوجع، وإن كانت صلابته - لا رقته - هى التى جعلته أقل إثارة للمتاعب...

ونجا هيثكليف من الخطر واجتاز المحنة بسلام، فأكد الطبيب أن الفضل فى ذلك يرجع لى إلى حد كبير، وامتدحنى لعنايتى به.. وكنت فخورًا مزهوة بهذا الثناء، ورقت مشاعرى نحو ذلك المخلوق الذي نلت الثناء بسببه، وهكذا فقد هندلى آخر حليف له... ومع ذلك فإنى لم أكن مشغوفة بهيثكليف، وكنت كثيرًا ما تأخذنى الدهشة مما كان سيدي يراه فى ذلك الغلام العبوس المتجهم حتى يعجب به إلى هذا الحد، مع أنه لم يبد قط، فيما أذكر، أية إشارة تنم عن عرفان الجميل والحمد لقاء هذا الرفق والعطف!.. ولم يكن وقحًا أو سفيهًا مع المحسن إليه، بل كان فقط مجردًا من الشعور والإحساس بإحسانه إليه، مع أنه كان يعرف تمامًا المنزلة التى يحتلها فى قلبه، ويعلم أنه لو أراد شيئًا فما عليه إلا أن يتكلم حتى ينحنى المنزل بكل من فيه أمام رغباته... وأذكر - على سبيل المثال - أن مستر إيرنشو اشترى مهرين من سوق الأبرشية ذات مرة، وأعطى كلًّا من الغلامين واحدًا فأخذ هيثكليف أجمل المهرين، إلا أنه ما لبث أن أصيب بالعرج.. وما كاد يكتشف ذلك حتى قال لهندلى:

- يجب أن تبادلنى مهرك بمهرى، فلست أحبه.. ولئن لم تفعل فوف أخبر أباك بضربات العصى الثلاث التى ضربتنيها هذا الأسبوع، وأريه ذراعى التى ما تزال زرقاء داكنة حتى الكتف...

فأخرج له هندلى لسانه، وصفعه على أذنيه.. ففر هيثكليف إلى شرفة الحظيرة (بعد أن كانا بداخلها) ولكنه أصر على تنفيذ رغبته، وقال لهندلى: (خير لك أن تفعل ذلك فى الحال، قبل أن تفعله برغم أنفك... فلو أننى تحدثت عن هذه الضربات، لردت إليك ثانية. مع فوائدها!..) فصاح به هندلى: (امش من هنا يا كلب..) وهو يهدده بثقل حديدى يستعمل فى وزن البطاطس والدريس، ولكن الآخر وقف فى مكانه ساكنًا، واكتفى بأن قال: (اقذفه.. وعندئذ

سوف أخبره كيف كنت تتباهى بأنك ستطردنى من الدار بمجرد وفاته، وسترى إذا لم يطردك أنت توًا) ... فقذفه هندلى بالثقل الحديدى وأصابه فى صدره فسقط على الأرض، ولكنه ما لبث أن نهض على الفور وهو يترنح، وقد شحب وجهه وتقطعت أنفاسه.. ولولا أننى منعته لذهب إلى السيد للتو، ولنال ثأره كاملًا، تاركا حالته تؤيد دعواه، متهمًا هندلى بأنه السبب فيما حدث..



دفه هندلي بالثقل الحديدي وأصابه في صدره فسقط على
رض، لكنه ما لبث أن نهض على الفور..

وعندئذ قال إيرنشو الصغير:

- خذ مهري إذن، أيها النورى!.. ولكنى أرجو أن يدق عنقك!..خذه أيها الفضولى الدنئ، ولتحل عليك اللعنة!.. اذهب فجرد أبى من كل ما يملكه، بتملقك ومداهنتك، ولكن أره بعد ذلك ما أنت عليه حقًّا، يا سليل الأبالسة!.. خذ هذا المهر، ولكنى أرجو أن يركلك فيحطم رأسك وينثر مخك!

وكان هيثكليف قد مضى ليفك زمام الدابة، وينقلها إلى المربط الخاص به.. وكان يمر خلفها عندما ختم هندلى كلامه بركلة قوية وجهها إليه من بين سيقان المهر، ثم انطلق يعدو هاربًا دون أن يتمهل ريثما يطمئن إلى استجابة دعواته.. ولقد استبدت بى الدهشة إذ رأيت الغلام يستجمع قواه فى هدوء ورباطة جاش منقطعة النظير، ويمضي فى تنفيذ غرضه، فيستبدل السروج وباقى معدات المهر، حتى إذا ما أتم كل شىء، جلس فوق حزمة من الدريس ليتغلب على الألم الذي سببته له تلك الركلة العنيفة، قبل أن يدخل المنزل... وقد أقنعته، دون جهد أو عناء، بأن يدع لى مهمة الزعم بأن إصابته كانت بسبب المهر الجديد.. فما كان يبالي بما يقال عن هذا الموضوع ما دام قد نال بغيته... وكان فى الحق قلما يتذمر أو يشكو من هذه التوافه حتى لقد ظننته - حقًّا - متسامحًا غير حقود، ولكننى كنت مخدوعة تمامًا، على ما سوف تسمع منى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

أخذت صحة مستر إيرنشو تسوء وتذوى على مر الزمن.. وبعد أن كان يفيض بالصحة والنشاط، فارقته قوته فجأة، وألجأه المرض إلى ملازمة مقعده بجوار المدفأة، كما غدا سريع الهياج والإثارة.. كان يغضب للا شيء، وتسبب له أقل شبهة من الاستهانة بسلطته وجبروته، نوبات عنيفة من الثورة الجامحة.. وكان ذلك يشاهد بصفة خاصة عندما يحاول أحد أن يسيطر على غلامه الأثير، أو يعامله بشيء من الغطرسة.. وكان يحرص فى دقة شديدة على ألا تقال للفتى كلمة تجرح شعوره، وقد دخل فى روعه أن الجميع يبغضون هيثكليف ويتوقون إلى الإساءة إليه بسبب حبه له وحدبه عليه.. ولقد أضر ذلك بالفتى وأساء عاقبته، إذ كان أكثرنا عطفًا عليه لا يود إغضاب السيد، فعمدنا إلى مداهنته وإرضاء رغباته المتحيزة له، وكانت هذه المداهنة غذاء دسمًا لغرور الفتي وسوء خلقه... ولكن مسلكنا هذا كان ضروريًا إلى حد ما.. فقد حدث مرتين أو ثلاثًا أن أظهر هندلى زرايته بالغلام واستهانته به على مرأى ومسمع من أبيه فكان ذلك يثير ثائرة العجوز، ويمسك بعصاه ليضربه، ثم يرتجف حنقًا وغيظًا عندما كان يفلت منه...

وأخيرًا نصح قسيسنا (فقد كان لنا فى ذلك العهد قسيس يكسب لقمته من تعليم أبناء لينتون وأبناء إيرنشو، ومن زراعة قطعة الأرض التى يملكها بنفسه) بإرسال إيرنشو الشاب إلى المدرسة الثانوية، فوافق مستر إيرنشو على ذلك فى تثاقل وتردد، حيث قال: (إن هندلى لن يصلح لشئ، ولن يفلح فى شيء قط أينما ذهب..)

ولشد ما كنت أرجو أن يسود السلام ربوعنا بعد ذلك.. فقد كان يؤلمنى أن أرى السيد مسلوب الراحة منغص العيش من جراء عمله الخيري، ويخيل إلى أن ضيق صدره الناجم عن السن والمرض إنما ينبعث من هذه الخلافات العائلية التى تحوطه، وكأنما أراد ذلك فكان له ما أراده.. ولكن الحقيقة يا سيدي، كما تعلم، أن ذلك كان ناجمًا عن اضمحلاله الجسمانى المتزايد...

وبرغم ذلك كله، كان يمكن أن يمضي عيشنا هينًا محتملًا، لولا شخصان اثنان، هما مس كاثى، وجوزيف الخادم، وأحسبك قد رأيته هناك.. فقد كان - وما يزال على الأرجح - من غلاة المتنطعين فى الدين ومن أشدهم تزمتًا وغرورًا.. أولئك الذين ينقبون فى الإنجيل (ويمشطونه)، ليستخلصوا لأنفسهم ما به من وعود ورحمات، ويهيلون على جيرانهم ما يحويه من وعيد ولعنات!.. وكان ببراعته فى إلقاء المواعظ والخطب الدينية يسعى إلى بسط سلطانه على مستر إيرنشو، وكلما ازداد السيد ضعفًا وخورًا كلما ازداد هو قوة ونفوذًا عليه.. وكان يعمد، فى غير شفقة أو رحمة، إلى بث القلق فى نفسه من ناحية همومه الروحية، وإلى الإيحاء إليه بوجوب أخذ أبنائه بالشدة والصرامة! كان يشجعه على اعتبار هندلى شخصًا ساقطًا لا أمل فيه.. كما كان، ليلة بعد ليلة، ينسج شبكة من القصص حول هيثكليف وكاثرين، ولكنه كان يعنى دائمًا بتملق إيرنشو واستغلال ضعفه بإلقاء اللوم كله على كاهل الأخيرة!

ومن المحقق أن الفتاة كانت غريبة الأطوار على نحو لم أر عليه طفلة قط من قبل، وكانت تخرجنا جميعًا عن طورنا، وتمزق أهداب الصبر التى نستمسك بها أكثر من خمسين مرة كل يوم.. فمنذ الساعة التى تنزل فيها إلى الطابق الأسفل حتى ساعة ذهابها إلى الفراش، لم نكن نحس لحظة بالأمن والسلامة من (شقاوتها)... كانت خفتها ومرحها دائمًا فى ذروة ارتفاعهما، وكان لسانها دائمًا فى ذروة نشاطه واندفاعه: فى الغناء، والضحك، وإيذاء كل امرىء لا يريد أن يجاريها فى ذلك!.. كانت نبتة وحشية غير صالحة!.. ولكن كانت لها أجمل عينين وأحلى إبتسامة وأرشق خطى فى الأبروشية كلها.. وبرغم كل شيء فأحسبها

لم تكن تضمر لأحد شرًا، لأنها إذا حدث مرة أن دفعتك إلى البكاء عن عمد، فهى قلما تفارقك أو تدعك وشأنك حتى ترغمك على الهدوء مرضاة لها وإراحة لضميرها!.. وكانت مولعة أشد الولع بهيثكليف، فكان أعظم عقاب يمكن أن توقعه بها هو أن تفرق بينها وبينه، ومع ذلك كان ما تلقاه من التقريع والتأنيب بسببه أكثر مما يلقاه أى منا.. وكانت إذا ما لعبت معنا، تذوب حبًا فى القيام بدور السيدة الصغيرة، فتستخدم يديها فى حرية وتصدر الأوامر إلى زملائها فى اللعب.. وكانت تفعل ذلك معى، ولكنى ما كنت لأحتمل الإيذاء وتلقى الأوامر، فأفهمتها ذلك صراحة..

وكان مستر إيرنشو وقتئذ لا يطيق المزاح من أطفاله، فقد كان دائمًا صارمًا رصينًا معهم، وكانت كاثرين من جانبها لا تدري لماذا غدا والدها أشد مشاكسة وأقل صبرًا فى مرضه عما كان وهو فى عنفوان صحته... وكانت تأنيباته اللاذعة القارصة توقظ فيها رغبة خبيثة فى اثارته.. ولم تكن تبلغ من السعادة غايتها إلا عندما نشترك جميعًا فى تقريعها، فتتحدانا كلنا بنظراتها الجريئة، وكلماتها السليطة المتدفقة من بديهة حاضرة، فتحيل لعنات جوزيف الدينية إلى مهزلة مضحكة، وتغيظنى وتعاندنى، وتفعل أشد ما كان أبوها يمقته ويبغضه، وهو إظهار كيف تحدث قحتها المفتعلة – التى كان يظنها أصيلة حقيقية – من الأثر القوى على هيثكليف أكثر مما تحدثه رقته هو معه وحدبه عليه، وكيف ينفذ الغلام أوامرها أيًا كانت، بينما لا ينفذ من أوامره هو إلا ما يروقه ويلائم ميوله... وكانت بعد أن تسلك أثناء النهار أسوأ مسلك تستطيعه، تأتى أحيانًا إلى أبيها فى المساء تلاطفه وتلاعبه، لتصلح ما أفسدته، وعندئذ يقول لها الشيخ: «كلا يا كاتى.. إننى لا أستطيع أن أحبك، فأنت أسوأ من أخيك... إذهبى يا طفلتى فاتلى صلواتك وادعى الله أن يغفر لك... وأحسب أننى وأمك يجب أن نتحسر ونأسف على أن أنجبناك وربيناك) ... فكان ذلك يجعلها تبكي وتنتحب فى بادئ الأمر، وما لبثت أن زادها الصد المستمر صلابة وقسوة، فكانت تضحك ساخرة عندما أطلب إليها أن تقول إنها آسفة على ما تأتيه من أخطاء وإنها ترجو الصفح عنها ومسامحتها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأخيرًا حانت الساعة التى أنهت متاعب مستر إيرنشو على الأرض، فلفظ أنفاسه الأخيرة فى هدوء وسكينة، مساء يوم من أيام شهر أكتوبر، بينما كان يجلس فى مقعده بجوار المدفأة.. وكان الجو عاصفًا وحشيًا، وإن لم يكن باردًا، والرياح تزمجر حول المنزل فيدوى زئيرها فى المدخنة، بينما كنا مجتمعين جميعًا... كنت منهمكة فى حبك الصوف (التريكو) وقد انتحيت ناحية بعيدًا عن الموقد، وكان جوزيف يطالع فى الإنجيل بالقرب من المائدة (فقد كان الخدم وقتئذ يجلسون عادة فى البيت (حجرة الجلوس) بعد انتهاء عملهم) وكانت مس كاتى مريضة فى ذلك اليوم، مما جعلها ساكنة هادئة وهى تجلس مستندة إلى ركبة أبيها، بينما استلقى هيثكليف على الأرض واضعًا رأسه فى حجرها... وما زلت أذكر كيف راح السيد - قبل أن تأخذه سنة من النعاس - يربت على شعرها الجميل، إذ كان يسره كثيرًا أن يراها عاقلة لطيفة - وقلما كانت كذلك! - ويقول: (لماذا لا تكونين دائمًا فتاة طيبة يا كاتى؟..) وكيف رفعت وجهها نحوه وانطلقت تضحك وهي تجيبه: (ولماذا لا تكون دائمًا رجلًا طيبًا يا أبتاه؟!..) ولكنها ما كادت تراه وقد انتابه الضيق ثانية، حتى قبلت يده وظلت ممسكة بها وهي تقول إنها سوف تغنى له حتى ينام... وقد بدأت تغنى فى صوت شديد الخفوت، حتى تراخت أصابعه وأفلتت من يدها، وانحنى رأسه فوق صدره... فأشرت إليها أن تصمت، وأن تكف عن الحركة خشية أن توقظه، كما لبثنا جميعًا ساكنين صامتين كالجرذان، حتى انقضى نصف ساعة، كان يمكن أن يزيد، لولا أن جوزيف نهض من مجلسه بعد أن أتم قراءة الفصل الذي كان يطالعه فى الإنجيل، وقال إنه سوف يوقظ السيد ليتلو صلواته ويأوى إلى فراشه.. وتقدّم جوزيف إلى الأمام وناداه باسمه، ثم لمس كتفه فى رفق،

ولكنه لم يتحرك، فتناول شمعة وقربها إليه وأخذ يتأمله - فأدركت للتو عندما نحى الضوء بعيدًا، أن هناك شيئًا غير عادى قد حدث، وأمسكت بالطفلين من ذراعيهما وهمست لهما بأن: (يذهبا معًا إلى الطابق العلوي، ولا يحدثا جلبة كبيرة - وأن فى وسعهما تلاوة الصلوات وحدهما ذلك المساء - فإن جوزيف لديه عمل آخر سوف يقوم به).. ولكن كاثرين قالت:

- سوف ألقى على أبى تحية المساء أولًا..

وأسرعت تطوق عنقه بذراعيها قبل أن نتمكن من الحيلولة بينها وبينه.. ولكن الصغيرة المسكينة تبينت للتو خسارتها الفادحة، فصرخت: (آه!.. إنه ميت!.. لقد مات يا هيثكليف!..) وراح الاثنان يبكيان فى نحيب يقطع نياط القلوب..

وشاركتهما الولولة والبكاء فى عويل مرير، غير أن جوزيف سألنا عما نقصده من الزئير على هذا النحو فوق قديس رفع إلى السماء!.. ثم طلب منى أن أرتدى معطفى وأسرع إلى (جيمرتون) لأحضر الطبيب والقس، فلم أستطع أن أحدس الفائدة من حضور أى منهما وقتئذ... ومهما يكن من أمر فقد مضيت وسط الرياح والأمطار، فلما رجعت كان معى أحدهما، وهو الطبيب.. أما الآخر فقد قال إنه سوف يحضر فى الصباح... وتركت لجوزيف مهمة إيضاح الأمر للطبيب وأسرعت أعدو نحو حجرة الطفلين، فوجدت بابها مواربًا، وألفيتهما مستيقظين لم يأويا إلى الفراش بعد، برغم أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل، ولكنهما كانا أشد سكينة، وفى غير حاجة إلى أن أسرى عنهما.. كان الصغيران البريئان يروح كل منهما عن الآخر بكلام وأفكار أفضل كثيرًا مما كان يمكن أن أقوله لهما، وما من قس فى العالم كان يمكنه البتة أن يصور السماء والجنة بأجمل مما كانا يصورانهما به فى حديثهما البرئ.. وبينما كنت أصغى إليهما باكية، لم أملك إلا أن أتمنى لو أننا كنا جميعًا هناك سالمين معًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

عاد مستر هندلى ليحضر الجنازة، ولكن الشئ الذي أثار عجبنا ودهشتنا، وجعل الجيران يلغطون بالأحاديث يمنة ويسرة، وهو أنه لم يحضر وحده، وإنما أتى معه بزوجته... أما من تكون، وأين ولدت، فإنه لم يخبرنا بذلك قط... ولعلها كانت عاطلًا عن مال أو اسم رفيع يشفعان لها. وإلا لما كتم عن أبيه أمر زواجه منها..

ولم تكن هى بالتى تحدث فى المنزل اضطرابًا كبيرًا بسبب وجودها فيه.. وكان كل شيء تقع عليه أنظارها منذ اجتازت عتبة الدار، يبدو كأنما يثير اعجابها وسرورها، وكذلك الشأن فى كل حدث يجرى حولها، فيما عدا معدات الجنازة والدفن ووجود المعزين المرتدين ثياب الحزن.. وقد حسبتها شبه بلهاء بسبب مسلكها الذي اتخذته بينما كانت هذه الاستعدادات تمضي فى طريقها، إذ هرعت إلى حجرتها وجعلتنى أمضى إليها معها - بينما كان ينبغى أن أتولى إلباس الطفلين ثيابهما - ثم جلست ترتعد فرقًا وهي تعصر أصابعها المتشابكة، وتتابع سؤالى مرة بعد مرة: (ألم تذهبوا بعد؟).. وبدأت تصف لى، فى انفعال وعصبية، الأثر الذي يحدثه فى نفسها مرأى السواد، وما لبثت أن انتفضت وارتجفت ثم انخرطت فى بكاء أليم... فلما سألتها عما أصابها، أجابت بأنها لا تدري، غير أنها تحس بخوف مروع من أن تموت.. وخلتها لا تزيد تعرضًا للموت عنى، فمع أنها نحيلة نوعًا، إلا أنها كانت فى مقتبل الشباب، نضرة المحيا. تتألق عيناها كأنهما قطعتان من الماس... بيد أننى لاحظت، لاحقًا، أن ارتقاءها الدرج قد جعل أنفاسها تتتابع فى سرعة لاهثة، وأن أقل جلبة مفاجئة تبعث الرعدة فى بدنها كله، وأنها كانت تسعل أحيانًا سعالًا أليمًا.. ولكنى لم أكن أدرى شيئًا عما تنذر به هذه الأعراض، ولم أشعر بدافع إلى الرثاء لحالها، فإننا عادة لا نألف الغرباء هنا يا مستر لوكوود، ما لم يأنسوا إلينا أولًا..

وكان إيرنشو الشاب قد تغير كثيرًا فى السنوات الثلاث التى استغرقتها غيبته.. كان قد ازداد نحولًا، كما ازداد لونه شحوبًا، غدا يتكلم ويرتدى ثيابه على نحو يختلف عما كان عليه من قبل.. بل إنه فى يوم عودته بالذات، أمرنى وجوزيف بأن نجعل إقامتنا - من الآن فصاعدًا - فى المطبخ الخلفى ونترك (البيت).. والواقع أنه كان يود اتخاذ حجرة صغيرة خالية كحجرة جلوس له ولزوجته. فيفرش أرضها بالسجاد، ويكسو جدرانها بالورق، ولكن زوجته أعربت عن سرورها البالغ بالبلاط الناصع البياض، والموقد الضخم المتوهج، وصحاف القصدير الواسعة، وخزانة الخزف، ووجار الكلب، وسعة المكان الذي اعتادا أن يجلسا فيه بما يسمح لها بالتجوال فى أنحائه، بحيث وجد هندلى من غير الضرورى لراحتها أن يتخذ تلك الحجرة، وهكذا عدل عن فكرته..

كذلك أعربت الزوجة عن غبطتها إذ وجدت لزوجها أختًا بين معارفها الجدد، فراحت - فى بادىء الأمر - تثرثر مع كاثرين. وتقبلها، وتطوف معها هنا وهناك، وتمنحها الكثير من الهدايا، ولكن هذا الود ما لبث أن خارت قواه وشيكا.. وعندما غدت كثيرة التقطيب سريعة الغضب، غدا هندلى طاغية جبارًا.. وكانت بضع كلمات قليلة منها - توحى بكراهيتها لهيثكليف - كافية لأن توقظ فى هندلى حقده القديم نحوالصبى، فنحاه عن رفقتهم إلى رفقة الخدم، وحرمه من الدروس التى كان يتلقاها على القس، وأصرّ على أن يعمل، بدلًامن ذلك، فى خارج الدار، مرغمًا إياه على أداء أشق الأعمال فى الحقل، شأنه فى ذلك شأن غيره من عمال الزراعة..

واحتمل هيثكليف هذا الهوان فى صبر وجلد فى بادئ الأمر، لأن كاثى كانت تلقنه ما تتعلمه من دروس، وتشاركه فى اللعب أو العمل فى الحقول.. وكانا كلاهما ينذران بأنهما سيشبان طليقين ضاريين كالمتوحشين.. فإن السيد الشاب ما كان يبالي البتة أى مسلك يسلكان، أو

أى شىء يفعلان، طالما كانا بعيدين عن طريقه وعن ناظريه.. بل أنه ما كان ليعنى بالتحقق من ذهابهما إلى الكنيسة فى أيام الآحاد، لولا أن جوزيف والقس كانا يعنفانه على تراخيه كلما تغيب الفتى والفتاة عن القداس، فكان ذلك يذكره بأن يأمر بجلد هيثكليف بالسياط، وحرمان كاثى من الغذاء أو العشاء... وكانت متعتهما الكبرى أن يخرجا إلى الأحراش منذ الصباح فيمرحا ويرتعا طوال اليوم، وأصبح ما يحل بهما من عقاب بعد ذلك، مجرد شئ يضحكان منه ويسخران.. كان بوسع القس أن يفرض على كاثى قدر ما يشاء من الفصول لحفظها عن ظهر قلب، وكان بوسع جوزيف أن يظل يضرب هيثكليف حتى تدمى ذراعه، ولكنهما سرعان ما ينسيان كل شى فى اللحظة التى يجتمعان فيها معًا، أو على الاقل فى اللحظة التى يدبران فيها خطة خبيثة للانتقام!.. وكم من مرة بكيت فيها إشفاقًا على مصيرهما، وأنا أرقبهما وهما يزدادان طيشًا يومًا بعد يوم، دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة أو مقطع من كلمة، خشية أن أفقد ذلك النزر اليسير من السلطة الذي كنت ما أزال أحتفظ به على الصغيرين اللذين حرما الأصدقاء...

وقد حدث فى مساء يوم من أيام الآحاد أن أُقصى الصغيران من حجرة الجلوس، لضجة أحدثاها أو ما أشبه ذلك من التوافه، فلما ذهبت لأدعوهما لتناول العشاء. بحثت عنهما فى كل مكان فلم أجدهما.. ورحنا نفتش المنزل من عاليه إلى أسفله، وكذلك الفناء والحظائر. ولكنهما كانا مختفيين تمامًا.. فثار هندلى أخيرًا، وأمرنا بأن نوصد الأبواب ونحكم رتاجها وأقسم ألا يفتح لهما أحد أو يدعهما يدخلان الدار فى تلك الليلة..

وذهب أهل الدار جميعًا إلى مضاجعهم. إلا أنا فقد كنت من القلق واللهفة بحيث استحال علىّ الرقاد. ومن ثم فتحت نافذتى ومددت رأسى خارجها أرهف السمع لكل حركة، على الرغم من المطر المنهمر، وقد عزمت على إدخالهما إذا عادا، غير مكترثة لأمر السيد بتحريم المنزل عليهما فى تلك الليلة...

وما مضت هنيهة حتى ميزت بين إيقاع المطر، وقع خطوات قادمة من أول الطريق، ولمحت بصيص ضوء يلتمع عند البوابة.. فبادرت بإلقاء وشاح فوق رأسى، وسارعت لأفتح لهما الباب قبل أن يوقظا مستر إيرنشو إن هما طرقاه.. ولكنى وجدت هيثكليف وحده. فارتعت إذ رأيته بمفرده، وهتفت به قائلة فى عجلة!

- أين مس كاثرين؟.. أرجو ألا يكون قد أصابها شىء؟.. فأجابنى: (إنها فى ثرشكروس جرانج.. وكان يمكن أن أكون هناك بالمثل لولا أنهم لم تكن لديهم فضلة من الذوق والأدب بحيث يدعوننى للبقاء!).. فقلت له: (حسنًا، سوف تلقى جزاءك.. ولعمرى لن تقنع قط حتى تُطرد من هنا، ويُرمى بك لتدبر شئونك بنفسك.. ثم ما الذي دفعكما إلى التجوال حتى ثرشكروس جرانج بحق السماء؟).. فأجابنى: (دعينى ريثما أنزع ثيابى المبللة يا نيللى، وسوف أخبرك بكل شىء عن ذلك).. وطلبت إليه أن يحذر من إيقاظ السيد، وفيما كان يخلع ثيابه، بينما وقفت أنتظر حتى أطفىء الشمعة، استطرد يقول:

- لقد فررنا، كاتى وأنا، من حجرة الغسيل لنقوم بجولة فى الخلاء نستمتع فيها بحريتنا، فلما لمحنا أضواء «الجرانج) من بعد، خطر لنا أن نذهب للتو فنرى إن كان لينتون الصغير وشقيقته يقضيان أمسيات أيام الآحاد واقفين فى الأركان يرتعدان من البرد، بينما يجلس والدهما ووالدتهما ينعمان بالطعام والشراب والغناء والضحك والدفء المنبعث من نار الموقد المتأججة.. هل تظنينهما يفعلان ذلك يا نيللى؟.. أم ترينهما يقرآن العظات ويدرسان اللاهوت على يد خادم عجوز يرغمهما على حفظ أعمدة برمتها من الأسماء المعقدة التى ذكرت بالتوراة إذا هما لم يحسنا الإجابة على أسئلته؟..

فأجبته: (إنهما لا يفعلان ذلك على الأرجح، فلا ريب أنهما طفلان طيبان لا يستحقان المعاملة التى تلقيانها جزاء سلوككما السئ!.) فابتدرنى مجيبًا: (دعى عنك هذا النفاق يا

نيللى.. فأنت تهذين.. حسنًا.. لقد انطلقنا نعدو من قمة المرتفعات حتى الحديقة، دون توقف، وقد غلبت كاثرين تمامًا فى هذا السباق لأنها كانت حافية القدمين - وعليك أن تبحثى غدًا عن حذائيها وسط مستنقعات الأوحال! - ثم تسللنا خلال ثغرة فى السياج، وتلمسنا طريقنا فى الممر المرتفع حتى وقفنا أخيرًا فوق أصيص زهر تحت نافذة حجرة الجلوس، وهي التى كان يتسرب خلالها الضوء الذي رأيناه، إذ كانت مصاريعها الخشبية غير موصدة وستائرها منفرجة.. وكان فى وسع كل منا أن ينظر إلى داخل الحجرة إذا وقفنا فوق الإصيص وتعلقنا بأفريز النافذة.. وما الذي رأيناه؟.. لقد صافحت عيوننا منظرًا خلابًا!.. كان المكان رائع الجمال تغطى أرضه طنافس قرمزية اللون، وتكسو مقاعده وموائده مفارش من اللون نفسه، والسقف ناصع البياض مموه الحواشى بالذهب، تتدلى منه ثريا من قطع البللور الشبيهة بقطرات الدموع، وقد علقت إلى السقف بسلاسل من الفضة وتألقت بأضواء شموع دقيقة رقيقة.. ولم يكن مستر ومسز لينتون الكبيران هناك، وإنما اختص بالحجرة كلها أدجار وشقيقته.. أفلا يخلق بهما أن يكونا سعيدين هانئين؟.. أننا لو كنا فى مكانهما لحسبنا نفسينا فى الفردوس!.. والآن، هل يمكنك أن تحدسى ما كان (طفلاك الطيبان) يفعلان؟.. كانت إيزابيلا - وأحسبها فى الحادية عشرة وتصغر كاثى بعام واحد - مستلقية على الأرض فى الطرف القصى من الحجرة وهي تصيح وتصرخ كأنما اجتمعت عليها الساحرات يغرسن فى لحمها إبرًا محماة فى النار!.. أما أدجار فكان يقف بجوار الموقد، وهو ينتحب فى سكون، بينما قبع فى وسط المائدة جرو صغير يهز ذراعه وينبح نباحًا خافتًا، وفهمنا من الاتهامات التى كانا يتبادلانها أنهما كادا يشطرانه بينهما وهما يتجاذبانه.. يالهما من أخرقين!.. أبهذه الوسيلة يلهوان ويلعبان؟.. أن يتشاجرا متنازعين على أيهما يمسك هذه الكومة من الشعر الدافىء، ثم يأخذ كل منهما فى البكاء لأن كلًّا منهما، بعد أن ناضل رفيقه على اقتنائها، يأبى أن يأخذها!.. لقد أمعنا فى الضحك ساخرين من هذين الأبلهين اللذين أفسدهما التدليل، وامتلأت نفسانا ازدراءً لهما واحتقارًا لصغارهما.. بربك يا نيللى هل ضبطتنى يومًا راغبًا فى شىء تريده كاثى؟.. أو هل وجدتنا منفردين يومًا ننشد اللهو والمرح فى الصراخ والعويل، والتدحرج على الأرض، تفصلنا الحجرة بأسرها؟.. إننى لا أرضى قط - ولو عشت ألف حياة - بأن أستبدل بحالتى هنا، حياة أدجار لنتون فى ثرشكروس جرانج، حتى ولو اختصصت بميزة القدرة على إلقاء جوزيف من أعلى قمة فيه، أو طلاء واجهة البيت بدم هندلى!..).

فقاطعته قائلة: (صه!.. صه!.. ثم إنك لم تخبرنى بعد يا هيثكليف كيف خلفت كاثى وراءك؟..)

فاستطرد يقول:

- قلت لك إننا ضحكنا ساخرين، وعندئذ سمعنا الطفلان فاندفعا نحو الباب فى وقت معًا كأنهما قذيفتان من السهام.. وخيم الصمت لحظة، ثم انبعثت صيحة تهتف: (آه.. ماما.. ماما.. آه.. بابا.. تعاليا هنا).. والواقع أن كليهما كانا يعويان بكلمات من هذا النوع، فأخذنا نحدث ضوضاء مخيفة لنزيد من رعبهما، ولكننا ما لبثنا أن تركنا إفريز النافذة؛ وهوينا إلى الأرض، إذ كان أحد سكان الدار يرفع المزاليج من خلف الباب، فشعرنا بأن من الخير لنا أن نعمد إلى الفرار.. وكنت أمسك بيد كاثى، وأستحثها على الإسراع، عندما وجدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة واحدة، ثم تهمس لى قائلة: (اجر يا هيثكليف.. أسرع.. لقد أطلقوا البولدوج فى أثرنا وها هو يمسك بى!..)



كنت أمسك بيد كاثي، وأستحثها على الإسراع، عندما
جدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة واحدة..

وكان الشيطان يمسك بعقبها يا نيللى، فكنت أسمع زمجرته المروعة... أما هى فلم تصرخ قط.. كلا.. وإنها لخليقة بأن تأنف من الصراخ لو حملتها بقرة ثائرة وسلكتها فى قرنيها!.. ومع ذلك كنت أنا الذي صحت وعولت.. وتدفقت من فمى اللعنات التى تكفي لتدمير أى شيطان خبيث!.. وتناولت حجرًا ودفعته بين فكى الكلب، ثم حاولت بكل قواى أن أحشره فى حلقه.. وأخيرًا أقبل بهيم من الخدم يحمل مصباحًا، وهو يهتف بالوحش: (شدد القبض يا سكلكر.. شدد قبضتك!..) ولكنه ما أن رأى فريسة سكلكر حتى بدل من لهجته، ثم أمسك بعنق الكلب حتى خلصها من بين فكيه، فتدلى لسانه الضخم القانى زهاء نصف قدم خارج فمه وقد فاضت شفتاه باللعاب الدامى.. ورفع الرجل كاثى عن الأرض، وكانت قد أغمى عليها، لا من الخوف - يقينًا - وإنما من الألم.. وحملها إلى الداخل، فتبعته دون ان أكف عن إطلاق ألفاظ السباب واللعنات والوعيد بالانتقام.. وهتف لنتون من الداخل: (ما نوع الفريسة يا روبرت؟) فأجابه: (لقد أمسك سكلكر بفتاة صغيرة يا سيدي) ثم أردف وهو يتشبث بكتفى: «وهنا أيضًا غلام يلوح فى وجهه الشر، ويبدو أن اللصوص كانوا يريدون إدخالهما من النافذة ليفتحا الأبواب للعصابة بعد أن ينام أهل الدار جميعًا، حتى يتاح لهم بذلك أن يفتكوا بنا فى يسر بغير عناء.. أمسك لسانك أيها الص ذو الفم الدنس، واعلم أنك سوف تشنق جزاء فعلتك هذه.. وأنت يا سيدي مستر لنتون، لا تدع مسدسك يغيب عنك قط!).. فقال العجوز المأفون:(كلّا.. كلا يا روبرت.. لقد علم الأوغاد أن الأمس كان يوم تحصيل الإيجارات، وحسبوا أنهم سوف ينالوننى فى براعة.. ادخل، فسوف أهيىء لهم استقبالًا رائعًا.. وأنت يا جون، ثبت السلاسل فى مكانها.. ضعى للكلب بعض الماء يا جينى!.. آه!.. أيجترئون على قاض فى عرينه المنيع، وفى يوم أحد أيضًا؟.. إلى أى حد سيمضون فى قحتهم وفجورهم؟.. آه!.. انظرى هنا يا عزيزتى مارى.. لا تخشى شيئًا فإنه ليس إلاغلامًا صغيرًا، وان كان الشر مرتسمًا على وجهه فى جلاء!.. أليس من الرحمة بالمجتمع أن يُشنق للتو واللحظة، قبل أن تظهر طبيعته فى أعماله الشريرة، كما تظهر فى محياه؟..) ثم جذبنى تحت الشموع ليتفرس فى وجهي، على حين وضعت مسز لنتون عويناتها فوق أنفها وما لبثت أن رفعت ذراعيها فى هلع شديد.. أما الصغيران فقد ازدادا التصاقًا بأمهما فى جبن واضح، وتمتمت ايزابيل بلثغتها القبيحة: (يا له من (شىء) رهيب!.. اسجنه فى القبو يا أبتاه، فإنه يشبه تمامًا ابن قارئة البخت الذي سرق دجاجتى البرية الأليفة.. أليس كذلك يا ادجار؟)

وبينما كانوا يتفحصوننى ويتفرسون فى وجهي، أفاقت كاثى من غشيتها.. وسمعت العبارة الأخيرة، فانبعثت تضحك بملء فيها، وعندئذ حملق ادجار لنتون فيها بنظرات متسائلة، استجمع على إثرها من وشائج فطنته ما يكفي لأن يعرفها.. فهم يروننا فى الكنيسة، كما تعلمين، وإن كنا قلما نقابلهم فى أى مكان آخر.. وما لبث أن همس لوالدته قائلًا: (هذه مس إيرنشو.. انظرى كيف عقرها سكلكر، وكيف تدمى قدمها!)

فصاحت السيدة: (مس إيرنشو؟.. هراء!.. مس إيرنشو ترتاد الريف فى رفقة ولد من الغجر؟.. ومع ذاك.. يا إلهي!.. إن الغلام يرتدى ثياب الحداد - إنه كذلك حقًّا - ولقد كان من المحتمل أن تفقد قدمها إلى الأبد!)

فهتف مستر لنتون متعجبًا وهو ينقل أنظاره منى إلى كاثرين:

- ياله من استهتار إجرامى من جانب شقيقها!.. لقد فهمت من حديث شيدلر (كان هذا اسم القس يا سيدي) أنه يدعها تنشأ وتنمو فى الوثنية المطلقة.. ولكن من هذا؟.. ومن أين التقطت هذا الرفيق؟..أوه!.. أوه!.. أرى أنه ليس سوى ذلك الغلام الغريب الذي اقتناه المرحوم جارى الراحل أثناء رحلته إلى ليفربول، ولا ريب أنه شرير صغير ألقت به البحار من الهند أو أمريكا أو أسبانيا..

فقالت السيدة الكهلة: (مهما يكن من أمر فإنه غلام شرير، ولا يليق البتة ببيت محترم.. هل لاحظت ألفاظه ولهجته يا لنتون؟.. شد ما يضايقنى أن يضطر طفلاى إلى سماعها..).

فعاودت السباب واللعنات من جديد - وبالله لا تغضبى يا نيللى! - وهكذا صدر الأمر إلى روبرت بأن يخرجنى من البيت.. ورفضت الذهاب ما لم تصحبنى كاثى، ولكنه جرنى جرًّا إلى الحديقة، ودفع المصباح فى يدي، قائلًا إن مستر إيرنشو سوف يحاط علمًا بمسلكى، ثم أمرنى بأن أمضى فى طريقى قدمًا، وسرعان ما أوصد الباب فى وجهي... وكانت الستائر ما تزال منفرجة عند أحد أركان النافذة، فعدت إلى موقفى مسترقًا النظر من جديد، وفى نيتى، إذا رأيت كاثرين راغبة فى العودة معى، أن أحطم ألواح الزجاج الكبيرة إلى ملايين الشظايا، أو يسمحوا لها بالخروج.. ولكنها كانت تجلس فوق الأريكة فى هدوء وطمأنينة، بينما كانت مسز لينتون تنزع عنها معطف الغسالة الأغبر الذي كنا قد استعرناه لرحلتنا هذه، وهي تهزّ رأسها وتبدو كأنما تعاتبها على مسلكها... لقد كانت سيدة صغيرة، وكانوا، من ثم، يفرقون فى المعاملة بينها وبينى.. وأحضرت الخادم وعاء به ماء دافىء، وراحت تغسل قدميها، على حين وقف مستر لينتون يعد لها شرابًا ساخنًا، هو مزيج من الليمونادة والنبيذ، وأتت إيزابيلا بطبق ملىء بالكعك أفرغته فى حجرها، ببنما وقف إدجار على مبعدة يحدق النظر إليها فاغر الفم مبهوتًا!.. وما لبثوا أن راحوا يجففون شعرها الجميل ويمشطونه، وأتوها بخف كبير الحجم، ثم قادوها إلى المدفأة... فخلفتها وهي أوفر ما تكون مرحًا وغبطة، تقتسم طعامها مع الكلب الصغير ومع (سكلكر) الذي كانت تقرص أنفه وهو يمضغ الطعام، وتشعل وميضًا من الحيوية فى عيون آل لينتون الزرقاء الجوفاء، وميضًا ينعكس من جمالها الساحر ووجهها الصبيح... ورأيتهم جميعًا وقد ملأهم الإعجاب والذهول، إذ كانت أعظم منهم سموًا فلا يتطاولون إلى منزلتها، بل أنها لأرفع من أى إنسان آخر على وجه الأرض.. أليست كذلك يا نيللى؟!).

فأجبت وأنا أدثره بالأغطية وأطفىء الشمعة: (لسوف تجلب هذه المسألة من العواقب أكثر مما تقدره وتحسبه.. فأنت شخص لا يرجى صلاحك يا هيثكليف، وسوف يذهب مستر هندلى فى عقابك إلى أقصى الحدود.. وسوف ترى إذا كان لا يفعل!..) ولقد تحققت نبوءتى إلى أبعد مما قدرت وأردت.. فإن تلك المغامرة التعسة أثارت ثائرة إيرنشو، وزاد الطين بلة مقدم مستر لينتون فى الغداة لإصلاح الأمر؛ فإذا به يلقى على السيد الشاب محاضرة طويلة عن الطريق التى يسلكها فى قيادة أسرته ورعاية شئونها، بحيث جن جنون هندلى وراح يتلفت حواليه فى لهفة.. ولكن هيثكليف - هذه المرة - لم يُجلد أو يعاقب، وإنما قيل له أنه إذا وجه إلى مس كاثرين كلمة واحدة فسوف يُطرد من المنزل فورًا!.. كما أخذت مسز إيرنشو على عاتقها أن تحول دون اتصال هيثكليف بشقيقة زوجها بعد عودتها، على أن تستخدم الحيلة والدهاء فى ذلك، لا العنف والقسر اللذين كانا خليقين بأن يجعلا مهمتها شاقة بل مستحيلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

مكثت كاثى فى (ثرشكروس جرانج) خمسة أسابيع، حتى حلّ عيد الميلاد.. وفى خلال تلك المدة كان عقبها قد شفي تمامًا، وتحسنت أخلاقها وسلوكها كثيرًا... وقد قامت السيدة مرارًا بزيارتها فى هذه الأثناء، حيث بدأت خطتها فى إصلاح الفتاة، بمحاولة رفع روحها المعنوية، وزيادة شعورها باعتبارها، وذلك بإهدائها الثياب الفاخرة، وتملقها، الأمر الذي تقبلته الفتاة عن طيب خاطر... وهكذا فإننا بدلًا من أن نرى فتاة وحشية نافرة عارية الرأس تقفز إلى داخل المنزل وتندفع إلى كل منا لتعصره بين ذراعيها حتى تنقطع منا الانفاس، إذا بنا نرى التى تهبط، من فوق ظهر مهر أسود جميل، آنسة رفيعة القدر تتدلى غدائرها الكستنائية من تحت قبعة من الفراء المزين بالريش، وترتدى معطفًا طويلًا من القماش الفاخر راحت تجمع أطرافه بكلتا يديها حتى تستطيع السير فى يسر.. ورفعها هندلى من فوق ظهر الجواد بين ذراعيه، وهو يهتف جذلًا: (ما هذا يا كاثى؟.. إنك رائعة الجمال... لقد كدت لا أعرفك، فإنك تبدين الآن مثال السيدة الرفيعة.. إن إيزابيلا لينتون لا تقاس بها شيئًا، أليس كذلك يا فرانسيس؟..) فأجابت زوجته: (إن إيزابيلا ليست على شىء من جمالها ومزاياها.. ولكنها يجب أن تتعقل فلا تعود إلى وحشيتها هنا... ساعدى مس كاثرين فى خلع ثيابها يا إيلين!.. آه!.. انتظرى ياعزيزتى حتى لا تفسد غدائرك، ودعينى أخلع قبعتك بنفسى...)

ونزعت المعطف، فتألق تحته ثوب نفيس من الحرير اللامع المتعدد الألوان، وسراويل بيضاء، وحذاء يخطف بريقه الأبصار!.. وبينما تألقت عيناها سرورًا عندما تدافعت الكلاب حولها مرحبة بها، فإنها لم تجرؤ على مداعبتها حتى لا تلعقها فتفسد ثوبها وزينتها.. بل أنها قبلتنى فى رفق، وعن بعد، إذ كان ثوبى ملوثًا بدقيق كعكة عيد الميلاد التى كنت أقوم بصنعها، فلم تر من الملائم أن تضمنى إلى صدرها!.. وما لبثت أن تلفتت باحثة عن هيثكليف، وهي اللحظة التى كان مستر إيرنشو وزوجته يرقبانها فى لهفة وقلق، إذ يريان أن لقاءهما سوف يمكنهما من الحكم، إلى حد ما، على احتمالات الأمل فى نجاح خطتهما فى التفريق بين الصديقين!

وظل هيثكليف مختفيًا عن الأنظار فى بادئ الأمر.. وإذا كان، قبل غيبة كاثرين الطويلة، قليل الاهتمام بنظافته، ولا يجد من يعنى به، فقد غدا، منذ الحين، أسوأ من ذلك عشر مرات... ولم يجد أحد ممن فى الدار فى نفسه نازعة من نوازع الشفقة به حتى ينبهه إلى قذارته، سواى.. فكنت آمره بغسل وجهه ولو مرة كل أسبوع، إذ أن الصبيان فى سنه قلما يجدون بهجة فى لقاء الماء والصابون... لذلك فأنه، بغض النظر عن ثيابه التى صحبته فى الخدمة فى الوحل والتراب ثلاثة شهور دون أن يستبدلها، وعن شعره الملبد الذي لم يمشطه طوال تلك المدة، فقد كان وجهه ويداه تخفيها الأقذار إلى حد مروع.. ولعله توارى خلف أحد الحواجز، عندما رأى آنسة وضاءة الطلعة، بهية المظهر، تدخل المنزل بدلًا من تلك الفتاة المشعثة الشبيهة به، كما كان يتوقع.. وأخيرًا قالت وهي تنزع قفازيها وتكشف عن أنامل ابيض لونها ورقت بشرتها من قلة استعمالها ومن مكثها داخل الدار طويلًا: (أليس هيثكليف هنا؟)

وعندئذ صاح مستر هندلى، منتشيًا بما أصاب الفتى من سوء الحال وخيبة الأمل، مستمتعًا بأن يراه مضطرًا إلى الظهور بهذا المظهر المزرى الخسيس: (يمكنك أن تتقدم يا هيثكليف.. يمكنك أن تأتى لترحب بمس كاثى كباقى الخدم!..).

وما أن لمحت كاثى صديقها فى مخبئه.. حتى اندفعت نحوه مسرعة، كأنها خفقة من جناح طائر، لتحتضنه وتعانقه، وأمطرت وجهه بسبع قبلات أو ثمان فى أقل من ثانية واحدة،

ولكنها ما لبثت أن توقفت بغتة، وتراجعت إلى الوراء، ثم انفجرت ضاحكة وهي تقول: (عجبًا!.. ما أشد سواد طلعتك وتقطيب أساريرك!.. ثم.. لماذا تبدو متجهمًا مضحكا؟.. ولكن لعل ذلك بسبب تعودى على رؤية إدجار وإيزابيلا لينتون.. حسنًا يا هيثكليف، هل نسيتنى؟).

وكان لها العذر فى إلقاء هذا السؤال عليه، لأن الخزى والكبرياء ألقيا على محياه جهامة وعبوسًا فوق جهامته وعبوسه المألوفين، وسمراه فى مكانه بلا حراك.. وعندئذ قال مستر إيرنشو فى تنازل:

- صافحها يا هيثكليف!.. إننا نسمح بذلك هذه المرة!

فأجاب الغلام وقد استطاع النطق أخيرًا: (لن أفعل.. ولن أقف لأكون أضحوكة لها.. فهذا أمر لا أستطيع احتماله!).

وهمّ بالفرار من وسط الحلقة، لولا أن مس كاثى أمسكت به ثانية وقالت: (لم أكن أقصد أن أضحك منك، وإن كنت لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك.. ألا صافحنى يا هيثكليف على الاقل!.. ما الذي يثيرك هكذا؟.. إن الأمر لا يعدو أننى استغربت منظرك العجيب. ولو أنك تغسل وجهك وتمشط شعرك لأصبح كل شىء على ما يرام، فالحق أنك شديد القذارة!).

وراحت تحدق النظر فى إمعان إلى أصابعه القذرة الكابية التى كانت تمسك بها بين يديها، وتقلب البصر بينها وبين ثوبها النظيف - كأنما تخشى أن يناله شىء من القذارة من ملامسته لثياب هيثكليف - وكان يتبع نظراتها فى فهم وإدراك، فإذا به ينتزع يده من يدها فى عنف وقوة، ويقول:

- لم تكن بك حاجة لأن تلمسينى.. صوف أكون قذرًا بالقدر الذي يروق لى.. انا أحب القذارة وسأظل قذرًا!

ثم اندفع خارجًا من الحجرة فى انفعال شديد، وسط قهقهة السيدة والسيد، وقلق كاترين وانزعاجها البالغ، فلم يكن فى استطاعتها أن تفهم كيف تثير ملاحظتها البسيطة هذا المظهر الواضح من سوء الخلق!

وبعد أن قنعت بدور الوصيفة للقادمة الجديدة، ووضعت الكعك فى الفرن، وأوقدت مدفأتى المطبخ وحجرة الجلوس نيرانًا حامية تشيع فيهما الدفء والبهجة، بما يليق وعشية عيد الميلاد، اتخذت لنفسى مجلسًا ورحت أسلى نفسي بالترنم بأناشيد العيد، وحدي، ضاربة صفحًا عن تأكيد جوزيف بأنه يعتبر الأنغام المرحة التى آثرت الترنم بها أقرب إلى الأغانى الخليعة!! وكان قد اعتكف فى حجرته ليؤدى صلاته الخاصة، بينما كان مستر ومسز إيرنشو يثيران اهتمام الآنسة بتلك التوافه الخلابة المختلفة التى أحضراها كى تقدمها هدية للشقيقين الصغيرين إدجار وإيزابيلا لينتون، عرفانًا منها بحسن صنيعهما معها.. فقد وجهت إليهما الدعوة لقضاء اليوم التالى فى (مرتفعات ويذرنج)، وقُبلت الدعوة من جانبهما بشرط واحد، إذ رجت مسز لينتون أن يظل طفلاها الحبيبان بمنأى تمامًا عن ذلك (الولد الشرير البذئ اللسان!).

وإزاء هذه الظروف، مكثت جالسة وحدي، أشم تلك الرائحة الدسمة المنبعثة من الفطائر الناضجة فى الفرن، وأتأمل فى إعجاب أوانى المطبخ اللامعة، وساعة الحائط المجلوة وقد أحاطت بها أوراق شجرة عيد الميلاد، والأقداح الفضية المصفوفة فوق صفحة كبيرة، انتظارًا لملئها بالجعة الساخنة وقت العشاء، ثم فوق كل شىء، ذلك البلاط اللامع المصقول الذي يعزى صفاؤه ونقاؤه إلى عنايتى بصقله ومسحه!.. وكنت في قرارتى أصفق استحسانًا لكل شىء يقع عليه بصري، فذكرت كيف اعتاد إيرنشو العجوز أن يأتى بعد أن يتم إعداد

كل شيء وترتيبه، فيدعونى بـ (البنت المهياصة)!.. ثم يدس فى يدي (شلنًا)، كمنحة عيد الميلاد.. واستطرد بى التفكير من ذلك إلى ولعه الشديد بهيثكليف، وفزعه مما قد يلقاه من إهمال بعد أن يطويه الموت.. وقادنى هذا التفكير، بطبيعة الحال، إلى التأمل فيما بلغته حال الفتى المسكين من السوء الآن، وعندئذ غيرت رأيى فتحولت من الترنم بالغناء إلى البكاء والنواح!.. ولكن سرعان ما خطر لى أن الأجدى والأصوب هو محاولة إصلاح بعض ما أصابه من مظالم بدلًا من ذرف الدموع عليها، وهكذا نهضت ومضيت إلى الفناء فى طلبه، ولم يكن بعيدًا، إذ وجدته فى الإسطبل يطعم الدواب ويمسح على جلد المهر الجديد اللامع المصقول، فقلت له:

- أسرع يا هيثكليف، فإن المطبخ شديد الإغراء، وجوزيف فى الطابق العلوي.. أسرع ودعنى ألبسك وأهندمك قبل أن تأتى مس كاثى، حتى تستطيعا الجلوس معًا برهة منفردين بجوار المدفأة، وتتحدثا حديثًا طويلًا إلى أن يحين موعد النوم..

فاستمر يقوم بعمله دون أن يحول رأسه نحوي البتة.. فاستطردت أتابع القول:

- هيا.. ألست قادمًا معى؟.. إن لدى كعكة صغيرة لكل منكما تكفي لإشباعكما.. هيا، فإن لبسك وتهيئتك تحتاج إلى نصف ساعة على الأقل..

وانتظرت خمس دقائق، فلما لم أتلق منه ردًّا، سواء بكلمة أو إيماءة، تركته ومضيت لشأنى.. وتناولت كاثرين عشاءها مع أخيها وزوجته، على حين اقتسمت وجوزيف عشاء كئيبًا كانت مشهياته التعنيف والتبكيت من جانب، والمكر والتخابث من الجانب الآخر!.. بينما بقيت فطيرة هيثكليف وقطعة الجبن المعدّة له موضوعتين على المائدة طوال الليل كأنما أعدتا لعشاء العفاريت!.. فقد تعمد أن يمضي فى العمل حتى الساعة التاسعة، حيث انصرف إلى حجرته قدمًا، دون أن تنفرج شفتاه بكلمة أو همسة، مصرًّا على الاعتكاف والعزلة.. أما كاثى فقد سهرت طويلًا تلك الليلة إذ كانت لديها دنيا بأسرها من الأشياء التى تود أن تأمر بإعدادها لاستقبال أصدقائها الجدد فى الغداة.. وقد حضرت إلى المطبخ مرة لتتحدث إلى صاحبها القديم، فمكثت برهة ريثما سألتنى عما دهاه، ثم انصرفت لشأنها..

واستيقظ هيثكليف مبكرًا فى الصباح، وإذ كان اليوم عطلة العيد، فقد حمل همومه وعبوسه إلى البرارى، ولم يظهر ثانية إلا بعد أن كانت الأسرة قد ذهبت إلى الكنيسة.. ويبدو أن الصوم وإمعان الفكر قد خففا من غلوائه وردّاه إلى حالة معنوية أفضل، إذ ظل يحوم حولى برهة، وما لبث ان استجمع شجاعته فقال لى بغتة:

- اجعلى منى شخصًا حسن المظهر يا نيللى، فقد عزمت على أن أكون غلامًا طيبًا!

فقلت: (ليت ذلك كان من زمن يا هيثكليف!.. لقد آلمت كاثرين وأحزنتها حتى لأجرؤ على القول بأنها أسفت لعودتها إلى المنزل!.. ويبدو أنك تغار منها لأنها تلقى الرعاية والاهتمام أكثر مما تلقاه أنت).

وكانت فكرة (غيرته) من كاثرين غير ذات معنى لديه، فلم يفهمها.. أما فكرة (إيلامه) لها فقد فهمها واضحة جلية، إذ سألنى وقد لاح عليه الاهتمام البالغ: (هل قالت إنها حزنت وتألمت؟).

- لقد بكت هذا الصباح عندما أخبرتها أنك خرجت ثانية..

- حسنًا، لقد بكيت انا ليلة أمس، وكان لدى من أسباب البكاء وبواعثه أكثر مما لديها..

- نعم.. وكنت من التعقل بحيث ذهبت إلى الفراش بقلب ملىء بالكبرياء، ومعدة خاوية من الطعام!.. إن ذوي الكبرياء يخلقون لأنفسهم الأحزان والهموم دائمًا.. ولكن إذا كنت حقًّا

نادمًا على حمقك وتسرعك، فيجب أن تسألها الصفح عندما تعود من الخارج.. يجب أن تصعد إليها وتعرض عليها أن تقبلها، وتقول لها.. حسنًا.. إنك تعرف خيرًا منى ما ينبغى أن تقوله.. ولكن عليك أن تفعل ذلك من كل قلبك، لا كما لو كنت تعتقد أنها قد تحولت إلى إنسانة غريبة عنك لمجرد أنها ترتدى ثوبًا فاخرًا.. ومع أننى الآن مشغولة بإعداد الطعام، إلا أننى سوف أختلس بعض الوقت لأعنى بزينتك بحيث يبدو إدجار لينتون إلى جانبك أشبه بدمية صغيرة، وإنه لكذلك حقًا!.. إنك أصغر منه سنًا، ومع ذلك أؤكد لك أنك أطول منه قامة وتفوقه مرتين فى عرض منكبيك.. إن فى وسعك أن تصرعه فى لمحة كومضة البرق.. ألا تشعر أنك قادر على ذلك؟

فأشرق وجه هيثكليف لحظة، ثم ما لبث أن غاضت إشراقته وتنهد قائلًا:

- ولكن يا نيللى لو أننى صرعته عشرين مرة، لما قلل ذلك من وسامته أو زادنى جمالًا!.. وشد ما أتمنى أن يكون لى شعر أشقر وبشرة ناصعة البياض وثياب شبيهة بثيابه، وعيشة تماثل عيشته، وفرصة لأن أكون ثريًا مثلما سيكون.

فأضفت لأكمل له الصورة:

- وأن تظل تصيح: (ماما.. ماما..) كلما روعك شئ، وترتعد فزعًا إذا لوَّح صبي ريفى بقبضة يده فى وجهك، وتظل قعيد الدار كلما سقط رذاذ من المطر!.. أواه ياهيثكليف!.. إنك تبدى روحًا خائرة وهمة فاترة!.. تعال معى إلى المرآة وسوف أجعلك ترى ما ينبغى أن تتمناه.. هل تلاحظ هذين الخطين العميقين بين عينيك، وهذين الحاجبين الكثيفين اللذين يغوصان فى الوسط بدلًا من أن يرتفعا مقوسين؟.. ثم هذين الشيطانين الخبيثين الغائرين فى محجريهما عميقًا، واللذين لا يفتحان نوافذهما قط فى صراحة وشجاعة، وإنما يكمنان تحتها ويشعان بريقًا خاطفًا كأنهما من جواسيس الشيطان؟.. عليك أن ترغب حقًا وتعرف كيف تلين هذه الغضون والتجاعيد التى تنم عن الشراسة والمشاكسة، وكيف ترفع أجفانك فى صراحة، وتحيل الشيطانين الخبيثين إلى ملاكين بريئين ممتلئين ثقة، لا يرتابان ولا يشكان فى شئ ولا يريان إلا أصدقاء، حيثما لا يكونان واثقين من أنهم أعداء!.. ولا تحمل أساريرك ذلك الطابع الغريب الذي يعلو أسارير كلب زنيم يعرف أنه يستحق الركلات التى ينالها، ومع ذلك يبغض العالم كله مع الشخص الذي يركله، من أجل ما يلحق به من أذى وألم..

فأجابنى:

أى إننى - فى كلمات أخرى - يجب أن أرغب حقًا فى أن تكون لى عينا إدجار لينتون - الزرقاوان الواسعتان، وجبهته المستوية الملساء؟.. حسنًا.. إننى أرغب فى ذلك حقًا. ولكن ذلك وحده لا يساعدنى على أن أنال رغبتى..

فتابعت حديثى قائلة:

- إن القلب الطيب سوف يجعل لك وجهًا جميلًا يا بنى ولو كنت زنجيًا صميمًا.. أما القلب الشرير فإنه يحيل الوجوه الجميلة إلى ما هو أسوأ من القبح والدمامة.. والآن وقد فرغنا من الاغتسال، وتمشيط الشعر، ومن العبوس والتجهم أيضًا، فانظر وقل لى ألست ترى نفسك أقرب إلى الوسامة وصباحة الوجه؟.. أما أنا فأراك كذلك حقًا.. فأنت الآن أليق بأن تكون أميرًا متنكرًا!.. ومن يدري، لعل أباك كان امبراطور الصين، وأمك كانت ملكة هندية، وكلاهما قادر على أن يشترى، بدخل أسبوع واحد، مرتفعات ويذرنج وثرشكروس جرانج معًا؟.. ولعل بعض البحارة الشريرين قد اختطفوك وأحضروك إلى انجلترا؟.. ولو أننى كنت فى مكانك لأظهرت فكرة عالية عن طيب منبتى ورفعة أصلى. ولمنحنى التفكير فيما كنت

عليه، الشجاعة والكرامة لاحتمال مظالم فلاح صغير لا يطاولنى!

ولبثت أتحدث إلى هيثكليف على هذا النحو حتى لانت أساريره وتلاشى عبوسه وتجهمه، وبدا يلوح بهي الطلعة مُشرق المحيا، عندما قطع حديثنا فجأة صوت قعقعة تنبعث من الطريق وتدخل إلى الغناء.. وأسرعنا معًا، هو إلى النافذة، وأنا إلى الباب، فى الوقت المناسب كى نرى إدجار لينتون وشقيقته يهبطان من عربة الأسرة، وقد أخفت المعاطف والفراء معالمهما، بينما كان آل إيرنشو يترجلون عن جيادهم التى كانوا يمتطونها غالبًا عندما يذهبون إلى الكنيسة فى الشتاء.. وأمسكت كاثرين بيدى الصغيرين وقادتهما إلى المنزل، ثم أجلستهما أمام نار المدفأة، التى سرعان ما أشاعت الحمرة فى وجهيهما الشاحبين..

وحثثت رفيقى على أن يسرع الآن ويكشف لهم عن دماثة خلقه وروحه الودية، إلا أن سوء الحظ أراد أنه فى اللحظة التى كان فيها هيثكليف يفتح الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس من ناحية، كان هندلى يفتحه من الناحية الأخرى، فتقابلا وجهًا لوجه.. وكأنما حنق السيد إذ رآه نظيفًا مرحًا، أو أراد أن يفى بوعده لمسز لينتون، فإذا به يدفعه إلى الوراء دفعة عنيفة مفاجئة، ويصيح فى جوزيف فى سخط: (أبعد هذا الشخص عن الحجرة.. احبسه فى المخزن العلوي حتى نفرغ من الغذاء، فسوف يعبث بأصابعه القذرة فى الفطائر والحلوى، ويسرق الفاكهة، لو ترك وحده معها لحظة واحدة)

فلم أتمالك نفسي من القول فى انفعال:

- لا يا سيدي.. إنه لن يمس شيئًا.. فما هو بالذي يفعل ذلك.. ثم إننى أحسبه خليقًا بأن ينال نصيبه من فطائر العيد وحلواه، شأننا جميعًا..

فصاح هندلى:

- بل سوف ينال نصيبه من يدي لو أمسكت به فى هذا الطابق حتى المساء.. امش أيها المتشرد.. اغرب عن وجهي.. ماذا؟.. ما شاء الله.. ما هذه الغندرة التى تحاول أن تظهر بها؟.. اصبر حتى أمسك بهذه الغدائر الأنيقة، لترى كيف أجذبك منها حتى أزيدها طولًا..

فقال السيد لينتون وهو يسترق النظر من فتحة الباب:

- إنها طويلة بما فيه الكفاية، وإنى لأعجب كيف لا تصيبه بوخز فى رأسه.. إنها تتدلى فوق عينيه أشبه بناصية (قصة) الجحش..

ولقد اجترأ على إبداء هذه الملاحظة دون أى قصد للإهانة أو السباب، ولكن طبيعة هيثكليف الحادة لم تكن مستعدة لاحتمال مظاهر القحة من شخص يبدو أنه كان يبغضه - حتى فى ذلك الحين - كمنافس له، فأمسك بآنية مليئة بصلصة التفاح الساخنة (وهي أول شيء صادفته يده) وقذف بها إدجار فسالت على وجهه وعنقه، وسرعان ما بدأ يعول وينتحب على نحو جعل كاثرين وإيزابيلا تخفان سريعًا إلى المكان لتريا ماذا دهاه.. وفى الوقت نفسه جذب مستر إيرنشو المعتدى فى عنف وحمله إلى حجرته.. ولا ريب أنه قد قدم له علاجًا عنيفًا ليهدئ من ثورة الانفعال التى أصابته، لأنه عندما ظهر ثانية كان متورد الوجه لاهث الأنفاس.. أما أنا فقد أحضرت منشفة الصحون ورحت أفرك بها أنف إدجار لينتون وفمه؛ فى غل وغيظ، مؤكدة أن ذلك سوف يشفيه تمامًا من التدخل فيما لا يعنيه.. وأخذت شقيقته تنوح طالبة العودة إلى منزلها، بينما وقفت كاثرين واجمة وقد تورد وجهها خجلًا وحنقًا.. وما لبثت أن راحت تؤنب السيد لينتون قائلة:

- ما كان ينبغى أن تكلمه.. لقد كان فى حالة معنوية سيئة، وها أنت ذا قد أفسدت زيارتك..

وسوف يجلد.. وأنا أكره أن أراه يجلد.. ولن أستطيع أن أتناول غذائى.. لماذا تحرشت به يا إدجار؟

فغمغم الفتى وهو يجهش بالبكاء، ويفر من يدي ليتم ما بقي من تنظيف وجهه وثيابه بمنديله الرقيق:

- إننى لم أخاطبه.. فقد وعدت ماما بألا أوجه إليه كلمة واحدة، ولم أفعل..

فأجابت كاثرين فى ازدراء:

- حسنًا.. كف عن البكاء إذن فإن أحدًا لم يفتك بك!.. ولا تثر المزيد من الشر فإن أخى قادم.. صه يا إيزابيلا!.. هل نالك أحد بالأذى أنت الأخرى؟

واندفع هندلى إلى داخل الحجرة صائحًا:

- هيا يا أطفالى.. هيا إلى مقاعدكم حول المائدة.. لقد أثار هذا الغلام الوحشى الدماء فى عروقى.. أما أنت يا سيد إدجار فعليك فى المرة القادمة أن تأخذ حقك بيدك، فإن ذلك يثير شهيتك للطعام!

واستعادت الجماعة الصغيرة هدوءها وسكينتها لدى مرأى الوليمة الفاخرة التى أعدت لهم، والتى كان عبير الطعام يفوح منها فيسيل من شذاه لعابهم، وقد استبد بهم الجوع بعد ركوبهم فى الهواء الطلق، ونسوا أحزانهم فى سرعة ويسر، خصوصًا وأن أحدًا منهم لم يحل به أذى حقيقى.. وكان مستر إيرنشو يقطع اللحم ويملأ به الأطباق فى سخاء، بينما كانت السيدة تشيع فيهم البهجة والمرح بأحاديثها الطلية المسلية.. وكنت أقف خلف مقعدها لألبى أوامرها، وكم تألمت إذ رأيت كاثرين تبدأ فى تقطيع صدر أوزة أمامها، وقد لاح عليها عدم الاكتراث وخلت عيناها من أى أثر للدموع، فقلت لنفسى: (يا لها من صبية مجردة عن الشعور، تطرد من فكرها متاعب رفيق صباها فى خفة ونزق.. إننى ما حسبتها قط على هذه الأثرة والأنانية).. ولكنى رأيتها تهمّ برفع اللقمة إلى شفتيها، ثم تعيدها إلى الطبق ثانية، وقد اندفعت الدماء إلى وجنتيها اللتين سرعان ما بللتهما الدموع.. وتركت الشوكة تسقط من يدها إلى الأرض، ثم أسرعت تنحنى لالتقاطها، وهي ترمى إلى إخفاء انفعالها تحت مفرش المائدة.. ولم يطل تلقيبى لها (بالفتاة المجردة عن الشعور)، إذ أدركت أنها تقاسى العذاب طوال اليوم، وتجهد فى خلق الفرصة للاختلاء بنفسها أو زيارة هيثكليف الذي كان السيد قد سجنه، كما اكتشفت عندما حاولت أن أدخل إليه شيئًا من الزاد خلسة..

وأقيمت لنا حفلة راقصة فى المساء، فرجت كاثرين أن يخلى سبيل هيثكليف، إذ كانت إيزابيلا لينتون فى حاجة إلى زميل يراقصها، ولكن توسلاتها كانت عبثًا، وصدر لى الأمر بأن أسد النقص وأشغل هذا الفراغ.. ونسينا كآبتنا وحزننا فى غمرة المرح والانبساط اللذين أحاطا بحفلة الرقص، وزاد من سرورنا مقدم فرقة (جيمرتون) الموسيقية التى تضم خمسة وعشرين من أساطين الموسيقى يعزفون على الآلات النحاسية والوترية المختلفة ما بين بوق ومزمار وناى وكمان كبيرة ذات أنغام عميقة حزينة فضلًا عن المغنين والمنشدين.. وقد اعتادت هذه الفرقة أن تجوب أنحاء المقاطعة وتحل بجميع البيوت العريقة المحترمة، وتنال منها الهبات السخية فى عيد الميلاد من كل عام. فكنا نعتبر حفلاتها من المباهج الفائقة التى تعلق بالذاكرة طويلًا.. وبعد أن فرغت الفرقة من أناشيد عيد الميلاد المعتادة، طلبت إليها أن تشنف أسماعنا بالأغانى الخفيفة والقطع الموسيقية المسرحية التى يشترك فى غنائها الكثيرون كل بدوره.. وقد كانت مسز إيرنشو مشغوفة بالموسيقى، وهكذا قدمت لنا الفرقة منها الكثير..

وكانت كاثرين تحبها كذلك، ولكنها قالت إن وقعها فى الأذن إنما يحلو ويطرب إذا ما

استمعت إليها من بعد، من فوق قمة الدرج مثلًا!.. وما لبثت أن تسللت فى الظلام وارتقت السلم مسرعة، فتبعتها خلسة.. وأغلق القوم باب حجرة الجلوس دون أن ينتبهوا لغيابنا، لكثرة الحاضرين.. ولم تقف كاثرين عند قمة الدرج وإنما مضت تتسلق السلّم الخشبى المعلق، إلى العلية التى كان هيثكليف سجينًا فيها، حيث راحت تناديه بصوت خافت.. وظلّ برهة لا يجيب النداء فى عناد وإصرار، ولكن عزيمتها لم تهن، وثابرت على ندائه حتى أغرته أخيرًا بأن يجاذبها الحديث من خلال الجدار الخشبى.. أما أنا فقد انفطر قلبى، وآثرت أن أدع الصغيرين المسكينين وحدهما يتبادلان أشجانهما دون أن أعكر صفو خلوتهما، حتى إذا ما قدرت أن الغناء أوشك على الانتهاء، وأن العازفين سيستريحون ريثما يتناولون المرطبات، تسلقت السلم بدورى لأحذرهما.. وبدلًا من أن أجد كاثرين خارج العلية، سمعت صوتها من داخلها!.. فقد دخلت إحدى العليات الأخرى، وتسلقت الكوة الصغيرة بأعلاها كالقردة الصغيرة، ثم زحفت فوق السطح حتى كوة محبس هيثكليف حيث انضمت إليه.. وذقت الأمرين حتى استملتها ورضيت بالخروج ثانية من الطريق التى سلكتها فى ذهابها، ولكن هيثكليف كان معها هذه المرة، حيث أصرت على أن تجعلنى آخذه إلى المطبخ، خصوصًا وأن جوزيف كان قد انصرف إلى دار بعض الجيرة فرارًا من أصوات (مزامير الشيطان) كما كان يحلو له أن يسمى موسيقانا.. وقلت لهيثكليف إننى لا أرضى بحال من الأحوال عن ألاعيبهما هذه وليس فى نيتى أن أشجع مسلكهما، غير أنه طالما أن السجين لم يذق شيئًا البتة منذ غذاء الأمس، فإننى سوف أغضى هذه المرة عن خداعه لمستر هندلى وخرقه لأوامره.. ونزل معى إلى المطبخ حيث وضعت له مقعدًا صغيرًا أمام الموقد، وأحضرت له كمية وفيرة من أطايب الطعام والحلوى.. ولكنه كان خاثر النفس سقيمًا، فلم يذق إلا القليل، وذهبت محاولاتى لترغيبه فى الطعام أدراج الرياح.. كان يجلس متكئًا بمرفقيه فوق ركبتيه، محتضنًا وجهه بين راحتيه، ممعنًا فى التفكير، فلما سألته عن موضوع أفكاره العميقة قال فى رصانة:

- إننى أحاول أن أدبر الطريقة التى أسدد بها لهندلى دينًا.. ولست أبالي إلى متى يطول انتظارى حتى أبلغ هذه الغاية: بقدر ما يهمنى أن أصل إليها فى النهاية.. وكل ما أرجوه ألا يسبقنى الموت إليه قبل أن أناله..



هبت محاولاتي لترغيبه في الطعام أدراج الرياح.. كان يجلس
كئًا بمرفقيه فوق ركبتيه، محتضنًا وجهه بين راحتيه..

فهتفت واجفة:

- يا للعار يا هيثكليف!.. إن الله وحده هو الذي يتولى عقاب الأشرار، أما نحن فعلينا أن نعرف كيف نصفح ونتسامح..

- كلا.. إن الله لن يطيب نفسًا بهذا الانتقام مثلما تطيب نفسي أنا عندما أحققه!.. وليتنى أعرف فقط السبيل إلى ذلك.. دعينى وحدي وسوف أدبر الأمر حتمًا، فإننى كلما فكرت فيه كلما تلاشى شعورى بالألم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكنى نسيت يا مستر لوكوود أن هذه القصص لا يمكن أن تسليك، وكم يؤسفنى أننى انسقت فى الثرثرة إلى هذا الحد، وها هو ذا حساؤك قد برد، وها أنت ذا تهوم من النعاس وتنشد الفراش.. كان يمكننى أن أروى لك قصة هيثكليف – أو ما يهمك سماعه منها – فى ست كلمات فحسب..

ونهضت مدبرة المنزل وهي تقطع حديثها على هذا النحو، وهمت بأن تنحى معدات الحياكة التى كانت تتسلى بها، ولكننى ألفيت نفسي غير قادر على الحراك من مكانى بجوار المدفأة، كما كنت بعيدًا كل البعد عن التهويم والنعاس، فصحت بها قائلًا:

مكانك يا مسز دين!.. اجلسى مكانك نصف ساعة أخرى فقد أحسنت وأصبت برواية - القصة بهذه الإفاضة، فهى الطريقة التى أحبها، وينبغى أن تتميها بالأسلوب نفسه، لأننى أجد اهتمامًا بكل شخصية ذكرتها فى روايتك..

ولكن الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة يا سيّدى.. -

لا بأس، فلست معتادًا النوم فى الساعات الأولى من الليل.. والواحدة أو الثانية ساعة - مبكرة بالنسبة لشخص يظل نائمًا حتى العاشرة من الصباح..

ما ينبغى لك أن تنام حتى العاشرة، فإن بهجة الصباح وروعته تكون قد ولت قبل هذه - الساعة بزمن طويل.. والشخص الذي لا يكون قد أتمّ نصف عمل يومه فى الساعة العاشرة، يكون عرضة لأن يترك النصف الآخر ناقصًا بغير أداء..

- فليكن يا مسز دين، ولكن عودى إلى مقعدك!.. لأننى أنوي أن أطيل الليل حتى بعد ظهر الغد!.. فأنا أحس بأن البرد الذي أصابنى سوف يقعدنى مدة طويلة على الأقل..

- أرجو ألا يكون الأمر كذلك يا سيدي.. حسنًا.. اسمح لى إذن بأن أمر مر الكرام على ثلاث سنوات أو نحوها، ففى خلال تلك الفترة كانت مسز إيرنشو..

- كلا.. كلا.. لن أسمح لك بشىء من هذا.. ألم تعهدى تلك الحالة العقلية التى تكونين فيها إذا ما جلست وحدك، وكانت الهرة تلعق صغارها على البساط أمامك، فتستغرقين فى مراقبة هذه العملية استغراقًا كاملًا بحيث يثيرك ويغضبك أن تغفل الهرة لعق أذن واحدة من آذان الصغار؟

لعمرى إنها لحالة عقلية شديدة البلادة والكسل! -

- بل هى على العكس حالة نشيطة مرهقة.. إنها حالتى الآن، ولذلك أود أن تستمرى فى سرد القصة بكل تفاصيلها الدقيقة.. وأرى أن الناس فى هذه المناطق يمتازون على ساكنى المدن بتلك الأهمية التى يمتاز بها العنكبوت فى زنزانة سجين على العنكبوت فى كوخ مأهول، فى نظر ساكنى المكانين المختلفين.. ومع ذلك فهذه الأهمية، وذلك الاهتمام العميق

لا يرجعان برمتهما إلى مركز المشاهد أو حالته فحسب.. فالواقع أنهم هنا يعيشون أكثر جدية وصرامة وأكثر انطواء على أنفسهم، وأقل اهتمامًا بالأمور السطحية، أو التبديل والتغيير، أو الأشياء الخارجية المرحة التافهة.. إننى أتصور الآن أن حبًّا يدوم مدى الحياة أمر يمكن وقوعه هنا، أنا الذي كنت دائمًا أكفر، عن يقين، بأن أى حب يمكن أن يطول مداه عامًا واحدًا!.. وأن إحدى الحالتين تشبه وضع رجل جائع أمام مائدة عليها طبق واحد فريد، فيركز فيه شهيته ولا يتركه حتى يلعقه، والحالة الأخرى أن تضعى الرجل أمام مائدة حملت بأطايب الطعام من أيدي الطهاة الفرنسيين، فيجد فى جملتها متعة بالغة ولكن كل طبق منها لا يعدو أن يكون مجرد ذرة فى تقديره وذاكرته..

فقالت مسز دين وهي تبدو محيرة من حديثى:

- أوه!.. إننا هنا كسائر الناس فى أى مكان آخر، إذا ما عرفتنا على حقيقتنا!

فأجبتها:

- معذرة.. فأنت نفسك يا صديقتى الطيبة شاهد صارخ ضد تأكيدك هذا.. إنك - فيما عدا بعض المظاهر الريفية القليلة الأهمية - لست على شىء من مظاهر الخلق والسلوك التى اعتدت أن أعدها خاصة بطبقتك.. وإننى موقن أنك فكرت كثيرًا وتعمقت فى التفكير أكثر مما يفكر عامة الخدم.. وأحسب أنك إنما تعهدت ملكة التفكير بالعناية والرعاية، لانعدام الظروف التى تهيىء لك إنفاق حياتك فى التوافه السخيفة!

فضحكت مسز دين وقالت:

- لا شك أننى أعد نفسى إنسانة من الطراز المستقيم العاقل، ولكن ذلك لا يرجع تمامًا إلى حياتى بين التلال والقفار، ورؤيتى مجموعة واحدة من الوجوه أو أدائى مجموعة رتيبة من الأعمال، من عام إلى عام.. كلا.. وإنما نشأت تحت وطأة نظام صارم حاد علمنى الحكمة والتعقل. كما أنني قرأت أكثر مما يمكن أن تتصوّر يا مستر لوكوود.. وما من كتاب يمكن أن تفتحه فى هذه المكتبة إلا قرأته واستوعبته وخرجت منه بفائدة ما، إلا أن يكون هذا الصف من الكتب اليونانية واللاتينية أو ذلك الصف من الكتب الفرنسية، وهذه وتلك أستطيع التمييز بينها.. إن ذلك هو كل ما يمكن أن تتوقعه من ابنة رجل فقير!

وتنهدت مسز دين، ثم استطردت تقول:

- ومهما يكن من أمر، فيجدر بى أن أتابع رواية القصة، إذا لم يكن ثمة بد من روايتها بهذه الإفاضة التى تريدها.. وبدلًا من أن أثب فوق ثلاثة أعوام، فسوف أقنع بالمرور حتى الصيف التالى، صيف عام 1778 أى ما يقرب من ثلاثة وعشرين عامًا خلت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

فى صباح يوم جميل من شهر يونية من ذلك العام، ولد أول طفل تعهدته بالتربية، وآخر سلالة أسرة إيرنشو القديمة العريقة..

كنا يومئذ مشغولين بجمع الدريس فى حقل بعيد عندما جاءت الفتاة التى تحمل إلينا طعام الإفطار مبكرة عن موعدها بساعة، وهي تجرى خلال الحقول وتهتف باسمى منادية، حتى إذا ما اقتربت منا صاحت لاهثة:

- يا له من غلام عظيم!.. إنه أجمل طفل تنسم الحياة على الإطلاق.. ولكن الطبيب يقول إن السيدة سوف تموت، فقد نهش السل صدرها هذه الشهور الأخيرة.. سمعته يقول ذلك لمستر هندلى، وأنه ما من شىء يمكن أن يحفظ عليها حياتها الآن، وسوف تقضى نحبها قبل الشتاء.. لابد من حضورك الآن إلى البيت يا نيللى، فأنت التى ستتولين إرضاعه وتربيته، وتغذيته باللبن والسكر والعناية بشأنه ليلًا ونهارًا!.. ليتنى كنت مكانك، فسوف يكون أمره إليك وحدك عندما تذهب السيدة إلى خالقها!

فقلت وأنا أرمى جرافة الدريس من يدي وأضع قبعتى فوق رأسى:

- ولكن هل هى مريضة إلى هذا الحد؟

- أحسبها كذلك، برغم ما يبدو عليها من شجاعة.. فهى تتكلم كأنما تظن أنها ستعيش حتى تراه رجلًا.. بل لقد فقدت صوابها من الفرح ونشوة الابتهاج.. ولها الحق، فما رأيت طفلًا بهذا الجمال!. ولو أننى كنت مكانها، فإنى واثقة بأننى ما كنت لأموت!.. فسوف تتحسن صحتى لمجرد رؤيتى له، برغم أنف الدكتور كينيث!.. لقد جننت به عندما رأيته.. وقد حملت السيدة أرشر إلى السيد فى حجرة الجلوس ذلك الملاك الصغير فأشرق وجهه، ولكن ذلك الطبيب العجوز تقدم إليه وقال فى صوت أشبه بنعيب الغراب: (من رحمة الله يا إيرنشو أن زوجتك قد عاشت حتى تترك لك مثل هذا الغلام.. فعندما قدمت إلى هنا أحسست عن يقين بأننا لن نحتفظ بها طويلًا.. ومن واجبى أن أخبرك الآن بأن الشتاء القادم قد يجهز عليها، ولكن لا ترع ولا تدع القلق يستبد بك، فلا حيلة لنا فى دفع المقدور.. وفضلًا عن ذلك فقد كان يجب عليك أن تحسن الاختيار وتتزوج من فتاة غير هذه المنهوكة!)

فسألتها: وبماذا أجاب السيد؟

- أحسبه أخذ يسب ويلعن، فلم أكن ألقى إليه بالًا.. كنت أجاهد فى سبيل رؤية الغلام..

ثم انطلقت من جديد تهذي بأوصافه ومحاسنه.. وإذ كنت لا أقل عنها حماسًا وشوقًا فقد أسرعت إلى البيت فى لهفة، لأمتع ناظرى بمرآه بدورى، ولو أننى كنت حزينة من أجل هندلى.. فقد كان المسكين يقسم قلبه بين صنمين اثنين ولا مكان فيه لغيرهما: زوجته، ثم شخصه!.. كان مشغوفًا بالاثنين، يقدس أحدهما ويعبد الآخر، ولم أكن لأتصور كيف يمكن أن يحتمل هذه الخسارة..

فلما بلغنا (مرتفعات ويذرنج)، وجدته واقفًا عند الباب الخارجى، فسألته بينما كنت أهم باجتياز الباب: (كيف حال الغلام؟)

فقال وقد علت وجهه ابتسامة وضاءة: (كأنما يهمّ بالجرى فى المنزل يا نيللى!).. فتجاسرت وسألته: (والسيدة؟.. علمت ان الطبيب يقول إنها.....)

فقاطعنى وقد تورد وجهه:

- لعنة الله على الطبيب!.. إن فرانسيس فى خير حال، وسوف تكون فى أوج صحتها فى الأسبوع القادم.. هل تصعدين إليها؟.. حسنًا.. أرجو أن تخبريها بأننى سوف أذهب إليها إذا ما وعدت بعدم الكلام.. لقد تركتها لأنها لا تريد أن تمسك لسانها، فى حين أنها يجب أن تكف عن الكلام كلية.. قولى لها إن مستر كينيث يصرّ على وجوب التزامها السكون..

وقد أبلغت هذه الرسالة إلى مسز إيرنشو، وكانت تبدو فى حالة معنوية طيبة، فأجابتنى فى مرح:

إننى ما كدت أنطق بكلمة واحدة حتى انطلق إلى الخارج وهو يصيح.. وقد فعل ذلك- مرتين يا نيللى.. حسنًا.. قولى له إننى أعد بعدم الكلام، ولكن هذا الوعد لا يقيدنى بألا !أضحك منه ساخرة

يا للشابة المسكينة!.. لقد ظلّت إلى ما قبل موتها بأسبوع وهذا القلب المرح لا يخونها ولا يتخلى عنها.. وكان زوجها يصر فى عناد، لا بل فى شراسة، على التأكيد بأن صحتها تطرد فى التحسن يومًا بعد آخر.. وعندما أنذره كينيث بأن عقاقيره لن تجدى نفعًا فى هذه المرحلة من المرض، وأنه لا حاجة به لأن يكبده المزيد من النفقات للعناية بها وعلاجها، أجابه غاضبًا:

- أعلم أنه لا حاجة بك إلى ذلك حقًّا، فهى بخير ولا تحتاج لشئ من علاجك.. إنها لم تمرض بالسل البتة.. لقد كان ما بها حمى عادية، وقد زالت الآن.. فنبضها بطيء كنبضى، ووجناتها باردة كوجنتى!

ولقد قال لزوجته هذه القصة نفسها، وكان يبدو عليها أنها تصدّقه.. ولكن حدث أن كانت تستند إلى كتفه ذات ليلة، تقول إنها تجد نفسها قادرة على مغادرة الفراش فى الغد، عندما ألمت بها فجأة نوبة من السعال – نوبة بسيطة فى الواقع – فرفعها بين ذراعيه، وعندئذ وضعت يديها حول عنقه، وتبدلت أساريرها، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة..

وهكذا صار أمر الطفل (هيرتون) بين يدي كما قدرت الخادم الصغيرة يوم ولادته.. وكان مستر إيرنشو لا ينفك راضيًا مادام يراه فى صحة جيدة، ولا يسمع له بكاءً أو صراخًا، وهذا كل ما كان يهمه من أمره.. أما هو فقد تملكه اليأس والقنوط، وكان حزنه من ذلك النوع الدفين الذي لا يعرف المظاهر الصاخبة.. فما سمعه أحد قط ينشج ببكاء أو يتمتم بصلاة، وإنما كان دائم السخط والسباب، ويصبّ اللعنات على السماء والناس على السواء، ويستسلم إلى الخمر والتبذل على نحو مدمر.. ولم يستطع الخدم احتمال طغيانه وسوء خلقه طويلًا، فلم يبق فى خدمته سوى جوزيف وسواى.. فلم يطاوعنى قلبى على التخلى عن مهمتى، كما أننى - كما تعلم - كنت أخته فى الرضاع، وفى وسعى أن أغفر له مسلكه أكثر مما يفعل شخص غريب آخر.. وأما جوزيف فقد بقي ليبسط نفوذه وغطرسته على المستأجرين والعمال، ولأن رسالته فى الحياة، كما يعتقد، هى أن يوجد حيث تكثر الشرور والمنكرات فيقومها بلسانه اللاذع..

وكان المسلك السيء للسيد ورفقاء السوء الذين يصاحبهم، أسوأ مثال لكاثرين وهيثكليف.. كما أن معاملته للأخير كانت خليقة بأن تجعل من القديس شيطانًا.. وفى الواقع أن الصبي كان يبدو فى تلك الحقبة كأنما تملكته روح شيطانية شريرة.. وكان شديد الغبطة بأن يشهد انحدار هندلى إلى أحط الدرك، ولكنه كان بدوره يزداد يومًا بعد يوم فى الشراسة والوحشية.. ولن أستطيع أن أصف لك نصف ما كان عليه ذلك البيت الجهنمى الذي كنا نعيش فيه وقتئذ.. حتى لقد عزف القس عن زيارتنا أخيرًا وقاطعنا كل شخص محترم من

جيراننا، اللهم إلا إذا كانت زيارات إدجار لينتون لمس كاثى هى الاستثناء الوحيد من ذلك.. وكانت وهي فى الخامسة عشرة ملكة المقاطعة بلا منازع أو منافس.. ولكنها انقلبت إلى مخلوقة متعجرفة عنيدة صلبة الرأى.. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إننى لم أعد أحبها بعد أن مرت بمرحلة الطفولة، فكنت لا أفتأ أغيظها بمحاولة الغض من شأنها وتحطيم غرورها.. ومع ذلك لم تحقد علىّ أو تكرهنى، إذ كانت على ثبات عجيب فى ودها القديم.. وحتى هيثكليف ظل محتفظًا بمكانته المرموقة فى عاطفتها دون أن يطرأ عليها تبديل أو تغيير، بحيث وجد لينتون الشاب من العسير - رغم سمو مركزه - أن يكون له أثر عميق فى نفسها مثلما كان لهيثكليف. لقد كان مستر لينتون مخدومى السابق، وها هى ذى صورته معلقة فوق المدفأة.. وكانت عادة معلقة على أحد جانبيها، بينما كانت صورة زوجته على الجانب الآخر.. ولكن صورتها رُفعت من مكانها، ولولا ذلك لرأيت شيئًا مما كانت عليه.. فهل بوسعك أن تستشف شيئًا من صورة مستر لينتون؟

ورفعت مسز دين الشمعة إلى أعلى، فتبينت وجهًا لين الأسارير يشبه إلى حد غريب تلك السيدة الشابة التى رأيتها فى (المرتفعات).. كانت صورة جميلة حقًا.. وكانت الغدائر الشقراء الطويلة تتموج فوق الصدغين، كما كانت العينان واسعتين تبدو فيهما الرزانة والجد.. أما الجسم فكان فى مجمله رشيقًا جميلًا.. ولم أعجب كيف استطاعت كاثرين إيرنشو أن تنسى صديقها القديم فى سبيل مثل هذا الشخص، ولكنى عجبت أكثر كيف استطاع أن يحب كاثرين إيرنشو كما أتصورها، إذا كانت عقليته تتفق مع ما يبدو من صورته..

وقلت لمدبرة المنزل: (إنها صورة جميلة حقًا.. أكان هو فى الحقيقة يشبه صورته هذه؟).. فأجابت:

- نعم.. ولكنه كان يبدو خيرًا منها إذا ما كان مسرورًا.. إنها تحمل طابعه المألوف العادى، وقد كان بصفة عامة تنقصه الحيوية..

واستأنفت مسز دين حديثها فقالت:

- وقد احتفظت كاثرين بصداقتها لآل لينتون منذ أن أقامت بينهم تلك الأسابيع الخمسة.. وقد كانت لا تميل إلى إظهار ذلك الجانب من سوء خلقها وهي فى صحبتهم، وكانت من اللباقة بحيث تخجل من إظهار خشونتها فى ذلك الوسط الذي تلمس فيه البشاشة والخلق المهذب دومًا، فقد استطاعت - دون قصد أو عمد - أن تخدع السيد والسيدة العجوزين، بلطفها المتكلف فى براعة، وأن تنال إعجاب إيزابيلا، وتأسر قلب شقيقها وروحه.. وكان بلوغها ذلك كله قد تملق غرورها منذ البداية، لأنها كانت مليئة بالمطامع، وقادها إلى سلوك مسلك مزدوج دون أن تقصد تمامًا خداع أحد.. كانت حين تسمع هيثكليف يُنعت بمثل هذه الأوصاف (ذلك الخبيث المنحط الصغير)، أو (إنه أسوأ من الحيوان المتوحش)، تعنى بألا تفعل مثله أو تظهر بمظهره!.. أما فى البيت فقد كانت قليلة الميل إلى الأدب والتهذيب، لعلمها أنهما لن يجلبا لها سوى السخرية والضحك، ومن العبث أن تقيد نفسها بطبيعة متكلفة غير حقيقية لن تنال عليها مدحًا أو ثناء..

وكان مستر إدجار قلما يستجمع شجاعته ليزور (مرتفعات ويذرنج) علنًا.. فقد كان يفزع من سمعة هندلى السيئة، وينفر من الالتقاء به.. ومع ذلك فقد كان يلقى منا جميعًا أقصى ما نستطيع إظهاره من ضروب الحفاوة وحسن المقابلة، بل إن السيد نفسه كان يتجنب الإساءة إليه، لعلمه بالباعث على زياراته تلك، وكان إذا شعر بأن حالته لا تساعده على الظهور بمظهر الرقة واللين، اعتزل الشابين واختفى عن أنظارهما.. بل أحسب أن كاثرين نفسها كانت لا ترتاح كثيرًا إلى ظهور إدجار لينتون فى (المرتفعات)، بحكم أنها لم تكن على شئ من الدهاء أو المكر، أو تصنّع الدلال الذي كان أبعد شئ عن طبيعتها، ومن ثم كانت

تتحاشى إلتقاء صديقيها معًا بكل الوسائل.. لأنه إذا أبدى هيثكليف احتقاره للينتون فى مواجهته، فإنها لا تستطيع أن توافقه تمامًا، كما كانت تفعل فى غيبته. وعندما يُظهر اشمئزازه ونفوره من هيثكليف فإنها لا تجرؤ على تجاهل مشاعره، كأنما ازدراء رفيق صباها أمر قليل الأهمية فى نظرها. وهكذا أتيحت لى الفرصة مرارًا لأضحك من حيرتها ومن متاعبها الدفينة، التى كانت تجهد فى إخفائها عنى حتى لا أسخر منها.. وقد يبدو من ذلك أن لى طبيعة شريرة، ولكنها كانت من الكبرياء والعجرفة بحيث غدا من المحال أن يشفق المرء على آلامها ومتاعبها، ما لم يضطرها الإذلال إلى أن تطأ من غلوائها، ويدفعها إلى التواضع.. وقد اضطرت أخيرًا إلى أن تلجأ لى لتصارحنى بمتاعبها وتُطلعنى على سرها، إذ لم يكن ثمة إنسان آخر سواى تجد فيه الناصح والمعين..

حدث ذات يوم أن بارح مستر هندلى المنزل بعد الظهر، فإذا بهيثكليف يجد من الجرأة ما يزعم معه أنه منح نفسه إجازة من العمل لهذه المناسبة.. وكان فى ذلك الحين - فيما أحسب - قد بلغ السادسة عشرة من عمره، ودون أن يكون دميم الخلقة أو ناقص العقلية، كان بتجهمه الدائم، يشيع حوله شعورًا بالنفور منه، ويوحى بنفوره من الناس، الأمر الذي خلا منه مظهره الحالى.. ولعل أهم ما كان يحدوه الى ذلك هو أنه كان فى تلك الفترة من حياته قد أضاع ثمرة تعليمه المبكر، إذ أن العمل الشاق المتواصل، الذي يبدأ من البكور ولا ينتهي إلا فى وقت متأخر، قد قضى على أية رغبة كانت تتملكه نحو مواصلة تعليمه، وقتل فيه أى ولع بالكتب أو الدراسة.. وكان الشعور الذي لازمه فى طفولته، بسموه ورفعة شأنه، والذي أُشربه قطرة فقطرة من تدليل مستر إيرنشو الكبير له، قد ذاب وتلاشى أمام الواقع الأليم.. وكان قد ظل يناضل طويلًا فى سبيل الاستمرار فى الدرس مع كاثرين سواء بسواء، ولكنه ما لبث أن استسلم لعجزه فى حزن موجع، وإن كان حزنًا صامتًا مكبوتًا.. على أن استسلامه كان كاملًا، فلم يعد ثمة سبيل لإقناعه بأن يخطو خطوة نحو الارتقاء - بينما كان يرى نفسه مسوقًا - رغم أنفه - إلى الانحدار دون مستواه السابق.. عندئذ اتخذ مظهره الشخصى من نضوبه العقلى رفيقًا يزامله ويأنس إليه، فأصبحت مشيته بطيئة خاملة، وغدا مظهره بشعًا مقيتًا. وازداد إغراقًا فى تحفظه وتجهمه الطبيعيين حتى صارا غلوًّا سخيفًا فى النفور من الناس وتنكب طريقهم!.. بل لقد كان يجد متعة شيطانية فى إثارة اشمئزاز معارفه القلائل أكثر من استجلاب تقديرهم واحترامهم!

وكان هو وكاثرين لا يزالان رفيقين متلازمين فى ساعات راحته وأوقات عمله على السواء.. ولكنه كفّ عن إظهار ولعه بها بالكلمات، بل غدا ينفر فى ريبة وغضب من ملاطفتها البريئة الصبيانية، كأنما كان يحس بأن إغداق مثل هذه المظاهر العاطفية عليه لا يمكن أن يكون له جزاء يُرجى أو ثمرة تؤتى أكلها..

وعندما أتى إلى حجرة الجلوس فى ذلك اليوم ليعلن عزمه على الراحة والانقطاع عن العمل، كنت أعاون مس كاثى فى استكمال زينتها وتنظيم ثوبها.. فإنها لم تقدر قط أن تقوم فى رأسه فكرة الإخلاد إلى الكسل والبلادة، وإذ خالت أن الدار سوف تخلو لها فقد عمدت إلى إبلاغ مستر إدجار – بوسيلة ما – بغياب أخيها، وكانت وقتئذ تتأهب لاستقباله..

فسألها هيثكليف:

أتراك مشغولة هذا المساء يا كاثى؟.. أوهل تنوين الخروج؟ -

- كلّا.. فالمطر ينهمر كما ترى..

- ولماذا ترتدين هذا الثوب الحريرى إذن؟.. لعلك لا تنتظرين أحدًا؟.

فغمغمت الآنسة متلعثمة:

- لست ادرى شيئًا عن مقدم أحد.. ولكن كان ينبغى أن تكون فى الحقل الآن يا هيثكليف، فلم تمض إلا ساعة واحدة منذ الغداء، وقد حسبتك خرجت لعملك..

- إن هندلى قلما يريحنا من محضره اللعين، ولذلك لن أعمل شيئًا اليوم، وسوف أبقى معك..

فازداد ارتباكها، وقالت:

- أوه!.. ولكن جوزيف سوف يخبره!.. فمن الخير إذن أن تذهب لعملك!

- جوزيف مشغول فى تسليم أشجار الخشب المقطوعة فى الناحية الأخرى من هضبة (بينستو) إلى المشترين، وسوف يستغرق منه هذا العمل حتى هبوط الليل، وبذلك لن يعرف قط..

وإذ قال ذلك، مضى فى تكاسل نحو المدفأة، واتخذ مجلسه بجانبها.. ففكرت كاثرين لحظة وقد قطبت حاجبيها، ووجدت من الضرورى أن تمهد الطريق للزيارة المرتقبة، فقالت بعد برهة من الصمت:

- لقد ذكرت إيزابيلا لينتون وشقيقها أنهما قد يحضران بعد ظهر اليوم، وإن كنت لا أتوقع حضورهما مع هذا المطر المنهمر.. ومع ذلك فقد يحضران، وإذا حدث ذلك فإنك تعرض نفسك للتأنيب بغير داع..

فمضى فى إصراره، قائلًا:

- مُرى «نيللى) أن تقول إنك مشغولة يا كاثى، ولا تطردينى من المنزل من أجل هذين الصديقين السخيفين.. إننى أجد نفسي أحيانًا على وشك أن أشكو من أنهما.. ولكنى لن أفعل..

فصاحت كاثرين وهي تحدّق النظر إليه وقد بدا الانشغال فى محياها:

- أنهما ماذا؟

ثم استدارت نحوي فى حدة وسخط، وقد طوحت برأسها بعيدًا عن يدي:

- أواه يا نيللى!.. لقد أفسدت تموج غدائرى!.. كفى ذلك الآن، ودعينى وشأنى.. ما الذي كنت على وشك أن تشكو منه يا هيثكليف؟

- لا شئ.. ولكن انظرى إلى هذا التقويم المعلق على الجدار..

وأشار بإصبعه إلى تقويم معلّق بالقرب من النافذة، واستطرد يقول:

- انظرى.. لقد وضعت علامات على الأمسيات التى قضيتها مع آل لينتون، وعلامات أخرى على تلك التى قضيتها معى.. هل ترين؟.. إننى لم أترك يومًا واحدًا دون علامة!

فقالت كاثى فى نبرات مغيظة:

- نعم.. وذلك فى غاية الحمق!.. كأننى ألقى بالى لمثل هذه التوافه.. وما معنى ذلك بالله عليك؟

- معناه أننى (أنا) ألقى بالى إليها..

فقالت وقد أخذت تزداد غضبًا وانفعالًا: (وهل ينبغى أن أجلس معك دائمًا؟.. أى خير أجده

فى ذلك؟.. وما هى تلك الأحاديث الطلية التى تطرقها؟.. إنك أشبه بالشخص الأبكم أو الطفل الغرير فى كل ما تقوله لتسليتى، وفى كل ما تفعله، على السواء..).

فقال هيثكليف وقد ازداد انفعالًا: (ولكنك لم تخبرينى قط من قبل أننى قليل الكلام، أو أن صحبتى لك لا تروقك يا كاثى!).

فغمغمت قائلة: (إنها لا تعد صحبة على الإطلاق تلك التى لا يقول الناس فيها شيئًا ويجهلون كل شىء..)

فاستوى رفيقها على قدميه، ولكن الوقت لم يتسع له للتعبير عما يخالجه من مشاعر، إذ سمعنا وقع حوافر الجواد فوق المدخل المرصوف، وما لبث (لينتون) الشاب أن ولج الحجرة بعد أن طرق الباب فى رفق، وقد أضاء وجهه بالسرور والغبطة لهذه الدعوة غير المرتقبة التى تلقاها.. وما من ريب فى أن كاثرين قد تبينت الفرق بين صاحبيها، عندما كان أحدهما يلج الحجرة، والآخر يفارقها!.. كان التناقض والتنافر بينهما أشبه بذلك الذي تحسه عندما تخلف أرضًا كئيبة، جبلية، من أراضى مناجم الفحم السوداء، إلى واد خصيب جميل.. كما أن صوته، والطريقة التى يُلقى بها التحية، كانا لا يقلان تناقضًا أحدهما مع الآخر، عن مظهره.. كانت له طريقة رقيقة ناعمة خافتة فى الكلام، وكان ينطق بكلماته كما تفعل أنت، أى بطريقة أقل فظاظة وأكثر لينًا ورقة مما نتكلم نحن هنا!

وقال وهو يرمقنى من طرف خفى، وقد جثوت على ركبتى وبدأت أمسح الأطباق وأنظم أدراج (البوفيه): (أرجو ألا أكون قد حضرت ف وقت مبكر أكثر مما ينبغى..).

فأجابت كاثرين: (كلا البتة.. ما هذا الذي تفعلينه هناك يا نيللى؟).

- إننى أقوم بعملى يا آنستى..

(والواقع أن مستر هندلى كان قد أمرنى بأن أكون طرفًا ثالثًا فى أية زيارة يقوم بها مستر لينتون على غير انتظار..)

فتقدمت حتى وقفت خلفى وهمست تقول لى فى غضب وحنق: (اذهبى.. خذى خرقك ومماسحك وأمضي إلى الخارج، فعندما يكون فى البيت زوار يجب أن يكف الخدم عن المسح والتنظيف فى الحجرة التى يجلسون فيها..).

فأجبتها بصوت عال: (إنها فرصة طيبة الآن وقد غاب السيد عن البيت، أن أقوم بعملى، فإنه يكره أن يرانى أعبث بهذه الأشياء فى حضوره.. ولا ريب أن مستر إدجار سوف يغفر لى ذلك..).

فصاحت الآنسة الشابة فى غطرسة وخيلاء، دون أن تترك لضيفها فرصة للكلام.. وكانت قد تخلت عنها رصانتها واتزانها منذ ذلك الشجار الصغير مع هيثكليف: (ولكنى كذلك أكره أن تعبثى بهذه الأشياء فى حضورى..).

فكان جوابى المقتضب: (إننى آسفة لذلك يا مس كاثرين!) ثم مضيت أواصل عملى فى إصرار ومثابرة.. وإذ خالت أن إدجار لا يستطيع رؤيتها، جذبت الممسحة من يدي فى عنف، ثم قرصتنى فى ذراعى قرصة طويلة وهي تلوى أصابعها لتزيد من وجيعتى وتروى غليلها من الانتقام منى.. وقد قلت أننى لم أكن أحبها، ومن ثم كنت أجد متعة بالغة فى قهر كبريائها وغرورها بين الحين والحين، وكانت قرصتها قد أوجعتنى كثيرًا، وهكذا نهضت من حيث كنت أجثم فوق ركبتى، وصرخت قائلة:

- ما هذا يا آنسة!.. لقد أتيت فعلة بالغة السوء.. فليس من حقك أن تقرصينى، كما أننى لن

أحتمل منك هذا..

فصاحت فى وجهي: (إننى لم ألمسك أيتها المخلوقة الكاذبة!).

بينما كانت أصابعها تتحرق شوقًا إلى إعادة الكرة من جديد، وقد غدت أذناها قرمزيتين من فرط الغضب.. فما كانت قط تجد فى نفسها القوة على إخفاء انفعالها، وكانت فى مثل هذه الحالات تبدو متوردة الوجه والعنق كأن موقدًا يشتعل تحت جلدها..

وكشفت عن ساعدى لتشهد البقعة الزرقاء على كذبها وصدقى.. فضربت الأرض بقدمها وترنحت لحظة، وما لبثت أن تغلبت روحها الشريرة على ترددها فرفعت يدها وهوت على وجهي بلطمة شديدة مؤلمة ملأت عينى بالدموع..

فتدخل إدجار، وقد عظمت دهشته وفجيعته بهذه السقطة المزدوجة التى تردت فيها معبودته: الكذب واستعمال العنف، وصاح بها:

- كاثرين!.. حبيبتى كاثرين!

ولكنها كانت فى شغل عنه.. فإن هيرتون الصغير - الذي كان يتبعنى أينما ذهبت، والذي كان يجلس على الأرض بالقرب منى- ما كاد يرى الدموع فى عينى حتى أخذ يبكي وينشج بالشكوى من (العمة كاثى الشريرة)، التى تحولت إليه لتصب جام غضبها على رأسه، فأمسكت بكتفيه وراحت تهزه فى عنف بالغ حتى غاضت الدماء من وجه الطفل المنكود وغدا باهتًا كالشمع!.. وعندئذ اندفع إدجار دون تفكير، وأمسك بكلتا يديها ليخلص الصبي منهما، فإذا بها تحرر أحديهما فى سرعة خاطفة، وإذا بالفتى المشدوه يحس بهذه اليد فوق صدغه بطريقة لا يمكن أن تحدث عفوًا.. فتراجع إلى الوراء فى فزع وذعر.. وكنت قد حملت هيرتون بين ذراعى، ومضيت به نحو المطبخ، تاركة الباب مفتوحًا، إذ استبد بى الفضول لمعرفة الطريقة التى سيسوى بها هذا الخلاف بينهما، فرأيت الضيف المهان يمضي إلى حيث كان يضع قبعته، وكان وجهه شديد الشحوب وشفته ترتجف غضبًا وتأثرًا.. فقلت لنفسى وكأني أتحدث إليه: (حسنًا تفعل.. وما عليك إلا أن تقنع بهذا النذير وتهرب بجلدك!.. فمن رحمة الله أن أطلعك على حقيقة خلقها وطباعها!).



ـكت بكتفيه وراحت تهزه في عنف بالغ حتى غاضت الدماء
ـجه الطفل المنكود..

ولكن كاثرين سبقته إلى الباب قائلة: (إلى أين تذهب؟)

فتحول ناحية، وهو يحاول المرور، ولكنها عادت تصيح فى عزم قوى:

- لا يجب أن ترحل الآن..

فأجاب فى صوت خفيض:

- بل يجب أن أرحل، وسأفعل!

فمضت فى إصرارها، وهي تمسك بمقبض الباب: (كلا ليس الآن يا إدجار لينتون!.. اجلس، فما ينبغى لك أن تتركنى فى هذه الحالة.. فسوف أشقى بها طول ليلتى، ولست أريد أن أشقى بسببك!).

فقال لينتون: (وهل بوسعى أن أبقى بعد أن صفعتنى؟)

فلم تنبس كاثرين بكلمة، بينما استطرد الفتى يقول: (لقد جعلتنى أخافك وأخجل منك.. ولن أحضر إلى هنا بعد الآن!).

فبدأت عيناها تنديان، وأجفانها تضطرب.. على حين تابع إدجار كلامه: (ثم إنك كذبت عن عمد!).

فهتفت تقول: (كلا.. لم أكذب عن عمد، بل ولم أفعل شيئًا عن عمد.. حسنًا.. إذهب إذا كان يروقك أن تفعل!.. اذهب ودعنى أبكى حتى يسقمنى البكاء..).

وهوت على ركبتيها بجانب المقعد، ومضت تبكي بكاءً حارًا متواصلًا. وأصر إدجار على عزمه، ولكن لم يطل إصراره إلا ريثما بلغ الفناء، حيث بدأ يتلكأ مترددًا، فعزمت على أن أشجعه وصحت به من لداخل:

- إن الآنسة شديدة العناد يا سيّدى، وهي أسوأ من طفل مشاكس أفسده التدليل.. فمن الخير أن تمضي إلى دارك، وإلا فإنها سوف تمرض حقًّا لتجلب لنا الهم والنكد..

ولكن الفتى الرقيق اللين كان يسترق النظر من خلال النافذة، وقد بدا عليه التردد والإحجام، وبدت عزيمته على الرحيل أشبه بعزيمة هرة على أن تترك جرذًا يحتضر، أو عصفورًا أكلت نصفه!.. فأدركت فى قرارة نفسي أنه مقضى عليه بالهلاك، وأن لا سبيل إلى إنقاذه من القدر الذي يلقى بنفسه بين فكيه.. وهكذا كان.. فما لبث أن تحول بغتة وأسرع إلى حجرة الجلوس ثانية وهو يغلق الباب خلفه..

فلما ذهبت بعد برهة لأخبرهما بأن إيرنشو فى طريق العودة إلى الدار وقد أطارت الخمر لبه، وإنه على استعداد لهدم البيت فوق رؤوسنا، (وهو يغدو دائمًا فى هذه الحالة العقلية إذا أفرط فى الشراب) إذا بى أجد أن الشجار لم يزدهما إلا وفاقًا وقربًا، وأنه قد حطم أسوار الحياء والخجل التى تحوط الشباب الهيابين، ومكنهما من خلع قناع الصداقة المجردة، والكشف عما تحته من الحب الذي نشب فى قلبيهما..

ودفعت أنباء وصول مستر هندلى إلى الدار، إدجار إلى الإسراع نحو جواده، ومس كاثرين إلى حجرتها.. أما أنا فقد ذهبت لأخفى هيرتون الصغير، ولأنزع الطلقات من بندقية السيد، التى كان مولعًا بالعبث بها فى هياجه الجنونى، مهددًا حياة كل من يثيره، أو يثير انتباهه إليه أكثر مما ينبغى.. وكنت قد دبرت نزع هذه القذائف حتى يقل خطره إذا ما بلغ به الحال إلى حد إطلاق البندقية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

اندفع هندلى إلى الداخل وهو يصيح بسباب يندى له الجبين، فلمحنى بينما كنت أقوم بإخفاء ولده فى دولاب المطبخ.. وكان هيرتون يحس بفزع مروع من لقاء أبيه والتعرض لولعه الوحشى أو هياجه الجنونى على السواء!.. فهو فى الأولى عرضة لأن يظل يقبله ويحتضنه حتى يشرف على الموت، وفى الثانية عرضة لأن يلقى به إلى النار أو يحطم رأسه على الجدار.. وهكذا كان الطفل المسكين يظل ساكنًا بلا حراك حيثما أردت أن أخفيه عن الأنظار..

وصاح هندلى وهو يجذبنى من جلد قفاى كما يفعل بالكلاب:

- هأنذا قد وجدته أخيرًا!.. وأقسم بالسماء والجحيم أنكم اتفقتم فيما بينكم على قتل هذا الغلام، وها قد عرفت الآن لماذا تخفونه عن أنظارى دائمًا.. ولكنى بعون الشيطان سوف أجعلك تبتلعين سكين اللحم الكبيرة يا نيللى!.. ولا حاجة بك إلى الضحك، فقد زرعت الآن (كينيث) ورأسه إلى أسفل، فى مستنقع (الحصان الأسود).. وقتل اثنين كقتل واحد سواءً بسواء.. كما أن بى رغبة ملحة فى أن أقتل بعضًا منكم، ولن يهدأ لى قرار حتى أفعل!

فأجبته فى هدوء: (ولكنى لا أحب مذاق هذه السكين يا مستر هندلى، إذ كنا نقطع بها الرنجة المجففة.. والأفضل - إذا شئت - أن تطلق علىَّ النار..).

- الأفضل أن تنصب عليك اللعنات!.. ولكنك سوف تبتلعين السكين، فما من قانون فى انجلترا يحول بين الرجل وبين المحافظة على بيته نظيفًا محترمًا.. ولكن منزلى أصبح كريهًا ممقوتًا.. هيا افتحى فمك!

وكان يمسك بالسكين فى يده، فدفع طرفها بين أسنانى.. ولكنى لم أكن قط أخشى هذيانه هذا، فبصقت جانبًا ورحت أؤكد له أن مذاقها فظيع ولذلك لن أستطيع ابتلاعها!

عندئذ خلى عنى، وهو يقول: (أرى أن هذا المسخ الصغير الشرير ليس هيرتون!.. وأرجو المعذرة يا نل، فلو أنه كان هيرتون لاستحق أن يُسلخ جلده حيًّا جزاء عدم إسراعه إلى الترحيب بى، وصياحه كلما رآنى كأننى عفريت من الجان!.. تعال هنا أيها الجرو الممسوخ!.. سوف أعلمك كيف تخدع أبًا طيب القلب سليم النية!.. والآن يا نيللى.. ألا ترين أن الغلام سوف يغدو أجمل وألطف إذا صلمت أذناه!.. إن ذلك يجعل الكلاب أشد ضراوة، وأنا أحب أن أراه شيئًا ضاريًا.. آتينى بمقص!.. شيئًا ضاريًا، وأنيقًا مشذبًا!.. ثم إنها لعاطفة جهنمية وخيلاء شيطانية، أن ندلل آذاننا ونكرمها!!.. فنحن حمير بما فيه الكفاية بدونها!.. صه يا غلام.. صه!.. حسنًا إذن.. إنه طفلى الحبيب!.. صه!.. جفف عينيك من هذه الدموع اللعينة، واضحك لى.. قبلنى!.. ماذا؟.. إنه لا يريد أن يقبلني؟.. قبلنى يا هيرتون!.. لعنة الله عليك.. قبلنى إذن!.. يا إلهي!.. هل يمكن أن أنجب مثل هذا الوحش!.. والله لأحطمن عنق هذا الجرو ما دمت حيًّا!).

وكان هيرتون المسكين يصرخ ويرفس بقدميه، وهو بين ذراعى والده، بكل ما فى بدنه الصغير من قوة، ثم ازدادت صيحاته وتضاعفت عندما حمله وصعد به الدرج وقد رفعه فوق (الدرابزين).. فصحت به أنه سيخيف الغلام حتى لقد يصيبه الصرع، وأسرعت خلفه لأنقذه من يديه، وما كدت أبلغ مكانه حتى مال هندلى إلى الأمام فوق قضبان السياج ليصغى إلى خطوات انبعثت من الطابق الأسفل مقتربة من الدرج، وقد نسى ما كان يحمله بين يديه، وهو يسأل هادرًا: (من هناك؟).. وانحنيت إلى الأمام بدورى لأشير إلى هيثكليف، الذي عرفت وقع قدميه، ألا يتقدم أكثر من ذلك.. وفى اللحظة التى فارقت عيناى فيها هيرتون، قفز الغلام بغتة، وتخلص من القبضة الرخوة التى كانت تمسك به فى غير عناية،

ثم سقط إلى أسفل..

ولم يتسع لى الوقت لأحس هزة الهلع التى اعترتنى، قبل أن أرى المنكود الصغير سليمًا معافى، فقد وصل هيثكليف إلى أسفل الدرج فى اللحظة الفاصلة، وبدافع طبيعى، لا شعوريّ، تلقى الغلام بين يديه، ووضعه على الأرض، ثم رفع عينيه إلى أعلى ليرى من كان السبب فى الحادث.. ولو أن شخصًا شحيحًا تخلى عن ورقة نصيب محظوظة فى سبيل خمسة شلنات، ثم علم فى اليوم التالى أنه خسر فى هذه الصفقة خمسة آلاف جنيه، لما بدا وجهه أشد امتقاعًا وشحوبًا مما بدا عليه وجه هيثكليف عندما رأى مستر إيرنشو بأعلى الدرج.. كان وجهه يعبر، فى وضوح تقصر عنه الألفاظ، عن ألمه البالغ إذ جعل من نفسه أداة إحباط انتقامه.. وبوسعى أن أقول إنه لو كان المكان أشد ظلمة، لأصلح ما أفسدته يداه، ولحطم جمجمة هيرتون على الدرج!.. ولكننا كنا شهود خلاصه ونجاته، وكنت قد نزلت وأخذت ذخيرتى الثمينة بين أحضانى، ورحت أضمها إلى قلبى.. أما هندلى فقد كان أكثر تؤدة فى هبوطه، وقد أفاق من ثمله، وبدا عليه الخجل والندم وهو يقول:

- إنها غلطتك يا نيللى!.. كان يجب أن تبقيه بعيدًا عن الأنظار.. كان يجب أن تأخذيه منى.. هل أصابه أذى من سقوطه؟

فصحت به غاضبة: (أذى؟.. إذا كان لم يُقتل، فلأنه غبي أبدًا!.. آه!.. شد ما أعجب كيف لا تقوم أمه من قبرها لترى كيف تعامله!..إنك أسوأ من أى كافر ملحد، إذ تعامل لحمك ودمك بهذه الطريقة!).

فحاول أن يقرب يده من الغلام الذي اطمأن إلى وجودى معه فنفث فزعه المكبوت.. ولكن ما كاد أبوه يمسه بأصبعه، حتى انبعث يصيح صياحًا عاليًا، ويتقلص جسمه كأنما يوشك أن يُصاب بنوبة حادة.. عندئذ استطردت أقول لهندلى:

- خير لك أن تدعه وشأنه، فإنه يكرهك.. بل إنهم جميعًا يكرهونك.. وهذه هى الحقيقة المجردة.. إن لديك أسرة سعيدة، ولكنك بلغت حالة بالغة السوء.

فضحك الرجل المنحرف وعاودته ضراوته، وهو يقول:

ولسوف تزداد سوءًا يا نيللى.. أما الآن فعليك أن تغربى عن وجهي به.. وأنت يا - هيثكليف، امش من هنا حالًا، وابتعد عن سمعى ومتناول يدي.. إننى لن أقتل أحدًا منكم ..الليلة، إلا إذا راق لى أن أشعل النار فى المنزل كله

وبينما كان يقول ذلك، تناول زجاجة من الخمر القوية وبدأ يصب منها فى قدحه، وعندئذ رحت أتوسل إليه قائلة:

كلا يا مستر هندلى.. بالله لا تفعل، وخد مما وقع نذيرًا بسوء العاقبة.. ألا أشفق على هذا - ..الغلام التعس، إذا كنت لا تأخذك الشفقة بنفسك

فأجابنى: (إن أى شخص سواى قد يكون خيرًا له منى).. فقلت وأنا أحاول أن أخطف الزجاجة من يده:

هلا أشفقت على روحك من عذاب الأخرة إذن؟ -

- لا تنتظرى ذلك منى.. فإنى -على العكس - شد ما يسرنى أن أبعث بها إلى الهلاك، عقابًا لخالقها على ما اقترفت يداه!

وقهقه الكافر المجدف ضاحكا، ثم رفع قدحه قائلًا:

- وهذا نخب لعنتها القلبية!

ثم جرع الكأس دفعة واحدة، وصاح بنا يأمرنا بالانصراف وهو يشفع أمره بوابل من ألفاظ السباب القبيحة المروعة التى لا يمكن للمرء أن يرددها أو يذكرها!..فلما أغلق الباب. انطلق هيثكليف يردّد السباب واللعنات، ثم قال:

- مما يؤسف له أن الشراب لن يقتله!.. وهو يبذل غاية جهده فى سبيل هذه الغاية، ولكن قوة بنيانه تتحداه وتخذله.. لقد قال مستر كينيث إنه يراهن على فرسه بأن هندلى سوف يعيش أكثر من أى رجل آخر فى هذه الناحية من (جيمرتون)، وسوف يذهب إلى قبره شيخًا تثقله الأوزار والخطايا.. هذا ما لم يحل به أحد تلك الأحداث السعيدة الخارجة عن المألوف!

ومضيت إلى المطبخ حيث جلست أهدهد حملى الصغير حتى ينام.. أما هيثكليف فقد خلت أنه مضى إلى مخزن الحبوب فى الخارج، ولكنى تبينت بعد ذلك أنه لم يمض إلى أبعد من الناحية الأخرى للأريكة ذات الظهر المرتفع، حيث ألقى بنفسه فوق مقعد طويل بجوار الجدار، بعيدًا عن النار، حيث لبث ساكنًا بغير حراك.. وكنت أهز هيرتون فوق ركبتى وأترنم بأغنية: أهدهده بها، عندما أتت مس كاثى - التى كانت تصغى إلى الضجيج من حجرتها - فأطلت برأسها من الباب وهمست قائلة:

- هل أنت وحدك يا نيللى؟

- نعم يا آنستى..

فدخلت واقتربت من المدفأة وعندئذ رفعت أنظارى إليها وقد خلت أنها على وشك أن تقول شيئًا، فإذا بى أجدها وقد انعقدت فى محياها سحابة من الهم والقلق.. وكانت شفتاها منفرجتين، كأنما كانت تهم بالكلام، ولكنها تنفست فى قوة فأفلت تنفسها أشبه بتنهد عميق بدلًا من العبارة التى كانت تنوى قولها.. وعدت إلى الترنم بأغنيتى، دون أن أبالي بها، فلم أكن نسيت بعد فعلتها الأخيرة معى.. فقاطعتنى قائلة:

- أين هيثكليف؟

- إنه يقوم بعمله فى الحظيرة..

فلم يعارضنى.. ولعله كان قد أخدته سنة من النوم.. وتلت ذلك فترة طويلة من الصمت لمحت فى خلالها قطرات من الدمع تنساب فوق وجنتى كاثى وتسقط على البلاط.. فتساءلت فى قرارة نفسي: (أتراها آسفة نادمة على مسلكها الشائن؟.. إن ذلك يعد تطورًا جديدًا فى طباعها!.. ولكن عليها أن تتحدث من تلقاء نفسها، فلن أمد لها يد المعونة!..) ولكن لا.. فهى لا تعنى أقل عناية بأى شى عدا ما يخصها ويهمها، لفرط أنانيتها!.. وأخيرًا صاحت قائلة:

- أواه يا عزيزتى!.. إننى تعسة شقية!

فقلت فى غير اكتراث:

- واأسفاه!.. إن من الصعب مرضاتك يا فتاتى!.. أفلا تستطيعين الشعور بالرضى والسعادة، على كثرة أصدقائك وقلة همومك؟

فركعت إلى جانبى ورفعت نحوي عينيها الساحرتين وفيهما تلك النظرة التى تذهب بغضب المرء حتى لو كان لديه الحق فى التمسك به، ثم غمغمت تقول:

- نيللى.. هل تكتمين لى سرًا؟

فقلت وقد لانت أساريرى: (أترينه يستحق الكتمان؟)

- نعم.. وهو يضايقني كثيرًا، ولا بد لى من أن أفرج عن صدرى بإفشائه لك.. لقد طلب إلىّ إدجار لينتون اليوم أن أتزوج منه.. وقد أعطيته جوابى.. ولكنى قبل أن أقول لك إن كان قبولًا أم رفضًا، أود أن تخبرينى بما كان ينبغى أن يكون عليه..

- وكيف يمكننى حقًا أن أعرف يا مس كاترين؟.. ولكننا إذا نظرنا بعين الإعتبار إلى المشهد الذي قمت بتمثيله فى حضوره بعد الظهر، فمن الحكمة أن ترفضى طلبه.. لأنه ما دام قد طلب يدك بعد ذلك المشهد، فهو إما أن يكون شخصًا أخرق لا أمل فى شفائه، أوغبيًا أبله لا يُقدر عواقب الأمور! فاستوت واقفة وهي تقول فى حنق:

- إذا مضيت فى الكلام بهذه النغمة، فلن أخبرك بشىء بعد ذلك.. والآن، لقد قبلته يا نيللى!.. فأسرعى وأخبرينى هل كنت مخطئة فى ذلك!

- إذا كنت قد قبلته، فما جدوى مناقشة الأمر من جديد؟.. لقد أعطيته كلمتك، وليس فى وسعك أن تسحبيها..

فصاحت فى ضيق وهي تفرك يديها وتقطب جبينها:

- نعم.. ولكن قولى هل كان يجب أن أفعل ذلك.. تكلمى!

فقلت متمهلة وأنا أزن كلماتى:

- هناك أشياء ينبغى بحثها والتفكير فيها قبل الإجابة على هذا السؤال إجابة صائبة.. فأولًا، وقبل كل شىء، هل تحبين مستر إدجار؟

- ومنذا الذي يستطيع ألا يحبه؟.. نعم، أحبه، طبعا!

عندئذ مضيت أستجوبها فى إلحاح شديد - فمن الحكمة أن أفعل ذلك مع فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها! – قلت:

- ولماذا تحبينه يا مس كاتى؟

- هراء!.. إننى أحبه، وهذا يكفي!

- كلا البتة.. بل يجب أن تقولى لماذا تحبينه؟

- حسنًا.. لأنه وسيم الطلعة، رقيق المعشر..

- سبب سخيف!

- ولأنه شاب فى مقتبل العمر، مرح لطيف..

- وهذا سبب سخيف أيضًا..

- ولأنه يحبنى..

- ذلك لا يغير من الأمر شيئًا!

- وسوف يغدوغنيًا.. وشد ما أحب أن أكون أعظم سيدة فى هذه الأنحاء كلها، ومن بواعث

زهوى وفخارى أن يكون لى مثل هذا الزوج..

وهذا أسوأ الأسباب التى ذكرتها. والآن خبرينى كيف تحبينه؟ -

كما يحب كل إنسان.. ما هذا السخف يا نيللى؟ -

- كلا البتة.. أجيبى على سؤالى!

- أحب الأرض التى تحت قدميه، والهواء الذي يحوط رأسه، وكل شىء يلمسه، وكل كلمة يقولها.. أحب كل نظراته، ولمحاته، وكل ما يقوله ويفعله.. أحبه بكل ما فيه، كل الحب.. فماذا تريدين بعد ذلك؟

- ولكن لماذا؟

- لا.. لقد انقلب الأمر لديك إلى مهزلة!.. وهذا إفراط فى حب المشاكسة يا نيللى!.. ألا اعلمى إذن أننى لا أتخذ هذا الأمر هزلًا أو مزاحًا..

قالت السيدة الشابة ذلك وقد علا وجهها العبوس وأدارت ظهرها ناحيتى مستقبلة المدفأة.. فبادرت أقول:

- إننى بعيدة عن الهزل كل البعد يا مس كاثرين.. فأنت تحبين مستر ادجار لأنه وسيم الطلعة، ولأنه شاب، ولأنه مرح، ولأنه غنى، ولأنه يحبك.. ومهما يكن من أمر فإن السبب الأخير لا قيمة له البتة.. فقد تحبينه دون أن يحبك.. وقد لا تشعرين نحوه بالحب برغم حبه لك، ما لم تكن له الميزات الأربع الأولى!

- كلا.. لا شىء من ذلك البتة.. بل إننى كنت لأشفق عليه، وأكرهه، لو كان قبيح الصورة، أو أشبه بمخرجى الملاعب!

- ولكن هناك فى هذا العالم الكثير من الشبان الأثرياء الذين لا يقلون عنه وسامة وبهاء، إن لم يزيدوا، فما الذي يمنعك من أن تحبيهم؟

إذا وُجد أمثال هؤلاء، فإنهم بعيدون عن طريقى.. ولم ألق فى حياتى أحدًا يماثل إدجار.. -

قد تلقين بعضًا منهم.. ثم إنه لن يظل طول حياته وسيم الطلعة شابًا، وقد لا يكون ثريًا على الدوام.. -

ولكنه كذلك الآن، وليس يهمنى سوى حاضرى.. ليتك تتكلمين فى تعقل يا نيللى.. -

حسنًا.. هذا يحسم الأمر، وما دمت لا تهتمين إلا بحاضرك، فتزوجى بمستر لينتون! -

إننى لا أطلب إذنك كى أتزوجه، فسوف أفعل ذلك.. ومع ذلك فإنك لم تخبرينى هل أصبت فى ذلك؟ -

بل أصبت تمامًا، إذا كان الناس يصيبون عندما يتزوجون من أجل حاضرهم، دون مستقبلهم!.. ولنستمع الآن إلى همومك وأسباب شقائك. إن أخاك سوف يطرب لهذا الأمر، ولست أعتقد أن السيد لينتون والسيدة زوجته سوف يثيران أى اعتراض. وسوف تفرين من دار مليئة بالفوضى، لا راحة فيها ولا استقرار، إلى دار محترمة ذات سعة وثراء ووقار.. ثم إنك تحبين إدجار، وهو يحبك.. كل شىء إذن مذلل ميسور.. فأين المتاعب والشقاء إذن؟ -

فصاحت كاثرين وهي تضرب بإحدى يديها على صدرها وبالأخرى على جبينها:

- هنا.. ثم هنا!.. أو حيثما تسكن الروح والنفس فى جوارح الجسد.. فإننى فى قرارة نفسي، وفى أعماق قلبى، أشعر بأننى قد أخطأت!

- هذه غاية العجب يا آنستى، وصدقينى أننى لا أفهم من الأمر شيئًا!

- إنه سرى.. ولكن إذا وعدتنى بألا تسخرى منى فسوف أفسر لك الأمر. وقد لا أستطيع بيانه فى وضوح وجلاء، ولكنى سأجعلك تحسين بما يخالجنى من مشاعر..

واتخذت مجلسها بجوارى فوق الأريكة، واكتست أساريرها لمحة من الحزن والاكتئاب، وسرت الرعدة فى يديها المتشابكتين.. وبعد أن أخلدت إلى التفكير العميق لحظة، قالت فجاة:

- ألم ترى فى نومك أحلامًا غريبة قط يا نيللى؟

- نعم.. يحدث لى ذلك من حين إلى حين..

- كذلك أنا.. لقد رأيت فى حياتى أحلامًا لازمتنى بعد ذلك دائمًا، وغيرت الكثير من آرائى.. بل لقد راحت تمتزج بى، وتتغلغل فى كيانى، كما يمتزج النبيذ بالماء، فيتغير لون تفكيرى.. وهاك واحدًا منها.. سوف أقصه عليك، ولكن حاذرى من أن تضحكي من أى جزء منه!

فصحت أقاطعها: (لا؛ لا تفعلى يا مس كاثرين.. فلدينا من أسباب الفزع والكآبة ما يكفينا دون حاجة إلى استحضارالأشباح والأرواح لتزيد من كربنا وخبلنا.. هيا عودى إلى طبيعتك المرحة كعهدى بك دائمًا.. انظرى إلى هيرتون الصغير.. إنه لا يحلم بشىء مفزع، وما أحلاه وهو يبتسم فى نومه!).

- نعم.. وما أحلى أباه وهو يسب ويلعن فى وحدته!.. أظنك ما زلت تذكرينه يا نيللى عندما كان صورة أخرى من هذا الصغير السمين، وفى مثل سنه وبراءته.. ولكن مهما يكن من أمر يا نيللى فسوف أرغمك على الاستماع إلى حلمى.. أنه ليس طويلًا، كما أننى الليلة بعيدة كل البعد عن الرغبة فى المرح والانبساط..

فرحت أردد فى عجلة: (كلا.. لن أسمعه!.. لن أسمعه!).

والواقع أننى كنت شديدة التعلق بالخرافات والأوهام، وما زلت كذلك حتى الآن.. ولقد كانت كاثرين في تلك الليلة فى حالة غريبة غير مألوفة من الكآبة والانقباض جعلتنى أفزع مما قد تقوله فأرى فيه نبوءة مشئومة، أو أتكهن بكارثة مروعة!.. وقد تضايقت هى من رفضى الإصغاء إليها، ولم تمض فى روايتها، بل تظاهرت بأنها سوف تطرق موضوعًا آخر، فقالت بعد قليل:

- لو أننى كنت فى السماء يا نيللى لكنت شقية تعسة!

- لأنك لست أهلًا للذهاب إلى السماء.. فالخاطئون جميعًا يجدون الشقاء والتعاسة فى السماء..

- ليس هذا هو السبب.. لقد حلمت مرة أننى كنت هناك!

فقاطعتها ثانية، صائحة: (قلت لك إننى لا أنوي الإصغاء إلى أحلامك يا مس كاثرين.. سوف أذهب إلى فراشى!).

وإذ رأتنى أهم بالنهوض، تضاحكت وأمسكت بى فى مكانى قائلة: (رويدك، فلن أضايقك كثيرًا.. كنت فقط أهم بأن أقول لك إن السماء لا تبدو أنها تصلح لى مقرًا وسكنًا.. قد تمزق

قلبى من البكاء كى أعود إلى الأرض حتى غضبت الملائكة منى غضبًا شديدًا، فأخذننى وطوحن بى من السماء فسقطت فى وسط الأحراش فوق (مرتفعات ويذرنج)، وصحوت وأنا أبكى من الفرح.. وهذا وحده يكفي لتفهمى سرّى يا نيللى.. فما خُلقت للزواج من إدجار لينتون، كما لم أخلق لأجد فى السماء مقرًا لى وسكنًا.. ولو أن ذلك المنكود الشرير - الذي هو أخى - لم يهبط بهيثكليف إلى الدرك الأسفل، لما فكرت فى هذا الزواج.. أما الآن فإن زواجى من هيثكليف يحط من قدرى ويُسقط من شأنى ومكانتى.. لذلك فإنه لن يعرف أبدًا كم أحبه. وليس حبي له لأنة بهي الطلعة يا نيللى، ولكن لأنه أشبه بى منى، وأقرب إلى قلبى من نفسي!.. ومهما كانت طبيعة الشىء الذي تُصنع منه الأرواح، فإن روحى وروحه صنعتا من عنصر واحد.. أما لينتون فعلى خلافنا، كالفرق بين شعاع القمر والبرق، أو بين الجليد والنار!).

وقبل أن تفرغ من عبارتها، أحسست بوجود هيثكليف معنا.. فقد لاحظت حركة يسيرة، فأدرت رأسى ورأيته ينهض من فوق المقعد ويتسلل خارجًا بغير حس أو صوت. كان قد ظل يصغى حتى سمع كاثرين تقول إن زواجها منه يحط من قدرها، فلم يشأ أن يبقى ليسمع المزيد مما تقول..

وكانت رفيقتى تجلس على الأرض، وقد حال ظهر الأريكة دون أن تحس بوجوده أو رحيله، ولكنى أجفلت وصحت أطلب إليها الصمت..

فسألتنى وهي تتفرس حواليها فى قلق: (لماذا؟)

فأجبتها، وقد أسعفتنى أصوات عجلات مركبة فى الخارج:

لقد جاء جوزيف، وسوف يأتى هيثكليف إلى هنا معه.. بل إنى لست واثقة من أنه لا يقف - عند الباب فى هذه اللحظة!

أوه!.. إنه لا يستطيع أن يسمعنى من وراء الباب.. أعطينى هيرتون، ريثما تعدين لنا - العشاء، وعندما تفرغين من إعداده فاطلبى إلىّ أن أتناول عشائى معك. لانى أريد أن أخادع ضميرى القلق، وأقنع نفسي بأن هيثكليف لا يدرك معنى لهذه الأشياء.. إنه لا يدركها يا نيللى.. وهو لا يعرف معنى الوقوع فى الحب.. أليس كذلك؟

فقلت فى دهشة: (لست أرى سببًا يحول دون معرفته له، كما تعرفينه.. ولو أن قلبه قد وقع اختياره عليك أنت فإنه سوف يغدو أشقى مخلوق ولدته أنثى على ألإطلاق.. وما أن يصبح اسمك (مسز لنتون) حتى يكون قد فقد الصديق، والحب، وكل شىء!..هل فكرت كيف يمكنك احتمال هذا الفراق، وكيف يمكن أن يطيق هو احتماله، عندما يجد نفسه منبوذًا مهجورًا فى هذا العالم؟)

فقاطعتنى وهي تهتف فى استنكار: (منبوذًا مهجورًا؟.. فراق وهجران؟.. منذا الذي يستطيع أن يُفرق بيننا بالله عليك؟ لن يحدث ذلك ما دمت حية يا إيلين[4]! ولن أقدم عليه من أجل مخلوق من البشر!.. فليفن كل لينتون على وجه الأرض، وليتلاش ويصبح عدمًا فى عدم، قبل أن أفكر فى هجر هيثكليف أو التخلى عنه.. أوه، كلا.. ليس ذاك ما أنويه، ولا ما أعنيه.. وما كنت لأصبح مسز لينتون قط لو كان ذلك هو الثمن المنشود.. سوف يظل عندى مثلما كان طول حياته، ويجب على إدجار أن ينفض عنه كراهيته له. ويحتمل لقاءه ورؤيته على الأقل.. ولسوف يفعل عندما يعلم حقيقة شعورى نحوه.. وها قد رأيت الآن يا نيللى أنك كنت تظنيننى أنانية تعسة.. ولكن ألم يخطر لك قط أننى لو تزوجت من هيثكليف فسنغدو فقيرين شحاذين، على حين أننى لو تزوجت من لينتون فسيكون فى وسعى أن أعين هيثكليف على النهوض، وأضعه حيث يكون بمنجاة من سطوة أخى

وسيطرته؟).

- أتفعلين ذلك بنقود زوجك يا مس كاترين؟.. إنك لن تجديه لين العريكة إلى الحد الذي تعتمدين عليه!.. ثم إننى أعتقد - دون أن يكون من شأنى الحكم على ما تفعلين - أن ذلك أسوأ ما ذكرته من بواعث تدفعك للزواج من لينتون!

فأجابت قائلة: «كلا.. إنه خيرها وأقواها. إن الأخرى كانت لإرضاء أهوائى وإشباع نزواتى، ومن أجل إدجار لينتون أيضًا، لإرضاء رغبته.. وأما هذا الباعث فإنه من أجل من يشتمل فى شخصه على كل مشاعرى نحو إدجار، وعلىّ أنا نفسي!.. إننى لا أستطيع التعبير عما يدور بخلدى، ولكن من المحقق أنك، وكل إنسان آخر، تعلمين أنه يوجد - أو يجب أن يكون هناك - كيان آخر لك خارج هيكلك!.. وإلا فأية فائدة كانت من خلقى إذا كنت بكليتى سجينة هذا الجسد؟.. إن أعظم ما لقيت من شقاء وهموم فى هذه الدنيا إنما هما شقاء هيثكليف وهمومه التى كنت أرقب كلًّا منها وأحسه وأعيش فيه منذ البداية.. وغاية حياتى ومنتهاها إنما هى هيثكليف نفسه. فلو هلك كل من عداه، وبقي هو، لبقيت أنا الأخرى متصلة الكيان والوجود. ولو بقي كل شئ آخر، وفني هو، لغدا الوجود كله غريبًا عنى، لا أحس بأننى جزء منه!.. إن حبي للينتون أشبه بأوراق الشجر فى الغابة.. يغيرها الزمن ويغير عليها - وهذا ما أحسه من الآن – كما يغير الشتاء على أوراق الأشجار.. وأما حبي لهيثكليف فأشبه بتلك الصخور الخالدة تحت الأرض، قد لا تكون مصدر بهجة ظاهرة، ولكنها ضرورية كالأزل!.. نيللى!.. إننى هيثكليف!.. وهو أبدًا فى عقلى وفى فكرى، لا كمتعة أو ملهاة، إلا بقدر ما يمكن أن أكون أنا متعة وملهاة لنفسى.. ولكنه كيانى ووجودى نفسه.. فلا تتحدثى عن فراقنا مرة ثانية لأن ذلك أمر مستحيل الوقوع عمليًّا.. و..).

وكفت عن الحديث بغتة، وهي تخفى وجهها بين طيات ثوبى.. لكنى دفعتها عنى فى غير رفق أو لين، إذ كان صبرى قد نفد من حماقاتها، وقلت:

- إذا كنت أجد أى معنى فى هرائك هذا يا آنسة، فإنه يكفي لإقناعى بأنك تجهلين كل شىء عن المسئوليات والواجبات التى يجب أن تضطلعى بها فى الزواج.. أو أنك فتاة شريرة لا خلق لها ولا مبادىء!.. فأرجو ألا تشغلينى بالمزيد من أسرارك هذه، لأني لا أعدك بكتمانها!

فقالت فى لهفة: (وهل تكتمين هذا؟)

فعدت أقول: (كلا.. لست أعدك بذلك أيضًا!)

وكانت تهمّ بالإلحاح علىّ فى الرجاء، لولا أن دخل جوزيف فى تلك اللحظة فوضع حدًّا لحديثنا.. وانتحت كاثى ناحية، وأخذت هيرتون فى حجرها، بينما انصرفت أنا لإعداد العشاء، حتى إذا ما فرغت منه بدأت وجوزيف نتشاحن أينا يحمل العشاء إلى مستر هندلى.. فلم ينته شجارنا إلا بعد أن برد الطعام وعندئذ اتفقنا على أن ننتظر حتى يطلب عشاءه، إذا شعر بحاجة إلى الطعام، إذ كنا جميعًا نرتعد فرقًا من لقائه عندما يكون قد ظل منفردًا بنفسه طويلًا!

وتلفت جوزيف يبحث عن هيثكليف، ثم قال: (وكيف لم يعد ذلك الشقى من الحقل بعد، فى هذه الساعة؟.. ما الذي يفعله؟.. لا ريب أنه يتسكع كعادته!)

فأجبت: (لا ريب أنه فى مخزن الغلال، وسأذهب لأناديه..).

ومضيت أبحث عنه، وأناديه فى كل مكان بالمنزل، ولا مجيب.. فلما عدت، انتحيت بكاثرين وهمست أقول لها إننى واثقة من أنه سمع شطرًا كبيرًا مما قالته، ثم ذكرت لها كيف لمحته وهو يغادر المطبخ فى اللحظة التى كانت فيها تشكو سوء معاملة أخيها له ومسلكه القاسى

حياله.. فما راعنى إلا أنها قفزت من مجلسها فى فزع شديد، وألقت بهيرتو ن فوق الأريكة، واندفعت إلى الخارج لتبحث عن صديقها بنفسها، دون أن تتمهل ريثما تتفكر فى سبب هذا الفزع الذي دهمها، أو ما عساه يكون قد ساءه من حديثها.. ولقد طال غيابها حتى أن جوزيف اقترح ألا ننتظرهما أكثر من ذلك، وأشار فى خبث إلى أنهما قد مكثا معًا بعيدًا حتى لا يسمعا صلاته الطويلة المسهبة.. وراح يؤكد لى أنهما من سوء الخلق والنزوع إلى الشر بحيث لا نتوقع منهما مسلكا طيبًا!.. ومن أجل صلاح نفسيهما، تطوع فى تلك الليلة بصلاة خاصة أضافها إلى ربع الساعة المعهود من التضرع والابتهال، الذي نقضيه عادة أمام الطعام قبل أن نمد إليه يدًا.. ولعله كان خليقًا بأن (يلضم) فيها صلاة أخرى، لولا أن اندفعت السيدة الصغيرة إلى الداخل، وانقضت عليه تأمره فى حزم بأن يُسرع بالخروج إلى الطريق ليبحث عن هيثكليف، أينما كان، حتى يجده ويحضره إلى المنزل فى الحال.. وأضافت فيما يشبه العويل:

- إننى أريد أن أتحدث إليه حتمًا قبل أن أصعد إلى حجرتى.. ثم أن البوابة مفتوحة على مصراعيها، ولابد أنه فى مكان ما بعيد عن مدى السمع، لأنه لم يجب ندائى برغم أننى صعدت فوق سطح الحظيرة وجعلت أصيح منادية باسمه بأعلى ما استطعت من صوت..

واعترض جوزيف فى بادئ الأمر، ولكنها كانت فى حالة من اللهفة لا تسمح باعتراض مشيئتها.. فما لبث أن وضع قبعته فوق رأسه، وسار وهو يغمغم بعبارات السخط والحنق، بينما راحت تذرع الأرض ذهابًا وجيئة وهي تهتف:

إننى لأعجب أين هو الآن؟.. بل أين يمكن أن يكون؟! ما الذي قلته يا نيللى؟.. لقد - نسيت!. أترينه غضب من سوء خلقى بعد الظهر؟.. يا إلهي!.. خبريني يا عزيزتى، ما الذي !قلته فأحزنه؟.. شدّ ما أود أن يعود!.. شد ما أود حقًا أن يعود ثانية

فصحت بها، وإن كان القلق قد بدأ يتسلل إلى قلبى:

ما هذه الضجة التى تقيمينها للاشىء؟.. أمن أتفه سبب تفزعين وترتاعين؟.. لست أرى - مما يثير القلق أن يخرج هيثكليف لنزهة فى الأحراش فى ضوء القمر، أو يدفعه تجهمه المألوف إلى الاستلقاء بين الدريس دون أن يعنى بالرد على ندائنا.. أؤكد لك أنه هناك، ..وسأريك كيف أخرجه بنفسى

وبادرت بالخروج لأعيد الكرة فى البحث عنه فى كل مكان خطر ببالى، ولكن بحثي لم يسفر عن أية ثمرة، كما أن بحث جوزيف انتهى إلى النتيجة ذاتها، إذ عاد وهو يهدر قائلًا:

إن هذا الفتى لن ينصلح حاله قط.. ولقد ترك البوابة مفتوحة فخرج مهر الآنسة وحطم - صفين من عيدان القمح، وانطلق عبر الحقل إلى الأحراش.. والله إن السيد سوف يثير الشياطين فى الصباح، وحسنًا يفعل.. فقد طال صبره حتى غدا ضعفًا وخورًا.. ولكن للصبر !نهاية، وسوف ترون عاقبة أفعالكم هذه

فقاطعته كاثرين:

هل وجدت هيثكليف يا حمار! وهل بحثت عنه كما أمرتك؟ -

كان الأولى أن أبحث عن المهر، فذاك خير وأجدى!.. ولكننى لا أستطيع البحث عن حصان - أو إنسان فى هذه الليلة المظلمة التى تشبه سواد المدخنة!..ثم إن هيثكليف لن يجيب !ندائى، وكان الأولى أن يلبى نداءك أنت

والحق أنها كانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لليالى الصيف، وكانت السحب تتجمع وتنذر بقصف الرعد وهطول المطر، فقلت إنه يجدر بنا أن نجلس جميعًا فان العاصفة المقتربة

خليقة بأن تعيده إلى المنزل، دون مزيد من العناء أو القلق.. غير أننى لم أستطع إقناع كاثرين بالهدوء، فظلت قلقة، تروح وتغدو بين باب المطبخ والبوابة الخارجية فى حالة من الاضطراب والهياج لا تدع مجالًا لأية راحة أو هدوء.. وما لبثت أن اتخذت لها مكانًا ثابتًا عند طرف السور بالقرب من الطريق، حيث أقامت هناك غير عابئة باعتراضى المتوالى، ولا بالرعد القاصف؛ بل ولا بقطرات المطر الكبيرة التى بدأت تهطل حولها، وهي تنادى على هيثكليف بين الفينة والفينة، وتنصت لعله يجيب النداء، ثم تنفجر باكية صائحة من جديد.. وكانت عندما تعتريها نوبات البكاء والصياح، تفوق هيرتون أو أى طفل آخر، فى هذا المضمار..

وقبيل منتصف الليل، وفيما نحن نجلس على هذه الحال، انطلقت شياطين العاصفة من عقالها، وأتت تهدر فوق «المرتفعات» فى عنفوان قوتها وشدتها. وكانت الرياح تزمجر كالذئاب الجائعة، والرعد يقصف كأن السماء توشك أن تنقض على الأرض، وأطارت العاصفة شجرة عند ركن الدار، فسقط غصن غليظ منها فوق السطح، وحطم جزءًا من المدخنة الشرقية، فتهاوت الأحجار والأنقاض فى هدير مروع داخل موقد المطبخ حتى خلنا أن صاعقة قد انقضت بيننا، وأسرع جوزيف يجثو على ركبتيه ويبتهل إلى الله أن يذكر عبديه الصالحين (نوحًا) و(لوطًا)، وأن يقى عباده الأبرار من الهلاك، ويقصر الدمار والفناء على الكفرة والأشرار.. وأحسست بهاتف خفي يهجس فى نفسي بأن اللعنة ستحيق بنا جميعًا، وأن (يونان)5 المنحوس ليس إلا مستر إيرنشو نفسه!.. وعندئذ مضيت أحرك مقبض باب الوكر الذي يأوى إليه، لأتحقق مما إذا كان لا يزال على قيد الحياة، فأجابنا فى صوت عال، وفى ألفاظ جعلت جوزيف يصيح ويصخب بأكثر مما كان يفعل من قبل، ويبتهل إلى الله أن يفرق بين القديسين أمثاله، والخاطئين أمثال سيده!.. ولكن العاصفة انقضت بعد زهاء عشرين دقيقة وخلفتنا جميعًا بغير سوء، فيما عدا كاثى التى ابتلت ثيابها جميعًا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء إلى الداخل، ووقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها حتى فاض شعرها وثيابها بأكبر قدر من الماء.. وأخيرًا أتت إلى المطبخ، فألقت بنفسها فوق الأريكة بثيابها المبتلة وأدارت رأسها إلى المسند وهي تخفى وجهها بين يديها..



عدا كاثي التي ابتلّت ثيابها جميعًا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء
وقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها..

فهتفت أقول وأنا ألمس كتفها بيدى:

- حسنًا يا آنسة!.. أتراك موكلة بأن تجلبى لنفسك الموت؟.. وهل تعرفين كم الساعة الآن؟.. إنها النصف بعد منتصف الليل. تعالى، تعالى إلى فراشك، فليس ثمة جدوى من بقائك بعد ذلك فى انتظار ذلك الفتى الطائش المعتوه، فلعله قد ذهب إلى (جيمرتون) وبقي بها إلى الآن.. ولعله حدس أننا لن نبقى فى انتظاره حتى هذا الوقت المتأخر، وحدس أن مستر هندلى هو وحده الذي قد يكون ساهرًا، فأراد أن يتحاشى لقاءه إذا فتح له الباب..

فقال جوزيف: «كلّا.. كلّا، إنه لم يذهب إلى (جيمرتون)، ولست أعجب إذا كان الآن فى قاع حفرة مليئة بالوحل!.. فتلك المحنة التى ابتلانا بها الله لا تذهب عبثًا.. ولو أنك ذهبت وراءه يا آنسة لكنت الفريسة التالية!.. هل تعرفين ما تقول التوراة؟).

ثم بدأ يتلو علينا الآيات ويرشدنا إلى مواضعها بين النصوص حيث يمكن أن نجدها.. وإذ ذهبت توسلاتى لتلك البنت العنيدة بأن تنهض وتستبدل ثيابها المبللة، عبثًا، تركت أحدهما يتلو عظاته وصلواته، والأخرى ترتعد من فرط البرد، ومضيت إلى فراشى حاملة هيرتون الصغير الذي سرعان ما استغرق فى النوم.. ولبثت برهة أسمع صوت جوزيف وهو يتابع ابتهالاته، ثم سمعت وقع أقدامه فى الدرج، قبل أن يغلبنى النعاس وأروح فى نوم عميق..

فلما نزلت إلى المطبخ فى الصباح؛ متأخرة عن موعدى المعتاد قليلًا، رأيت - على ضوء أشعة الشمس التى كانت تخترق فتحات النافذة - مس كاثرين لا تزال جالسة بجوار المدفأة التى خبت نيرانها. وكان الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس منفرجًا والضوء يغمرها من النافذة المفتوحة.. وكان هندلى قد خرج من الحجرة ووقف بجوار مدفأة المطبخ، شاحب الوجه مثقل العينين بالنعاس.. وكان يقول لها عندما دخلت:

ماذا بك يا كاتى؟.. إنك تبدين فى حالة يرثى لها، كجرو غريق.. لماذا أراك شاحبة الوجه - مبللة الثياب يا صغيرتى؟

فأجابته فى إحجام وتخاذل:

- ..لقد ابتلت ثيابى، وشعرت بالبرد.. هذا كل شىء

فلم أتمالك نفسي من القول، إذ رأيت السيد وقد أفاق من سكره: (آه! إنها فتاة شريرة.. لقد تركت وابل المطر ليلة أمس يغرقها ثم جلست الليل بطوله هنا ولم أستطع التأثير عليها كى تذهب إلى فراشها أو تتحرك من مكانها..).

فراح مستر إيرنشو يحدق البصر إلينا جميعًا فى دهشة، وما لبث أن قال: (الليل بطوله؟.. وما الذي أبقاها مستيقظة حتى الآن؟.. إنه ليس الخوف من الرعد طبعًا، فقد انقضى ذلك منذ ساعات طويلة؟)

فلم يشأ أحد منا أن يذكر شيئًا عن غياب هيثكليف، طالما كان فى وسعنا أن نخفيه.. وهكذا قلت إننى لا أدرى ما الذي نبت فى رأسها كى تظل جالسة ساهرة، كما أنها لم تقل شيئًا البتة. وكان الجو جميلًا والصباح مشرقًا، فدفعت مصاريع النافذة وسرعان ما امتلأ المكان بشذى الزهور المنبعث من الحديقة، غير أن كاثرين صاحت بى فى حنق:

- أغلقى النافذة يا ايلين، فإنى أموت من البرد!

وأخذت أسنانها تصطك وبدنها يرتعد، وهي تقترب من رماد النيران الخابية، فأمسك أخوها برسغها، وصاح: «إنها مريضة!.. وأحسب أن ذلك هو السبب فى عدم ذهابها إلى الفراش. يا للشيطان! إننى لا أريد أن تنغصوا حياتى بالمزيد من المرض هنا!.. ما الذي جعلك تخرجين

فى المطر بحق السماء؟).

فانبرى جوزيف، وقد سنحت له الفرصة - بعد أن رأى ترددنا - لينفث سموم لسانه، قال:

- الجرى وراء الشبان كالعادة!. ولو كنت فى مكانك أيها السيد لنزلت على وجوههم وأقفيتهم صفعًا، السادة منهم والصعاليك!.. فما من يوم تخرج فيه من المنزل حتى يحضر لينتون الشاب ليتسكع هنا. أما مس نيللى فهى فتاة رقيقة الشعور!.. إنها تجلس فى المطبخ تترقب حضورك من النافذة، لتنذرهما بعودتك، فما أن تدخل من باب حتى يتسلل لينتون من الباب الآخر، وبعد ذلك تمضي سيدتنا العظيمة فى الغزل من جديد على طريقتها!.. هل ترى من آداب السلوك أن تذهب لتجوب فى الحقول بعد منتصف الليل مع ذلك الوغد سليل الشياطين والغجر، هيثكليف؟.. إنهم يظنوننى أعمى لا أرى شيئًا، ولكنى لست كذلك!.. لقد رأيت لينتون الشاب وهو يأتى ويذهب. ورأيتك أنت، (وهنا تفضل بتوجيه الكلام لى): أنت أيتها الفتاة الضالة التى لا تصلح لشىء، تنهضين فجأة وتسرعين إلى حجرة الجلوس فى اللحظة التى تسمعين فيها وقع حوافر جواد السيد فى أول الطريق!

فصاحت كاثرين (اصمت أيها النمام الدسّاس!.. ولا تزد من قحتك وسلاطة لسانك أمامى.. لقد حضر إدجار لينتون أمس يا هيندلى مصادفة، وكنت أنا التى طلبت إليه الانصراف لأننى أعلم أنك ما كنت تود أن تلقاه فى الحالة التى كنت فيها..)

فأجاب أخوها: (بل أنت تكذبين يا كاتى، لا شك فى ذلك. ثم إنك بلهاء لعينة!.. ولكن دعينا من لينتون الآن، وأخبرينى ألم تكونى مع هيثكليف ليلة الأمس؟.. قولى الحقيقة الآن، ولا حاجة بك إلى الخوف من إيذائه. فعلى الرغم من أننى أكرهه الآن أكثر من أى وقت مضى، إلا أنه أسدى إلىّ صنيعًا لا أستطيع تجاهله، منذ وقت قصير، بحيث لا يطاوعنى ضميرى على أن أدق عنقه.. ولكي أحول دون ذلك فسوف أطرده اليوم، بل هذا الصباح بالذات. وعندما يذهب فإنى أنصحكم جميعًا بأن تفتحوا أعينكم جيدًا وإلا كان لكم عندى الجزاء الأوفى!).

فبدأت كاثرين تنشج فى مرارة وتقول:

- ما رأيت هيثكليف ليلة الأمس قط.. وإذا طردته من هنا فسوف أذهب معه، ولكن مهلًا، لعلك لن تستمتع بهذه الفرصة قط. لعله ذهب من تلقاء نفسه!

ثم انفجرت فى نوبة من البكاء المرير والحزن الدافق حتى غدت كلماتها الأخيرة غير واضحة أو مفهومة.. وعندئذ راح أخوها يصب عليها وابلًا من الألفاظ القارصة والعبارات القاسية، وأمرها بأن تذهب إلى حجرتها فى الحال، وإلا أذاقها ما يجعل لبكائها سببًا. وأرغمتها على الطاعة، ولن أنسى ما حييت الحالة المروعة التى كانت فيها عندما أوينا إلى حجرتها، حتى تملكنى الرعب والفزع، وحسبتها قد أصيبت بالجنون، فأسرعت أرجو جوزيف أن يبادر إلى طلب الطبيب، لأننى وجدتها تهذي بكلام غير مفهوم كهذيان المحموم.. وما كاد مستر كينيث يراها حتى قرر أنها مصابة بحمى، وأن حالتها بالغة السوء إلى حد خطير، ثم فصدها وأمرنى بأن يقتصر غذاؤها على اللبن المخضوض وثريد الماء، وأن نرقبها بأعين مفتوحة حتى لا تلقى بنفسها من النافذة أو من الدرج، وما لبث ان بارحنا لكثرة عمله فى تلك الأنحاء التى لا تقل المسافة فيها بين كوخ وآخرعن ميلين أو ثلاثة..

ولست أزعم أننى كنت لها ممرضة رقيقة حانية، كذلك لم يكن جوزيف والسيد بخير منى فى هذا المضمار.. وعلى الرغم من ذلك، ومن أن مريضتنا كانت متعبة عنيدة صلبة الرأى، فإنها اجتازت مرحلة الخطر بسلام. وقد زارتنا مسز لينتون العجوز مرارًا عدة، وكانت لا

تفتأ توجهنا وترشدنا، بل وتوجه إلينا اللوم والتقريع إذا لمحت علينا تراخيًا أو تقصيرًا، حتى إذا ما بدأت كاثرين مرحلة النقاهة أصرت على أن تأخذها إلى منزلها فى (ثرشكروس جرانج) لتستكمل هناك أسباب الشفاء والصحة.. وكم شكرنا للسيدة الكريمة أن خلصتنا من متاعب كاثى ومضايقاتها، غير أن المسكينة دفعت ثمن شفقتها وحنانها غاليًا، فقد انتقلت عدوى الحمى إليها وإلى زوجها، وما لبثا أن قضيا نحبهما وبين أحدهما والآخر أيام قلائل!

وعادت إلينا سيدتنا الصغيرة أشد قحة وأحد طبعًا وأعظم تعاليًا وغطرسة مما كانت عليه قط من قبل!.. ولم نكن قد سمعنا شيئًا البتة عن هيثكليف منذ اختفائه ليلة العاصفة، فكان من سوء طالعى ذات يوم، وقد أثارتنى بفعالها حتى لم أعد أملك زمام نفسي، أن ألقيت عليها وحدها تبعة اختفائه. وكانت تعرف هذه الحقيقة تمامًا، ولكنها أنفت أن يواجهها أحد بها. ومنذ ذلك اليوم، ولعدة شهور بعد ذلك، تباعدت عنى ولم تعد تتصل بى على أى وجه إلا لتصدر لى أمرًا. شأنى فى ذلك شأن أية خادم عادية!.. ووقع جوزيف كذلك تحت طائلة غضبها، وكان يود أن يقول لها كل ما يجول بخاطره، وأن يلقى على مسامعها عظاته كأنها لا تزال بنتًا صغيرة، ولكنها كانت تعتبر نفسها امرأة، وترى نفسها سيدتنا، وتخال من حقها بعد مرضها الأخير أن تلقى منا كل احترام وإجلال. وكان الطبيب قد قرر أن حالتها لا تحتمل المعارضة أو الإثارة، وأنها يجب أن تنفذ مشيئتها ورغباتها بغير تردد. فإن اجتراء أحد على الوقوف أمامها واعتراضه لها كان فى عينيها لا يقل عن القتل!.. وكانت تتحاشى أخاها ورفاقه، بينما كان هو، مدفوعًا بما سمعه ن الدكتور كينيث. وبخشيته من العواقب الخطيرة التى قد تصيبها إذا ما استبد بها الغضب، قد ترك لها الحبل على الغارب، وأخذ يلبى كل رغباتها، أيًا كانت، وينأى عن كل ما يثير مزاجها النارى الجموح. بل لقد كان مفرطًا فى التسامح معها، ممعنًا فى إرضاء نزواتها وأهوائها، لا عن حب حقيقى أو عاطفة أخوية صادقة، بل عن زهو وكبرياء، إذ كان يذوب لهفة على أن تتشرف العائلة بمصاهرة آل لينتون.. وما دامت تدعه وشأنه فلها أن تدوس على أعناقنا كالعبيد، فما يعنيه من ذلك شىء!.. وكان إدجار لينتون، كالكثيرين ممن سبقوه وممن سيأتون بعده، مفتونًا ذاهب اللب بمعبودته، وحسب نفسه أسعد رجل حملته الأرض، فى اليوم الذي قادها فيه إلى هيكل كنيسة جيمرتون، بعد وفاة والده بثلاثة اعوام.

وأرغمت - على غير ما كنت أهوى وأحب - على مغادرة (مرتفعات ويذرنج) ومصاحبة كاثرين إلى هنا، منذ كان هيرتون الصغير قد بلغ الخامسة من عمره، وبدأت أعلمه مبادئ الهجاء. وكان فراقنا أليمًا، ولكن دموع كاثرين كانت أقوى من دموعنا. وعندما رفضت الذهاب معها، ووجدت أن توسلاتها لم تجد نفعًا معى، ذهبت تشكو لزوجها وأخيها، فأغرانى الأول بالمزيد من الاجر، على حين أمرنى الثانى بأن أحزم متاعى وأتهيأ لمغادرة البيت، لأنه لا يريد نساء فى منزله بعد أن خلا من سيدته. وقال عن هيرتون إنه سيكل أمر رعايته وتهذيبه إلى القس. وهكذا لم يعد أمامى غير سبيل واحد للاختيار، وهو أن أنفذ ما أُمرت به، وأرافقها. ولقد قلت للسيد قبل انصرافى إنه إنما أراد الخلاص من كل ذى حياء أو خلق قويم فى المنزل، حتى يطلق لنزواته العنان، ويمضي نحو الدمار من أسرع طريق.. ثم قبلت هيرتون وودعته، ومنذ ذلك اليوم أضحى بالنسبة لى غريبًا بكل معنى الكلمة. وقد يبدو ذلك أمرًا عجيبًا، ولكنى لا أشك البتة فى أنه قد نسى كل شىء عن (إيلين دين)، تلك التى كان لها - كما كانت له - كل شى فى هذا العالم!).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعند هذا القدر من الحديث حانت من مدبرة المنزل نظرة نحو الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة، فذهلت إذ وجدتها قد بلغت الواحدة والنصف، ونهضت من مجلسها دون أن ترضى بالبقاء ثانية واحدة بعد ذلك. والحق أننى كنت أنا نفسي ميالًا إلى تأجيل متابعة القصة إلى وقت آخر.. ولبثت بعد أن تركت الحجرة جالسًا أفكر فيما سمعت، ساعة أو اثنتين،

استجمعت بعدهما شجاعتى للذهاب إلى الفراش، برغم ذلك الخدر الموجع الذي كان يسرى فى رأسى وأطرافى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

لعمرى كانت الأيام التالية خير تمهيد لمن ينشد حياة النسك والوحدة والعزلة!.. أربعة أسابيع قضيتها بين الآلام، والسعال، والمرض. وبين هذه الرياح الباردة القارصة، وهذه السماء المقبضة الموحشة، وتلك الطرقات التى لا يمكن لأحد عبورها، ثم أطباء الريف الكسالى!.. حتى سئمت هذا الحرمان المطلق من رؤية وجوه البشر، ولكن الأسوأ من كل هذا وذاك إنما كان ذلك الإنذار المروع الذي وجهه لى كينيث بألا أتوقع مغادرة الدار قبل حلول الربيع!

وكان مستر هيثكليف قد شرفنى بزيارته، بعد أن كان قد أرسل لى منذ سبعة أيام زوجًا من بط المستنقعات، وكنا فى آخر موسم صيده. يا له من وغد!..ألا يعلم أنه ليس بريئًا من مرضى هذا؟.. لكم كنت أود أن أجابهه بذاك صراحة، ولكن واأسفاه!.. كيف كان يسعنى أن أسىء إلى رجل كان من الكرم بحيث جلس بجوار فراشى ساعة كاملة تحدث فيها عن كل شىء إلا عن الحبوب والجرعات والنفاطات ودود العلق!.. ولكنى الآن أحسن حالًا، وأجتاز فترة تحسنت فيها كثيرًا عن ذى قبل. وإذا كان الضعف قد بلغ منى حدًّا يحول بينى وبين القراءة، إلا أننى أجد نفسي قادرًا على الاستمتاع بشىء مسل يُذهب عنى هذه الوحشة التى أعانيها.. فلماذا لا أدعو مسز دين لتتم حكايتها؟.. إننى ما زلت أذكر حوادثها الهامة إلى القدر الذي قصته علّى منها. نعم، أذكر أن البطل قد اختفى عن العيان، فلم يسمع عنه أحد طيلة أعوام ثلاثة.. وأن البطلة قد تزوجت.. سوف أدق الجرس لأدعوها، وستسر إذ ترانى قادرًا على الاستمتاع بحديث طلى.

وأتت مسز دين، فبدأت تقول:

- ما زال باقيًا على موعد الدواء عشرون دقيقة يا سيدي..

- بعدًا للدواء وسحقًا!.. إنما أحب أن..

- ولكن الطبيب يقول إنك يجب عليك أن تتناول هذه المساحيق..

- من كل قلبى يا مسز دين.. ولكن لا تقاطعينى!.. تعالى واجلسى هنا.. وأبعدى أصابعك عن هذه الشرذمة من القنانى والزجاجات، وأخرجى من جيبك معدات الحياكة. أحسنت!.. والآن أمضي قدمًا فى رواية قصة مستر هيثكليف من حيث وقفت، إلى يومنا هذا. أترينه قد أتم دراسته فى أوروبا وعاد سيدًا مهذبًا؟.. أم نال درجة من الجامعة؟.. أم فر إلى أمريكا واكتسب ثروته من سفك الدماء فى بلده الأصلى؟.. أم لعله نالها من قطع الطريق بجبال إنجلترا؟

- ربما كان قد مارس شيئًا من ذلك كله يا مستر لوكوود، ولكنى لا أستطيع الجزم بأيها كان مصدر ثرائه.. وقد قلت قبل ذلك إننى لا أدرى كيف جمع ثروته، كذلك لست أدرى شيئًا عن الوسائل التى ساعدت بها نقوده فى ترقية مداركه من ذلك الجهل الوحشى الذي كان مترديًا فيه. ومهما يكن من أمر فإنى أرجو أن تأذن لى بمتابعة القصة على طريقتى، إذا رأيت أنها سوف تسليك ولا تثقل عليك.. وبهذه المناسبة، هل تشعراليوم بأنك أحسن حالًا؟

- كثيرًا..

- هذه أنباء سارة..

واتخذت مسز دين مجلسها أمامى، ثم مضت تتابع قصتها:

(صحبت مسز كاثرين إلى (ثرشكروس جرانج)، وكم شعرت بارتياح ورضى لما أصبت به من خيبة أمل، إذ رأيتها تسلك مسلكا رائعًا، خيرًا بكثير مما كنت أتوقع.. كانت تبدو مولعة أشد الولع بمستر لينتون، كما كانت تحوط شقيقته بكل ضروب الود والانعطاف. وكانا كلاهما يعنيان أشد العناية بتوفير أسباب الراحة لها ورعايتها، والبعد عن كل ما يعكر صفوها. لم تكن الشوكة هى التى تنحنى لتفسح الطريق أمام زهور اللبلاب المتسلقة، وإنما كانت الزهور هى التى تحتضن الشوكة وتعانقها وتدور من حولها!.. ولم تكن تنشأ بينها وبينهما مواقف فيها شد وإرخاء، أو تسلط وإذعان، وإنما كانت تقف مكانها منتصبة القامة، وكانا هما اللذان يخضعان ويلينان.. ومن ذا الذي يمكن أن يكون حاد الطبع سيىء الخلق متى كان لا يلقى معارضة أو استخفافًا؟.. ولقد لاحظت أن مستر لينتون كان ينطوى على خوف عميق من تكدير صفوها أو تعكير مزاجها.. وكان يخفى عنها شعوره هذا، ولكنه ما أن يرانى أرد عليها فى حدة، أو يرى أحدًا من الخدم الآخرين يظهر امتعاضًا من صرامة أوامرها، حتى يعلو وجهه تقطيب الاستياء، وهو شىء ما كان يحدث له لو أن الأمر كان خاصًا به. وكثيرًا ما خاطبنى، عابسًا متجهمًا، عن حدة لسانى وسلاطتى معها، قائلًا إن طعنات السكين ما كانت لتسبب له ألمًا أشد مما يقاسيه عندما يرى زوجته متكدرة أو مغيظة.. وإذ كنت لا أريد أن أسىء إلى سيد كريم مثله، فقد رضت نفسي على أن أكون أكثر تسامحًا.. وهكذا ظللنا أكثر من ستة شهور والبارود ملقى مكانه كأنه رمل لا خطر فيه ولا ضرر منه، إذ لم تكن ثمة نار تقترب منه لتشعله وتفجره. وكانت تعتري كاثرين، بين آن وآخر، فترات من الكآبة والصمت، فكان زوجها يحترمها فى عطف صامت، ويعزو ذلك إلى التغيير الذي أحدثه فى كيانها ذلك المرض الخطير الذي أصابها، إذ لم تكن قط قبله عرضة لمثل هذا الانقباض والكآبة.. وكان انبثاق الفجر وإشراق الشمس من جديد يقابلهما إشراق واستجابة من ناحيته.. وأحسب أن بوسعى أن أؤكد أنهما كانا يتقاسمان سعادة عميقة متزايدة..

ثم انتهى كل شىء!.. حسنًا!.. لابد لنا من أن تظهر حقيقتنا فى النهاية.. كما أن البسطاء الكرام لا يقلون أنانية وأثرة عن المسيطرين المتسلطين. وقد انتهى كل شىء عندما سببت الأحداث لكل منهما أن يشعر بأن مصلحة أحدهما ليست صاحبة المقام الأول فى تفكير الآخر وخواطره!.. ففى مساء يوم عليل الهواء من شهر سبتمبر، كنت قادمة من البستان أحمل سلة ثقيلة ملأى بثمار التفاح التى جنيتها. وكان الليل قد أرخى سدوله، والقمر يطل من فوق سور الفناء فيرسل أشباحًا غامضة تتراقص فى جنبات المبنى المتعددة. ووضعت حملى على درجات السلم بجانب باب المطبخ الخلفى، ثم تمهلت لألتقط أنفاسى اللاهثة، وأستنشق الهواء العليل الرقراق، وقد استقبلت القمر بوجهى وأدرت ظهرى ناحية المطبخ، وإذا بى أسمع صوتًا يقول من خلفى:

- أهذه أنت يا نيللى؟

كان صوتًا عميقًا، فى نبراته لكنة غريبة، ومع ذلك كان فى الطريقة التى نطق بها باسمى شىء جعله يبدو مألوفًا لى.. فاستدرت مجفلة لأرى المتكلم، وقد غمرنى الخوف، إذ كانت الأبواب مغلقة، ولم أكن قد لمحت أحدًا عند اقترابى من الدار.. وإذا بشىء يتحرك فى الظلام عند ركن الباب، فاستطعت أن أتبين رجلًا طويل القامة يرتدى ثيابًا قاتمة، أسمر الوجه أسود الشعر. واقترب المجهول فاستند إلى الجدار بجوار الباب ومد يده يتحسس الرتاج بأصابعه كأنما يهم بفتح الباب بنفسه، فقلت فى نفسي: (تُرى من يكون؟ مستر إيرنشو؟ ولكن لا.. فهذا الصوت لا يشبه صوته).



تطعت أن أتبين رجلًا طويل القامة يرتدي ثيابًا قاتمة، أسمر الوجه

د الشعر.

واستطرد الغريب يقول، بينما كنت لا أزال أحملق فيه مدهوشة:

- لقد انتظرت هنا ساعة كاملة، كان السكون يرين فوق المكان خلالها، أشبه بصمت القبور، فلم أجرؤ على الدخول. ولكن ألم تعرفينى؟.. انظرى. إننى لست غريبًا عنك!

ومال إلى الأمام فسقط شعاع فوق وجهه، ورأيت وجنتين غائرتين تغطى معظمهما سوالف من الشعر الحالك السواد، كما رأيت حاجبين كثيفين، وعينين عميقتين يشع منهما بريق عجيب. وعندئذ ذكرت العينين، فلم أدر هل صاحبهما شبح من الأشباح يتراءى لى، أم إنسان من أهل الدنيا، ورفعت يدي فى دهشة، هاتفة:

- ماذا؟.. هل عدت ثانية؟.. أهذا أنت حقًّا؟

فأجابنى وهو يرفع بصره منى إلى النوافذ التى كانت تعكس آلافًا من أشعة القمر المتكسرة دون أن يبدو ضوء بداخلها:

نعم.. هيثكليف!.. ولكن أما من أحد منهم هنا؟.. أين هى؟.. إنك لا تبدين مسرورة لرؤيتى - يا نيللى!.. ولكن لا حاجة بك لهذا الاضطراب.. أهى هنا؟ تكلمى.. فإنى أريد أن أقول كلمة !واحدة لها.. لسيدتك.. اذهبى وأخبريها أن شخصًا من (جيمرتون) يرغب فى أن يراها

فهتفت قائلة: (وكيف تتلقى النبأ؟.. وماذا تراها فاعلة؟.. إن هذه المفاجأة تحيرنى وتشل حواسى، فسوف يطير صوابها.. وأنت هيثكليف بعينك، ولكنك تغيرت كثيرًا. كلا، لست أفهم ما حلّ بك، فهل كنت فى الجندية؟)

فقاطعنى فى صبر نافذ ٤ قائلًا:

- اذهبي وبلغى رسالتى، فإنى على أحر من الجمر حتى تفعلى!

ثم مد يده ورفع المزلاج، فدخلت إلى المنزل.. ولكنى ما كدت أشرف على حجرة الجلوس، حيث كان يجلس مستر ومسز لينتون، حتى لم أجد فى نفسي ميلًا إلى التقدم خطوة اخرى. وأخيرًا عزمت على أن أتعلل بسؤالهما عما إذا كانا يرغبان فى إضاءة الشموع، وعندئذ فتحت الباب..

كانا وقتئذ يجلسان معًا إلى جوار نافذة عريضة مفتوحة على مصراعيها، وقد انكشف أمامهما - وراء أشجار الحديقة الباسقة وخضرة البستان المترامى الأطراف - وادي جيمرتون وقد جلله خط طويل من الضباب يتلوى معه حتى يوشك أن يصل إلى قمته (ولعلك لاحظت أنك لا تكاد تجتاز الكنيسة الصغيرة حتى يكون الماء الذي ينشع من المستنقعات قد اتصل بنهيرات صغيرة تجرى مع انحناءات الأخاديد المتعددة).. وكانت (مرتفعات ويذرنج) تعلو فوق ذلك الضباب الفضى، ولكن منزلنا القديم لم يكن ظاهرًا للعيان، إذ أنه ينحدر نحو الجانب الآخر من الجبل. وكانت الحجرة، والجالسان فيها، والمنظر الساحر الذي يتأملانه، تسبح جميعًا فى سلام عجيب، حتى لقد أحجمت - نافرة - عن أداء مهمتى، وأوشكت أن أغادر المكان دون أن أبلغ رسالتى. مكتفية بسؤالى عن إضاءة الشموع، عندما دفعنى النزق إلى أن أعود، قائلة:

- هنا شخص من جيمرتون يريد أن يتحدث إليك يا سيدتى..

فقالت مسز لينتون: (ما الذي يريده؟)

فأجبت: (إننى لم أسأله..).

- حسنًا. أسدلى الستائر يا نيللى، وأحضرى لنا الشاى.. وسوف أعود فى الحال.

وغادرت الحجرة، فسألنى مستر إدجار فى غير اكتراث عمن يكون هذا الشخص، فقلت: (إنه شخص لا تتوقع سيدتى رؤيته.. فهو ذلك المدعو هيثكليف.. ولعلك تذكره يا سيدى فقد كان يعيش فى منزل مستر إيرنشو..).

فصاح فى حدة: (ماذا؟.. ذلك الغلام الغجرى الذي كان يعمل فى الحقل؟.. ولماذا لم تقولى ذلك لكاثرين؟).

- مهلًا يا سيدى، فما يجدر بك أن تنعته بهذه الصفات، وإلا أضناها الأسى لسماعك.. فقد كاد قلبها يتحطم عندما رحل فجأة، وأحسب أن عودته ستكون عيدًا بالنسبة لها..

فسار مستر لينتون إلى نافذة فى الناحية الأخرى من الحجرة تُشرف على الفناء، ففتحها وانحنى يطل منها.. وأعتقد أنه رآهما تحته، إذ أسرع يهتف قائلًا: (لا تقفى هنا يا حبيبتى، بل أدخلى الشخص إذا كنت تعرفينه!).

وما هى إلا لحظة حتى سمعت صرير المزلاج، ورأيت كاثرين ترقى الدرج فى عجلة شديدة، مبهورة الأنفاس، وقد استبد بها الانفعال بحيث كاد يخفى فرحتها.. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إنك لو رأيت وجهها وقتئذ لحسبت أن كارثة رهيبة قد حلت بها!

وأسرعت تطوق عنق زوجها وهى تقول لاهثة: (أوه يا إدجار. يا حبيبى إدجار.. لقد عاد هيثكليف!.. لقد عاد حقًّا!)

وراحت فى غمرة انفعالها تشدد الضغط حول عنق زوجها الذي صاح عابسًا: (حسنًا، حسنًا. ولكن لا تخنقينى لهذا السبب!.. إنه لم يبد لى قط كنزًا ثمينًا إلى هذا القدر، ولا حاجة بك إلى كل هذا الفرح الجنونى!)

فخففت قليلًا من غزارة فرحتها وقالت (أعلم أنك ما أحببته قط، ولكن يجب الآن أن تكونا صديقين، من أجل خاطرى. هل أدعوه إلى الصعود؟)

- هنا؟.. فى حجرة الجلوس؟

- وأين إذن؟

فلاح عليه الضيق والحرج، وغمغم قائلًا إن المطبخ هو أليق مكان به.. ولكن مسز لينتون رمقته بنظرة غريبة، تحمل من الغضب مثلما تحمل من السخرية بتزمته، وما لبثت أن استطردت تقول:

- كلّا.. فلست أستطيع الجلوس فى المطبخ، ولكن أعدى مائدتين هنا يا نيللى، إحداهما لسيدك ومس إيزابيلا، إذ هما من طبقة السراة والخاصة، والأخرى لى ولهيثكليف، فنحن من الطبقة الدنيا!.. أيرضيك هذا ياعزيزى؟.. أم تفضل أن نوقد مدفأة أخرى لنا؟ إذا شئت ذلك فأرجو أن تصدر أمرك لتنفيذه!.. أما أنا فسوف أهرع لأحتفى بضيفى.. آه!.. كم أخشى أن يكون سرورى من الغزارة بحيث لا يكون حقيقة واقعة!

وهمت بأن تندفع خارجة من الحجرة، ولكن إدجار أمسك بها، وقال لى: (اذهبى أنت فاطلبى إليه أن يصعد. وأنت يا كاثرين، حاولى أن تكونى مسرورة دون أن يبلغ بك الأمر إلى حد السخف.. ولا حاجة بك لأن يشهد خدم الدار منظر حفاوتك بخادم هارب كأنه شقيق لك!)

فنزلت ووجدت هيثكليف ينتظر عند الباب، متوقعًا دعوته إلى الدخول.. وتبعنى دون أن يضيع وقته فى المزيد من الكلام، حتى قدته إلى حضرة السيد والسيدة، التى كان تورد

وجنتيها ينم عما سمعته من قوارص الكلم.. ولكن وجنتى السيدة توهجتا تحت تأثير شعور آخر عندما ظهر صديقها عند الباب، ووثبت من مكانها متقدمة نحوه، فتناولت كلتا يديه، وقادته إلى حيث كان يقف زوجها، ثم أمسكت بأصابع مستر لينتون المترددة الناكصة، ودفعتها إلى يد هيثكليف. وقد ذهلت عندما سقط ضوء الشموع ووهج النار على وجه هيثكليف وقوامه فكشف عن مدى التغير الذي حل به. كان قد أصبح رجلًا فارع الطول رياضيًا ممشوق القوام، بحيث كان سيدى يبدو بجانبه هزيلًا أشبه بالغلمان!.. وكان اعتدال قامته يوحى بأنه كان فى الجيش. أما أساريره فقد اكتست طابعًا من الصرامة والجد جعله يبدو أكبر سنًا من مستر لينتون، ولكن محياه كان ينم عن ذكاء وفطنة، وقد خلا من سمة المهانة التى كانت بادية عليه فيما مضى.. وكانت تكمن فى حاجبيه الكثيفين المنقبضين، وفى عينيه المليئتين بنيران متقدة، ضراوة نصف متحضرة، كان يجهد فى قمعها وكبح جماحها. وكان مسلكه مهذبًا فى وقار، خلوًا من أية خشونة أو جلافة، وإن كان من الصرامة بحيث لا يعد لطيف الشمائل رقيق الحاشية..

وكانت دهشة سيدى تضارع دهشتى إن لم تزد عليها، فلبث برهة حائرًا لا يدرى كيف يوجه الخطاب إلى (عامل الحقل الأجير) كما كان يدعوه!.. أما هيثكليف فقد أرخى ذراعه، ووقف ينظر إليه فى برود، حتى نطق السيد أخيرًا فقال:

اجلس يا سيّدي، فإن مسز لينتون - وقد ذكرت الأيام الماضية - قد رغبت إلى أن استقبلك استقبالًا وديًا.. ولا شك أن من بواعث سرورى أن أقوم بكل ما يجلب إليها السرور والبهجة..

- كذلك أنا، خصوصًا إذا كان لى نصيب من أسباب هذا السرور، ولهذا سوف أبقى معكما ساعة أو اثنتين عن طيب خاطر..

واتخذ له مجلسًا فى مواجهة كاثرين التى ظلت نظراتها معلقة به كأنما تخشى أن يتلاشى من أمامها إن هى حولتها عنه!.. أما هو فلم يكن يرفع أنظاره إليها إلا لمامًا، قانعًا بالنظرة العجلى يصوبها نحوها بين آن وآخر، فترتد فى كل مرة فى جرأة متزايدة، وهي تومض بذلك السرور السافر الذي ينهله من عينيها.. وكانا من الاستغراق فى فرحتهما المتبادلة بحيث لم يحسا حرجًا أو ارتباكا. ولكن ذلك لم يكن شأن مستر إدجار، فقد إزداد وجهه امتقاعًا من فرط غضبه حتى بلغ هذا الشعور ذروته عندما نهضت زوجته ومشت إلى حيث كان هيثكليف جالسًا عند الطرف الآخر للسجادة، فأمسكت بيديه من جديد وراحت تضحك بغير وعى كشخص ذهب السرور بلبه!.. وأخيرًا هتفت تقول:

- سوف يبدو لى ذلك حلمًا من الأحلام فى الغد!.. لن يكون فى استطاعتى أن أصدق أننى رأيتك، ولمستك بيدى، وخاطبتك مرة أخرى.. ومع ذلك فما أقساك يا هيثكليف!.. إنك لا تستحق هذا الترحيب، بعد أن ظللت غائبًا ثلاث سنوات لزمت فيها الصمت ولم تفكر فى قط!

فغمغم يقول:

- لقد فكرت فيك أكثر قليلًا مما فكرت أنت فىَّ يا كاتى.. وقد سمعت بزواجك منذ قريب، وبينما كنت واقفًا أنتظر فى الفناء، دبرت فى رأسى هذه الخطة: أن أتزود من وجهك بنظرة واحدة، قد تكون نظرة دهشة، وقد تكون نظرة سرور مصطنع، وأمضى بعد ذلك لأسوى حسابى مع هندلى، ثم أقضي على نفسي فأوفر على الحكومة مشقة إعدامى!.. بيد أن ترحيبك بى قد طرد هذه الأفكار من رأسى، ولكن حذار من أن تلاقينى على صورة أخرى فى المرة القادمة!.. كلّا، إنك لن تدفعينى إلى الفرار ثانية. أحقًا كنت حزينة من أجلى يا كاتى؟.. لقد كنت على حق فيما فعلت، بل اضطررت إليه اضطرارًا. ولقد عانيت الكثير من

قسوة الحياة ومرارتها منذ أن سمعت صوتك آخر مرة. فما ناضلت وكافحت إلا من أجلك!

فقاطعهما لينتون وهو يجاهد فى الاحتفاظ بنبراته العادية، وبقدر من الأدب، قائلًا:

- تعالى إلى المائدة يا كاثرين، إلا إذا كنت تنوين تناول الشاى باردًا. تعالى من فضلك، فإن أمام مستر هيثكليف شقة طويلة يمشيها أينما كان يزمع المبيت الليلة.. ثم إننى أحس بالظمأ..

فاتخذت مجلسها أمام آنية الشاى، بينما أقبلت مس إيزابيلا تلبية للجرس الذي يدعو إلى الطعام أو الشاى. وإذ انتهت مهمتى بتقريب مقاعدهم الى المائدة، غادرت الحجرة وانصرفت لشأنى. ولكن تناول الشاى لم يستغرق عشر دقائق، فإن كاثرين لم تملأ قدحها قط، إذ كانت فى حالة لا تستطيع معها أن تبتلع طعامًا أو شرابًا.. أما مستر إدجار فقد انسكب منه الشاى فى الطبق، ولم يأخذ من قدحه أكثر من جرعة أو اثنتين!

ولم يطل الضيف مقامه فى تلك الأمسية أكثر من ساعة، وفيما كنت أودعه سألته إن كان ذاهبًا إلى (جيمرتون)، فقال:

- كلا.. بل إلى (مرتفعات ويذرنج)، فقد دعانى مستر إيرنشو للمبيت عندما زرته هذا الصباح!

وكان لهذه العبارة طنين فى رأسى، ورحت أفكر فيها بعد ذهابه، بين مصدقة ومكذبة.. أهو يزور مستر إيرنشو.. ومستر إيرنشو يدعوه للمبيت؟.. أتراه قد تعلم النفاق وأتى إلى هذه المنطقة ليرتكب شروره مستترًا بمسوح الرهبان؟.. أخذت أمعن التفكير فى الأمر، فأحسست فى أعماق قلبى بهاجس يحدثنى أنه كان من الخير أن يظلّ بعيدًا عنا، ولا يعود إلينا..

وزهاء منتصف الليل، أفقت مذعورة من نوم البداءة العميق، فإذا مسز لينتون تجلس بجانب فراشى وهي تجذبنى من شعري لتوقظنى.. فما أن فتحت عينى حتى قالت فيما يشبه الاعتذار:

- لم أذق للنوم أو الراحة طعمًا يا نيللى.. وشد ما أحس بالحاجة إلى كائن حى يسهر معى ويشاركنى سعادتى!.. ولكن إدجار شديد التجهم والعبوس لأننى فرحة بشئ لا يهمه ولا يبالي به.. فهو يرفض أن يفتح فمه إلا ليبدى تبرمه، وليسمعنى كلامًا سخيفًا.. وقد أكد لى أننى قاسية أنانية إذ أزعجه بالحديث فى وقت يحس فيه بالتوعك والنعاس.. فهو دائمًا يدّعى التوعك عند أقل معارضة.. وقد تفوهت ببضع عبارات فى مدح هيثكليف، فأخذ فى الصياح، إما من الصداع، كما يزعم، أو من ألم الغيرة، وما لبث أن بدأ فى البكاء، فنهضت من الفراش وتركته..

وأية جدوى من امتداحك هيثكليف أمامه؟.. لقد كانا يتبادلان الكراهية وهما فتيان - يافعان.. ولعل هيثكليف كان خليقًا بأن يثور مثله لو سمعك تطرينه أمامه.. إنها طبيعة البشر يا سيدتى، فدعى مستر لينتون وشأنه، ولا تشركيه فى أحاسيسك، إلا إذا رغبت فى فى أن ينشب بينهما عراك سافر ونزاع قتال..

فمضت تتابع القول:

- ولكن ألا ترين ذلك دليلًا على ضعف شديد؟.. إننى لا أضمر لأحد غيرة أو حسدًا.. فما تأذيت قط من شعر إيزابيلا الذهبى الوضاء، ولا من بشرتها الناصعة البياض. ولا من أناقتها الدقيقة المترفة، ولا من ذلك الحب الذي تظهره العائلة كلها نحوها.. حتى أنت يا نيللى، فإنك ما إن ينشب نزاع بيننا حتى تقفى فى صفها ضدى، فأستسلم كأية أم بلهاء.. إننى

أدعوها حبيبتى، وأتملقها حتى ترضى ويصفو مزاجها.. وكم يُسر أخوها عندما يرانا متصافيتين يجمع الود بيننا.. وذلك يسرنى بالمثل.. ولكنهما صنوان يا نيللى!.. فقد ربيا على التدليل، ويخالان أن العالم إنما خُلق لمرضاتهما وراحتهما.. وعلى الرغم من أننى أعمل دائمًا على ملاطفتهما، إلا أننى أعتقد أن بعض العقاب قد يُصلح من أمرهما!

إنك مخطئة فى ذلك يا مسز لينتون!.. فهما اللذان يلاطفانك ويدللانك، ولست أجهل ماذا - كان خليقًا بأن يحدث إذا لم يفعلا ذلك.. إن فى وسعك أن تتسامحى فى شأن أهوائهما العابرة، طالما كان شغلهما الشاغل أن يبادرا إلى تلبية كل رغباتك وطلباتك!.. ومع ذلك فقد ينشب بينكما الشجار أخيرًا، بصدد أمر ذى أهمية متساوية لكما، وعندئذ سوف ترين أن هذين اللذين تظنينهما ضعيفين قد يغدوان أشد منك عنادًا وأصلب عودًا ومراسًا..

فتضاحكت وهي تجيب: (وعندئذ سوف يحارب بعضنا بعضًا حتى الموت يا نيللى، أليس كذلك؛.. كلا.. صدقينى إننى شديدة الإيمان بحب لينتون لى، بحيث أننى لو هممت بقتله لما فكر فى الثأر أو الانتقام..).

فنصحتها بأن تزداد له تقديرًا من أجل حبه لها، فأجابت:

- هذا ما أفعله يا نيللى.. ولكنه من جانبه ليس فى حاجة إلى أن يعمد إلى الأنين والنواح من أقل شىء وأتفهه.. أليس ذلك صغارًا منه؟. لقد كان الأخلق به، بدلًا من إراقة دموعه لأننى قلت إن هيثكليف أصبح الآن جديرًا بالتقدير والاحترام، وأن أى سيد فى الإقليم سوف يشرفه أن يتخذ منه صديقًا، كان الأخلق به أن يبادرنى هو بهذا القول، وأن يُبدى سروره وانعطافه نحوه.. ويجب أن يعتاد رؤيته، بل خليق به أن يميل إليه! فلو قدرنا الأسباب التى تدفع هيثكليف إلى كراهيته لرأيناه قد سلك مسلكا ممتازًا معه..

فسألتها: (ما الذي ترينه فى ذهابه إلى (مرتفعات ويذرنج)؟.. الظاهر أنه قد تغير تمامًا من شتى النواحى، وأصبح تقيًا يمد يد الصداقة إلى أعدائه فى كل مكان!)

- لقد شرح لى الأمر، إذ عجبت لمسلكه مثلما عجبت.. قال إنه ذهب إلى هناك ليستعلم منك عن أخبارى، ظنًا منه إنك مازلت تقيمين هناك.. وقد أخبر جوزيف هندلى بمقدمه، فخرج أخى وراح يسأله عما كان يفعله كل هذا الوقت. وكيف كان يعيش، ثم دعاه أخيرًا إلى الدخول.. وكان بعض الأشخاص جالسين حول إحدى الموائد يلعبون الورق، فانضم إليهم هيثكليف، وربح بعض النقود التى خسرها أخى.. فما كاد يراه عامر الجيب بالمال حتى رجاه فى أن يعود فى المساء ثانية، فلم يملك إلا أن يلبى هذه الدعوة!.. إن هندلى من الغفلة بحيث لا يعنى باختيار أصدقائه فى حكمة وتعقل.. كما أنه لا يشغل فكره بالتفكير فى الأسباب التى قد تدفعه إلى التوجس من شخص سبق أن جرعه كأس الهوان مترعة.. ولكن هيثكليف يؤكد أن السبب الرئيسى لرغبته فى إعادة العلاقات مع غريمه السابق إنما هو رغبته فى أن يقيم على قيد خطوات من «الجرانج)، فضلًا عن تعلّقه بالدار التى نشأنا فيها معًا، وأمله فى أن يُتاح لى المزيد من الفرص لرؤيته أكثر مما لو اتخذ من «جيمرتون) مقامًا.. وفى نيته أن يعرض على أخى أجرًا عاليًا نظير السماح له بالإقامة فى «مرتفعات)، ولا ريب أن جشع أخى وحبه للمال سوف يدفعانه إلى قبول هذا العرض.. لقد كان شرهًا دائمًا، ولو أنه يطرح بإحدى يديه ما يجنيه باليد الأخرى.

فقلت: (ما أحلاه مكانًا يختاره شاب لإقامته!.. ولكن ألا يخالجك الخوف من العواقب يا مسز لينتون؟).

- لست أخاف على صديقى شيئًا، فإن له من حصافة الرأى ما يقيه الأخطار.. كما أن خوفى على هندلى قليل، فان انحطاطه الأدبى لم يُبق موضعًا لزيادة المستزيد، ولن يتهدده خطر

بدنى لأننى سأقف حائلة دونه.. آه يا نيللى!.. إن ما حدث الليلة قد قرب بينى وبين الله والإنسانية جميعًا.. فقد كنت فى ثورة عارمة ضد العناية الإلهية.. وكم عانيت من ضروب الشقاء والبؤس المرير ما لو عرف هذا المخلوق مبلغ مرارته لما فكر فى تعكير صفوى بعد ذلك بنزقه ومشاكساته الفارغة.. وقد احتملت كل هذا الشقاء وحدي بدافع من الشفقة عليه، فلو أننى أفصحت عن ألوان العذاب التى هدّت كيانى لعرف كيف يتوق إلى تلطيفها بنفس الحرارة واللهفة التى كنت أتوق بها إليه.. ومهما يكن من أمر فقد انقضى ذلك الآن، ولن أعمد إلى الانتقام من حماقته.. وفى وسعى أن أحتمل كل شىء بعد ذلك، فلو صفعنى أقل مخلوق على قيد الحياة على خدي، لما اكتفيت بأن أدير الخد الآخر، بل لسألته الصفح عن إثارتى إياه واستفزازى له حتى صفعنى!!.. وبرهانًا على ذلك سوف أذهب إلى إدجار من فورى فأصالحه وأسترضيه.. طابت ليلتك يا نيللى.. لقد انقلبت ملاكا رحيمًا!

وفارقتنى منشرحة الصدر لهذا الإيمان الجديد الذي سكن نفسها، فظهرت ثمرة نجاحها فى تنفيذ ما اعتزمته على محيا مستر لينتون فى الصباح!.. فلم تفارقه جهامته وعبوسه فحسب، (ولو أن حالته النفسية المرحة كانت تبدو كأنها مازالت متأثرة بفرحة كاثرين الغزيرة)، بل لقد ذهب إلى حد عدم الاعتراض على اصطحابها إيزابيلا معها إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد الظهر.. ولقد جازته على ذلك بفيض من الرقة والحب، جعل المنزل كله يبدو كجنة الفردوس عدة أيام متتالية، وقد نعم السيد والخدم بهذا الإشراق الدائم ا لجميل..

أما هيثكليف - أو مستر هيثكليف كما ينبغى أن أقول فى المستقبل - فقد أخذ يستخدم حريته فى زيارة (ثرشكروس جرانج)، فى حذر وحرص بادىء الأمر.. كان يبدو أنه يقدر إلى أى مدى يحتمل سيد الدار تطفله.. كما رأت كاثرين من الحكمة أن تخفف من مظاهر سرورها بلقائه.. وهكذا أنشأ لنفسه حقًّا فى أن تكون زياراته متوقعة دائمًا.. وكان ما يزال على جانب كبير من ذلك التحفظ الذي كان يتميز به وهو بعد غلام يافع، وقد أفاده ذلك فى كبح جماح مشاعره وأحاسيسه حتى لا تندفع فى مظاهرة قد تثير المتاعب.. وهكذا هجع قلق السيد وتوجسه حتى بدأت الأحداث التالية توجه هذا القلق إلى وجهة أخرى بعض الوقت..

كان مصدر متاعبه الجديدة ينبثق من الكارثة الداهمة غير المتوقعة التى حاقت بإيزابيلا لينتون إذ انتابها ميل جارف مفاجىء نحو ذلك الضيف الثقيل.. وكانت فى ذلك الحين شابة جميلة ساحرة فى الثامنة عشرة من عمرها، يتميز خلقها ببساطة الطفولة، وإن كانت مع ذلك حادة الذكاء، مرهفة الحس، سريعة الغضب إذا استثيرت.. ولقد ارتاع أخوها - الذي كان شديد الحب لها - وفزع لهذا الولع الجنونى الخيالى.. فبغض النظر عن المهانة التى تحيق بهم من مصاهرة رجل لا اسم له ولا عائلة، وعن احتمال انتقال أملاك الأسرة - إذا لم ينجب وريثًا ذكرًا - إلى يد مثل هذا الرجل، فقد كان من الحصافة بحيث يدرك حقيقة هيثكليف، ويعلم أنه برغم التغيير الذي حل بمظهره، فإن عقليته لم تتغير ولن تكون قابلة للتغيير.. وكان يخاف هذه العقلية ويتوجس منها شرًّا ويثور لها.. وهكذا فزع وتشاءم من فكرة زواجه من إيزابيلا، ولعل فزعه ونفوره كانا يزدادان شدة لو أنه أدرك أن غرام إيزابيلا كان من ناحيتها وحدها، دون استثارة أو إغراء، وإنها وهبته لمن لا يبادلها عاطفتها أو يستجيب لأحاسيسها.. فإنه منذ أن اكتشف هذا السر الرهيب، ألقى باللوم كله على عاتق هيثكليف واعتقد أنه رسم هذه الخطة ودبرها تدبيرًا..

وكنا جميعًا قد لاحظنا وقتًا ما أن مس لينتون قد غدت ضيقة الصدر، ينهشها القلق والاضطراب، لسبب لا نعرفه، وأنها أصبحت كثيرة التبرم والعبوس، لا تفتأ تتصيد الفرص للاحتكاك بكاثرين وإثارتها كأنما تريد أن تستفزها حتى تخرجها عن طورها وعن صبرها المحدود.. وقد تلمسنا لها العذر - إلى حد ما - وتعلّلنا بسوء صحتها، إذ كانت تزداد نحولًا ويخبو ضياؤها أمام أعيننا، إلى أن حدث ذات يوم، كانت فيه شديدة المشاكسة إلى حد

غريب، أن رفضت تناول إفطارها، وأخذت تشكو من أن الخدم لا يطيعون أوامرها، وأن السيدة لا تريد أن تجعل منها شيئًا مذكورًا فى المنزل، وأن إدجار يهمل شأنها، وأنها أصيبت ببرد من ترك الأبواب مفتوحة، وأننا ندع نيران المدفأة فى حجرة الجلوس تخبو متعمدين إغاظتها، إلى غير ذلك من مئات التهم الواعية التافهة.. فأصرت مسز لينتون على أن تجعلها تأوى إلى فراشها، وراحت تعنفها فى رفق ولين، ثم هددتها بأن ترسل فى طلب الطبيب.. فما كادت تسمع اسم كينيث حتى ثارت، وصرحت بأن صحتها على خير حال، وأن سبب شقائها هو ما تلقاه من خشونة كاثرين وفظاظتها..

فصاحت السيدة وقد أذهلها هذا الاتهام غير المعقول:

- كيف تزعمين أننى خشنة معك أيتها الخبيثة المدللة؟.. لاريب أنك قد جننت.. ألا خبرينى متى كنت خشنة معك؟..

فتأوهت إيزابيلا وقالت: (بالأمس.. والآن!)

- بالأمس؟.. فى أية مناسبة؟

- عندما كنا نسير فى البرارى، فقد طلبت منى أن أتجول حيثما أشاء، بينما كنت تسيرين الهوينى مع مستر هيثكليف..

فضحكت كاثرين، وقالت: (هل هذا ما تعنينه بخشونتى وفظاظتى؟.. لم يكن ذلك تلميحًا إلى أن وجودك غير مرغوب فيه، فنحن لا يهمنا البتة بقيت معنا أم فارقتنا.. وإنما ظننت أن حديث هيثكليف لن يكون جميل الوقع فى أذنيك..)

فبكت الآنسة الشابة، وغمغمت تقول: آه.. كلا.. كلا.. إنما قصدت إبعادى لعلمك أننى أحب أن أكون معكما..).

فقالت مسز لينتون وهي تنظر إلىّ مستنجدة: (أهى فى تمام عقلها؟.. سوف أعيد عليك ما تبادلنا من حديث، كلمة فكلمة، وعليك يا إيزابيلا أن ترينى أى شئ فيه يثير اهتمامك أو يبهجك..)

- إن الحديث لا يهمنى، وإنما أردت أن أكون مع..

وترددت قليلًا، فقالت كاثرين تستحثها: (حسنًا.. مع من؟)

- معه.. ثم إننى لا أحب أن أُنحى عن الطريق دائمًا.

واستطردت تقول بعد لحظة وهي تزيد النار اضطرامًا:

- إنك أنانية يا كاثى، تريدين أن تستأثرى بكل شىء فلا تدعي لأحد منه نصيبًا، ولا تودين أن ترى أحدًا محبوبًا سواك!

فصاحت مسز لينتون، وقد غلبت دهشتها على غضبها:

- يا لك من قردة صغيرة سليطة اللسان!.. ولكنى لا أُصدق أنك على هذا القدر من البلاهة!.. فمن المحال أن تشتهى إعجاب هيثكليف وتلتمسيه، وأن تحسبيه شخصًا لطيفًا مرموقًا.. لعلنى أسات فهم ما تعنين يا إيزابيلا؟

فقالت الفتاة المفتونة: «كلا.. إنك لم تسيئى الفهم.. فإنى أحبه أكثر مما أحببت أنت إدجار يومًا من الأيام.. وعساه كان خليقًا بأن يحبنى لو أنك تركته وشأنه..)

فقالت كاثرين وهي تؤكد كل كلمة تنطق بها، وقد تبدت فى لهجتها الحرارة والاخلاص:

- إننى لا أغبطك على موقفك هذا، ولا أرضى أن أكون مكانك ولو قُدم لى عرش مملكة بأسرها.. ألا ساعدينى يا نيللى فى اقناعها بجنون ما تذهب إليه.. قولى لها ما هو هيثكليف.. إنه كالأرض البور التى لم تستصلح، ومخلوق لا تهذيب لديه ولا علم ولا ثقافة.. والأولى لى أن أضع هذا العصفور الصغير فى العراء يومًا من أيام الشتاء القارسة، من أن أنصح لك بأن تهبيه قلبك.. وأن جهلك المحزن بأخلاقه وطباعه يا طفلتى – لا أى شىء آخر - هو الذي يجعل هذا الحلم يملأ رأسك.. ولكن مهلًا!.. لا تخالى أنه يخفى فى أعماقه فيضًا من الحنان والعاطفة خلف هذا المظهر الصارم العبوس!.. لا تحسبى أنه قطعة من الماس الخام، أو لؤلؤة ثمينة تكمن بين شقي محارة خشنة المظهر.. لا.. إنما هو ذئب ضار خلو من الرحمة والشفقة، فى ثياب رجل من البشر!.. ولست أقول له: «دع هذا العدو أو ذاك فى سلام لأنه ليس من الشهامة أن تقسو عليه أو تؤذيه).. وإنما أقول له آمرة: «دعه فى سلام لأننى أكره أن يناله منك سوء).. وإنه لحري بأن يهشمك يا إيزابيلا كبيضة العصفور إذا ما وجدك حملًا متعبًا يثقل كاهله.. إننى أعلم حق العلم أنه لا يمكن أن يحب أحدًا من آل لينتون، ومع ذلك فهو خليق بأن يتزوج من ثروتك الحاضرة والمستقبلية!.. فإن شرهه للمال ينمو معه حتى أصبح خطيئته الكبرى.. هذه صورته كما أراها وأرسمها لك.. وأنا مع ذلك صديقته، وربما كنت حرية، لو أنه فكر جديًا فى الإيقاع بك، بأن أمسك لسانى وأدعك تسقطين فى شراكه..

فنظرت مس لينتون إلى زوجة شقيقها فى سخط وازدراء، وقالت:

- يا للعار!.. يا للعار!.. إنك لأسوأ من عشرين عدوًا، أيتها الصديقة الأفعى!..

- آه.. إنك لا تريدين أن تصدقينى إذن؟.. أتظنين إننى أقول ذلك بوحي من الأنانية الشريرة؟..

- إننى واثقة من ذلك.. وإننى لأرتجف فزعًا منك!..

فصاحت الأخرى: (حسنًا.. فلتجربى بنفسك إذن!.. لقد قمت بواجبى، وسأضع حدًا لهذا الجدل أمام قحتك وسوء أدبك..)

وبينما كانت مسز لينتون تغادر الحجرة، أخذت الفتاة تنشج بالبكاء، وتقول:

- كأننى يجب أن أتألم وأقاسي من أجل أنانيتها وأثرتها!.. لقد أصبح كل شىء ضدى.. كل شىء.. فقد قضت على عزائى الوحيد، ودمرته تدميرًا.. ولكنها كانت تنطق بالأكاذيب، أليس كذلك؟.. إن مستر هيثكليف ليس شيطانًا كما تصوره.. إن له روحًا طاهرة شريفة، وإلا فكيف ذكرها وعاد ليراها؟

فقلت:

- أبعديه عن فكرك يا آنستى.. إنه طير مشئوم الطالع، لا يصلح قرينًا لك.. لقد كانت مسز لينتون عنيفة فى كلامها، ومع ذلك فإنى لا أستطيع مخالفتها فيما قالته.. فهى أدرى بقلبه منى ومن أى إمرىء غيرى، وما كانت لتصوره بأسوأ مما هو عليه حقًا!.. فإن الأشراف الأمناء لا يخفون فعالهم.. وإلا فخبرينى بربك كيف كان يعيش هذه السنين؟.. وكيف أصبح ذا مال وثراء؟.. ولماذا يقيم فى (مرتفعات ويذرنج)، فى منزل رجل يبغضه وينفر منه؟.. إنهم يقولون إن مستر إيرنشو يسير من سيىء إلى أسوأ منذ مقدمه.. وهما يقطعان الليل كله جالسين معًا دائمًا، وأخذ هندلى يقترض منه بضمان أرضه وأملاكه، وأصبح لا يفعل شيئًا سوى أن يشرب ويقامر.. لقد سمعت ذلك منذ أسبوع فحسب، وجوزيف هو الذي

أخبرنى عندما قابلته فى جيمرتون.. قال: (لا تدهشى يا نيللى إذا سمعت أن بيتنا قد غدا مسرحًا لتحقيقات النيابة، لأن بعضهم سوف تقطع أصابعه إذا حاول أن يمنع الآخرين من سلخه كالعجل الذبيح!.. وذلك هو السيد كما تعلمين!.. أما فتاك الطيب هيثكليف، فيا له من شخص نادر المثال.. إنه يطلق الضحكة المدوية لدى أول إشارة من الشيطان، وما أكثر إشاراته!.. ألم يقل لكم شيئًا عن حياته الناعمة بيننا عندما يذهب لزيارتكم فى (الجرانج)؟.. هذا برنامجه عندنا.. يستيقظ عند الغروب.. ثم النرد والخمر، والنوافذ الموصدة، والشموع المضاءة، حتى ظهر اليوم التالى.. ثم يحمل السيد إلى حجرته وهو يسب ويلعن بألفاظ تجعل الناس المهذبين - مثلي - يضعون أصابعهم فى آذانهم من العار والخجل!.. وأما الخبيث فإنه يملأ جيوبه، ويأكل وينام، ثم يمضي إلى منزل جاره ليثرثر مع زوجته.. ولا ريب أنه قال للسيدة كاثرين كيف يجرى ذهب أبيها إلى جيوبه، وكيف يجرى إبن أبيها فى طريق الدمار الواسعة، بينما يسبقه هو ليفتح له أبواب الجحيم..) واعلمى يا مس لينتون أن جوزيف وإن كان وغدًا عريقًا إلا أنه ليس كاذبًا!.. فإذا كان ما يرويه من أفعال هيثكليف صحيحًا، فما أحسبك تودين مثل هذا الزوج لنفسك، أليس كذلك؟..

- إنك ضالعة فى التآمر ضدى مع الآخرين يا إيلين!.. ولن أصغى إلى ترهاتكم ومفترياتكم قط.. أى حقد وأية ضغينة تلك التى تدفعك إلى محاولة إقناعى بأنه لا توجد أية سعادة فى هذا العالم؟!.

وليس فى وسعى أن أقرر هل كانت الفتاة ستتغلب على تلك النزوة لو أنها تُركت وشأنها، أم أنها كانت ستتعهدها وتربيها إلى الأبد، فإن الوقت لم يمهلها ريثما تمعن التفكير فى الأمر.. ففى اليوم التالى عقدت جلسة المحكمة فى المدينة المجاورة، واضطر سيدي إلى حضورها.. فما أن علم مستر هيثكليف بغيابه، حتى حضر للزيارة مبكرًا عن موعده المعتاد.. وكانت كاثرين وإيزابيلا جالستين فى المكتبة، صامتتين، وقد حل بينهما الجفاء محل الصفاء.. كانت الأخيرة شديدة الاضطراب لما بدر منها من إفشاء سرها والكشف عن أحاسيسها الدفينة فى نوبة عارضة من الاندفاع العاطفى.. وأما الأولى فإنها، بعد إمعان التفكير فى الأمر، ازدادت شعورًا بعمق الإساءة التى نالتها من رفيقتها.. وإذا كانت ما تزال تضحك من قحتها وسلاطة لسانها، فإنها ازدادت ميلًا إلى أن تجعل الأمر بالنسبة لإيزابيلا أبعد ما يكون عن الضحك!.. وقد ضحكت فعلًا عندما رأت هيثكليف يمر أمام النافذة، فقد كنت وقتئذ أنظف المدفأة، فلمحت على شفتيها ابتسامة خبيثة.. وكانت إيزابيلا مستغرقة فى تأملاتها، متظاهرة بالقراءة، فلم تنتبه لمقدمه، وظلت فى مكانها حتى فتح الباب.. وكانت الفرصة قد ضاعت لمحاولة الفرار من الحجرة، وهو الأمر الذي كانت توده وتتمناه لولا أن أصبح متعذرًا..

وهتفت السيدة فى جذل وهي تقرب مقعدًا من النار:

- ادخل.. لقد أتيت فى وقتك!.. فها هنا شخصان فى حاجة أليمة إلى ثالث يذيب الثلج الذي انعقد بينهما.. وأنت ذات الشخص الذي نختاره كلانا ونرضاه.. إننى يا هيثكليف لأتيه فخرًا بأن أقدم لك، أخيرًا، شخصًا شغف بك حبًا أكثر منى.. وفى يقينى أنك سوف تزهو وتختال عجبًا.. كلّا.. إنها ليست نيللى، فلا تنظر إليها!.. ولكن شقيقة زوجى المسكينة هى التى يتقطع قلبها لمجرد تأمل جمالك الجسدى والروحى!. وقد صار فى يدك الآن أن تصبح صهرًا لإدجار.. كلّا.. كلّا يا إيزابيلا.. إنك لن تفرى من هنا الآن..

وكانت الفتاة المحيرة قد هبت واقفة فى ارتياع وحنق، فاستطردت كاثرين، وهي تمسك بذراعها فى قوة، وتتظاهر بالمرح والدعابة:

- لقد تشاجرنا كالقطط بسببك يا هيثكليف!.. وقد غلبتنى عن جدارة فى مضمار الدفاع عنك، بباعث من الوفاء لك والاعجاب بك.. بل لقد قالت لى إننى لو كنت من كرم الخلق

بحيث أتنحى عن الطريق، فإن غريمتى - كما تود أن تجعل من نفسها - سوف ترمى قلبك بسهم يصميه دوامًا، ويسدل على صورتى أستار النسيان إلى الأبد..



تطردت كاثرين، وهي تمسك بذراعها في قوة وتتظاهر بالمرح والدعابة:

قد تشاجرنا كالقطط بسببك يا هيثكليف!

فاستجمعت إيزابيلا أهداب كرامتها المهيضة، وأنفت من النضال فى سبيل الخلاص من القبضة القوية التى تمسك بها، وصاحت قائلة:

- كاثرين!.. سوف أكون شاكرة لك إذا لزمت جادة الصدق ورجعت عن افترائك علىَّ، حتى ولو كان على سبيل المزاح!.. وأرجوك يا مستر هيثكليف أن تأمر صديقتك هذه بأن تخلى عنى، فهى تنسى أنك وأنا لم نوثق معرفتنا ببعضنا بعد، وأن ما يسرها ويسليها قد يكون مؤلمًا لى غاية الالم..

ولكن الضيف لم يحر جوابًا، بل اتخذ مجلسه بينهما، وبدا عليه عدم الاكتراث للعاطفة التى أنشبت مخالبها فى قلبها من نحوه.. فاستدارت الفتاة وعادت تهمس، فى لهفة، متوسلة لمعذبتها أن تخلى سبيلها، ولكن مسز لينتون صاحت قائلة:

- محال.. عبثًا ما تطلبين!.. فلن يقال عنى أننى أستأثر بالشئ فلا أدع لأحد منه نصيبًا.. سوف تبقين ما طاب لى أن تبقى!.. وأنت يا هيثكليف، ما لك لا تظهر الغبطة والرضى بهذه الأنباء السارة التى أحملها إليك؟.. إن إيزابيلا تقسم أن حب إدجار لى لا يعد شيئًا مذكورًا بجانب الحب الذي تكنه لك وتطوى عليه جوانحها.. إننى واثقة من أنها قالت شيئًا من هذا القبيل، أليس كذلك يا إيلين؟.. ثم أنها صامت عن الطعام والشراب منذ نزهتنا فى البرارى أول أمس، من فرط الأسى والغضب لأننى نحيتها عن صحبتك ظنًّا منى أنها صحبة لا تناسبها!..

فقال هيثكليف وهو يدير مقعده ليواجههما معًا:

- أظنك تكذبين عليها.. فهى تريد الخلاص من صحبتى الآن على أية حال..

ثم راح يحملق بأنظاره فى حدّة إلى الفتاة موضوع الحديث، كما يحملق المرء إلى حيوان غريب كريه المنظر - أو الحشرة (ذات المائة ساق) التى تعيش فى جزر الهند - يدفعه الفضول وحب الاستطلاع إلى تأمله برغم ما يثيره فى النفس من نفور واشمئزاز.. فلم تحتمل الفتاة المنكودة ذلك كله، وتداول وجهها الشحوب والتورد لحظة بعد أخرى، وجللت قطرات الدمع أطراف أهدابها، فأخذت تحاول بكل ما فى أصابعها الدقيقة من قوة، أن تنتزع قبضة كاثرين القوية على ساعدها.. ولكنها إذ رأت أنها كلما رفعت إصبعًا عن ذراعها أطبق غيره عليها، وقد تعذر عليها أن ترفعها جميعًا، بدأت تستخدم أظفارها الحادة، وسرعان ما تبدت آثارها على يد كاثرين فى أهلة حمراء دامية..

فصاحت مسز لينتون وهي تخلى سبيلها، وتنفض يدها من فرط الألم:

- أيتها النمرة المفترسة!.. اغربى عن وجهي بحق السماء، وأخفى عن الناس وجهك البشع المقيت!.. ألا ما أحمقك إذ تبدين له مخالبك هذه!.. أتقدرين عواقب ما تحدثه من الأثر فى نفسه؟.. وأنت يا هيثكليف.. انظر.. إن لها أظفار كأدوات التعذيب!.. وعليك أن تحذر منها على عينيك..

فأجاب فى وحشية، عندما أغلق الباب خلف الفتاة:

- لو هددتنى بها لعرفت كيف أنتزعها من أصابعها.. ولكن ما الذي قصدته من إغاظة تلك المخلوقة على هذا النحو يا كاتى؟.. إنك لم تقولى الحقيقة، أليس كذلك؟..

- أؤكد لك أننى قلت الحقيقة بحذافيرها.. فقد كانت مدلهة فى هواك طيلة الأسابيع الماضية، وراحت تهذي بك هذا الصباح، وما لبثت أن أطلقت علىَّ سيلًا من السباب، لأننى كشفت النقاب عن مثالبك ومساوئك لأخفف من غلواء إعجابها بك.. ولكن لا تقم للأمر وزنًا بعد ذلك.. فكل ما قصدته هو أن أعاقبها على سوء أدبها.. إننى أحبها من كل قلبى، يا

عزيزى هيثكليف، بحيث لا أسمح لك بأن تنقض عليها فتلتهمها!..

- وأنا أكرهها بحيث لا أفكر فى هذه المحاولة، إلا على طريقة الغيلان!.. ولعمرى سوف تسمعين أمورًا غريبة لو قدر لى أن أعيش وحدي مع هذا الوجه الشمعى الشاحب المقيت.. إن أقل ما أفعله هو أن أرسم على صفحته البيضاء ألوان الطيف!.. وأن أحيل زرقة عينيها إلى سواد يومًا بعد يوم.. فهاتان العينان تشبهان عينى لينتون إلى حد بغيض..

فقالت كاثرين فى هدوء:

- بل إلى حد جميل.. فهما أشبه بعيون الحمام، أو عيون الملائكة!..

وعاد يسأل بعد لحظة صمت قصيرة:

- إنها وريثة أخيها، أليس كذلك؟..

- شد ما يؤسفنى أن أفكر فى ذلك!.. فلسوف يحجبها - بإذن الله ومشيئته - ستة من أبناء أخيها!.. ولكن اطرد هذا الخاطر عن فكرك الآن.. إن لعابك يسيل لهفة على أملاك جارك، فاذكر جيدًا أن أملاك هذا الجار إنما هى أملاكى أنا..

- لو أنها كانت ملكى لما تغير الأمر بالنسبة إليك.. وقد تكون إيزابيلا لينتون فتاة بلهاء، ولكنها ليست مجنونة البتة.. حسنًا.. سوف ندع الحديث فى هذا الأمر، كما تريدين..

ولقد نحيا الحديث حقًّا، ولكن عن لسانيهما فحسب.. ولعل كاثرين قد نحته عن فكرها كذلك، ولكنى على يقين من أن الآخر كان لا يفتأ يذكره فيما بقي من تلك الأمسية، فقد رأيته يبتسم لنفسه - أو بالأحرى يكشر عن أنيابه المتلهفة - ويغوص فى لجة من التفكير العميق كلما دعا الأمر إلى غياب مسز لينتون عن الحجرة..

وقوى بى العزم على مراقبة حركاته.. فإن قلبى كان دائمًا أميل إلى جانب السيد، منه إلى جانب كاثرين.. وأحسبنى كنت على حق فى ذلك لأنه كان رفيقًا عطوفًا، سليم الطوية، وافر الثقة بالناس، شريفًا طاهر الذيل.. أما هى، وإن كانت لا يمكن أن يقال عنها إنها على نقيض ذلك، إلا أنها كانت - فيما يبدو - تبيح لنفسها حرية واسعة بحيث كنت قليلة الإيمان بتمسكها بالمبادئ القويمة وبالتالى قليلة المبالاة بمشاعرها وانفعالاتها.. وكنت أتمنى أن يحدث شىء يخلص «مرتفعات ويذرنج) و «الجرانج) معًا من مستر هيثكليف، ويردنا إلى الهدوء الذي كان يشملنا قبل مقدمه.. فقد كانت زياراته كابوسًا متصلًا لى بل وللسيد أيضًا، فيما أظن.. وكانت إقامته فى (المرتفعات) جورًا وظلمًا يجل عنه الوصف، فكنت أحس كأن الله قد تخلى عن الشاة الضالة هناك لتلقى جزاء ضلالها التعس المنحوس، وأن وحشًا شريرًا يكمن لها ويتربص بها ويحول بينها وبين حظيرة الأمان، منتظرًا الفرصة السانحة ليثب عليها ويوردها حتفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادى عشر

كنت فى بعض الأحيان، كلما فكرت فى هذه الأشياء وتدبرتها فى وحدتى، أحس ذعرًا مفاجئًا يدفعنى إلى أن أقوم فأضع قلنسوتى فوق رأسى، وأذهب لأرى كيف تسير الأمور فى «المرتفعات». كنت أقنع ضميرى بأن من واجبى أن أنذر هندلى بما يتقوله الناس عن مسلكه الشائن، ولكنى كنت لا ألبث أن أذكر طباعه الشريرة التى يصر عليها، فأفقد الأمل فى أن يكون لمسعاى أية ثمرة مرجوة، وعندئذ أحجم عن العودة إلى ذلك البيت المنحوس، وإن كان الشك يخامرنى فى قدرتى على احتمال التمسك بما قطعته على نفسي من عهد..

وذات مرة، كنت ذاهبة إلى «جيمرتون»، فمضيت من طريق غير الطريق المألوفة، حتى اجتزت البوابة القديمة.. وكان ذلك فى الوقت الذي بلغته من حكايتى.. وكان عصر يوم مشمس شديد البرودة، وقد تعرت الأرض من العشب، وجفت الطريق وصلب أديمها.. وبلغت كتلة من الحجر يتفرع الطريق عندها يسارًا إلى البرارى والأحراش. تقوم فوق عمود من الصخر الرملى غير المشذب، وقد نُقش عليه، عند طرفه الشمالى، حرفا (م.و)، وعند الطرف الشرقى حرف (ج)، وعند الطرف الجنوبى الغربى (ث.ج.) فقد كان هذا الحجر يُتخذ دليلًا ومرشدًا إلى مرتفعات ويذرنج وبلدة جيمرتون وثرشكروس جرانج.. وكانت الشمس تتألق فوق قمته السمراء، فتذكرنى بأيام الصيف.. ولست أدرى ما الذي حل بى، ولا سببه، إذ أحسست، دفعة واحدة، فيضًا من أحاسيس الطفولة يتدفق إلى قلبى.. فقد كنت وهندلى منذ عشرين عامًا نتخذ هذه البقعة مرتعًا مفضلًا للعبنا.. ورحت أتأمل الكتلة الحجرية طويلًا، وقد نهشتها عوامل الجو المختلفة، ثم انحنيت فوق حجر صغير عند قاعدتها.. ووجدته ما زال مليئًا بأصداف القواقع والحصباء الملونة التى كنا مولعين بإخفائها هناك مع غيرها من الأشياء الأخرى السريعة العطب.. فخُيل لى أننى أرى رفيق صباى القديم، واضحًا جليًا كأنه هو بلحمه ودمه، وقد جلس على العشب اليابس، وأحنى رأسه الأسمر المربع إلى الأمام، وراح يحفر الأرض بقطعة من الأردواز.. عندئذ هتفت فى غير وعى: (هندلى أيها المسكين)!.. وسرعان ما أجفلت وانتفضت، إذ لعب بعينى خداع البصر فاعتقدت لحظة أن الغلام قد رفع رأسه وراح يحملق فى عينى!.. ولقد تلاشت هذه الرؤيا فى مثل وميض البرق، ولكنى ما لبثت أن شعرت بحنين لا يقاوم نحو الذهاب إلى المرتفعات.. وقد استحثتنى الأوهام والخرافات إلى الاستجابة لهذا الهاتف.. فمن يدري لعله الآن قد مات أو لعله – فيما خُيل إلى - مشرف على الموت؟!.. وكنت كلما ازددت قربًا من البيت، ازداد انفعالى واضطرابى. حتى إذا ما لمحته من بعد سرت القشعريرة فى كل خلية من بدنى.. وكانت (الرؤيا) التى تراءت لى عند علامة الطريق، قد سبقتى إلى هناك، ووقفت تتطلع إلىّ من خلال البوابة!.. أو على الأقل كانت هذه هى الفكرة التى بدرت إلى ذهنى عندما رأيت غلامًا مشعث الشعر أسود العينين، يطلّ بوجهه المتورد من خلال القضبان.. ولكنى ما لبثت أن أدركت أن ذلك لابد أن يكون هيرتون، ولدى هيرتون. الذي لم يتغير كثيرًا منذ فارقته من عشرة شهور..

نسيت مخاوفى السخيفة فى الحال، وهتفت به قائلة:

- ليباركك الله يا حبيبى!.. هيرتون.. إننى نيللى.. نيللى، مربيتك..!

فتراجع إلى الخلف قدر ذراع، ثم التقط من الأرض حجرًا كبيرًا، فحدست من هذا الفعل أنه إذا كانت نيللى ما زالت تعيش فى ذاكرته، فإنه لم يتبينها فى شخصى البتة!.. واستطردت أقول:

- لقد أتيت لأرى أباك يا هيرتون!

فرفع يده بالقذيفة ليرشقنى بها، وعندئذ انطلقت فى حديث رقيق لأهدئ من ثورته، ولكنى لم أستطع منع يده، فأصابنى الحجر فى رأسى.. وسرعان ما تدفق من شفتى الغلام المتلعثمتين سيل من الشتائم وألفاظ السباب التى كان - سواء فهمها أم لم يفهم معناها - ينطق بها فى خبرة مؤكدة، وأساريره الصغيرة تتقلص فى حقد وكراهية يثيران الألم.. ولك أن تثق، يا مستر لوكوود، أن ذلك قد أحزننى أكثر مما أغضبنى.. وكنت على وشك البكاء، عندما أخرجت برتقالة من جيبى وقدمتها إليه لأستميله وأترضاه، فتردّد لحظة وما لبث أن اختطفها من يدي، كأنما خُيل إليه أننى قصدت إغراءه ثم العبث به.. وأخرجت برتقالة أخرى أريتها له، وقد أبعدتها عن متناول يده، ثم سألته:

- من الذي علمك هذه الألفاظ الجميلة يا ولدى؟ أهو القس؟

فأجابنى: (لعنة الله على القس، وعليك!.. أعطينى هذه!)

- أخبرنى أولًا أين لقنت دروسك، وسأعطيها لك.. من هو مدرسك؟

- الشيطان أبى!

- وما الذي تعلمته من ابيك؟

فقفز ليخطف البرتقالة من يدي، ولكنى رفعتها إلى أعلى، واستطردت أسأله: (ما الذي يعلمه لك أبوك؟)

- لا شىء سوى أن أظل بعيدًا عن طريقه.. وأبى لا يستطيع أن يضربنى، لأننى أشتمه..

- آه!.. وهل الشيطان هو الذي يعلمك أن تسبّ أباك وتشتمه؟

فأجاب وهو يتشدق بكلامه: (آه!.. لا.. لا..).

- من إذن؟

- هيثكليف..

فسألته عما إذا كان يحب مستر هيثكليف، فأجاب: (آه!.. نعم..).

ومضيت أجاذبه أهداب الحديث لأعرف منه سبب حبه إياه، فلم أخرج منه إلا بهذه العبارات:

- لا أدرى.. ولكنه يكيل لأبى الصاع صاعين مما يفعله بى.. وهو يسب أبى كلما شتمنى، ويقول إننى يجب أن أفعل ما يتراءى لى!

- ولكن ألا يعلمك القس القراءة والكتابة إذن؟

- كلا.. فقد قيل لى إن القس سوف يجد أسنانه مقذوفة إلى حلقه، إذا وضع قدمه على عتبة الدار.. وهيثكليف هو الذي وعدنى بذلك!

فوضعت البرتقالة فى يده ثم سألته أن يخبر أباه بأن سيدة تدعى (نيللى دين) تنتظر عند بوابة الحديقة وترغب فى أن تتحدث إليه.. فمضى فى الممر حتى اختفى داخل الدار. ولكنى رأيت هيثكليف - لا هندلى - هو الذي يظهر فى الباب، فدرت على أعقابى، وانطلقت أعدو فى الطريق بكل ما وسعنى من جهد وسرعة، دون أن أتوقف لحظة، حتى بلغت علامة الطريق الحجرية، وقد تملكنى فزع مروع كأننى أطلقت الشياطين من عقالها!

وليس لهذا الحادث صلة مباشرة بقصة مس إيزابيلا، أكثر من أنه شدد من عزيمتى على فرض حراسة شديدة حولها، وأن أبذل غاية جهدى فى وقف تغلغل مثل هذا التأثير الشرير فى (الجرانج)، ولو اضطررت إلى إثارة عاصفة فى الدار، بإفساد سرور مسز لينتون وابتهاجها.

فلما حضر هيثكليف فى زيارته التالية، صادف أن كانت الآنسة الشابة تطعم الحمام فى الفناء، وكانت قد لبثت ثلاثة أيام لا تخاطب كاثرين بكلمة، وإن كانت قد تخلت عن عبوسها وتذمرها، مما وجدنا له راحة فى نفوسنا.. وكنت أعلم أنه ليس من عادة هيثكليف أن يوجه أية مجاملة غير لازمة لمس لينتون، ولكنه ما كاد يلمحها فى ذلك اليوم، حتى ألقى على واجهة الدار نظرة حذرة فاحصة، ثم سار نحوها.. وكنت أقف بجوار نافذة المطبخ، ولكنى أسرعت فتواريت عن أنظاره، فرأيته يجتاز الفناء إليها ويقول لها شيئًا.. فبدا عليها الضيق والحرج، والرغبة فى الفرار منه، ولكنه وضع يده على ذراعها ليمنعها من المسير، فحوّلت وجهها عنه. وكان من الواضح أنه ألقى عليها سؤالًا، وأنها لم تشأ الإجابة عنه. وعندئذ ألقى على المنزل نظرة أخرى سريعة، وإذ حسب نفسه بمنجاة عن الأنظار، كان الوغد من النذالة بحيث احتضنها وقبلها!

عندئذ هتفت دون وعى:

- أيها الخائن يهوذا! يا لك من منافق عريق، ومخادع أصيل!

فانبعث صوت عند مرفقى، يقول: (من هو ذاك يا نيللى؟)

كان ذلك صوت كاثرين وقد دخلت الحجرة دون أن أشعر بها، لاستغراقى فى مراقبة الاثنين الواقفين فى الخارج، فأجبتها فى حرارة:

- إنه صديقك الحقير!.. ذلك الوغد المتسلل هناك!.. آه! لقد لمحنا، وها هو ذا قادم إلى الدار. شد ما أعجب هل يجد لديه من الصفاقة ما يتيح له أن يبرر مغازلته لمس إيزابيلا، على حين أنه أخبرك بأنه يكرهها؟

وكانت مسز لينتون قد لمحت إيزابيلا وهي تتخلص من يديه، ثم تعدو هاربة إلى الحديقة. وفى اللحظة التالية كان هيثكليف يفتح الباب، فهممت بأن أطلق العنان لسخطى وأطلعه على رأيى فيه لولا أن كاثرين أصرت على أن تسكتنى، وهي غاضبة، وهددتنى بطردى من المطبخ إذا تجاسرت على الإمعان فى القحة بإطلاق لسانى السليط، وصاحت بى:

- إن من يسمعك يظنك سيدة هذه الدار!.. وإنك لفى حاجة لمن يلزمك حدك، ويعرفك قدرك. وأنت يا هيثكليف، ما الذي تسعى وراءه من إثارة هذه الضجة؟.. لقد قلت لك إنك يجب أن تدع إيزابيلا وشأنها، وإنى لأرجو أن تفعل. إلا إذا كنت قد سئمت التردد على هذه الدار، وتريد، أن يوصد لينتون أبوابها فى وجهك!

فقال الشيطان الأسود، الذي لم أمقته فى حياتى قدر مقتى له وقتئذ:

- سألت الله أن يجنبه هذه المحاولة، وأن يبقى عليه نعمة الحلم والصبر.. فإننى أزداد كل يوم لهفة على إرساله إلى السماء!

فهتفت كاثرين وهي تغلق الباب الداخلى: (صه!.. وحسبك لا تزدنى غضبًا. ولكن لماذا تجاهلت رجائى وتغاضيت عنه؟.. هل اعترضت طريقك عن عمد؟).

فزمجر قائلًا: (وماذا يهمك من ذلك؟.. من حقى أن أقبلها، إذا رضيت ذلك، وليس من حقك أن تعترضى، فإننى لست زوجك، ولا حاجة بك إلى أن تغارى منى؟)

فأجابت السيدة: (لست أغار منك، وإنما تأخذنى الغيرة من أجلك!.. والآن دع عنك هذا التقطيب، فإنك لن تعبس فى وجهي أو تتجهم لى. وإذا كنت تحب إيزابيلا فسوف تتزوجها، ولكن هل تحبها؟.. أخبرنى بالحقيقة يا هيثكليف.. آه!.. إنك لا تريد أن تجاوبنى.. وإنى واثقة من أنك لا تحبها!)

فتدخلت فى الحديث متسائلة:

- وهل يوافق مستر لينتون على زواج شقيقته من هذا الرجل؟

فأجابت سيدتى ساخرة: (لابد لمستر لينتون من الموافقة..)

فقال هيثكليف: (بل ليوفر على نفسه هذا العناء، لأننى أستطيع أن أفعل ما أشاء دون حاجة إلى رضائه. وأما أنت يا كاثرين، ففى نيتى أن أقول لك كلمتين الآن بهذه المناسبة: أود أن تعرفى بأننى أعلم أنك عاملتنى معاملة جهنمية، هل تسمعين؟.. معاملة جهنمية خبيثة. فإذا كنت تهنئين نفسك بأننى لم أعرف ذلك، فأنت بلهاء. وإذا كنت تحسبين أن الكلمات المعسولة تخدعنى وتخفف عنى، فأنت حمقاء.. أما إذا كنت تتصورين أننى سأحتمل ذلك دون أن أنتقم لنفسى، فسوف أقنعك عما قريب بعكس ما تتصورين!.. وفى الوقت نفسه فإنى أشكر لك اطلاعى على سر شقيقة زوجك. وأقسم بأن أفيد من هذا السر إلى أبعد حد. وما عليك إلا أن تتنحى جانبًا!)

فهتفت مسز لينتون، فى دهشة وذهول:

- ما هذا التطور الجديد فى أخلاقك؟.. أتقول إننى عاملتك معاملة جهنمية، وأنك ستأخذ بثأرك؟.. ولكن كيف تنوى أن تفعل أيها الوحش الجحود؟.. وكيف بالله عاملتك معاملة جهنمية؟

فأجاب هيثكليف وقد فترت حرارته قليلًا:

إننى لا أسعى للانتقام منك أنت، فإن ذلك ليس من خطتى. إن الطاغية يسحق عبيده، - ولكنهم لا ينقلبون ضده. وإنما يسحقون من يلونهم فى المرتبة!.. ومرحبًا بالعذاب أجرعه من يدك حتى الموت، إذا كان فى ذلك مسلاة لك. ولكن دعينى فقط أتسلى قليلًا بالطريقة نفسها.. ودعك من إهانتى بقدر ما يسعك. لقد هدمت القصر الذي بنيته حجرًا فوق حجر، حتى سويته بالأرض، فلا تقيمى لى كوخًا ثم تتيهى فخرًا بفضلك وإحسانك عندما تقدمينه لى منزلًا!.. ولو خطر ببالى أنك تودين حقًّا أن أتزوج إيزابيلا، فإننى أكون غرًّا لا يستحق الحياة!

فصاحت كاثرين:

- آه!.. لقد أغاظك أننى لا أحس بالغيرة، أليس كذلك؛ حسنًا، لن أعيد ما عرضته من زواجك بإيزابيلا، فذلك أشبه بتقديم روح ضالة إلى الشيطان. ولعمرى إن هناءك وسعادتك إنما ينبعان من إشاعة الشقاء بين الناس!.. وهذا ما أثبته لى. لقد هدأت حدة غضب إدجار واستيائه من عودتك، وبدأت أشعر بالأمن والدعة والهدوء، ولكنك إذ يهولك أن ترانا نعيش فى سلام، تصمم على أن تثير المتاعب والشجار. اذهب يا هيثكليف فتشاجر مع إدجار، إذا طاب لك أن تفعل، واخدع شقيقته وغرر بها، فإنك بذلك تقع تمامًا على خير وسيلة تنتقم بها لنفسك منى!

وانقطع الحديث عند هذا الحد، فجلست مسز لينتون بجوار المدفأة، متوردة الوجه، يرتسم على محياها الحزن والكابة، فإن المارد الذي أخرجته من القمقم ليخدمها قد تمرد عليها، فلا هى قادرة على إعادته، ولا هى مستطيعة السيطرة عليه!.. أما هو فقد وقف أمام المدفأة

معقود الذراعين فوق صدره، مستغرقًا فى التفكير فى خواطره الشريرة.. وعلى هذا الوضع تركتهما وذهبت أبحث عن السيد الذي كان يعجب مما أبقى كاثرين أسفل الدار كل هذه المدة!.. وما كدت أدخل عليه حتى سألنى:

- هل رأيت سيدتك يا إيلين؟

- نعم، إنها فى المطبخ يا سيدى، وقد أغضبها مسلك مستر هيثكليف إلى حد يثير الشجن. والحق يا سيدي أننى أرى الوقت قد حان لتنظيم زياراته على أساس آخر، فمن الضرر البالغ أن يعامل بالرفق واللين بعد أن وصل الأمر الآن إلى هذا الحد!

ثم مضيت أقص عليه ما حدث فى الفناء، وما تلا ذلك من نقاش حاد. بعد أن أغضيت عن ذكر ما لم أجرؤ على قوله. وقد خطر لى أن ذلك لن يسىء كثيرًا إلى مسز لينتون، ما لم تسىء هى إلى نفسها فيما بعد إذا ما اتخذت موقف الدفاع عن ضيفها. أما مستر لينتون فقد نفد صبره قبل أن أتم حديثى، وكانت كلماته الأولى تنم على أنه لا يخلى كاثرين من اللوم، فقد صاح:

- هذه حالة لا تطاق، ومن العار أن تتخذ كاثرين منه صديقًا وتفرض صحبته علىَّ فرضًا!.. استدعى يا نيللى خادمين إلى البهو، فلن أدع كاثرين تتمهل طويلا فى النقاش مع الوغد المنحط. لقد جاملتها بما فيه الكفاية!

ونزل إلى الطابق الأرضى، وأمر الخادمين بالانتظار فى الممر، ثم مضى إلى المطبخ، فتبعته، ورأينا الصديقين قد عاودا مناقشتهما الثائرة.. أو بالأحرى كانت مسز لينتون ممعنة فى تقريعه من جديد بقوة وصرامة. أما هيثكليف فكان يقف عند النافذة، مطأطىء الرأس، وقد بدا مرتاعًا –إلى حد ما - من ثورتها العنيفة حياله. وكان هو أول من رأى السيد، فأومأ إليها بإشارة سريعة أن تخلد إلى الصمت، وما لبثت أن كفت عن الكلام بغتة وقد اكتشفت سبب إشارته.. وبدأ لينتون يقول:

- ما معنى هذا؟.. وعلى أى وجه تفهمين الحشمة واللياقة إذا كنت تبقين هنا وتصغين إلى الألفاظ التى يصبها فى مسامعك هذا السفيه البذىء اللسان؟!.. ولكن أحسبك لا ترين فيها شيئًا، إذ هى لغته المعتادة!.. لقد ألفت ضعته وانحطاطه، ومن يدري فلعلك تتخيلين أن بوسعي أن آلفها كذلك!

- هل كنت تسترق السمع من وراء الباب يا إدجار؟

ولقد نطقت السيدة بهذه الكلمات فى لهجة عنيت باستخدامها كى تثير زوجها وتستفزه، إذ كانت تنطوى على الاستخفاف وإزدراء ثورته، معًا..

أما هيثكليف، فقد رفع رأسه عند سماعه حديث سيدي، وما لبث أن أطلق ضحكة ساخرة مستهزئة إذ سمع ما قالته السيدة.. ولعله قصد أن يثير انتباه مستر لينتون إليه، وقد نجح فى ذلك حقًا.. ولكن إدجار لم يكن فى نيته أن يعامله فى غضب جامح، فقال فى هدوء:

- لقد ترفقت بك طويلًا يا سيدى، لا لأننى أجهل سوء خلقك التعس، ولكن لأننى كنت أشعر أنك غير مسئول عن ذلك تمامًا.. فلما أرادت كاثرين أن تبقى على معرفتك، وافقتها فى حمق وبلاهة.. بيد أن وجودك قد غدا سمًّا أدبيًا يدنس أكثر الناس فضيلة ونقاء. ولهذا السبب، ولكي نتقى سوء العاقبة، فإنى أمنعك من الحضور إلى هذا المنزل بعد الآن، وأطلب إليك الانصراف فى الحال.. فإن تأخرت ثلاث دقائق، فسوف يكون خروجك قسرًا وبطريقة مخزية!

فنظر إليه هيثكليف وهو يقيس طوله وعرضه بعين ملأى بالزراية والاستهزاء، ثم قال:

(كاتى.. إن حملك هذا يهدد ويتوعد بلغة الفحول!.. وإنه لفى خطر من تهشيم جمجمته على مفاصل قبضتى. يا إلهي!.. شد ما يؤسفنى يا مستر لينتون أنك لست أهلًا لأن أصرعك!)

فنظر سيدي ناحية الممر ثم أشار إلىَّ أن أدعو الرجلين، إذ لم يكن فى نيته أن يخاطر بعراك مباشر مع هيثكليف، فأطعت إشارته، ولكن مسز لينتون ارتابت فى أن هناك شيئًا ما، وتبعتنى.. فلما حاولت نداء الرجلين، فطنت للأمر فجذبتنى إلى الداخل ثانية. ودفعت الباب فأغلقته، ثم أوصدته بالمفتاح!

ونظر إليها زوجها فى دهشة وغضب. فقالت ردًا لى تساؤله:

- يا لها من وسائل شريفة تتبعها!..إذا كانت الشجاعة تعوزك لمهاجمته، فاعتذر إليه، أو دعه يهزمك!.. وسوف يشفيك ذلك من غرورك وتظاهرك بأكثر مما أنت عليه من قوة وبأس. كلّا، سوف أبتلع المفتاح قبل أن تأخذه منى.. يا إلهي!.. لقد لقيت منكما أطيب جزاء على ما أسديته لكليكما من فضل وعطف.. وبعد طول تسامحى واحتمالى المستمر لضعف أحدكما وسوء خلق الثانى، أتلقى الشكر منكما ممثلًا فى نموذجين من الجحود الأعمى، والحمق السخيف.. لقد كنت أدافع عنك وعن ذويك يا إدجار، ولكنى أتمنى الآن أن يجلدك هيثكليف بالسياط حتى تخور قواك، جزاء تجاسرك على سوء ظنك بى!

ولم يكن السيد فى حاجة لهذه التجربة حتى يحل به ذلك الخور، فقد حاول أن ينتزع المفتاح من قبضة كاثرين، ولكنها رأت الأسلم أن تلقى به وسط شعلة النار المتأججة فى الموقد. وعندئذ أخذت مستر إدجار رعدة عصبية شديدة، وشحب وجهه حتى أصبح كوجوه الموتى - إذ لم يكن فى وسعه أن يقهر ذلك الفيض من الانفعال والتأثر، إبقاء على حياته - وهكذا قهره ذلك المزيج من الألم والهوان، فاستند إلى ظهر أحد المقاعد، وأخفى وجهه بين يديه.. فاستطردت مسز لينتون هاتفة:

- آه!.. يا للسماء!.. لو كنا فى الأيام الخوالى لأحرزت رتبة الفروسية لمسلكك هذا!.. لقد قهرنا، وغلبنا على أمرنا!.. ولن يرفع هيثكليف إصبعًا عليك، إلا كما يجرد الملك حملة من جيشه لتأديب عصبة من الجرذان!.. ولكن أبشر وقر عينًا، فلن يصيبك سوء البتة. إن من كان على شاكلتك لا يُعد حملًا، وإنما هو أرنب رضيع!

فقال صاحبها: (شد ما أود أن تتيهى فرحًا بهذا الجبان الذي يجرى فى عروقه اللبن بدلًا من الدماء!.. وإنى أهنئك بذوقك وحسن اختيارك، فهذا هو الرعديد الذي يسيل ريقه على ذقنه، والذي فضلته علىّ.. إننى لا أرضى بأن أضربه بقبضة يدي، وإنما تكفي ركلة من قدمى لترضينى كل الرضاء.. أترينه يبكي، أم هو مشرف على الإغماء خوفًا وفرقًا؟)

ودنا هيثكليف فركل بقدمه المقعد الذي يستند إليه لينتون. ولقد كان خيرًا له ألا يقترب إلى هذا الحد، فإن سيدي رفع قامته فى وثبة سريعة، ولطمه بجمع يده على رقبته لطمة كانت كفيلة بأن تصرع شخصًا أضعف بنية من هيثكليف، الذي انقطعت أنفاسه لحظة.. وفيما كان لا يزال يحشرج بأنفاسه، خرج مستر لينتون من الباب الخلفى إلى الفناء، ومنه إلى المدخل الأمامى.. عندئذ صاحت كاثرين:

أرأيت؟.. هأنت قد قطعت على نفسك سبيل الحضور إلى هنا.. فانصرف الآن، لأنه سوف - يعود وفى يديه زوج من المسدسات، ومعه ثلة من الأعوان.. وإذا كان قد سمع ما قلناه، فلن يصفح عنك بطبيعة الحال، فإنك يا هيثكليف قد أسأت إليه إساءة بالغة.. ولكن اذهب.. ..أسرع.. فإني أفضل أن أرى إدجار فى ورطة عن أن أراك أنت

فهدر هيثكليف بصوت كالرعد:

أتظنين أننى أذهب وهذه اللطمة ما زالت تحرق حلقى؟.. يا للشيطان!.. كلا، بل سوف - أحطم ضلوعه كبندقة معطوبة قبل أن أخطو خطوة خارج الدار. وإذا كنت لا أطرحه أرضًا الآن، فثقى أننى سوف أقتله يومًا من الأيام. وما دمت تقيمين وزنًا لحياته، فدعينى أثأر لنفسى منه وأناله الآن!

فتدخلت أنا قائلة، وقد استبحت لنفسى شيئًا من الكذب:

- إنه لن يأتى إلى هنا، بل سيرسل الحوذى واثنين من البستانيين. ومن المؤكد أنك لن تنتظر حتى يلقوا بك فى عرض الطريق.. ثم أن كلًا منهم يحمل هراوة غليظة، وسوف يرقبهم السيد من نافذة البهو ليرى أنهم قد نفذوا أوامره..

وكان الحوذى والبستانيان موجودين حقًا، ولكن لينتون كان معهم. وكانوا قد اجتازوا الفناء بالفعل، ففكر هيثكليف فى الأمر، وقرر أن يتحاشى العراك مع الخدم الثلاثة، وتناول محرك النار فهشم به قفل الباب الداخلى، واتخذ سبيله إلى الفرار، فى الوقت الذي كانوا يدخلون فيه من الباب الآخر..

وكانت مسز لينتون شديدة الانفعال، فأمرتنى بأن أرافقها إلى الطابق العلوي.. ولم تكن تعرف شيئًا عن الدور الذي لعبته فى إثارة هذه المشكلة، كما أننى كنت متلهفة على أن تظل فى جهلها هذا..

وألقت بنفسها فوق الأريكة فى حجرة الجلوس، وهي تصيح:

- إننى أكاد أفقد عقلى يا نيللى.. وأحس بألف من مطارق الحدادين تهوى على رأسى.. قولى لإيزابيلا أن تتجنب لقائى، فإن هذه الضجة الكبرى إنما نشبت بسببها.. وإذا طاب لها، أو لأي شخص آخر أن يزيد من غضبى فى هذه اللحظة، فسوف أغدو ضارية متوحشة. ثم قولى لإدجار يا نيللى، إذا رأيته ثانية الليلة، إننى فى خطر الإصابة بمرض خطير.. وليت ذلك يحدث فعلًا. لقد أفزعنى وأحزننى وأصابنى بهم خانق، ولذلك أريد أن أفزعه بدورى.. ثم إنه قد يأتى ليبدأ حلقة جديدة من الإهانات أو التذمر والشكوى. وإنى واثقة من أننى سوف أقابل الإهانة بمثلها، وعندئذ لا يعلم إلا الله إلى أين ينتهي بنا الأمر.. هل تفعلين ذلك من أجلى، يا عزيزتى نيللى الطيبة؟.. إنك تعلمين أننى لا يمكن أن أُلام، بحال من الأحوال، فيما حدث.. فما الذي أصابه حتى جعل منه متسمعًا على الأبواب؟.. لقد كان حديث هيثكليف مشينًا بعد أن تركتنا، ولكننى كنت كفيلة بأن أصرفه سريعًا عن إيزابيلا، وما بقي بعد ذلك لا يعد شيئًا مذكورًا.. ولكن كل شىء اندفع فى الطريق الخاطئ الآن، بسبب لهفة ذلك الأحمق على سماع كلمات السوء التى تُقال عنه، وهي نزوة تتملك بعض الناس كشيطان يسكن أبدانهم!.. ولو أن إدجار لم يتسمع على حديثنا قط، لما أصابه من السوء أكثر مما أصابه. والواقع أنه عندما اقتحم علىّ الباب، وخاطبني بتلك اللهجة الحمقاء، وذلك الحنق السخيف، بعد أن كنت أنهال على هيثكليف لومًا وتقريعًا - حتى بح صوتى - من أجله، أحسست بأننى لم أعد أبالي ما يفعله كل منهما بالآخر.. خصوصًا وقد شعرت بأنه على أى وجه ينتهي ذلك المشهد، فإننا سوف يتمزق شملنا لمدة لا يعرف أحد مداها. حسنًا، إننى إذا عجزت عن الاحتفاظ بصداقة هيثكليف، وإذا انقلب إدجار حقودًا غيورًا، فسوف أحاول تحطيم قلبيهما بأن أحطم قلبى بنفسى.. فتلك أسرع الوسائل لإنهاء كل شىء، إذا ما وجدت نفسي مسوقة إلى أبعد الحدود.. ولكنه عمل ينبغى إرجاؤه حتى يخيب الأمل وينقطع الرجاء، وأن أفاجىء لينتون به. لقد ظلّ حتى الآن حريصًا على الخوف من إثارتى، فعليك أن تمثلى له خطورة تخليه عن هذه السياسة، وأن تذكريه بحدة طبعى وسرعة تأثرى، بحيث أغدو على حافة الجنون إذا اضطرمت نيران غضبى. وكم أود يا نيللى أن تصرفى عن أساريرك هذا الجمود والتبلد، وأن تلوحى أكثر لهفة وقلقًا علىّ!

ولا ريب أن الفتور الذي كنت أتلقى به هذه التعليمات كان مما يثير الحنق والسخط، فقد كانت تمليها عليَّ بلهجة مليئة بالحرارة والإخلاص، ولكنى كنت أعتقد أن الشخص الذي يستطيع تدبير نتائج نوبات غضبه مقدمًا، يستطيع بالمثل أن يدبر كيف يسيطر على نفسه حتى ولو عانى آثارها. ثم إننى لم أكن أريد أن (أفزع) السيد، كما قالت، وأضاعف من أحزانه، خدمة لأنانيتها.. لذلك لم أقل للسيد شيئًا عندما التقيت به قادمًا إلى حجرة الجلوس، ولكن أبحت لنفسى أن أعود أدراجى لأنصت إلى حديثهما، وأعلم إن كانا سيعودان إلى الشجار ثانية. وكان هو البادئ فى الحديث، إذ قال فى هدوء، دون أن تشوب صوته شائبة من غضب أو حنق، بل كانت نبراته تتسم بالقنوط والأسى، قال:

- أبقى حيث أنت يا كاثرين، فلن أبقى طويلًا. وما أتيت لأجادلك أو لتصالحينى. كلّا، وإنما أريد فقط أن أعرف إذا كنت - بعد أحداث هذا المساء – تنوين الاستمرار فى صلتك الوثيقة مع..

فقاطعته السيدة وهي تدقّ الأرض بقدمها:

رحماك!.. رحماك!.. بحق السماء لا تدعنا نسمع المزيد عن هذا الأمر الآن!.. إن دماءك - الباردة لا يمكن أن تجعلك تصاب بالحمى، كما أن عروقك مليئة بماء مثلج، على حين بلغت عروقى درجة الغليان. ومجرد رؤيتى لمثل هذه البرودة القارصة تجعلها تتراقص من حرارة .!الحمى

فلم تلن قناة مستر لينتون، بل مضى يقول فى إصرار:

عليك أن تجيبى على سؤالى إذا أردت الخلاص منى، بل لابد لك من الإجابة عليه. وهذا - العنف الذي يتملكك لا يقلقنى ولا يهمنى، فقد تبينت أن بوسعك أن تكونى رابطة الجأش قليلة الاكترات، كأى انسان آخر إذا أردت. فهل تنوين التخلى عن هيثكليف بعد الآن، أم تريدين التخلى عنى؟.. من المحال عليك أن تكونى صديقتى وصديقته فى نفس الوقت، ..وإنى أصر تمامًا على معرفة أينا تختارين

فصاحت كاثرين ثائرة: (وإنى أصر على أن أُترك وحدي الآن. إننى أطالبك بذلك.. ألا ترانى لا أكاد أستطيع الوقوف؟.. إدجار.. دعنى.. اتركنى!)

وراحت تشد حبل الجرس حتى انقطع وهو يدوي برنين متصل.. فدخلت الحجرة متمهلة، فإن مثل هذه الثورات الشريرة الحمقاء خليقة بأن تثير حنق القديسين!.. ووجدتها مستلقية تضرب رأسها بذراع الأريكة، وتصر بأسنانها حتى يخيل إليك أنها ستحطمها حتى تتناثر شظاياها. وكان مستر لينتون واقفًا ينظر إليها وقد تملكه الخوف، بل ووخز الضمير، فجأة!.. وأمرنى بأن أحضر بعض الماء، على حين كانت متقطعة الأنفاس، لا تستطيع النطق. وأحضرت كوبًا مليئة بالماء، ولما رفضت أن تشربها، سكبتها فوق وجهها. وبعد ثوان معدودة كانت قد مدت جسمها المتصلب، وقلبت عينيها، بينما ابيضت وجنتاها ثم ازرقتا، واتخذت سمة الموتى.. فبدا لينتون فزعًا مرتاعًا، ولكنى همست أقول له:

!لا شىء البتة..لا شىء بها-

فقد كرهت أن يلين ويستسلم، ولو أننى كنت أحس بالخوف فى أعماق قلبى.. فقال وقد أخذته قشعريرة شديدة:

- إن الدماء تسيل من شفتيها!

!لا بأس.. فما بها من شىء -

ثم رويت له كيف صممت، قبل مجيئه، على تمثيل نوبة من الصرع أمامه. ولكنى لم أحاذر، وتكلمت بصوت مرتفع، فسمعتنى.. إذ انتفضت واقفة، وقد انسدل شعرها فوق كتفيها، وومضت عيناها ببريق مروع، وتوترت عضلات رقبتها وذراعيها على نحو غير طبيعى.. فوطنت نفسي على أنها ستهشم عظامى، على أقل تقدير. ولكنها اكتفت بالتحديق فيما حولها بنظرات نارية، ثم اندفعت بغتة خارجة من الحجرة، وأمرنى السيد بأن أتبعها، فتبعتها حتى باب حجرتها، حيث دخلت وأغلقته فى وجهي..

ولما لم تنزل لتناول الإفطار فى الصباح التالى، مضيت إليها لأسألها هل تود أن نحمله إليها، ولكنها أجابت فى كلمة قاطعة: «كلّا!».. ثم كررت عليها السؤال ساعة الغداء، ثم فى موعد تناول الشاى بعد الظهر، وفى صباح اليوم التالى.. فكنت أتلقى نفس الإجابة الحاسمة. أما مستر لينتون فقد قضى طيلة الوقت فى المكتبة، ولم يسأل قط عما تفعله زوجته.. وكان قد قضى ساعة مع إيزابيلا على انفراد، حاول خلالها أن يستخلص منها ما ينم على ارتياعها وفزعها من تقرب هيثكليف إليها، ولكنه لم يفز بطائل من إجاباتها المبهمة التى لم تقصد منها إلا المراوغة والتهرب، حتى اضطر أخيرًا إلى إنهاء استجوابه، دون أن يقنع بنتيجته.. غير أنه ختم حديثه معها بتحذير صارم، وهو أنه إذا كانت هى من الجنون بحيث تشجع ذلك الدعى الحقير، فإن ذلك سوف يقطع كل أواصر القرابة التى تربط بينها وبينه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثانى عشر

بينما كانت مس لينتون تقضى الوقت فى حزن واكتئاب، متنقلة بين البستان والحديقة، فى صمت دائم وهم مقيم، وعبراتها لا تكاد تكف عن الانهمار، وبينما كان أخوها يحبس نفسه فى المكتبة، ويعيش بين كتب لم يفتحها قط، وفى صحبته السأم والكلال، كنت من ناحيتى أحس، فى توقع غامض مستمر، بأن كاثرين لن تلبث أن تندم على مسلكها، وتأتي طيعة، فتطلب الصفح من زوجها، وتسعى إلى مصالحته واسترضائه.. وقد ظلت مضربة عن الطعام فى إصرار وعناد، ولعلها كانت تعتقد أن زوجها كان يغص بالطعام، فى كل وجبة، حزنًا على غيابها، وأن الكبرياء وحدها هى التى تمنعه من أن يهرع إليها ويلقى بنفسه تحت قدميها.. ومضيت فى أداء واجباتى المنزلية كالمعتاد، وقد اقتنعت بأن (الجرانج) لا يؤوى إلا نفسًا واحدة معقولة، هى التى تسكن بدنى!.. وما حاولت قط أن أسرى عن الآنسة، أو أزجر السيدة وأؤنبها، إذ كان ذلك عبثًا لا طائل وراءه.. كما لم ألق بالًا إلى تأوهات سيدي الذي كان يحن لسماع اسم زوجته، ما دام لا يستطيع أن يسمع صوتها!.. وصممت على أن أدعهم وشأنهم حتى يلجأوا لى بمحض اختيارهم. وعلى الرغم من أن الطريق إلى ذلك كان يبدو طويلًا مضنيًا، إلا إننى ابتهجت أخيرًا إذ لمحت بصيصًا من الضياء ينبئ ببزوغ فجر التقدم، كما قدرت من بادئ الأمر..

ففى اليوم الثالث فتحت مسز لينتون باب حجرتها، وكان الماء قد نفد من الأباريق التى كانت عندها، فطلبت مزيدًا منه، كما طلبت بعض الثريد، لأنها كانت، فيما تعتقد، مشرفة على الموت. وقد اعتبرت هذا الكلام مهيئًا لمسامع إدجار، ولم أصدق أن حالتها بلغت هذا الحد من السوء، ولذلك احتفظت به لنفسى ولم أنقله لسيدى. وأحضرت لها قليلًا من الشاى، وبعض الكعك الجاف، فأكلت وشربت بنهم شديد، ثم استلقت على وسادتها ثانية، وراحت تشدد الضغط على راحتيها، وتتأوه قائلة:

- آه!.. إننى موشكة على الموت، طالما أن أحدًا لا يبالي بشئ مما يحدث لى.. ليتنى لم آكل شيئًا!

ومضت برهة طويلة، قبل أن أسمعها تغمغم ثانية:

- كلا.. لن أموت، فسوف يسره موتى.. إنه لا يحبنى قط، ولن يفتقدنى البتة!

وظللت محتفظة بجمودى الظاهر، على الرغم من الصفرة الشديدة التى كانت تكسو محياها، وتلك الحالة الغريبة التى اعترتها.. ولكنى سألتها:

- هل طلبت سيدتى شيئًا؟

فقالت وهي ترفع خصلات شعرها المشعثة الكثيفة من فوق وجهها المنهوك: (ما الذي يفعله ذلك المخلوق الجامد الحس؟.. هل استغرق فى غيبوبة، أم أنه قد مات؟).

- إذا كنت تقصدين مستر لينتون، فلم يصبه هذا ولا ذاك!.. إنه فيما أظن؛ فى حالة لا بأس بها، ولو أن دراساته تستغرق معظم وقته وتشغله أكثر مما ينبغى. إنه دائمًا بين كتبه، وأحسب أن ذلك يرجع إلى أنه لا يجد صحبة أخرى يسكن إليها!

وما كان ينبغى أن أقول لها ذلك لو أننى عرفت حقيقة حالها، ولكنى لم أستطع التخلص من الفكرة التى كانت تتسلط علىّ وقتئذ، وهي أن شطرًا كبيرًا من سوء حالتها إنما كان تمثيلًا فى تمثيل!.. ولم أكد أفرغ من عبارتى حتى صاحت فى دهشة واضطراب:

- بين كتبه؟.. بينما أموت هنا؟.. بينما أنا على حافة القبر؟.. يا إلهي!..هل يعلم كيف

تغيرت؟

ثم استطردت وهي تحملق فى صورتها المنعكسة ف المرآة على الجدار المقابل: (أهذه كاثرين لينتون؟ لعله يحسبنى أتدلل، أو أمثل عليه دورًا!.. ألا يمكنك أن تخبريه أن الأمر جد فى جد، وأنه بلغ درجة خطيرة مروعة؟.. نيللى، إذا لم يكن الأوان قد فات، فإنى بمجرد أن أعرف حقيقة شعوره سوف أختار بين هذين الأمرين: إما أن أُضرب عن الطعام والشراب فى الحال - ولن يكون ذلك عقابًا له إلا إذا كان له قلب يحس ويتألم - وإما أن أستجمع قواى، وأغادر البلاد نهائيًا.. ولكن هل قلت الصدق فيما أخبرتنى عنه؟.. حذار يا نيللى!..هل هو الآن قليل الاكتراث لحياتى إلى هذا الحد؟)

فأجبتها: (لماذا يا سيدتى؟.. إن السيد ليست لديه أية فكرة عما أصابك من اضطراب، ولذلك فإنه بطبيعة الحال لم يخامره أى خوف من أنك ستتركين نفسك تموتين من الجوع..)

- أتظنين أننى لن أفعل؟.. ألا يمكنك أن تخبريه أننى سأفعل حتمًا؟.. أوحى إليه بذلك. تكلمى كأنك تفعلين من تلقاء نفسك. قولى له إنك واثقة من أننى سأقضى على نفسي جوعًا..

فاعترضت قائلة: (كلّا، لعلك نسيت يا مسز لينتون أنك أكلت بعض الطعام الليلة فى شهية وتلذذ!.. وسوف تبدو عليك آثاره الطيبة غدًا..)

فقاطعتنى قائلة:

- لو أننى فقط كنت واثقة من أن ذلك سوف يقضى عليه، لقتلت نفسي بغير تردد.. لقد قضيت هذه الليالى الثلاث دون أن يغمض لى جفن و.. أواه!.. لقد لقيت أشد العذاب، وأقضت مضجعى الأشباح يا نيللى.. ولكنى بدأت أشعر بأنك لا تحبيننى. ألا ما أعجب ذلك! لقد حسبت أنهم وإن كرهوا بعضهم بعضًا، إلا أنهم جميعًا لا يملكون إلا أن يحبونى.. فإذا بهم جميعًا ينقلبون أعداء لى فى خلال ساعات قلائل. إن الجميع هنا قد أصبحوا أعداء لى، إنى واثقة بذلك تمامًا.. وما أفظع أن يلاقى المرء الموت بينما تحيط به وجوه جامدة غير مكترثة: فإيزابيلا، يملؤها الفزع والنفور وتخشى أن تدخل الغرفة حتى لا تروع لرؤية كاثرين وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. بينما يقف إدجار بجانبى فى رصانة ليرقب انتهاء كل شئ، وبعد ذلك يقيم الصلوات شكرًا لله على إعادة السلام إلى هذا المنزل، ثم يعود ثانية إلى كتبه!.. ولكن بحق كل ذى شعور وإحساس، ما شأنه بالكتب بينما أنا مشرفة على الموت؟

والواقع أنها لم تستطع احتمال الفكرة التى بثتها فى رأسها عن استسلام مستر لينتون للأمر الواقع فى فلسفة غريبة.. فراحت تدور فى الفراش، وتزيد من حركاتها المحمومة حتى غدت أشبه بحركات المجانين، ثم أخذت تمزق الوسادة بأسنانها، وأخيرًا رفعت كتفيها، وهي تحس بحرارة شديدة تسري فى بدنها، فطلبت إلىّ أن أفتح النافذة.. وكنا فى وسط الشتاء، كما كانت الرياح تهب من الشمال الشرقى قوية قارسة البرد، فاعترضت على فتح النافذة، وقد تملكنى القلق والذعر من التعبيرات الغريبة التى تتلاعب بأساريرها، والتبدل العجيب الذي يصاحب حركاتها، وذكرت مرضها السابق وتحذير الطبيب من عدم معارضتها أو الوقوف فى وجه رغباتها.. وكانت ثائرة عنيفة منذ لحظة، أما الآن فقد استندت إلى إحدى ذراعيها، دون أن تنتبه إلى رفضى فتح النافذة، وبدت كأنما تجد تسلية صبيانية فى جذب الريش من الثقوب التى أحدثتها بالوسادة، ثم تنسيقه فوق الملاءة إلى أصنافه وأنواعه المختلفة.. كان عقلها قد شرد إلى آفاق أخرى، وبدأت تغمغم محدثة نفسها:

- هذا ريش ديكة رومية!.. وهذا ريش بط برى!.. وهذا ريش الحمام.. آه، إنهم يضعون ريش الحمام فى الوسائد.. لا عجب إذن إذا كنت لم أجد سبيلًا إلى الموت!.. سوف أعنى بإلقائه على الأرض عندما أستلقى على الفراش. وهذا ريش أوز الأحراش، أما هذا - ولابد من أن أعرفه وسط آلاف الريش - فهو ريش «القمرى»، ذلك الطائر الطيب الجميل الذي كان يرفرف فوق رؤوسنا فى وسط الأحراش.. لقد كان يريد الوصول إلى عشه، لأن السحب كانت قد بلغت رؤوس التلال، فأحس باقتراب المطر.. ولكن هذا الريش جمع من وسط المروج، فإن أحدًا لم يجد القمارى قط، وقد رأينا عشه فى الشتاء مليئًا بالهياكل الصغيرة. لأن هثكليف، كان قد نصب فخاخًا حول العش، فلم تجرؤ الطيور الكبيرة على القدوم إلى العش وتركت أفراخها حتى نفقت.. وقد جعلته يعد أنه لن يصيد القمارى بعد ذلك قط، وقد وفى بوعده!.. نعم. ها هنا الكثير منها.. هل صاد قمارى يا نيللى؟.. وهل كان بينها قمارى حمراء؟.. دعينى أرا!

فقاطعتها قائلة: (دعى هذا العبث الشبيه بلعب الأطفال..)

.. ثم جذبت الوسادة من يدها، وقلبتها فجعلت الثقوب ناحية الحشية، لأنها كانت تخرج الريش منها حفنة بعد حفنة، واستطردت: (ارقدى وأغمضى عينيك، فإنك تهذين!.. لقد ملأت الغرفة بالريش الذي يتطاير فيها كأنه الثلج المندوف!)

ومضيت ألتقط الريش من هنا وهناك، وإذا بها تتابع كلامها قائلة:

- إننى أرى فيك يا نيللى امرأة كهلة، مجللة الرأس بالشعر الأشيب، محنية الكتفين!.. وكأن فراشى هذا قبو الجنيات تحت صخرة (بنستون)، بينما تنهمكين فى جمع السهام ذات الرؤوس الصخرية المدببة، لتقتلى بها أبقارنا وماشيتنا!.. ثم تزعمين عندما تريننى قريبة منك أنها ليست إلا خصلات من الصوف!.. هذا ما سوف يصير إليه أمرك بعد خمسين عامًا، أما الآن، فأعرف أنك لست كذلك.. آه، إننى لا أهذى كما تزعمين. أنت مخطئة، وإلا فلابد لى من الاعتقاد أنك كنت حقًا تلك الشمطاء العجفاء، وأننى كنت تحت صخرة (بنستون)، ثم إننى أشعر بأن الليل أرخى سدوله، وأرى شمعتين على المائدة تنعكس أضواؤهما على المكواة السوداء فتتألق صفحتها كالكهرمان الأسود!

فصحت قائلة: (المكواة السوداء؟.. أين هى؟.. هل تحلمين، أم تتكلمين فى نومك؟).

إنها هناك، مستندة إلى الجدار، كما كانت دائمًا!.. ولكنها تبدو عجيبة الآن، فإنى أرى فى - صفحتها وجهًا!

فعدت إلى مقعدى، وفتحت فرجة فى ستار الفراش حتى أستطيع مراقبتها، ثم قلت: (لا توجد مكواة فى الحجرة، ولم توجد بها فى يوم من الأيام..)

ولكنها مضت تحملق ببصرها فى المرآة فى قلق، قائلة:

ألا ترين ذلك الوجه؟ -

وعبثًا حاولت إفهامها أن ذلك كان وجهها هى، فنهضت وغطيت المرآة بشال كبير، غير أنها استطردت فى إلحاح ولهفة: (إنه لا يزال هناك، خلف الشال.. ثم إنه يتحرك، من هذا؟.. أرجو ألا يخرج من مكمنه عندما تغادرين الحجرة.. أواه يا نيللى!.. إن الحجرة مسكونة بالأشباح، وإنى خائفة من البقاء فيها بمفردى!)

فتناولت يدها بين يدي وطلبت إليها أن تهدأ وتستريح، إذ كان بدنها كله قد أخذته رعشات متوالية كانت تهزه هزًا، ولكنها ظلت تحدق ببصرها فى المرآة، لا ترخى عينيها عنها.. فألححت عليها قائلة: (لا يوجد أحد هنا البتة. لقد كانت صورتك أنت يا مسز لينتون، وقد

عرفتها بنفسك من لحظات!)

فقالت لاهثة: (صورتى أنا؟.. وها هى الساعة تدق الثانية عشرة؟.. هذا صحيح إذن!.. آه!.. ما أفظع ذلك!)

وتشبثت أصابعها بثوبها فرفعته حتى غطت به عينيها.. وعندئذ حاولت أن أسترق الخطى إلى الباب وفى نيتى أن أدعو زوجها، ولكنى أسرعت بالعودة إليها إذ أطلقت صرخة ثاقبة، وكان الشال قد سقط من فوق إطار المرآة، فصحت بها قائلة:

- ماذا جرى؟.. وما هذا الجبن الآن؟ استيقظى، فإنها المرآة.. المرآة يا مسز لينتون، وأنت ترين نفسك فيها، وهأنذا أظهر فيها كذلك، إلى جوارك..

وأمسكت بى فى قوة وهي ترتعد فى وجل وذهول، وما لبث الفزع أن انقشع عن أساريرها تدريجيًا، وتحول شحوبها إلى تورد الخجل وهي تتنهد، قائلة:

- أواه يا عزيزتى!.. لقد حسبتنى فى منزلى. خيل إلىَّ أننى راقدة فى حجرتى (بمرتفعات ويذرنج)، وقد اختلط عقلى بسبب ما أعانيه من ضعف، فصرخت بغير وعى أو شعور.. لا تقولى شيئًا، ولكن امكثى معى، فإنى أخشى النوم، لأن أحلامى ترعبنى وتفزعنى!

- بل إن النوم العميق سوف يفيدك يا سيدتى، وأرجو أن تكون آلامك هذه مانعة لك من الصيام مرة أخرى..

فعادت تقول فى مرارة، وهي تعصر يديها وتفركهما:

- آه، ليتنى الآن فى فراشى الصغير بالمنزل القديم!.. وهذه الرياح تزفزف بين أغصان الشربين بجوار نافذتى. ألا دعينى أحسها واستنشقها يا نيللى، فإنها تنحدر من البرارى رأسًا. دعينى أرشف منها مرة واحدة!

وفى سبيل مرضاتها وإراحتها، أمسكت بمصراع النافذة وواربته بضع ثوان، فاندفع منه هواء مثلج، جعلنى أبادر إلى غلقه والعودة إلى مكانى.. وكانت عندئذ ترقد فى سكون، لا تتحرك ولا تتكلم، وقد سبح وجهها فى بحر من الدموع. كان الإرهاق البدنى قد طغى على هياجها النفسى، ولم تعد كاثرين الغضوب الثائرة أكثر من طفل باك ذليل..

ودبت فيها الحياة لتسألنى بغتة:

- كم مضى من الوقت منذ حبست نفسى هنا؟

- كان ذلك مساء الاثنين، ونحن الآن فى ليلة الخميس، أو بالأحرى صباح الجمعة!

- ماذا؟.. الاثنين والجمعة من الأسبوع نفسه.. هذه المدة القصيرة فقط؟

- إنها طويلة بما فيه الكفاية لمن لا يعيش إلا على الماء القراح وحدة الطبع!

فغمغمت قائلة فى ارتياب: (حسنًا، إنها تبدو ساعات كليلة متثاقلة، ولابد أن تكون أكثر من ذلك.. فإني أذكر ما حدث لى فى البهو بعد أن تشاجرا، حين راح إدجار يستفزنى فى قسوة فانطلقت أعدو هاربة إلى هذه الحجرة وقد تملكنى اليأس. وما كدت أوصد الباب، حتى اكتنفتنى ظلمة حالكة السواد، وتعثرت فسقطت على الأرض.. وما استطعت أن أُبين لإدجار كيف كنت مقبلة حتمًا على نوبة شديدة حادة، وكيف أن الغضب سوف يفضي بى إلى الجنون، لو أصر على التمادى فى مضايقتى ومعاندتى!.. فلم تعد لى أية سيطرة على لسانى، أو عقلى، ولعله من جانبه لم يستشف آلامى وعذابى، التى لم تدع لى من حاسة

التفكير إلا القدر الذي يدفعنى إلى محاولة الفرار منه ومن صوته!.. وقبل أن أستعيد حواسى بالقدر الذي يسمح لى بأن أرى وأسمع، كان الفجر قد انبثق.. وسوف أخبرك يا نيللى بما كنت أفكر فيه، وما كان يلف ويدور فى رأسى، حتى خشيت على عقلى أن يذهب بددًا. كان يُخيل إلىّ - وأنا ملقاة على الأرض، ورأسى مستند إلى رجل المائدة، وعيناى لا تكادان تستشفان ذلك المربع الرمادى الذي يتوسط النافذة - أننى كنت فى فراشى الذي تعرفينه هناك. تلك الخزانة ذات الفتحات المربعة، المصنوعة من الخشب البلوط، وأن قلبى كان يتقطع من حزن عظيم لم أتذكر سببه عندما استيقظت وقتئذ، وإنما رحت أكد فكرى ونفسي لأكتشف سره وكنهه.. ولكن أعجب ما فى الأمر أن السنوات السبع الأخيرة من حياتى غدت كلها كأنها صفحة بيضاء، حتى خيل إلىّ أنها لم تكن البتة!.. لم يكن لها يومًا وجود!

(تم الجزء الأول بحمد الله وتوفيقه)

ترقب الجزء الثانى من (مرتفعات ويذرنج)

فى غمرة هذا الهذيان المحموم الذي اندفعت فيه بطلة القصة المدللة التعسة (كاثرين إيرنشو) - أو (مسز لينتون) - ينتهي الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لهذه الترجمة الكاملة للصراع الأدبى الخالد (مرتفعات ويذرنج).

وفى الجزء التالى، نتابع مطالعة هذه القصة الإنسانية الرائعة، فنرى ما يكون من أمر التصدع الخطير الذي أحدثه هيثكليف فى العلاقة بين الزوجين (كاثرين) و(إدجار)!.. ثم نتابع المطاردة العنيفة التى يشنها هيثكليف على العذراء الغريرة (إيزابيلا)، والعداء القاتل الذي يكنه الأول لغريمه القديم «هندلى)!.. إلخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب **– Group Link**

لينك القنـــاة **– Link**

فهرس الجزء الأول..

Notes

[←1]

الفود: ما يلي الأذن من شعر الرأس.

[←2]

إشارة الى عدد المرات التى أوصى الانجيل بأن يغفرها الانسان لمن يخطئ إليه، فقد ورد فى إنجيل متى (18- 21): (حينئذ تقدم بطرس إلى المسيح وقال: يا رب كم مرة يخطئ إلىّ أخى وأنا أغفرله. هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات.)

[←3]

كاثى أو كاثرين (أيرنشو شقيقة هندلى) هى غير كاثى أو كاثرين (لينتون) التى سبق الحديث عنها، (وستظهر صلة القرابة بينهما فيما بعد).

[←4]

.ايلين)، أو (نيللى)، أو (مسز دين)، كلها أسماء لإمراة واحدة)

[←5]

يونان) فى الإنجيل يقابل (يونس) فى القرآن).



كتابى
45
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الثانى
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٥٩٠٨٤٥٥
فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة كتابي) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كتابي

(العدد رقم 45)

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثاني

إميلي برونتي

إعداد: حلمي مراد



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة « اميلى برونتى »

الجزء الثانى

وصل ما انقطع..

في نهاية الجزء الأول من هذه الترجمة الكاملة لقصة (مرتفعات ويذرنج)، تركنا (كاثرين إيرنشو) – زوجة (دجار لينتون) - راقدة في فراش المرض، تفضي لخادمتها (نللى) بذات نفسها، بعد أن اعتصمت بمخدعها وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام، على أثر المشادة العنيفة التي نشبت بينها وبين زوجها بسبب.. هيثكليف!.. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين أن شقيقة زوجها – إيزابيلا - قد وقعت في هوى هيثكليف، فلما حاولت أن تنفرها منه بإظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة، أهانتها العذراء الغريرة واتهمتها بالغيرة والأنانية فما كان من كاثرين إلا أن انتقمت لكرامتها بأن أفشت لهيثكليف السرّ الذي كان يجهله، سرّ تدله إيزابيلا في هواه!.. وانتهز الوضيع الفرصة فدبر الخطة لاستغلال هذا الهوى الصبياني وتنميته، بغية مصاهرة غريمه الأرستقراطي (إدجار لينتون) وإذلاله!.. وذات يوم فاجأ إيزابيلا في الحديقة فقبّلها.. ولمحته (نللى) فأبلغت كاثرين بالأمر!.. فثارت كاثرين في وجهه وأمعنت في تأنيبه. وانتهز إدجار الفرصة - دون أن يقف على سبب المشادة - فأمر هيثكليف بالخروج وعدم العودة إلى الدار مرة أخرى!.. وعلى أثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالإنصات إلى حديثها مع هيثكليف من وراء الباب، ثم تظاهرت بالإصابة بنوبة صرع!.. لكن (نللى) فضحت (تمثيلها»، فانطلقت غاضبة إلى مخدعها حيث اعتصمت به وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام.. لكنها في اليوم الثالث اضطرت إلى أن تطلب بعض الطعام. وحين علمت أن زوجها يقضى وقته في غرفة المكتبة، غير مبال بقطيعتها، صدمها إهماله إياها، وأصابها بشبه نوبة من الهذيان وهواجس الخوف من الموت والأشباح.. ثم راحت تذكر (نللى) ببدء أحداث الأسبوع المشئوم حين اعتصمت بمخدعها، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروّع خشيت منه على عقلها.. كابوس رأت نفسها فيه وقد عادت سنوات إلى الوراء، إلى يوم مات أبوها وهي بعد صبية في الثانية عشرة، فأقام أخوها (هندلى) ستارًا بينها وبين لقاء رفيق صباها هيثكليف - الذي كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها! - الأمر الذي قاست منه الشعور بالبؤس والعذاب.. وصوّر لها الكابوس كأنها تنام في فراشها القديم بمنزل (مرتفعات ويذرنج»، الفراش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة، من خشب البلوط - وهو الفراش الذي نام فيه مستر لوكوود، مستأجر الدار، في بداية القصة - فلما أفاقت من الكابوس وجدت نفسها في مخدعها بقصر (ثرشكروس جرانج) حيث أغفت وهي جالسة على الأرض مستندة إلى رجل المائدة!

والآن تستطيع أن تتابع القراءة من حيث تركنا (كاثرين) تحدّث (نللى) عن ذلك الكابوس:

(.. رأيتني قد عدت صبية، وكان أبي قد ووري التراب للتو، وبدأ عذابي وبؤسى من ذلك الفراق الذي فرضه هندلى بيني وبين هيثكليف.. كنت قد تُركت وحدى، للمرة الأولى في حياتي، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء والنشيج، رفعت يدي لأزيح بها باب الخزانة المنزلق.. فإذا بها تصطدم بسطح المائدة!.. وأفقت من رؤياي فجأة لأجدني متكئة على بساط أرض مخدعي!.. وإذا بآلامي الماضية تضيع في لجة بعيدة الغور من اليأس. وليس في وسعي أن أفسر لك لماذا شعرت بالشقاء والتعاسة يحيطان بي من كل جانب، فلا بد أن ذلك كان شعورًا وقتيًا، لأنني لا أكاد أجد له سببًا أو مبررًا.. ولكن خُيل إليَّ كأن يقظتي قد انتزعتني، وأنا بعد في الثانية عشرة، من (المرتفعات)، ومن كل حياتي ورفقتي المبكرة، ومن كياني كله، كما كان لي هيثكليف في ذلك الوقت.. وصيرتني فجأة، وبعنف، إلى مسز لينتون، سيدة (ثرشكروس جرانج»، وزوجة رجل غريب.. إنه النفي والتشريد من كل ما كان دنياي وعالمي.. ألا ليتك تتصوَّرين لمحة من الهاوية التي ترديت

فيها. وبوسعك أن تهزي رأسك كما تشائين يا نللي، ولكنك حقًّا قد ساعدت على عدم استقراري!.. كان ينبغي أن تتحدثي إلى إدجار. كان هذا واجبك حقًّا.. وأن ترغميه على أن يدعني في سلام وهدوء.. آه!.. إنني أشتعل بالنيران!.. ليتني أكون في الخلاء الآن. ليتني أعود فتاة صغيرة من جديد، جريئة، نصف متوحشة، حرّة مطلقة السراح، أسخر مما يوجه لي من إهانات، ولا أجنى منها غضبًا كشأني الآن!.. لماذا تغيرت كل هذا التغير؟.. لماذا تندفع الدماء في عروقي فائرة ثائرة لمجرد سماع كلمات قلائل؟.. إننى واثقة من أنني سوف أعود لحالتي الأصلية إذا وجدت نفسي بين الأحراش فوق هذه التلال. افتحي النافذة ثانية يا (نللى)، ودعيها مفتوحة على مصراعيها. أسرعي.. لماذا لا تتحركين؟

فقلت: (لأنني لا أريد أن تصابي ببرد يقتلك..»

- بل تعنين أنك لا تريدين أن تهيئي لي فرصة للحياة!.. ومع ذلك فإني لم أصبح عاجزة عن الحراك بعد.. سوف أفتحها بنفسي..

وهبطت من الفراش مسرعة - قبل أن أستطيع منعها - فاجتازت الحجرة وهي تترنح في مشيتها، ففتحت النافذة وأطلت منها وقد أحنت جسمها إلى الأمام غير مبالية بالهواء المثلج الذي كان يمزق كتفيها العاريتين كسكين حادة.. ورحت أتوسل إليها، ثم حاولت أن أستخدم القوة في إرغامها على الرجوع عن النافذة، ولكني سرعان ما تبينت أن الحمى قد زادتها قوة، حتى جاوزت كل ما لدى من قوة! (وقد كانت في الواقع تحت تأثير الحمى، إذ اقتنعت بذلك من أفعالها اللاحقة وهذيانها الغريب).. وكان القمر غائبًا عن صفحة السماء، وكل شيء تحتنا يسبح في لجة من الظلمة الحالكة. ولم يكن ثمة أي ضوء ينبعث من أي منزل قريب أو بعيد، فقد أطفئت أضواء المنازل كلها منذ زمن طويل.. أما أضواء (مرتفعات ويذرنج) فلم يكن يبين منها شيء البتة، وبرغم ذلك فإنها كانت تؤكد أنها ترى بريقها، إذ صاحت في لهفة:

- انظري!.. هذه حجرتي والشمعة مضاءة فيها، والأشجار تتأرجح أمامها!.. أما الشمعة الأخرى فهي في حجرة جوزيف العلوية. إن جوزيف ما زال ساهرًا، أليس كذلك؟.. إنه ينتظر حتى أعود إلى المنزل ليوصد البوابة. حسنًا، سوف ينتظر طويلًا!.. فهي رحلة شاقة، والقلب الكسير لا يستطيع قطعها في يسر!.. ولا بد لنا من المرور بكنيسة (جيمرتون) لكي نقوم بهذه الرحلة.. لقد طالما تحدينا أشباحها معًا، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين القبور، ودعوة الأشباح للظهور!.. ولكن هبني راهنتك الآن يا هيثكليف، فهل تجرؤ على الوقوف هناك؟.. لو أنك فعلت فسوف أستبقيك معي، فما كنت لأرقد هناك وحدي. فليدفنوني على عمق إثني عشر قدمًا، وليهيلوا أحجار الكنيسة كلها فوق قبري، فلن أستريح حتى ألقاك معي.. لن يقر لي قرار قط حتى أفعل!

وتمهلت قليلًا، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة:

- إنه يفكر في الأمر، ويُفضل لو ذهبت إليه، بدلًا من أن يأتي إليّ.. ابحث عن طريقة لذلك إذن!.. ولكن بعيدًا عن فناء الكنيسة!.. يا لك من بطيء متثاقل! ولكن هدئ روعك، فقد كنت دائمًا تتبعني!

وإذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة أقوالها الجنونية، فقد رحت أفكر في وسيلة أستطيع الوصول بها إلى شيء أغطيها به أو ألفه حولها، دون أن تتخلى قبضتي عن الإمساك بها (فما كنت لآمن لها وأدعها وحدها بجوار النافذة الفاغرة فاها).. وفي تلك اللحظة أجفلت إذ سمعت صرير أكرة الباب وهي تدور، ثم إذا بمستر لينتون يدخل الحجرة.. فقد كان في المكتبة فلم يبارحها إلا في تلك الساعة، وبينما كان يجتاز الردهة سمع حديثنا فأثار فضوله، أو خوفه، وأراد أن يعرف ما يحدث في تلك الساعة المتأخرة.. كدت ألمح صيحة الدهشة

التي تجمعت على شفتيه، إذ شهد المنظر الذي طالعه، وجو الحجرة القارس، حتى هتفت قائلة، لأحول دون انطلاق تلك الصيحة:

- أواه يا سيدى!.. إن سيدتي المسكينة مريضة، وقد تغلبت عليّ، فلم أعد أستطيع تهدئتها البتة.. أرجو أن تأتي وتقنعها بالذهاب إلى الفراش. انس غضبك يا سيدي، لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صممت عليه!

فصاح وهـو يُسرع إلينا: (كاثرين مريضة!؟.. أغلقى النافذة يا إيلين.. كاثرين.. لماذا؟).

وكفَّ عن الكلام بغتة، إذ كان منظر مسز لينتون المشعث، وشحوبها الشديد، قد ألجم لسانه وشلّه عن النطق، ولم يعد قادرًا إلا على نقل نظراته بينها وبيني في دهشة وارتياع.. فتابعت الحديث قائلة:

- لقد لبثت هنا كل هذه المدة، تجتر أحزانها، لا تذوق طعامًا، ولا تنفس عن صدرها لمخلوق، فلم تسمح لأحدنا بالدخول عليها إلا الليلة، ولذلك لم يكن في وسعنا أن نخبرك عن حالتها - إذ كنا أنفسنا نجهلها - ولكن أرجو أن يكون الأمر بسيطًا..

وقد شعرت بأننى كنت أنطق بهذه العبـارات في ارتباك وتلعثم، فنظر السيد إلىّ عابسًا، ثم قال في صرامة: (أترين الأمر بسيطًا، يا إيلين دين؟.. سوف يكون عليك أن تفسري مسلكك إذ كتمت ذلك عنى، فيما بعد..)

ثم أخذ زوجته بين ذراعيه، وراح ينظر إليها في ألم وأسى.. فلم يبد في نظراتها، في بادىء الأمر، ما ينم على أنها قد عرفته!.. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه. ومع ذلك كانت النوبة الثائرة قد بدأت في الهدوء، فما أن تحولت عيناها عن الظلمة الخارجية الحالكة، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدًا رويدًا، حتى عرفت من الذي كان يحوطها بذراعيه، فقالت في انتفاضة غاضبة:

- آه!.. هل أتيت يا إدجار لينتون؟.. إنك أحد تلك الأشياء التي يجدها المرء دائمًا كلما كان في غير حاجة إليها، وعندما يحتاج إليها لا يجدها قط!.. وأحسب أننا سوف يكون لدينا الكثير من الأحزان الآن - بل أنا واثقة من ذلك - ولكنها لا يمكن أن تحول بيني وبين مسكنى الضيق هناك! مسكنى ومستقرى وموئل راحتى، حيث قدر على أن أرقد فيه قبل انقضاء الربيع. ولكنه لن يكون بين قبـور آل لينتون، تحت سقف الكنيسة، وإنما في الهواء الطلق، فوق الروابي، لا يعلوه سوى قائم من الحجـر!.. أما أنت فلك أن تذهب حيث يسرك الذهاب، فإما أن تمضي إليهم أو تأتى إلىّ!

فغص السيد بريقه وهو يقـول: (ماذا فعلت بنفسك يا كاثرين؟.. ألم أعد شيئًا بالنسبة إليك؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيث..؟)

فصاحت مسز لينتون: (صه!.. اسكت. لو ذكرت هذا الاسم فسوف أنهى المشكلة في الحال، بوثبة من النافذة!.. إن ما تلمسه الآن قد يكون لك، ولكن روحي سوف تكون فوق قمة ذلك التل قبل أن تضع يديك علىّ ثانيـة.. إنني لا أريدك يا إدجار.. بل لم يعد في وسعى أن أريدك!.. ارجع إلى كتبك، فكم يسرني أن لديك ما يسليك ويسرى عنك. أما أنا، فكل ما كان لك منى، قد ذهب وولى!)

فتدخلت قائلة: (إن عقلها يهيم في آفاق مجهولة يا سيدى، لقد قضت الليلة بأسرها تهذي بكلام لا معنى له.. ولكن دعها تنل نصيبًا وافرًا من الراحة، وقسطًا كافيًا من العناية، وسوف تستعيد قواها ومرحها.. يجب أن نحذر، من الآن فصاعدًا، من إغضابها..)

فأجاب مستر لينتون: (لست أريـد منـك المزيد من النصائح. إنك تعرفين طبيعة سيدتك،

ومع ذلك شجعتنى على مضايقتها!.. ثم لم تلمحي لي مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة!.. ألا ما أقسى قلبك! إن شهورًا من المرض ما كانت لتُحدث بها مثل هذا التغيير!)

فبدأت أدافع عن نفسي، شاعرة بأن من الظلم أن أُلام بسبب المشاكسات الخبيثة التي يأتيها شخص آخر غيرى!.. فصحت قائلة: (لقد كنت أعرف ما في طبيعة مسز لينتون من صلابة الرأي وحب السيطرة والتسلط، ولكني لم أكن أعرف رغبتك في تغذية طباعها الحادة الضارية والاستزادة منها!.. لم أكن أعرف أنني في سبيل مرضاتها وتدليلها يجب أن أتغاضى عما يفعله مستر هيثكليف!.. لقد أديت واجبى كخادم أمينة عندما أخبرتك، وهأنذا أتقاضى الأجر اللائق بخادم أمينة!.. حسنًا، إن ذلك يعلمني أن أكون أشد حذرًا، وعليك في المرة القادمة أن تجمع معلوماتك بنفسك!!)

- في المرة القادمة التي تأتين لي فيها بقصة جديدة، سوف تتركين خدمتى يا إيلين دين!

- أحسبك لا تريد أن تسمع شيئًا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون؟.. إذن فقد نال هيثكليف إذنك لمغازلة الآنسة، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك ليأتي ويسمم أفكار السيدة ضدك؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التي كانت فيها كاثرين، فإن ذهنها كان مرهفًا وعلى وعي بحديثنا، إذ هتفت في حرارة: (آه (لقد لعبت إيلين دور الجاسوس الخائن!.. إن إيلين هي عدوى الخفي في هذا المنزل.. أنت أيتها الساحرة الشمطاء، إذن فقد كنت تجمعين السهام لترمينا نحن بها؟ دعنى.. دعني، سوف أجعلها تتحسر على ما فعلته.. سوف أجعلها تلقى جزاء جحودها!)

وكانت عيناها تومضان، وتتوهجان في ثورة جنونية، وراحت تناضل في سبيل الخلاص من بين ذراعي لينتون.. فلم أحس ميلًا إلى البقاء حتى تنفذ وعيدها، وعزمت على أن أنشد معونة الطبيب، من تلقاء نفسي وتحت مسئوليتى، فأسرعت بمغادرة الحجرة، ثم المنزل كله.. وفيما كنت أجتاز الحديقة إلى الطريق، في موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطافًا مما تُعلق فيه أعنة الجياد، لمحت جسمًا أبيض اللون يتحرك حركة غير منتظمة، لا شأن للرياح في إحداثها.. وعلى الرغم من أنني كنت في عجلة، إلا أنني تلبثت ريثما أفحص ذلك الشيء، حتى لا تخامرني الهواجس فيما بعد فتثير في خيالي الاقتناع بأن ما رأيته كان عفريتًا من الجان!.. وكم كانت دهشتي وحيرتي عندما اكتشفت، بطريق اللمس أكثر من الرؤية، أنه كان كلب مس إيزابيلا الصغير (فانى)، معلقًا في الخطاف من رقبته بمنديل، وفى الرمق الأخير من حياته!.. وأسرعت بتخليص الحيوان المسكين، وأنزلته إلى الحديقة، وكنت قد رأيته يتبع سيدته إلى حجرتها بالطابق العلوي عندما أوت إلى فراشها، فأخذني العجب مما أتى به إلى الحديقة، ومن ذلك الشرير الذي كاد أن يقتله.. وبينما كنت أحل عقدة الذيل من حول الخُطاف، بلغ مسامعي وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة عن مبعدة.. ولكن كان لدى من الشواغل التي تملأ تفكيري، ما جعلني لا أعير صوت الجواد اهتمامًا، ولو أنه كان صوتًا غريبًا في هذا المكان في الساعة الثانية من الصباح!

ومن حسن الحظ أن مستر كينيث كان يغادر منزله لزيارة مريض في الريف، عندما بلغت الشارع الذي يقيم فيه، فما أن سمع روايتي عن مرض كاثرين لينتون حتى عدل عن طريقه وعاد معي في الحال. وكان رجلًا بسيطًا صريحًا لا يعرف المداورة، فلم يخف شكه في نجاتها من هذه الصدمة الثانية، ما لم تكن أكثر خضوعًا لتعليماته وأوامره مما بدا منها في المرة الأولى، ثم استطرد يقول:

- اسمعى يا نللي دين.. إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الاعتقاد بأن هناك سببًا خارجيًا

لما أصابها، فما هـذه الأحداث التي تمر (بالجرانج (هذه الأيام؟.. لقد بلغتنا أنباء عجيبة هنا، وفتاة قوية البنية مثـل كاثرين لا يمكن أن تقع صريعة المرض بسبب شيء تافه، كما أن هذا الطراز من الناس لا يمرضون بسهولة، ومن العسير أن تصيبهم الحمى أو غيرها.. فكيف كانت البداية؟

- سوف يخبرك السيد.. ولكنك تعـرف آل إيرنشـو تمامًا وتعرف حدة طباعهم، التي بلغت مســز لينتون فيهــا أعلى مرتبة وبزتهم جميعًا. وكل ما يمكنني قوله إن الأمر بدأ بشجار حاد، وقد أصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد، أو هذه قصتها على الأقل، لأنها فرَّت من الميدان عند احتدام العاصفة وحبست نفسها في حجرتها، ثم رفضت أن تتناول شيئًا من الطعام، وغدت الآن تتناوبها ساعات من الهذيان تارة، ومن الاستغراق فيما يشبه الحلم تارة أخـرى. وهي تعـرف المحيطين بها ولكن عقلها يمتلىء بقدر عظيم من الأفكار والأوهام.

فقال كينيث متسائلًا:

- أحسب أن مستر لينتون سوف يأسف كثيرًا؟

- يأسف؟.. إن قلبه سـوف يتحطم لو أصابها سوء!.. وأرجو ألا تثير في نفسه القلق بأكثر من القدر الضروري!

فقال رفيقى: (حسنًا، لقد حذرته.. وعليه أن يترقب عواقب إهماله لتحذيري. ألم تنعقد أواصر الود والألفة بينه وبين مستر هيثكليف أخيرًا؟)

- إن مستر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج)، وإن كان ذلك يرجع إلى معرفة السيدة له منذ أن كان غلامًا صغيرًا، أكثر من حب السيد لصحبته.. ولكنه في الوقت الحاضر قد أعفى من مشقة الزيارة، بعد أن بدر منه ما ينم على طموح مزعوم إلى يد مس لينتون.. ولست أعتقد أن أحدًا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية..

وألقى الطبيب بسؤاله الثاني، فقال:

- وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث؟

فأجبته في إحجام من متابعة الحديث في هذا الموضوع:

- إنها لا تطلعني على أسرارها.

- كلا، فهي فتاة ماكرة لا تطلع أحدًا على سرها، ولكنهـا بلهاء حقًا.. فقد سمعت من مصدر يوثق بكلامه أنهـا كانت في الليلة الماضية - ويا لها من ليلة! - تتمشى مع هيثكليف في الحقول الممتـدة خلف منزلكم أكثر من ساعتين.. وكان يستحثها ويلح عليها ألا تعود إلى المنزل ثانية، بل ترافقـه على ظهر جواده وتفر معه!.. وقـد أخبرني محدثي أنها لم تستطع استمهاله إلا بعد أن عاهدته بكلمـة الشرف على أن تستعد لذلك في أول لقاء لهما بعـد ذلك. أما متى يكون ذلك، فإن محدثى لم يسمعهما يحددان موعده.. ولكن عليك أن تنذرى مستر لينتون حتى يفتح عينيـه جيدًا!

وملأتنى هــذه الأنباء بمخاوف جديدة، فسبقت كينيث، وأسرعت أعدو عائدة إلى الدار. وكان الكلب الصغير ما زال ينبح في الحديقة، فتخلفت لحظة ريثما أفتح له البوابة، ولكنه بدلًا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يعدو هنا وهناك ويتشمم العشب، وكان على وشك أن يهرب إلى الطريق لو لم أمسك به وأحمله معى إلى الداخل.. وقد تحققت شكوكى عندما صعدت إلى حجرة إيزابيلا، إذ وجدتها خالية!.. ولو أننى ذهبت إليها منذ ساعات قليلة،

فربما كان مرض مسز لينتون قد منعها من الإقدام على هذه الخطوة الطائشة، ولكن ما الذي يمكن عمله الآن؟.. كان هناك احتمال طفيف في إدراكهما إذا اقتفى أثرهما في الحال، ولكني لم أكن أستطيع تتبعهما بنفسي، أو أجرؤ على إيقاظ العائلة جميعًا، وإشاعة الفوضى والاضطراب في المنزل كله.. وكذلك لم يكن في وسعي أن أبوح بالأمر للسيد الذي كانت نكبته الحالية تشغل كل أفكاره، ولم يبق في قلبه متسع لحزن جديد.. فلم أجد خيرًا من أن أمسك لساني وأدع الأمور تجري في مجراها. وإذ كان كينيث قد وصل، رافقته إلى حجرة السيدة - وقد انقلبت سحنتى - لأعلن مقدمه. وكانت كاثرين وقتئذ تنام نومًا مضطربًا، إذ كان زوجها قد أفلح في تهدئتها، وتخفيف ثائرة نوبتها، ووقف عند طرف الوسادة يرقب كل تبدل يطرأ على أساريرها التي تعبر عن ألم شديد..

وبعد أن فحص الطبيب الحالة بنفسه، أعرب عن أمله في الوصول إلى نتيجة طيبة إذا استطعنا أن نحيطها دوامًا بجو من الهدوء والسكينة. وقد أفضى إليّ بأن الخطر الداهم لم يكن في موتها، بقدر ما كان في إصابتها بخلل دائم في قواها العقلية!

ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة، وكذلك مستر لينتون.. بل لم نذهب إلى فرشنا أو نحاول النوم قط. حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير، وراحوا يتحركون في المنزل بخطى خفيفة مسترقة، ويتبادلون الكلام همسًا كلما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بمهامهم. كان كل من في الدار مستيقظًا يقوم بعمله، إلا مس إيزابيلا، فراحوا يتهامسون عن نومها العميق ويعجبون منه!.. بل لقد سأل أخوها عما إذا كانت قد استيقظت من النوم، وبدا متلهفًا على وجودها، وقد ساءه أنها لم تبد شيئًا من القلق على زوجة أخيها.. وكنت أرتعد خشية أن يبعث بي لاستدعائها، ولكن حدث ما كفاني مشقة أن أكون أول من يعلن خبر فرارها: فإن إحدى الخادمات - وهي فتاة طائشة كانت قد ذهبت إلى (جيمرتون) في الصباح الباكر لتحضر شيئًا من البلدة - أسرعت ترتقي الدرج، مبهورة الأنفاس، فاغرة الفم، واندفعت إلى داخل الحجرة، صائحة:

- آه!.. رحماك يا رب!.. ماذا سيحل بنا بعد ذلك؟.. سيدي.. سيدي.. إن سيدتنا الصغيرة..

فبادرتها زاجرة، وقد اشتد بى الغضب من ضجيجها:

- صه!.. كفى عن هذه الجلبة!

وقال مستر لينتون: (أخفضى صوتك يا مارى.. ماذا هنالك؟.. وما الذي ألم بسيدتك الصغيرة؟ (

- لقد ذهبت!.. ذهبت!.. وصديقك هيثكليف هو الذي فرّ بها!

فصاح إدجار ذاهلًا، وهو ينهض من مقعده في انفعال شديد:

- هذا ليس صحيحًا!.. بل لا يمكن أن يحدث قط!.. ما الذي أنبت هذه الفكرة في رأسك؟.. وأنت يا إيلين دين، اذهبي وابحثي عنها. هذا أمر لا يمكن تصديقه.. بل لا يمكن أن يحدث!

وكان وهو يقول ذلك، قد سار بالخادم العجول نحو الباب، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التي تجعلها تؤكد هذا الفرار.. فغمغمت تقول متلعثمة: (لماذا؟.. لقد التقيت في الطريق بالغلام الذي يحضر لنا اللبن، فسألني عما إذا كانت المتاعب قد ثارت في (الجرانج)، وحسبته يقصد مرض السيدة، فأجبته بالإيجاب، وعندئذ قال: (أظنكم أرسلتم من يقتفى أثرهما؟)، فحملقت فيه في دهشة أدرك منها أنني لا أعرف شيئًا عن الحقيقة، وذكر لي كيف أن سيدًا وسيدة توقفا عند حانوت الحداد، على بعد ميلين من (جيمرتون)، ليصلحا

حدوة جوادهما، بعد منتصف الليـل بقليل.. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع أمرهما خفيـة، فعرفتهما على الفور.. ولاحظت أن الرجل - وكان هيثكليف بلا ريب، فإن أحدًا لا يخطىء معرفته - قد دس في يد أبيهـا جنيهًا ذهبيًا أجرًا له على عمله. وكانت السيدة تلف ياقـة المعطف حول وجهها، ولكنها طلبت جـرعة من الماء، وبينما كانت ترشفها، سقطت ياقة المعطف فرأت الفتاة وجهها جليًا وعرفتهـا. وكان هيثكليف يمسك عنان الجواد بكلتـا يـديه وقد انطلقـا به في سرعة عظيمة، بالقدر الذي تسمح به وعورة الطريق، وهما يتنكبان القرية في سيرهما. ولم تقل الفتـاة شيئًا لأبيها، ولكنها نشرت الخبر في (جيمرتون) كلهـا هـذا الصباح!

وأسرعت أتقصى الأمر في حجـرة إيزابيلا، من الناحيـة الشكلية، ثم عدت لأؤيد رواية الخادم. وكان مستر لينتون قد رجع إلى مقعده بجـوار الفراش، فلمـا أحس بعودتي، رفع ناظريه نحوي، ثم خفضهما ثانية، بعد أن قرأ في وجهي معنى ما علاه من وجوم، وأخلد إلى الصمت. فلم يصـدر أمرًا أو ينبس بكلمة واحدة.. فسألته قائلة:

- ألا نحاول اتخـاذ أية تدابير للحاق بهـا وإعادتها إلى المنزل؟.. وكيف ترى أن نفعل ذلك؟

فأجابني السيد: (لقد ذهبت بملء رغبتها وإرادتها، ومن حقها أن تفعل ذلك ما دام يسرها.. فلا تشـغليني بأمـرها بعد ذلك قط، لأنها من الآن تعد شقيقتى اسمًا فحسب.. لا لأننى أتبرأ منهـا، بل لأنهـا هي التي تنكرت لى وبرئت منى..)

وكان ذلك كل ما قاله في هذا الموضوع، فلم يتخذ سبيلًا واحدًا للبحث عنها والتقصي عما تمّ من أمرهـا! ولم يذكـرها على لسانه في أي وقت، إلا عندما أمرني بأن أرسل إليهـا في منزلها الجديد، أينما كان مقره - عندما يبلغني خبر عنه - كل ما لها في الدار من متاع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

ظلّ الهاربان غائبين زهاء شهرين دون أن نسمع عنهما شيئًا. وفي خلال هذين الشهرين كانت مسز لينتون فريسة لأسوأ صدمة - مما يسمى بالحمى المخية - حتى قهرتها وتغلبت عليها. وما من أم رؤوم كان يمكن أن ترعى طفلها الوحيد وتمرضه بتفان وإخلاص أكثر مما كان ادجار يرعاها ويمرضها.. كان يسهر عليها الليل والنهار، ويحتمل في صبر لا ينضب معينه جميع المضايقات والمتاعب التي يمكن أن تنشأ عن أعصاب سريعة التهيج وعقل مرتج.. وكانت فرحته وشكرانه، عندما أعلن الطبيب زوال الخطر عنها، لا يعرفان حدودًا لانطلاقهما، برغم ما لاحظه كينيث من أن التي أنقذها إدجار من القبر سوف تجزى رعايته وعنايته بأن تكون مصدر قلق دائم له في المستقبل!.. والواقع أنه كان يضحى بصحته وقوته في سبيل المحافظة على حطام بشرى، لا أكثر ولا أقل. كان يقضى الساعة تلو الساعة جالسًا إلى جانبها يرقب صحتها البدنية وهي ترتد إليها تدريجيًا، ويعلل النفس بالأماني الجياشة - الخيالية - في أن عقلها سوف يعود إلى توازنه الصحيح أيضًا، وأنها لن تلبث حتى ترجع إلى حالتها الطبيعية التي كانت عليها من قبل..

وكانت أول مرة غادرت فيها حجرتها، بعد ذلك المرض الطويل، في بداية شهر مارس التالي. وكان مستر لينتون قد وضع فوق وسادتها، قبل أن تستيقظ في الصباح، حفنة من زهور الأقحوان الذهبية، فلما أفاقت من نومها لمحتها عيناها - اللتان ظلتا طويلًا لا تعرفان بريق السرور – فتألقتا في فرح وابتهاج، وراحت تضم الزهور معًا، هاتفة:

- هذه بواكير الزهور في (المرتفعات).. وهي تذكرني بالنسمة العليلة، والشمس الساطعة الدافئة، والثلوج الذائبة.. قل لي يا إدجار، ألا تهب نسائم الجنوب الآن؟.. وهل اختفت الثلوج أم كادت؟



ألقتا في فرح وابتهاج، وراحت تضم الزهور معًا، هاتفة:
هذه بواكير الزهور في (المرتفعات)..

- لقد اختفت الثلوج تمامًا من هنا يا عزيزتي، ولست أرى على طول تلال البراري إلا بقعتين بيضاوين.. كما أن السماء زرقاء صافية، والقنابر تصدح بأنغامها الشجية، والجداول والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها.. لقد كنت في مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضي، يا كاثرين، أتوق إلى وجودك تحت سقف هذا البيت، ولكني الآن أود لو أنك كنت فوق هذه التلال، فان الهواء يهب عليها جميلًا عليلًا، حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تمامًا..

فقالت المريضة: (لن أذهب إلى هناك قط إلا مرة واحدة أخرى.. وفي تلك المرة سوف تتركني هناك، وسوف أبقى بها أبدًا. وفى الربيع القادم سوف تتوق ثانية لأن تجدني تحت سقف هذا البيت، وسوف تنظر إلى الوراء وترى أنك كنت سعيدًا اليوم!)

فغمرها لينتون بفيض من الملاطفات الرقيقة، وحاول أن يبهجها بكلمات الحب والحنان، ولكنها راحت تنظر إلى الزهور ساهمة، وما لبثت أن تركت قطرات الدمع تتجمع على أهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها، لا تكف ولا تفيض.. وأدركنا جميعًا أنها قد تحسنت حقًا، وأن اعتكافها الطويل في مكان واحد هو السبب في ذلك القنوط الذي يستبد بها، والذي قد يفارقها لو بدلت المنظر الذي يحيط بها.. وأمرني السيد بأن أشعل نارًا في حجرة الجلوس التي ظلت مهجورة أسابيع عدة، وأن أضع مقعدًا مريحًا في أشعة الشمس بجوار النافذة، ثم أحضرها من الطابق العلوي.. فجلست طويلًا تستمتع بالدفء الجميل، وقد انتعشت كثيرًا - كما توقعنا - من منظر الأشياء المحيطة بها، فهي وإن كانت مألوفة لديها، إلا أنها لا تقترن في ذهنها بتلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة.. فلما حل المساء، كانت تبده منهوكة القوى إلى حد كبير، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الإقناع في إغرائها على العودة إلى حجرتها، فاضطررت إلى إعداد أريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها فراشًا لرقادها ريثما يمكن إعداد حجرة أخرى لها.. وقد أعددنا لها هذه الحجرة - التي ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكوود - حتى نجنبها مشقة الصعود والهبوط إلى الطابق العلوي، فهى - كما تعلم - في نفس الطابق الذي تقع فيه حجرة الجلوس.. وسرعان ما استعادت بعض قوتها بحيث أمكنها الانتقال من إحداهما للأخرى مستندة إلى ذراع إدجار. آه، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقًا، ما دامت تلقى كل هذه الرعاية والعناية. وكان ثمة سببان لأن نرجو ذلك ونتمناه، فإن على حياتها تتوقف حياة أخرى، كما أننا كنا نداعب الأمل في أنه لن تمضي فترة وجيزة حتى تقر عينا مستر لينتون ويبتهج قلبه بمولد وريث له يقى أملاكه من أن تقع في قبضة شخص غريب..

ولا بد لي من القول بأن إيزابيلا أرسلت إلى أخيها، بعد نحو ستة أسابيع من رحيلها، خطابًا موجزًا تُعلنه فيه بزواجها من هيثكليف.. وكان خطابًا جافًا باردًا، ولكنها ذيلته، وبالقلم الرصاص، باعتذار غامض، ورجاء رقيق بأن يذكرها، وأن يصفح عنها، إذ كان تصرفها قد أغضبه، مؤكدة أنها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ، وأنها الآن بعد أن تمّ كل شيء، لا تملك القوة على نقض ما أبرمته. وأعتقد أن لينتون لم يرد على هذا الخطاب، فلم يكد يمر عليه أسبوعان حتى تلقيت خطابًا طويلًا رأيت من العجيب صدوره من قلم عروس فرغت لتوها من شهر العسل.. وسوف أتلو عليك هذا الخطاب، لأنني ما زلت محتفظة به، إذ أن آثار الموتى عزيزة غالية، إذا كانوا في حياتهم أعزاء محبوبين:

«عزيزتى إيلين..

«وصلت في الليلة الماضية إلى (مرتفعات ويذرنج)، فسمعت - للمرة الأولى - أن كاثرين كانت، وما زالت، تعاني مرضًا خطيرًا. وأحسب أنه ما ينبغي لي أن أكتب اليها، كما أن أخى إما أن يكون شديد الغضب مني، أو شديد الأسى علىّ، بحيث لم يرد على خطابي إليه.. ومع ذلك فلا بد لي من أن أكتب إلى شخص ما، وليس أمامي من أكتب إليه سواك.. أخبرى إدجار أنني أهب الدنيا بأسرها في سبيل أن أرى وجهه ثانية، وأن قلبي عاد إلى

(ترشكروس جـرانج) بعد أن غادرتها بأربع وعشرين ساعة، بل أنه هناك الآن، مليئًا بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاثرين!.. ومع ذلك فليس في مقدوري أن ألحق به (وقد وضعت خطًا تحت هذه العبـارة لتؤكدها)، فلا حاجة بهما لأن يتوقعا عودتي، وليستنتجا من ذلك ما يشاءان، ولكن حذار أن يعزوا ذلك إلى خور في إرادتي أو فتور في عاطفتي..

«هذا ما أود أن تقوليـه لأخي، أما باقي الخطـاب فلك وحدك. وأود أن ألقى عليك سؤالين، أولهما هو: كيف احتلت على الاحتفاظ بالعواطف العـادية للطبيعة البشرية عـندما كنت تقيمين هنـا؟.. فإنني لا أتبين أية مشاعر يمكن أن يشاطرني فيها أولئك الذين يحيطون بي!

«أما السؤال الثاني، فانني أهتم به اهتمامًا عظيمًا. وهاك هو: هل مستر هيثكليف إنسـان من البشر؟.. وإن كان إنسانًا فهل هو مجنون؟.. وإذا لم يكن، فهل هو شيطان؟.. إنني لن أخبرك بالأسباب التي تجعلني أوجـه إليك هـذا السؤال، ولكني أتوسل إليك أن تشرحي لي - إذا استطعت - حقيقة ذلك المخلوق الذي تزوجته. أعنى عـندما تحضرين لرؤيتي، ويجب أن تحضرى سريعًا يا إيلين، لا تكتبي لي، ولكن تعالى، وليتك تحضرين لي شيئًا من إدجار..

(واسمعي الآن كيف استقبلت في منزلي الجديد، الذي أدخل في روعي أن (المرتفعات) سـوف تكونه. ولست أذكر هذه الأمور التي من قبيل نقص ووسائل الراحة الخارجية، إلا لتسلية نفسي!.. فإنها لا تشغل أفكاري البتة إلا في اللحظـة التي أشعر فيها بالحاجة إليها. وإننى لخليقة بأن أرقص طربًا وأضحك ملء قلبي لو أننى وجـدت هـذا النقص هو كل ما أعانيه من شقاء، وأن ما عدا ذلك ليس إلا حلمًا شيطانيًا رهيبًا!

(كانت الشمس تغرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البراري، وكانت الساعة وقتئذ، فيما أعتقد، قد بلغت السادسة.. فتوقف رفيقى ما يقرب من نصف الساعة ليفتش البستان، والحدائق، بل والمنزل نفسه، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا في الفناء المرصـوف (للمرتفعات) فلم يلبث أن خرج زميلك السابق الشيخ، جـوزيف، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخـافت. ولقد فعل ذلك في بشاشة ولطف يضـافان إلى سمعته الطيبة المعروفة!.. فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله أمام وجهي مباشرة، وراح يحملق فيـه بعينين تضيقان وتفيضان خبثًا ولؤمًا، ثم قلب شفته السفلى، وأشاح بوجهه عني. وبعد ذلك قاد الجوادين إلى الحظيرة، وعاد ليوصد البوابة الخارجية بالسلاسل والأقفال، كأننا نعيش في إحدى القلاع القديمة!

(وبقي هيثكليف ليتحـدَّث إليه، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ، ووجـدته قذرًا مشـوشًا لا نظام فيه ولا ترتيب. وأحسب أنك لو رأيته الآن لما عرفته، فقد تغير كثيرًا عما كان عليه عندما كان معهودًا به إليك. وكان يقف إلى جوار الموقد غلام زري الهيئة، قوى البنية، قذر الثياب، يشبه كاثرين في عينيها وفمها، فقلت في نفسي: أنه ابن أخ زوجة إدجار، ومن ثم فهو ابن أخيه حكمًا، وبالتالي فإنه يُعد ابن أخي على نحو أو آخر، وينبغي لي أن أصافحه، بل ينبغي لي - نعم - أن أقبله!.. فمن الصواب أن أُنشىء معه تفاهمًا طيبًا منذ البداية..

(اقتربت منه وحاولت أن أتناول يده المكتنزة قائلة:

- كيف حالك يا عزيزى؟

(فأجاب في تمتمة لم أفهم منها شيئًا، وعندئذ كانت محاولتي الثانية للحديث معه:

- هل سنكون أصدقاء يا هيرتون؟

(فكان جزائي على هذا الإصرار في الحديث معه، أن أطلق من فمه سبابًا قبيحًا، وتوعدني بأن يطلق (تروتلر) في أثرى إذا لم (أُره عرض أكتافي).. بل لقد أيقظ كلبًا ضخمًا ضـاريًا من

وكره في أحـد الأركان، وراح يهمس إليه قائلًا: (هيـا يا ثروتلر.. عليها يا ولدا).. ثم تحول نحـوى يسألني في غطرسة. (والآن، هل تذهبين لحال سبيلك؟)

فدفعني حب الحياة إلى الامتثال لأمره، وخطوت فوق العتبة إلى الخارج لأنتظر عودة الآخرين فأدخل معهم. ولكن مستر هيثكليف لم يظهر في أي مكان، أما جوزيف، الذي ذهبت إليه في الحظيرة ورجوته أن يصحبني إلى الداخل، فقد راح يحملق في وجهي ويغمغم بكلام لا أسمعه، ثم شمخ بأنفه وقال: (مهـلًا، مهلًا. هل سمع إنسان تقي قط بشيء كهذا؟.. ما هذا الكلام الذي تمضغينه وتتشدقين به؟.. وكيف يمكنني أن أفهم ما تقولين؟).. فظننته مصابًا بالصمم، وإن كانت خشونته وفظاظته قد أثارت اشمئزازي البـالغ، وصحت قائلة: (لقد كنت أرجوك أن تحضر معي إلى داخل المنزل..)

- لا تطلبي مني شيئًا كهذا.. فلديّ عمل آخر أقوم به!

(وعاد يستأنف عمله، وهو يحرك في الوقت نفسه صفحتى مصباحه، متأملًا في ازدراء شديد ثوبي ووجهي. (أما الأول فكان بالغ الأناقة والجمال، وأما الثاني فإني واثقة من أنه كان يحمل من الحزن ما كان يودّه ويشتهيه!).. فسرت في الفناء حول المنزل، وولجت كوة صغيرة، وجدت نفسي بعدها أمام باب مغلق أبحث لنفسى أن أطرقه راجية أن أجد أمامي خادمًا آخر أكثر أدبًا. وما لبث الباب أن فتح بعد فترة وجيزة، ووقف فيه رجل طـويل القامة شديد النحـول، بغير رباط للعنق، فضلًا عن رثاثة الثياب التي يرتديها، وكانت أساريره مختفية تحت كتل من الشعر المشعث الذي يملأ وجهه ويتدلى حتى يصل إلى كتفيه. وكانت عيناه - هو الآخر - تشبه عينى كاثرين، على نحو مخيف، وإن تجردتا من جمال عينيها.. فابتدرني في عبوس وصرامة:

- ما شأنك هنا؟.. ومن أنت؟

- لقد رأيتني من قبل يا سيدي، وكان اسمي وقتئـذ إيزابيلا لينتون. غير أنني تزوجت من مستر هيثكليف أخيرًا، فأحضرني إلى هنا، بإذنك طبعًا!

(فسألني، وعيناه تقدحان شررًا كذئب جائع: (هل عاد إذن؟)

- نعم.. لقد عدنا للتو، ولكنه تركني بجوار باب المطبخ، وعندما أردت الدخول، كان ابنـك الصغير يقف حارسًـا للمكان، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولدوج أن يخيفني حتى وليت هاربة..

(فزمجر مضيفي الجديد، قائلًا: (لقد أحسن الوغـد الجهنمي صنعًا بالمحافظة على كلمته!).. ثم راح يحملق في الظلام خلفي، مؤملًا أن يتبين هيثكليف، وما لبث أن انطلق يغمغم طويلًا بأقذع ألفاظ السباب، والوعيد بما كان سيفعله لو أن (الشيطان (خدعه، وأخلف وعده، فلم يعد!

(وندمت على محاولتي الدخول من هذا المدخل الثاني، وكنت أكاد أميل إلى الفرار قبل أن يفرغ من سبابه، ولكن قبل أن أستطيع تنفيذ تلك النية، أمرني بالدخول، ثم أوصـد البـاب خلفى بعد أن أغلقه. وكانت بالحجرة نار عظيمـة مشبوبة، وكان ذلك كل ما يضيء تلك الحجرة الفسيحة، التي اكتسى بلاطها الأبيض لونًا رماديًا موحدًا!.. أما الأطباق اللامعة البراقة التي كانت تجتذب أنظاري عندما كنت أحضر للزيارة وأنا بعد فتاة صغيرة، فقد انقلب بريقها إلى قتـامة كئيبة بسبب ما علاها من قذارة وتراب، شأنها في ذلك شأن البلاط!

(وسألت هندلى إيرنشو عما إذا كان يجدر بي أن أدعـو الوصيفة لترشدني إلى إحدى

حجـرات النـوم، ولكنه لم يتعطف علىَّ بجواب!.. كان يذرع الحجرة ذهابًا وجيئـة، واضعًا يديه في جيوبه، وقد بدا عليه أنه نسى وجودى تمامًا، كان من الجلى أن شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستغراق، كما كان مظهره ينم على عداء للبشر جميعًا، ما جعلني أحجم عن محاولة إزعاجه مرة أخرى.

(ولا أخالك تدهشين يا إيلين مما اعتراني من شعور بالكآبة والأسى، وأنا جالسة فيما هو أسوأ من الوحدة، في تلك الحجرة غير المضيافة، أفكر في أنه على بعد أربعة أميال فحسب يقع منزلي المحبوب البهيج، الذي يضم كل من أحبهم على وجه الأرض، وأن المحيط الأطلسي قد يكون هو الذي يفرق بيننا، بدلًا من هذه الأميال الأربعة، التي يستحيل علىَّ اجتيازها. ورحت أسائل نفسي أين أذهب لأنال قسطًا من الراحة؟.. وكان حزني، الذي غلب كل حـزن بجـانبه -وأرجو ألا تخبرى بذلك إدجار أو كاثرين - ينشأ من يأسى من العثور على شخص واحد يستطيع، أو يود، أن يكون حليفى ضد هيثكليف!.. لقد كنت أنشد الملجأ والمأوى في (مرتفعات ويذرنج)، في شيء من السرور والارتياح، لأن ذلك الترتيب كان خليقًا بأن يؤمنني من العيش معه على انفراد.

ولكنه - وا أسفاه! - كان يعرف الناس الذين سوف نعيش بينهم حق المعرفة، فكان لا يخشى فضولهم وتدخلهم..

(وقضيت وقتًا طويلًا أليمًا جالسة أفكر.. ودقت الساعة الثامنـة، ثم التاسعة، ومع ذلك كان رفيقي لا يزال يروح ويغدو من أقصى الحجرة إلى أقصاها، وقـد أحنى رأسه فوق صدره، واستغرق في صمت موحش، لا تقطعه إلا همهمة خافتة، أو تنهد مرير يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر. وكنت أرهف سمعى عسى أن أتبين صـوت امرأة في الدار، وأملأ هـذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية، والتكهنـات المروعـة عما ينتظرني من مستقبل مشئوم، وما لبثت أن عجزت عن كتمانها، فانطلقت من بين شفتي في أنين ونواح لم أستطع قمعهما.. ولم أشعر بارتفاع صوتي إلا عندما تمهل إيرنشو في مشيته الرصينة أمامي، وراح يحملق في وجهي في دهشة من يراني لأول مرة، فانتهزت فرصة استعادته شعوره وانتباهه، وصحت:

- إننى متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب إلى الفراش.. فأين الوصيفة، أو أية خادم أخرى؟.. أرشدني إليهـا يا سيدى ما دامت لا تريد أن تحضر إلى!

(فأجابني: (لا توجد هنا وصيفات أو خادمات.. وعليك أن تعنى بنفسك!).. وعندئذ رحت أنتحب في أسى، وقد أخرجني التعب والبؤس عن وقاري، وقلت: (ولكن أين ينبغى أن أنام إذن؟)

- سوف يريك جوزيف حجرة هيثكليف.. افتحي هذا الباب، فتجديه هناك.

(فلما هممت بأن أطيعه، أمسك بي فجأة، واستطرد يقول في أغرب صوت سمعته: (كوني فتاة طيبة، وأوصدى باب الحجرة بالمفتاح ثم ضعي المزاليج وراءه. إياك أن تغفلي ذلك!)

(ولم أستسغ فكرة حبس نفسي مع هيثكليف في حجـرة واحـدة بمحض رغبتي، فقلت: (حسنًا.. ولكن لمـاذا يا مستر إيرنشو؟).. فأخرج من جيب صدريته مسدسًا عجيب التكوين، إذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين مرهفين، يحركها لولب خفي، ثم قال:

- انظري.. إن هذه شديدة الإغراء لرجـل يائس!.. أليس كذلك؟.. إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الصعود إلى الطابق العلوي كل ليلة، وهذه في يدي، فأحاول فتح باب حجرته.. فلو وجدت الباب مفتوحًا مرة، فقد انتهى أمره!.. إنني أفعل ذلك دوامًا، حتى ولو كنت في اللحظة السابقة مباشرة أفكر في مئات الأسباب الكفيلة بأن أحجم عن هـذه المحـاولة!..

وما من ريب في أن شيطانًا خبيثًا لا يفتأ يستحثنى على إحباط خططى ومشاريعي، بتحريضي على قتله!.. وأنك لتناضلين هذا الشيطان عبثًا مهما طال بك المدى، فعندما يحين الوقت، فان كل ملائكة السماء لن تستطيع إنقاذه!

(ورحت أرمق السلاح في فضول وإمعان، وقد طرأت على ذهني فكرة بشعة فظيعة: فكم أكون قوية حصينة لو استطعت أن أحرز مثل هذه الأداة!.. وأخذتها من يده، ورحت أمر بأصابعي على النصل المرهف، فبدت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذي ارتسم على وجهي لحظة خاطفة. لم يكن فزعًا، وإنما كان جشعًا وتلهفًا!.. فأسرع باختطاف المسدس من يدي، في حرص الشحيح، وأرجع السكين إلى مكانها، ثم أعاده إلى مخبئه، قائلًا: (إنني لا أبالي أن تخبريه، فدعيه يأخذ حذره، واسهري على حمايته!.. وأرى أنك تعرفين سوء ما بيننا من صلات، فإن الخطر الذي يتهدده لم يفاجئك ولم يرعك!)

(فسألته: (ما الذي فعله هيثكليف معك، وبماذا أساء إليك، حتى تنطوى له على هذا الحقد المروع؟.. ألا يكون أكثر حكمة وتعقلًا أن تأمره بمغادرة الدار!)

(فهدر إيرنشو بصوت كالرعد القاصف: (كلا.. وإذا اقترح أن يفارقني، فسوف يغدو جثة هامدة. ولو أنك أغريته على هذه المحاولة، فسوف تصبحين قاتلة!.. هل قضى على أن أفقد كل شيء، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته؟.. وهل قضى على هيرتون أن يعيش شحاذًا؟ آه، يا للعنة!.. أقسم أنني سوف أستعيد كل شيء، وسوف آخذ ماله وذهبه أيضًا. ثم بعد ذلك دمه!.. أما روحه فستكون من نصيب الجحيم!.. ولسوف يزداد لظاها سعيرًا، عشرة أضعاف، عندما يحل بها هذا الضيف!).

(.. ولقد سبق لك أن أطلعتني، يا إيلين، على طباع سيدك السابق. ومن الجلى أنه على حافة الجنون، أو أنه كان كذلك ليلة الأمس على الأقل. وقد اقشعر بدني من البقاء قريبة منه، ورأيت أن شراسة الخادم الوقح تعد سارة لى نسبيًا. وكان قد عاود سيره المهموم، فمضيت نحو الباب، ورفعت المزلاج، ثم فررت إلى المطبخ.. فرأيت جوزيف منحنيًا فوق الموقد، يمعن النظر في قدر كبيرة كانت تتأرجح فوقه، بينما كان على المقعد بجواره قصعة خشبية ملأى بدقيق الشوفان. وكانت محتويات القدر قد بدأت تغلى، فتحول إلى القصعة وهو يهم بدس يده فيها. وحدست أنه ربما كان يعد لنا العشاء، وإذ كنت شديدة الجوع، فقد عزمت على أن يكون ذلك الطعام مما أستسيغ تناوله.. وهكذا صحت به، وأنا أبعد القصعة عن متناول يده:

- سوف أعد، أنا، هذا الثريد..

(ومضيت أنزع قبعتي وثوب الركوب الذي كنت أرتديه، واستطردت قائلة: (لقد أشار على مستر إيرنشو أن أعنى بنفسي، وسوف أفعل.. فلن أقوم بدور السيدة بينكم، حتى لا أموت جوعًا!)

(فجلس جوزيف على مقعد بعيد، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه، وهو يغمغم قائلًا: (لعل هناك أوامر جديدة بعد ذلك!.. وإذا قُدر لي أن أجد سيدة فوق رأسى، بعد أن اعتدت أخيرًا خدمة سيدين، فعلىَّ الراحة والهدوء والسلام!.. إنني ما فكرت قط في أن أرى يومًا أضطر فيه إلى ترك المنزل القديم، ولكني أخشى أن يكون الوقت قد حان لذلك!)

(.. فلم أعر هذه المناحة أي التفات، ومضيت مندفعة في عملي، وقد تنهدت إذ ذكرت زمنًا كان ما أقوم به الآن خليقًا بأن يبدو أضحوكة لطيفة.. ولكن سرعان ما اضطررت لطرد هذه الذكرى، فان استعادة سعادتي الماضية أمام ناظرى كانت تسبب لي عذابًا وشقاء لا قبل لي

باحتماله. وكنت كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من أعماق الماضي، أسرعت في تقليب الثريد، ومتابعة قذف قبضات الدقيق في القدر. وكان جوزيف يرقب طريقتي في الطهي بسخط متزايد، وما لبث أن صاح قائلًا: (هيرتون، إنك لن تتناول عشاءك من الثريد الليلة يا بني!.. فلن يكون إلا كتلًا كبيرة جافة كقبضة يدى. ما هذا؟.. لو كنت في مكانك لألقيت القصعة كلها بما فيها في القدر!.. ما شاء الله!.. وما هذا الدق بالمغرفة؟.. من حسن الحظ أن قاع القدر لم يسقط في النار!)

(وأعترف أن الثريد عندما سكب في الأطباق كان غليظًا خشنًا. كانت أربعة أطباق هي التي أعدت للعشاء، كما أحضروا إبريقًا كبيرًا مملوءًا باللبن الطازج، أمسك به هيرتون وراح يشرب من فوهته، واللبن يسيل من بين شفتيه الممدودتين.. فاعترضت، ورغبت إليه في أن يأخذ نصيبه في قدحه، مؤكدة أنني لا أستطيع أن أذوق طعامًا أو شرابًا تتبادله الأفواه بهذه القذارة. ولكن المهرج العجوز رأى أن يبدى شعوره بالإهانة البالغة التي لحقت به وبالأسرة من ملاحظتي الدقيقة، فراح يردد القول في تأكيد بأن (الصبي لا يقل طيبة (عنى، و(لا يقل تهذيبًا ونظافة)، ويعجب كيف استطعت أن أظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور!.. وفى الوقت نفسه كان الوغد الصغير مستمرًا في لعق اللبن، وهو يحدجني بنظرات نارية ملؤها التحدي، وقد ترك لعابه يختلط باللبن في الابريق!

(عندئذ قلت: (سوف أتناول عشائي في حجـرة أخرى.. أيوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس؟).. فأجابني ساخرًا متهكمًا: (حجرة الجلوس؟.. حجرة الجلوس؟.. كلا، لا توجد لدينا حجرات للجلوس!.. إذا كانت صحبتنا لا تروقك، فهناك السيد اذهبي إليه. وإذا لم يرقك السيد فها نحن تحت أمرك!)

(فأجبته قائلة: (سوف أصعد إلى الطابق العلوي.. أرنى حجرة أجلس فيها).. وكنت قد وضعت طبقى فوق صحفة، كما ذهبت بنفسي فأحضرت بعض اللبن النظيف، فنهض جوزيف بعد تأفف وتذمر عظيمين، وتقدمني فوق الدرج، حتى بلغنا الحجرات العلوية. وكان بين الحين والآخر يفتح بابًا وينظر بداخل الحجرات التي كنا نجتازها، وأخيرًا رفع لوحًا متداعيًا من الخشب، تصر مفصلاته صريرًا قبيحًا، وقال:

- هاك حجرة تصلح لتناول عشائك فيها!.. وسوف تجدين كيسًا من القمح في الركن، وهو كيس نظيف تمامًا.. ولكن إذا كنت تخشين اتلاف ثوبك الحريري العظيم فانشرى منديلك فوقه وأجلسي عليه!

(وكانت تلك (الحجرة) أشبه بجحر مصنوع من الخشب، تفوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية، وقد كدست حول جدرانه زكائب هذه الغلال تاركة فراغًا فسيحًا في وسطه.. فالتفت إليه، وواجهته غاضبة، وأنا أصيح به: (ما هذا يا رجل؟ ليس هذا بالمكان الذي يصلح للنوم إننى أريد أن أرى حجرة نومي!)

(فعاد يقول في لهجته الساخرة: (حجرة النوم؟.. لقد رأيت كل ما لدينا من حجرات النوم.. إلا حجرتى).. ثم أشار إلى (الوكر (المجاور الذي لم يكن يختلف عن الأول إلا في خلو جدرانه من الزكائب نوعًا ما، وفي احتوائه على فراش عريض منخفض، خال من الستائر، على أحد طرفيه لحاف مصبوغ بالنيلة!

فقلت أجيبه: (وما حاجتي إلى غرفتك؟.. أحسب أن مستر هيثكليف لا يقيم فوق سطح المنزل، أليس كذلك؟).. فصاح كأنما وقع على كشف جديد: (آه!.. أهي حجرة مستر هيثكليف التي تريدين؟.. أما كان بوسعك أن تقولي ذلك من أول وهلة، حتى كنت أخبرك - بدلًا من كل هذا الوقت الضائع - إنها الحجرة التي لن تستطيعي رؤيتها بالذات، لأنه يوصدها دائمًا ولا يسمح لمخلوق بأن يدخلها، غيره!)

(فلم أتمالك نفسي من القول: (إن لكم منزلًا جميلًا يا جوزيف، يضم عشرة لطيفة سارة!.. وما أظن إلا أن الخلاصة المركزة لشر أنواع الجنون في العالم قد اتخذت لها مستقرًا في عقلى يوم أن ربطت مصيري بمصائرهم وقدرى بأقدارهم!.. ولكن مهما يكن من أمر فإن ذلك ليس موضع البحث الآن.. إن هناك حجرات أخرى، فأناشدك الله وأستحلفك بحق السماء أن تسرع فترشدني إلى مكان أقر فيه قليلًا، أينما يكن هذا المكان!).

(ولم يجبني بكلمة على هذا التوسل، بل أخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم في ضيق وتبرم حتى وقف أمام حجرة أدركت من وقفته، ومن أثاثها الممتاز، أنها خير حجرات المنزل. كانت بها سجادة!.. سجادة جيدة، غير أن نقوشها ورسومها كانت مطموسة تحت أكداس الغبار الملبدة. وكانت بها مدفأة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى قطعًا وشرائح غير منتظمة.. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه ستائر فضفاضة قرمزية اللون من قماش ثمين وطراز حديث، وإن كان من الواضح أنها عانت الكثير من سوء الاستعمال، إذ كانت أطرافها العليا غير مشدودة، بل تتدلى في دوائر وقد نزعت من حلقاتها، على حين كان القضيب الحديدي الذي يحملها ينحنى كالقوس على أحد جانبي الفراش وقد تدلت الستائر منه تجرجر أذيالها على الأرض.. حتى المقاعد كانت تالفة، وأكثرها مهشم تمامًا!.. وكانت ثمة فجوات غائرة عميقة تشوه ألواح الخشب الثمين التي تكسو الجدران، وتدل على ارتطام أجسام صلبة حادة بها..

(وكنت أحاول أن أستجمع عزيمتي للدخول إلى هذه الحجرة والاستيلاء عليها، عندما أعلن مرشدى الأحمق أن (ها هنا حجرة السيد)، وكنت وقتئذ قد برد طعامي، وفترت شهيتى ونفد صبرى، فأخذت ألح عليه في أن يدلني على مكان ألجأ إليه وأجد فيه وسائل الراحة.. فبدأ الشيخ المتدين يقول: (وأين بحق الشيطان؟.. ليرحمنا الله!.. ليغفر لنا الله!.. أين تريدين أن تتسكعى بحق الجحيم؟! أنت أيتها العروس المتعبة!.. لقد رأيت كل شيء إلا حجرة هيرتون الصغيرة.. ولا يوجد في المنزل بعد ذلك جحر صغير آخر تأوين إليه!)

(وكان الغضب والضيق قد نالا منى، فطوّحت بالصحفة ومحتوياتها من يدي إلى الأرض، وجلست فوق قمة الدرج، وأخفيت وجهي بين يدي، وانخرطت في البكاء.. بينما كان جوزيف يصيح:

- أخ.. أخ.. مرحى.. مرحى!.. إنك قد أحسنت صنعًا!.. سوف يتعثر السيد الآن في هذه الأوعية المحطمة، وسوف نسمع منه الكثير. سوف نسمع منه ما ينبغي وما لا ينبغي.. أنت أيتها الحمقاء الطائشة!.. إنك تستحقين أن ينحل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لإلقائك نعم الله الثمينة تحت الأقدام في غضبك الأحمق. ولكني لا أكون أعرف شيئًا إن استطعت أنت إظهار هذا الخلق السيىء طويلًا!.. فهل تظنين أن هيثكليف سيسكت على هذه الفعال الطيبة؟!.. ألا ليته يضبطك الآن متلبسة!.. ليته يأتى ليرى ما فعلت!

(وهكذا ظلّ منطلقًا في تأنيبه لي، بينما كان يهبط الدرج إلى وكره في الطابق الأسفل، حاملًا الشمعة معه، وتاركًا إياى في الظلام!..



وهكذا ظلّ منطلقًا في تأنيبه لي، بينما كان يهبط الدرج إلى وكره
الطابق الأسفل، حاملًا الشمعة معه..»

وقد اضطرتني فترة التفكير التي تلت هذه الفعلة الطائشة إلى الاقتناع بأنني يجب أن أطامن من كبريائي وأن أكبح جماح غضبي، وأن أسارع إلى إزالة آثار ما فعلت.. وما كدت أهم بالعمل، حتى بعث لى القـدر بمساعد غير متوقع، في شكل (ثروتلر (الذي عرفت فيه عندئذ ابن كلبنا القديم (سكالكر)، وكان قد قضى فترة (الحضانة!..) في (الجرانج (قبل أن يهديه أبي إلى مستر هندلي. وأغلب الظن أنه عرفني، فقد مسح أنفه بأنفي على سبيل التحية، ثم أسرع إلى التهام الثريد مساعدة لي على تنظيف المكان من آثار تسرعي وطيشى.. بينما كنت أتنقل من درجة إلى أخرى لأجمع قطع الفخار المحطمة، وأمسح بمنديلى رشاش اللبن المتطاير فوق السياج.. وما كدنا نفرغ من مهمتنا، حتى سمعت وقع خطوات إيرنشو في الممر، فأرخى مساعدى ذنبه وحشره بين فخذيه، ثم التصق بالجدار خائفًا، على حين أسرعت أسترق الخطى إلى أقـرب باب إليّ فاختفيت بداخله.. وقد فشلت محاولة الكلب تجنبه، كما أدركت ذلك من الجلبة الناشئة عن عدوه السريع، ومن عوائه الطويل الأليم.. ولكني كنت أسعد حظًا، فقد مر بالحجـرة التي اختفيت فيها مر الكرام، ومضى إلى حجرته ثم أوصد بابها وراءه.. وفي اللحظة التالية كان جوزيف يصعد مع هيرتون ليضعه في فراشه.. وكانت الحجرة التي اتخذتها ملجأ لي هي حجـرة هيرتون، فلما رآني الشيخ الفاني قال:

- ها قد وجدت حجرة لك ولكبريائك في المنزل، كما أرى. إنها خالية، ويمكن أن تتسع لكما معًا، وحاشا لله أن يكون ثالثكما في مثل هذه الصحبة الشريرة!

(وتلقفت هذا الإيعاز بسرور بالغ، وما كدت ألقى بنفسي فوق أحد المقاعد بجوار النار، حتى هومت، ثم استغرقت في النوم.. وكان نومي هادئًا عميقًا، وإن لم أستمتع به طويلًا، فقد أيقظني مستر هيثكليف - وكان قد رجع لتوه من الخارج - ليسألني، بلهجته الرقيقة الحبيبة، عما أفعله في هـذا المكان، فأخبرته بسبب بقائي إلى هـذه الساعة المتأخرة، وهو أنه كان يحتفظ بمفتاح حجرتنا في جيبه! وكان لاستعمالي لضمير الجمع أثر رهيب، كأننى ارتكبت إثمًا مميتًا.. فقد راح يسب ويقسم أن الحجـرة ليست حجرتي، ولن تكون حجرتي يومًا ما، وأنه سوف.. ولكني لن أعيد على مسامعك ألفاظه، ولن أصف لك مسلكه المعتاد معى.. فهو شديد البراعة والدهاء، ولا يقر له قرار في استثارة حقدي وكراهيتى.. وإني لتأخذني الدهشة ويستولى علىّ الذهول كلما فكرت في أمره، فتكون دهشتى من العمق بحيث تطغى على خـوفى منه.. ولكني أؤكد لك أن نمرًا مفترسًا أو أفعوانًا سامًا لا يمكن أن يثير في نفسي ما يثيره هو من الرعب والفزع. وقد أنبأني بمرض كاثرين، واتهم أخي بأنه السبب فيه، وأنذرني بأنني سوف أنوب عن إدجار في مقاساة الألم والعـذاب.. حتى يستطيع أن يضع يده عليه!

(إنني أكرهه، أكرهه.. يا لي من تعسة شقية!.. وكم كنت حمقاء طائشة، ولكن حذار أن تلفظى بكلمة من ذلك لأحد في (الجرانج).. وسوف أتوقع حضورك يومًا بعد يوم.. وكل ما أرجوه ألا تتخلى عنى وتخيبى املى..

(ايزابيلا)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

ما إن فرغت من تلاوة تلك الرسالة، حتى ذهبت إلى السيد فأخبرته بأن أخته قد وصلت إلى (المرتفعات) وأنها أرسلت لى خطابًا تعرب فيه عن أساها لما أصاب مسز لينتون، وعن رغبتها الحارة في رؤيته، ورجائها في أن يرسل إليها معي، في أقرب وقت مستطاع، ما يدل على صفحه عنها!

فقال لينتون: (صفحى عنها؟.. ليس لدى ما أصفح عنها من أجله يا إيلين.. ويمكنك أن تذهبي إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم، إذا شئت، وأن تقولي لها أننى لست غاضبًا منها، إنما أنا آسف من أجلها، حزين لأني فقدتها.. سيما وأنني لا أستطيع أن أعتقد البتة بأنها سوف تكون سعيدة. ومهما يكن من أمر، فإن ذهابى لرؤيتها لا يمكن أن يكون موضع تفكير، فإن فراقنا أبدى.. أما إذا رغبت حقًا في أن تسدى إلىّ جميلًا، فدعيها تقنع الوغد الذي تزوجت منه بأن يترك البلاد!)

فسألته متوسلة: (وهلا بعثت إليها برقعة صغيرة يا سيدى؟)

- كلا، فلا حاجة بنا إلى ذلك.. وإن اتصالي بعائلة هيثكليف أمر لا يمكن تحقيقه، كاتصاله بعائلتي، ولن يكون له وجود قط..

وقد أحزنني برود مستر إدجار كثيرًا ورحت أكد ذهنى، على طول الطريق من (الجرانج)، بحثًا عن الوسيلة التي أخفف بها من وقع كلماته، عندما أرددها على مسامعها!.. وكيف أهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن إيزابيلا. وأحسب أنها كانت تترقب حضورى منذ الصباح، إذ رأيتها تنظر من خلال سجاف النافذة، بينما كنت أجتاز الطريق المؤدية إلى الحديقة، فلما أومأت إليها برأسي محيية، رأيتها تتراجع عن النافذة، كأنما تخشى أن يراها أحد! ودخلت البيت دون أن أطرق الباب، فما رأيت في حياتي منظرًا أبشع ولا أفظع من المنظر الذي يبدو فيه منزلنا القديم المرح!.. ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني لو كنت في مكان السيدة الشابة لقمت، على الأقل، بكنس الأرض حول الموقد، ولمسحت الموائد بقطعة من القماش.. ولكنها كانت قد تشبعت بروح الإهمال التي تسود كل من يحيط بها. وكان محياها الجميل شاحبًا مصفرًا، يبدو عليه الضعف وقلة الاكترات، وشعرها مشعثًا غير مرجل، وقد تدلت بعض غدائره في غير نظام، بينما عقص باقيها حول رأسها في إهمال. أما هندامها فيكفي أنني رجحت أنها لم تلمس ثوبها منذ مساء اليوم السابق!.. ولم يكن هندلي هناك، أما مستر هيثكليف فكان جالسًا إلى منضدة، يقلب بعض الأوراق في مفكرته، ولكنه بادر إلى النهوض عند ظهورى، وسألني عن حالي، في كثير من الود، ثم قدم لي مقعدًا. وكان هيثكليف الشيء الوحيد الذي يبدو في هذا المكان نظيفًا محترمًا، حتى لقد خطر لي أن مظهره لم يكن يومًا خيرًا مما هو الآن!.. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الأحداث من تبديل مركزيهما، أنه كان يبدو في نظر الغريب الذي لا يعرف منشأه، كأنما ولد وربي في وسط النبلاء والأشراف، على حين أن زوجته كانت تبدو كأنها امرأة صغيرة نشأت وسط الأقذار والإهمال وسوء التربية!

وتقدمت إيزابيلا لتحيتي في لهفة وقلق، ومدت إلى إحدى يديها لتتلقى الخطاب المنتظر، فهزّزت رأسي.. ولكنها لم تفهم تلميحي، وتبعتني إلى خزانة ثياب كنت أهمّ بأن أضع فيها قبعتي، وهي تتوسل إلىّ في همس بأن أعطيها للتو ما أحضرته معى.. وقد حدس هيثكليف معنى مناوراتها، فقال:

- إذا كان معك شيء لإيزابيلا، ولا بد أن يكون معك شيء لها يا نللى، فأعطيه لها، ولا حاجة بك إلى اعتباره سرًّا، فلا أسرار بيننا..

ورأيت من الأفضل أن أذكر الحقيقة من فوري، فأجبت: (آه!.. ليس معى شيء البتة. وقد طلب إلىَّ سيدي أن أخبر شقيقته بأنها لا ينبغي أن تتوقع منه زيارة أو خطابًا في الوقت الحاضر.. وهو يبعث إليك، يا سيدتي، بحبه وتمنياته لك بالسعادة، وصفحه عما سببت من أحزان، ولكنه يرى أنه ينبغى بعد الآن قطع كل صلة بين أهل منزله وأهل هذه الدار، تلك الصلة التي لا يرجى من قيامها أمل قط!

فارتجفت شفتا مسز هيثكليف رجفة طفيفة، وعادت إلى مقعدها بجوار النافذة، أما زوجها فقد وقف بجوار الموقد قريبًا مني، وبدأ يلقى علىَّ الأسئلة عن حالة كاثرين، فأخبرته بما وجدت من الأليق أن أقوله عن أسباب مرضها، ولكنه أمطرني بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى انتزع منى الحقائق المتعلقة بمنشأ هذا المرض. وقد وجهت إليها اللوم الذي تستحقه، لأنها هي التي جلبت ذلك كله إلى نفسها، ثم ختمت حديثي بالأمل في أن يحذو حذو مستر لينتون، ويتجنب أي تدخل في شئون عائلته في المستقبل، سواء أكان للخير أم للشر.. قلت له:

- لقد بدأت مسز لينتون الآن تتماثل للشفاء، ولكنها لن تعود إلى حالتها الأولى قط، بعد أن نجت من الموت بمعجزة. وإذا كنت حقًّا تحترمها وترجو لها الخير، فعليك أن تتجنب اعتراض طريقها مرة أخرى. بل إنه ليجدر بك أن ترحل عن البلاد نهائيًّا، وهو أمر لن تأسف عليه قط، فإن كاثرين لينتون الآن تختلف عن صديقتك القديمة كاثرين إيرنشو، اختلافى عن هذه السيدة الشابة!.. لقد تغير مظهرها تغيرًا كبيرًا، وكذلك خلقها وطباعها. والرجل الذي يجد نفسه مضطرًا إلى عشرتها، بحكم الضرورة، لا يقيم أود عاطفته، من الآن فصاعدًا، إلا على ذكرى ما كانت عليه يومًا من الأيام، وبدافع من الإنسانية والشعور بالواجب!

فاصطنع هيثكليف الهدوء، وعقب على كلامي قائلًا:

- من الجائز أن يكون الأمر كذلك. من الجائز حقًّا ألا يجد سيدك شيئًا يتعلل به سوى إنسانيته وشعوره بالواجب، ولكن هل تتصورين أننى أدع كاثرين لإنسانيته وواجبه؟.. إنك قبل أن تغادرى هذا المنزل يجب أن تعديني بتهيئة لقاء بيني وبينها. واعلمي أنه سواء رضيت أنت أم أبيت، فإنني سوف أراها حتمًا.. فماذا تقولين؟

- أقول يا مستر هيثكليف إنه لا ينبغي لك أن تطلب إلىَّ ذلك، ولن تنال شيئًا منه عن طريقي قط، فان لقاء آخر بينك وبين السيد سوق يقتلها حتمًا!

فاستطرد يقول دون أن يبالي باعتراضى:

- ربما أمكن تجنب ذلك بمساعدتك. أما إذا نشأ أي خطر من وراء مثل هذا اللقاء، أي إذا كان سيدك سببًا في تعكير صفوها مرة أخرى، فأحسبنى أكون على حق لو مضيت معه إلى أبعد الحدود. وإننى، يا نللى، أرجو أن تكونى صادقة معى فتخبريني هل تتألم كاثرين كثيرًا إذا فقدته؟.. فإن الخوف من إيلامها هو الذي يغل يدي عن المساس به.. وهكذا ترين الفرق بين شعورى وشعوره: فلو كان في مكاني، وكنت في مكانه - برغم أنني أمقته مقتًا أحال حياتي إلى مرارة متصلة! - لما رفعت عليه يدًا. ربما كنت لا تصدقين ما أقول، كما هو ظاهر في محياك، ولكن ثقى أنني ما كنت لأحرمه من صحبتها طالما كانت راغبة فيها!.. أما في اللحظة التي تكف فيها عن التعلق به، فإني أمزق قلبه تمزيقًا، وأنهل من دمه حتى أرتوى!.. ولكن إلى أن يحدث ذلك - (وإذا لم تصدقيني فإنك لا تعرفينني حقًّا) - إلى أن يحدث ذلك فإني أفضل أن أموت موتًا بطيئًا قبل أن أمس شعرة واحدة من رأسه!

فقاطعته قائلة: (ومع ذلك فإنك لا تتورع عن تحطيم كل أمل في شفائها التام، بإقحام نفسك على ذاكرتها الآن، بعد أن أوشكت على أن تنساك، وإقحامها هي في دوامة جديدة

من المتاعب والمنازعات!)

- وهل تزعمين أنها أوشكت على نسياني؟.. أواه يا نللى!.. إنك تعلمين أن ذلك غير صحيح، وأنها لم تنسنى قط وأنت تعلمين - كما أعلم - أنها إذا فكرت في لينتون مرة، تفكر فيَّ ألف مرة!.. ولقد ظننت شيئًا من هـذا القبيل في فترة من أشقى أيام حياتي، وكان هـذا الظن لا يفتأ يراودني عندما عدت إلى هذه الأنحاء في الصيف الماضي. ولكن ما من شيء يجعلني أتقبل هذه الفكرة الفظيعة مرة أخرى، إلا أن أسمعها تؤكدها لي بنفسها. وعندئذ لن يكون لينتون شيئًا في ناظرى، ولا هندلي، ولا أي حلم من تلك الأحلام التي طالما اشتهيتها.. عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين: الموت، والجحيم.. فسوف يصبح وجودي كله جحيمًا إذا فقدتها!.. ومع ذلك فقد كنت غرًّا أبله عندما تصوَّرت لحظة أنها تقدِّر تعلق إدجار بها أكثر مما تقدر تعلقى أنا بها.. وإذا كان يحبها بكل ما في كيانه الضئيل من قـوة، فلن يحبها في مدى ثمانين عامًا كحبي لها يومًا واحدًا! وأن لكاثرين قلبًا عميقًا كقلبي، والأيسر أن تجمعي مياه البحر في معلف الجواد هذا، من أن يستأثر إدجار بعاطفتها كلها!.. هراء!.. إنه لا يكاد يسمو درجة في الاعزاز لديها عن كلبها أو جوادها!.. إنه لا ينطوى على شيء يجعله محبوبًا، مثلى، فكيف تستطيع أن تحب فيه شيئًا ليس من خصائصه؟

فصاحت إيزابيلا في اندفاع مفاجيء:

- إن كاثرين وإدجار يتبادلان الحب كأى اثنين من الناس. وليس من حق أحد أن يتحدث عنهما على هذا النحو. كمـا أنني لا أستطيع السكوت على سماع أخي يُبخس قدره إلى هذا الحد!

فأجابها هيثكليف في ازدراء:

- إن أخاك مولع بك أشد الولع أيضًا، أليس كذلك؟.. ذلك فإنه يتنكر لك ويتركك تهيمين على وجهك في الدنيا تحت رحمة الأقدار، في سهولة عجيبة!

- إنه لا يدري شيئًا عما أقاسيه من آلام، لأنني لم أخبره بذلك..

- إذن فقد أخبرته بشئ آخر.. لقد كتبت إليه، أليس كذلك؟

- لقد كتبت إليه لأخبره بزواجى، وقد رأيت خطابى بنفسك..

- ولم تكتبى شيئًا آخر منذ ذلك الحين؟

- كلا..

فتدخلت قائلة: (إن سيدتى الشابة تبدو حزينة وفى حالة سيئة بسبب تغير حالتها. والظاهر أن حب (بعض الناس (قد تضاءل كثيرًا بالنسبة إليها. وربما كان في وسعى أن أحدس من هم هؤلاء الناس، ولكني لن أسميهم! (

فقال هيثكليف: (أحسب أن الذي تضاءل هو حبها هي، فقد فسد خلقها حتى غدت مجرد امرأة مهملة مشاكسة. بل لقد تعبت سريعًا من محاولة إدخال السرور عليَّ، على نحو غير مألوف. وقد يصعب عليك تصديق ما أقول، ولكنها في صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكي وتريد العودة إلى منزلها!.. ولكني سوف أريها كيف توطن نفسها على العيش في هذا المنزل، والرضى بما قسم لها فيه، وسوف أعمـل بوسائلي الخاصة على منعها من إلحاق العار بي بتجوالها خارجه!).

فأجبته قائلة: (حسنًا يا سيدى. أرجو أن تدخـل في اعتبارك أن مسز هيثكليف اعتـادت أن

تجد من يعنى بها ويقوم بخدمتها، وأنها نشأت ورُبيت كابنة وحيدة مدللة يسارع الجميع إلى خدمتها. لذلك ينبغي أن تُحضر لها وصيفة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه. كما ينبغي أن تحسن معاملتها وأن تكون بها رفيقًا، فمهما كان رأيك في مستر إدجار، فإنك لا تستطيع أن تشك في قدرتها على العواطف القوية، وإلا لما تركت الراحة والرفاهية والأصدقاء في منزلها القديم وأتت راضية لتعيش معك في برية موحشة كهذا المنزل!).

- لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التي صورتني في عينيها كبطل من أبطال القصص والروايات الغرامية، متوقعة أن تجد من إخلاصي ووفائي وشهامتي ما يُشبع رغباتها إلى درجة غير محدودة. وإن إصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقي، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الأحاسيس التي كانت تنميها وتغذيها في نفسها، ليجعلني أنظر إليها كمخلوق ليست به ذرة من العقل. ولكني أحسبها قد بدأت تعرفني على حقيقتي أخيرًا!.. فلم أعد أرى منها تلك البسمات البلهاء، ولا تلك الحركات السخيفة التي تشكل بها وجهها، والتي كانت تثيرني بها في بادىء الأمر. كما لم أعد ألمح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما إذا كنت جادًّا أم هازلًا عندما كنت أبدى لها رأيي فيها وفي افتتانها بى!.. ولقد كان جهدًا باهرًا من الفطنة وبُعد النظر أن تكتشف أنني ما أحببتها قط!.. فقد كنت أعتقد، يومًا من الأيام، أن أية دروس تتلقاها على يدي لا يمكن أن تكفي لكي تعى ذلك وتفهمه. ومع ذلك فيبدو أنها قد وعته إلى حد ما، إذ أعلنت لي هذا الصباح - كما لو كانت قد وقفت على اكتشاف مروع - أنني قد نجحت فعلًا في إثارة كراهيتها لي!.. وهذا لعمري عمل جبار يحتاج إلى قوة خارقة كقوة هرقل!.. ولو أمكن اتمامه لأستحق منى الشكر والحمد!.. فهل بوسعي أن أثق فى تأكيدك هذا يا إيزابيلا؟ أأنت واثقة حقًّا من أنك تكرهينني؟ وهل لو تركتك وحدك يومًا أو بعض يوم، لا تعودين إلىَّ ضارعة باكية؟.. وأحسب أنها كانت تود لو تظاهرت بالحنان والرقة أمامك يا نللى، فإن كشف الحقيقة عارية مجردة لمما يجرح كبرياءها وغرورها، ولكنى لا أبالي لو عرف الناس جميعًا أن الحب كان من جانبها وحدها، وأننى ما كذبت عليها أو تظاهرت بحبها قط. وليس في وسعها أن تتهمني بأنني أظهرت لها رفقًا ولينًا كاذبين خداعين، فإن أول شيء رأته منى عندما غادرت (الجرانج) هو أنني شنقت كلبها الصغير، ولما توسلت إلى أن أُبقى عليه، كانت أولى كلماتي التي نطقت بها أنني أعربت عن رغبتي في شنق كل من يمت إليها بصلة، إلا شخصًا واحدًا!.. ولعلها اعتبرت هذا الاستثناء منصبًا عليها هي!.. ولكن قسوتي ووحشيتي لم تثر الاشمئزاز في نفسها، وأحسب أن في أعماقها إعجابًا فطريًا بها طالما ظل شخصها الغالي بمنأى عن الأذى!.. والآن، ألا ترين أن هذه الكلبة الذليلة الحمقاء قد بلغت أعلى ذرى السخف، وأروع آيات الغباء عندما راودها ذلك الحلم الأخرق بأنني يمكن أن أحبها؟.. أخبرى سيدك، يا نللى، بأنني لم ألق قط في حياتي بأسرها، شيئًا حقيرًا خسيسًا مثلها.. بل إنها لتشين اسم لينتون. لقد كنت أخفف من قسوتي أحيانًا - لأن التفنن كان يعوزني في استنباط وسائل تعذيبها - فكنت أتراخي في اختبار أقصى ما يبلغه احتمالها، ومع ذلك كانت تزحف على ركبتيها في خضوع وتذلل. ولكن أخبريه أيضًا أن يريح قلبه الأخوى وسلطته القضائية، فإنني ألتزم حدود القانون بدقة بالغة، متجنبًا حتى هذه اللحظة كل ما يعطيها الحق في طلب التفرقة بيننا. والأكثر من ذلك أنها لن تشكر أحدًا على إبعادها عنى، ولكنها إذا رغبت في الذهاب، فعلى رسلها!.. فإن المضايقات التي يثيرها محضرها النكد، تطغى على المتعة المشتقة من تعذيبها..

فقلت له: (هذا يا مستر هيثكليف كلام رجل مجنون، وأغلب الظن أن زوجتك قد اقتنعت بجنونك، ولهذا السبب احتملت عشرتك حتى الآن! أما وقد قلت الآن إن لها الخيار في الذهاب، فلا شك في أنها سوف تفيد من هذا التصريح.. وأحسب يا سيدتي أنك لست مفتونة مسلوبة اللب بحيث تبقين معه بملء اختيارك، أليس كذلك؟ (

فانبعثت إيزابيلا تقول، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد والغيظ، حتى لم يعد لدى أي شك، عند رؤيتهما وفهم التعبير الذي ارتسم فيهما، في النجاح التام الذي كللت به محاولات زوجها ليجعلها تمقته:

- حذار يا إيلين! لا تصدقى كلمة واحدة مما يقول.. إنه شيطان كذوب، بل وحش تجرَّد من صفات البشر!.. لقد أخبرني مرة قبل الآن أن بوسعي أن أتركه، فأقدمت على المحاولة، ولكني لا أجرؤ الآن على إعادتها مرة أخرى!.. فقط عديني يا إيلين ألا تذكري كلمة من حديثه الشائن لأخي أو لكاترين.. فمهما ادعى أمامك، فإنه إنما يسعى لإثارة اليأس والقنوط في نفس إدجار، ويقول إنه تزوج منى حتى تكون له السيطرة عليه.. ولكنه لن ينال هذه السيطرة، فسوف أموت قبل أن يحقق أمنيته هذه!.. وشد ما أرجو، وأدعو الله، أن ينسى حذره الشيطاني مرة، فيقتلني.. فإن المتعة الوحيدة التي أتصورها، هي أن أموت، أو أراه ميتًا!

فقال هيثكليف: (صه!.. كفى عن هذا الهراء الآن. وعليك يا نللي أن تذكري كلماتها هذه إذا ما دعيت للشهادة في المحكمة.. ثم تأملى هذه السحنة المقلوبة! لقد قاربت الدرجة التي تعجبني وتوافقنى!.. كلا يا إيزابيلا، إنك لا تصلحين الآن لحماية نفسك، ولا تؤمنين عليها. ولما كنت حاميك الشرعي، فلابد لي من حجزك تحت حراستي، مهما كان هذا الالتزام بغيضًا منفرًا. والآن، اصعدى إلى الطابق العلوي، فإن لدى شيئًا أريد أن أقوله لإيلين دين سرًا. كلا، ليس هذا هو الطريق، إنما قلت لك اصعدى!.. لماذا؟ تعالى أريك طريق الصعود يا طفلتي العزيزة!).

ثم أمسك بها، وراح يجرها حتى طوَّح بها خارج الحجرة، وعاد ليغمغم قائلًا: (إننى خلو من الشفقة، مجرَّد من الرحمة!.. وكلما ازدادت الديدان تلويًا وتوجعًا، ازداد حنيني إلى سحقها وإخراج أحشائها!.. أرأيت الطفل عندما تنبت أسنانه، وكيف يتلهف على العض والمضغ؟.. إن بى لهفة معنوية مماثلة!.. ولكن طحنى وتحريك أسناني يزدادان قوة وحمية، بنسبة ازدياد الألم بالفريسة!).

فقلت وقد أخذت قبعتى من المشجب: (وهل تفهم لكلمة الشفقة معنى؟.. بل هل شعرت قط في حياتك بلمسة منها في قلبك؟)

فقاطعني قائلًا، وهو يرى عزمي على الرحيل: (ضعى هذه جانبًا، فلم يحن وقت انصرافك بعد. والآن اسمعى يا إيلين: إننى لا بد لي من أن أقنعك، أو أرغمك، على مساعدتي في تحقيق ما عقدت عليه العزم من مقابلة كاترين، بغير إمهال أو توان. وأقسم لك إننى لا أضمر شرًا أو ضرًا، وليس بي من رغبة في إثارة المشاكل، أو إغضاب مستر لينتون أو إهانته.. فكل ما أريده هو أن أسمع من فم كاترين كيف تجد نفسها الآن، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد، وأن أسألها إن كان بوسعي أن أؤدي لها خدمة أو أكون ذا نفع لها على أية صورة. لقد قضيت في حديقة (الجرانج) ليلة الأمس ست ساعات متوالية، وسوف أعود إليها الليلة أيضًا. بل أنني لن أكف عن ارتياد المكان كل ليلة، وكل يوم، حتى أجد فرصة لدخوله. ولو التقى بي إدجار لينتون، فلن أتردد في أن أصرعه، وأكيل له من الضربات ما يكفي لبقائه بلا حراك مدة بقائي معها!.. أما إذا تعرض لي خدمه، فسوف أرغمهم على مغادرة المنزل مهددًا إياهم بهذا المسدس. ولكن ألا ترين من الأفضل أن نمنع أسباب احتكاكي بهم أو بسيدهم؟.. إن في وسعك أن تفعلي ذلك في يسر. سوف أنذرك بحضورى، وعندئذ يمكن لك أن تهيئي لى سبيل الدخول، دون أن يحس بي أحد، بمجرد أن تجديها بمفردها، ثم ترقبين المكان حتى أبرحه. وثقى أن ضميرك سيرتاح إلى ذلك تمامًا، لأنك في الواقع إنما تحولين دون وقوع أضرار كثيرة!).

فاعترضت على أدائي دور الخائنة في منزل مخدومى، فضلًا عن أنني بذلك إنما استحث

قسوته وأنانيته على تدمير هدوء مسز لينتون وراحتها، مرضاة له وإشباعًا لرغباته.. ثم أردفت قائلة:

- إن أي حادث عادى يحدث لديها اضطرابًا أليمًا، فقد أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر، ولا يمكنها أن تحتمل المفاجأة. إننى واثقة من ذلك، فلا تزدد إلحاحًا وإصرارًا يا سيدي، وإلا اضطررت لإخبار سيدي بتدبيراتك، وسوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكنيه من مثـل هـذا التطفل غير المرغوب فيه!

فصاح هيثكليف: (في هذه الحالة سوف أتخذ أنا الإجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امرأة!.. فلن تغادرى (مرتفعات ويذرنج) حتى صباح الغد. وإنها لخرافة سخيفة أن تزعمى أن كاثرين لا يمكن أن تحتمل رؤيتي. أما مفاجأتي لها، فهذا أمر لا أوده، وعليك أن تعديها للقائي، وتسأليها الإذن لي بالدخول.. ثم إنك تقولين إنها لا تذكر اسمي قط، وأن أحدًا لا يذكره أمامها.. فلمن تريدين أن تذكر اسمي ما دام الحديث عنى يعد محرمًا في منزلها؟.. إنها تظنكم جميعًا جواسيس زوجها عليها. أجل، لست أشك أنكم حولها كزبانية الجحيم!.. وأني أحس في صمتها، كأي شيء آخـر من أحوالها الآن، مبلغ ما تعانيه هناك وتشعر به. وأنت تقولين إنها غالبًا ما تبدو قلقة لا تستقر على حال من اللهفة والتوجس، فهل يُعد ذلك دليلًا على الهدوء الذي لا تريدين منى أن أعكر صفوه؟.. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب، فكيف يمكن أن تكون غير ذلك، بحق الشيطان، وهي تقاسي هذه العزلة المروعة؟.. ثم ذلك المخلوق التافه الحقير الذي يرعاها بدافع من الواجب والإنسانية والإحسان!.. إن بوسعه أن يغرس شجرة بلوط في أصيص زرع صغير، ويتوقع منها أن تنمو وتترعرع، إذا تصور أنه يستطيع أن يرد إليها قواها وصحتها في تربة رعايته التافهة الضحلة. والآن، دعينا ننتهي من الأمر حالًا، فهل تفضلين البقاء هنا، وتتركينني أشق طريقي إلى كاثرين فوق جثث لينتون وخدمه؟.. أم تكونين صديقتي، كما كنت دائمًا حتى الآن، فتفعلين ما رجوتك أن تؤديه لي؟.. ولكن عليك أن تختارى أحد الطريقين على الفور، لأنني لا أرى سببًا يدفعني إلى التردد والتباطؤ دقيقـة أخـرى إذا كنت تصرين على التشبث بعنادك وسوء خلقك!).

حسنًا.. لقد ظللت أجادله وأتوسل إليه طويلًا، يا مستر لوكوود، ورفضت رفضًا قاطعًا كل ما طلبه مني أكثر من خمسين مرة!.. ولكنه أرغمني أخيرًا، بعد جدال طويل، على اتفاق بيننا، فتعهدت له بأن أحمل خطابًا منه إلى سيدتي، ووعدته - في حالة موافقتها - بأن أبلغه بغياب سيدي عن المنزل، في أول مرة يغيب عنه فيها، والموعد الذي يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيفما شاء.. ولكني لن أكون هناك، كما أن زملائي الخدم سيخلون الطريق بالمثل. فهل كان ما فعلته خطأً أم صوابًا؟.. أغلب الظن أنه كان تصرفًا خاطئًا، وإن كان من ناحية أخرى نافعًا مثمرًا، فقد ظننت أنني بامتثالي لرغباته إنما أحول دون انفجار الموقف من جديد. كما ظننت أن ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب في مرض كاثرين العقلى. ولكني عدت فتذكرت انتهـار مستر إدجار الصارم لي وتحذيره إياي من نقل القصص والأحاديث.

ورحت أحاول التهوين من شأن المخاوف التي تنازعتنى من جراء هذا الأمر، بأن أخذت أؤكد لنفسي، مرة بعد مرة، أن هذه الخيانة لثقة سيدي - إذا كان مسلكى يستحق هذه التسمية القاسية – ينبغي حتمًا أن تكون الأخيرة. وكانت رحلة العودة إلى الدار أشد كآبة وحزنًا من رحلة الذهاب، وانتابتنى الهواجس من كل ناحيـة قبل ان أقنع نفسي، أو أرغمها، على وضع الرسالة بين يدي مـسز لينتون.

(ولكن ها هو ذا كينيث قد حضر، وسأنزل إليه لأخبـره بتقدمك الحثيث في طريق الشفاء. أما قصتي (المملة)، فلنرجئها الآن، وسوف تصلح لقطع الوقت في صباح يوم آخر (

وبينما كانت المرأة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب، كنت أقول لنفسي: أجل، إنها قصة مملة،

وكئيبـة موحشـة في الوقت نفسه، وليست من النوع الذي كنت خليقًا باختياره لتسليتي. ولكن لا بأس، فلسوف أستخرج أطيب العقاقير من أعشاب (مسز دين (المـريرة!.. ولكن عليَّ - قبل كل شيء - أن أحـذر ذلك السحر الذي يكمن في عيني كاثرين هيثكليف البراقتين.. فسـوف أجد نفسي في ورطة عجيبـة لو سلمت قلبي لهذه الشابة الحسناء، ثم تبين أن الابنة ليست إلا صورة طبق الأصل من أمها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

مضى أسبوع آخر.. وازدادت بي الأيام اقترابًا من الصحة الكاملة، والربيع البسام. وقد فرغت من سماع قصة جاري كاملة، في جلسات مختلفة كانت مدبرة المنزل تختلسها بين مشاغلها العديدة الأخرى. وسوف أمضى في سردها، مستخدمًا كلماتها ذاتها، مع قليل من التركيز، فإنها في الواقع قصَّاصة بارعة، ولا أحسبني قادرًا على تحسين أسلوبها.. قالت:

(في ذلك المساء، مساء زيارتي (للمرتفعات)، كنت أحس بوجود مستر هيثكليف قريبًا من المنزل، كما لو كنت أراه بعيني، فتجنبت الخروج من الدار، لأنني كنت ما أزال أحمل خطابه في جيبي، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التأنيب. كنت قد قررت ألا أسلم الخطاب حتى يغادر السيد المنزل إلى أي مكان، لأنه لم يكن في وسعي أن أحدس كيف يكون أثره على كاثرين. وكانت النتيجة أنه لم يصل إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام كاملة. وكان الرابع يوم الأحد، فأحضرت الخطاب إلى حجرتها بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى الكنيسة، ولم يبق في الدار - عداى - إلا رجل من الخدم تُرك ليساعدني في الأعمال المنزلية. وكنا عادة نعمد إلى إغلاق الأبواب خلال ساعات القداس، ولكني يومئذ انتهزت فرصة دفء الجو وروعته، فتركتها مفتوحة جميعًا، كما أنني - وفاء بوعدى، إذ كنت أعرف تمامًا من الذي سوف يقدم إلينا - قلت لرفيقي إن السيدة تشتهى البرتقال، وأن عليه أن يسرع إلى القرية عدوًا ليحضر بعضًا منه، على أن ندفع ثمنه في اليوم التالي. وما أن غادر البيت حتى صعدت إلى الطابق العلوي.

(كانت مسز لينتون تجلس في فجوة النافذة كالمعتاد، وترتدى ثوبًا فضفاضًا أبيض اللون، وتغطى كتفيها بشملة خفيفة. وكان شعرها الغزير الطويل قد عُقص مرفوعًا فوق رأسها في بداية مرضها، أما الآن فكان ممشطًا في بساطة، وتنسدل خصلاته في تموجه الطبيعي فوق صدغيها وعنقها. وكان مظهرها قد تبدّل تمامًا - كما أنبأت هيثكليف - ولكنها عندما تكون هادئة فإن هذا التبدّل تبدو فيه مسحة من جمال ملائكي لا عهد لدنيا البشر بمثله!.. وكان البريق المتألق في عينيها قد خبا، وبدت مكانه عذوبة حالمة حزينة. ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بها، وإنما تبدوان دائمًا وكأنهما تتطلعان إلى ما وراءها، تتطلّعان إلى بعيد وراء كل شيء، حتى ليحق لك أن تقول إنهما تتطلّعان إلى ما وراء هذا العالم كله!.. أما شحوب وجهها ـ الذي اختفى هزاله ومنظره الهضيم منذ أن اكتسى بشيء من اللحم - والتعبير الغريب المرتسم في محياها من أثر حالتها العقلية - فإنهما وإن كانا ينمان، على نحو أليم، عن الأسباب التي أدت إليهما، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذي يثيره مرآها في النفوس. أما أنا فكنت أجد فيهما - وأحسب أن أي شخص ينظر إليها كان يجد ذلك مثلى - ما ينقض أية أدلة ظاهرية أخرى على نقاهتها وقرب شفائها، وإنما يسمها بطابع الشخص الذي قضى عليه بالفناء!

(وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحرك النسمات الهادئة أوراقه بين آن وآخر. وفي يقيني أن لينتون هو الذي وضعه هناك، إذ أنها لم تكن تحاول قط أن تسلى نفسها بالقراءة، أو تشغل نفسها بأي عمل آخر. وكم من ساعة كان يقضيها محاولًا أن يثير انتباهها إلى شيء مما كان موضع تسليتها في الماضي. وكانت تعى ما يرمى إليه، فإذا كانت في حالة طيبة، فإنها تحتمل محاولاته في هدوء واستكانة، مكتفية بإظهار عدم جدواها بما ينبعث منها بين وقت وآخر من تنهد الضجر والسأم، حتى تنتهي أخيرًا إلى إيقاف مساعيه بابتسامة حزينة، أو قبلة خائرة. أما في الحالات الأخرى، فإنها تتحول عنه في نفور وعناد، وتخفى وجهها بين راحتيها، أو تدفعه عنها في حنق وغضب.. فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها، مدركًا عن يقين أنه قد أخطأه الصواب في مسعاه.

(وكانت أجراس كنيسة (جيمرتون) لا تزال تدق من بعيد، كما كان الخرير الهادىء لقنوات الوادي يصافح الأذن وديعًا رقيقًا، فكان بديلًا جميلًا لذلك الحفيف الذي لم يحن موعـده بعد، حفيف أوراق الشجر في الصيف، والذي كان يطغى على موسيقى القنوات عندما تورق الأشجار حول (الجرانج).. وكان خرير الماء يُسمع دائمًا في (مرتفعات ويذرنج) كلما سكن الهواء إثر انهمار المطر طويلًا، أو جريان الثلوج الذائبة فوق التلال. وكانت كاثرين تفكر في (مرتفعات ويذرنج)، وهي تصغى إلى ذلك الخرير الموسيقى – إن كانت تفكر فى شئ أو تصغى إلى شئ على الإطلاق! – ولكن كانت فى عينيها تلك النظرة الجوفاء الغامضة التي وصفتها من قبل، والتي لم تكن تعبر عن إدراك لشيء من الأشياء المادية سواء عن طريق السمع أم البصر..

(ووضعت الخطاب في رفق في يدها المستقرة على ركبتها، وقلت:

- هذا خطاب لك يا مسـز لينتون.. وينبغي أن تقرئيه على الفور، لأنه يتطلب ردًا.. هل أفض أختامه؟

(فلم تُغير اتجاه نظراتها، وقالت في اقتضاب: (نعم..).

(وفتحت الخطاب، وكان موجز العبارة، ثم استطردت قائلة: (اقرئيه الآن!).

(غير أنها جذبت يدها بعيدًا، فسقط الخطاب على الأرض.. فالتقطته ثانية ووضعته في حجـرها، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تنظر إليه، لكن ترقبي لهذه الحركة طال على غير جدوى، حتى اضطررت إلى متابعة كلامي قـائلة: (هـل تريدين أن أقـرأه عليـك يا سيدتي؟.. إنه من مسـتر هيثكليف!).

(فأجفلت، ولاحت في عينيها بارقة من عودة الذاكرة، وتراءت في محياها دلائل النضال في سبيل تنظيم أفكارها. ثم رفعت الخطاب وبدا عليها أنها تتصفحه في إمعان، حتى إذا ما بلغت الإمضاء، تأوهت في مرارة. ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالته تمامًا، لأننى عنـدما رغبت إليهـا في أن تُسمعني جوابهـا، اكتفت بأن أشارت إلى الاسم، وراحت تتفرس في وجهي في لهفة حزينة متسائلة.. فحدست حاجتهـا إلى من يشرح لها الأمـر، وقلت: (حسنًا.. إنه يود أن يراك.. وهو الآن في الحديقة، يتلهف على معرفة الإجابة التي أحملها إليه..).

وكنت قد لاحظت أثناء كلامي أن كلبًا ضخمًا - كان يقبع تحتنا في الحديقة مستلقيًا في استرخاء في أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر - قد نصب أذنيه فجأة، وبدأ يهم بالنباح، ولكنه ما لبث أن أرخاهما وهو يعلن، بهـزات ذيله، عن مقدم شخص لا يعده غريبًا عن المكان.. ومالت مسز لينتون إلى الأمام، وهي ترهف السمع، وقد حبست أنفاسها. وفي اللحظة التالية سمعت وقع أقدام تعبر الردهة. كان المنزل المفتوح من قوة الإغراء لهيثكليف بدخوله، بحيث لم يستطع مقاومته.. وأغلب الظن أنه حسبني قـد نكثت بعهـدى له، فصمم على الاعتماد على جرأته!.. وكانت كاثرين متعلقة الأنظار بباب حجـرتها، في لهفة واشتياق شديدين. غير أن القادم لم يصب الحجرة الصحيحة في باديء الأمر، فأشارت إلى أن أستقبله، ولكنه اهتدى إليها قبـل أن أبلغ البـاب. وفي خطوات وثابة، كان يقف إلى جانبها، ويضمها إلى صدره في قوة!



في خطوات وثابة، كان يقف إلى جانبها، ويضمها إلى صدره
قوة!..

(ولقد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمة، ولا يرخي ذراعيه عن احتضانها، وقد راح في خلالها يمطرها بعدد من القبلات أحسب أنه لم يمنح أحدًا أكثر منه في حياته قط من قبل!.. ولكنى أشهد أن سيدتي هي التي قبلته أولًا. ورأيت في جلاء أنه لم يستطع احتمال النظر إليها، لفرط ألمه الصارخ. كان قد أدرك - كما أدركت أنا - منذ أن وقعت أنظاره عليها، أنه لم يكن ثمة أمل في شفائها، وأنه قد قضى عليها بالموت، لا شك في ذلك ولا ريب!

(وكان أول ما نطق به، هو أن راح يهتف في لوعة دون أن يحاول إخفاء يأسه وأساه: (أواه يا كاتى!.. أواه يا حبيبتي!.. كيف أستطيع احتمال ذلك؟).. وكان عندئذ يحـدِّق النظر إليها في إمعان شديد، بحيث ظننت أن تركيز نظراته سوف يجلب البكاء إلى عينيه.. ولكنهما كانتا تتقدان بالعذاب والألم، وقد تحجرتا فلا تنديان بالدموع.. فأسندت كاثرين كتفيها إلى ظهر المقعد، وراحت تبادله نظرته وقد قطبت حاجبيها. كان مزاجها أشبه بدوّارة الريح، لأهوائها الدائمة التقلب والتغير.. وما لبثت أن قالت:

- وماذا الآن؟ لقد حطمتما قلبي، أنت وإدجار، يا هيثكليف!.. ثم تأتيان كلاكما تتباكيـان وتنعيان على ما فعلتماه بي، كأنكما أنتما اللذان تستحقان الإشفاق والرثاء.. ولكني لن أشفق عليك أو أرثى لك! لست أنا التي تفعل ذلك. لقد قتلتني، وأحسبك أفلحت في ذلك. يا الله! ما أقواك!.. ترى كم من السنين تنوى أن تعيشها بعد أن أرحل؟

(وكان هيثكليف يركع على إحدى ركبتيـه بجوارها ليستطيع احتضانها، فحاول النهوض، ولكنها أمسكت بشعره وتشبثت به لتبقيه في مكانه، ثم استطردت تقول في مرارة: (شد ما أود أن أظل ممسكة بك حتى نموت معًا!.. ولن أبالي بما تعانيه من ألم.. بل لست أبالي شيئًا بآلامك جميعًا. ولماذا بربك لا تتعذّب ولا تتألم؟.. لقد تعذبت أنا وذقت ألوان الألم.. ثم هل تراك تنساني؟.. هل ستكون سعيدًا عندما أكون تحت أطباق الثرى؟ هل تراك تقول بعد عشرين عامًا: (هذا قبر كاثرين إيرنشو. لقد أحببتها منذ عهد بعيـد، وشقيت بفقدها، ولكن ذلك قد مضى وانقضى.. فقد أحببت الكثيرات منذ ذلك الحين، وأطفالي الآن أحب إلى نفسي مما كانت هي في يوم من الأيام. وعندما تحين ساعتى، فلن يسرني أني ذاهب إليها، بل سوف يسوؤني أن أضطر إلى تركهم!).. هل هذا ما ستقوله يا هيثكليف؟».

(فانتزع رأسه من قبضتها في عنف، وكانت أسنانه تصطك وهو يصيح: (بربك لا تعذبيني حتى يصيبني الجنون كما أصابك!).

(كان الاثنان، في نظر المشاهد العادي، يمثلان صورة غريبة مخيفة.. وكان يخلق بكاثرين أن تُقدر أن السماء سوف تكون منفى رهيبًا لها، ما لم تطرح عنها - مع جسدها الفاني - نفسيتها المعنوية أيضًا.. فقد كانت أساريرها الآن تحمل طابعًا من الحقد والضغينة في وجنتيها الشاحبتين، وشفتيها الباهتتين، وعينيها اللتين تتقدان بشرر الانتقام!.. وكانت تطبق أصابعها على خصلة من غدائره التي كانت تمسك بها. أما رفيقها فقد اتكأ، عند نهوضه، على إحدى يديه، وأمسك بذراعها الأخرى، فلما رفع يده عنها أدركت أن حصيلته من الرقة التي تستلزمها حالتها كانت من القلة بحيث كان على بشرتها الشاحبة أربعة خطوط زرقاء عميقة!.. واستطرد يقول في وحشية:

- هل تملكك شيطان حتى تخاطبيني على هذا النحو وأنت مشرفة على الموت؟.. وهل قدّرت أن كلماتك جميعًا سوف تظلّ مطبوعة في ذاكرتي، ولا تفتأ تحفر فيها وتزداد عمقًا بعد أن تكوني قد تركتني؟.. إنك لتعلمين مدى كذبك عندما تقولين إنني قتلتك. وإنك لتعلمين، يا كاثرين، أنني أستطيع أن أنساك إذا ما استطعت أن أنسى كياني ووجودي.. أفلا يكفي أنانيتك الجهنمية أنك بينما تنعمين بالراحة والسكينة، سوف أتلوى أنا في عذاب الجحيم؟

(فأجابت كاثرين في أنين أليم: (ولكني لن أنعم بالراحة أو السكينة».. وعادت إلى الشعور بضعفها البدني عندما أخذ قلبها يخفق في عنف، وفي ضربات غير منتظمة كانت تُرى وتُسمع من بعد، من جراء الانفعال الشديد الذي استبد بها.. فكفت عن الكلام ريثما انقضت تلك الأزمة، ثم استطردت تقول في رقة:

- إننى لا أتمنى لك عذابًا أشد مما أقاسيه يا هيثكليف. كل ما أتمناه هو ألا نفترق قط. ولو ضايقتك وأكربتك كلمة من كلماتي فيما بعد، فاعلم أنني أحس هذا الكرب نفسه في قبرى.. فاصفح عنى، من أجل خاطرى!.. تعال هنا واركع بجانبي ثانية. إنك لم تسيء إليَّ في حياتك قط. وإذا أمعنت في غضبك علىَّ، فإن ذلك سوف يكون أسوأ ذكرى لك، بما يفوق ذكرى كلماتي العنيفة. هلا أتيت إلى جانبي؟.. تعال.. تعال!

(فعاد هيثكليف ثانية، ولكنه وقف خلف مقعدها، وانحنى فوق ظهر المقعد قليلًا، إلى الحد الذي لا يمكنها معه أن ترى وجهه الممتقع من التأثر والانفعال.. وأدارت رأسها إلى الوراء لتنظر إليه، ولكنه لم يكن ليسمح لها بذلك.. فقد تحوّل بغتة، وسار نحو المدفأة، حيث وقف صامتًا وقد أدار ظهره نحونا.. وتبعته نظرات مسز لينتون في ترقب وارتياب.. وكانت كل لحظة تمر توقظ فيها أحاسيس جديدة.. فلما طال الصمت، واستطالت نظراتها، استطردت تخاطبني في نبرات مليئة بمرارة الخيبة:

- آه!.. أرأيت يا نللي كيف أنه لا يريد أن يرق لى لحظة ليحول بيني وبين القبر!.. هذا هو مبلغ حبه لي!.. حسنًا.. لا بأس.. إن هذا ليس هيثكليف الذي أعرفه!.. ولكني سوف أظل أحب هيثكليف الذي أعرفه، وسوف آخذه معى فإنه قطعة من روحى!

(ثم أضافت كأنما تفكر بصوت مسموع:

- ثم إن أشد ما يضايقني الآن هو هذا السجن المحطَّم – جسدى - الذي أعيش فيه. لقد تعبت من طول احتباسى هنا.. وأود بصبر نافد أن أفر إلى ذلك العالم المجيد، وأن أظلّ هناك أبدًا، فلا أقتصر على النظر إليه من وراء غلالة من الدموع، والحنين إليه من خلال جدران قلب مضني، وإنما أبقى فيه وأعيش معه حقًا!.. ولعلك يا نللي تخالين أنك أفضل منى وأسعد حظًا، لأنك في عنفوان قوتك وكامل صحتك! ولعلك تأسفين من أجلى وترثين لحالي!.. ولكن كل شيء سوف يتبدل عما قريب.. وسوف أكون أنا التي أرثى لحالك.. سوف أكون بعيدة عنكم أشرف عليكم جميعًا من علٍ..

واستطردت تحدّث نفسها:

- كم أعجب من تباعده، وإحجامه عن الاقتراب منى!.. أنا التي حسبته يرغب في ذلك ويتمناه!.. هيثكليف، يا عزيزى.. ما ينبغي لك أن تكون غاضبًا عبوسًا الآن.. تعال إليَّ يا هيثكليف!

وفي غمرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة، وهي تستند إلى ذراع مقعدها.. وإزاء هذه الدعوة الحارة، استدار نحوها وقد لاحت في أساريره أمارات اليأس المرير. وكانت عيناه الواسعتان تنديان بالدموع، وتحدجانها بنظرات وحشية، وصدره يعلو ويهبط في رجفات متتابعة.. ولبثا لحظة وقد جمد كل منهما في مكانه.. ولم أر كيف التقيا بعد ذلك، ولكن كاثرين وثبت إلى الأمام، فتلقّاها بين ذراعيه، والتقيا في عناق طويل ظننت أن سيدتي لن تخلص منه على قيد الحياة قط.. والواقع أنها بدت في عيني كأنما فقدت الشعور.. وألقى هو بنفسه على أقرب مقعد إليه، وهو يحملها بين يديه، فلما اقتربت في عجلة لأتبين إن كانت مغشيًا عليها، كشر عن أنيابه في وجهي، وانبثق الزبد من فمه كالكلب المسعور، وراح يضمها إلى صدره في غيرة بشعة.. ولم أعد أشعر بأنني في رفقة مخلوق من البشر مثلى،

وكان من الواضح أنه لن يفهمني مهما خاطبته وقلت له.. وهكذا انتحيت جانبًا وأمسكت لساني ولذت بالصمت في حيرة شديدة..

وما لبثت أن سكن جأشي قليلًا عندما رأيت كاثرين تبدر منها حركة صغيرة.. فقد رفعت يدها لتجذب إليها عنقه، وتلصق خدها بخده وهو يحتضنها.. بينما راح بدوره يمطرها بقبلات جنونية، وهو يقول في ضراوة:

- لقد علمتني الآن كيف كنت قاسية يا كاثي.. قاسية ومنافقة! فلماذا احتقرتنى؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت به؟.. إنك لن تسمعى منى كلمة واحدة تسري عنك، فإنك تستحقين ذلك.. أنت التي قتلت نفسك.. أجل.. لك أن تقبليني، وأن تذرفى ما شئت من الدموع.. ولك أن تنتزعى منى القبلات والعبرات.. فإنها سوف تلفحك بنارها.. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها!.. لقد كنت تحبينني.. فبأي حق، إذن، هجرتني؟.. بأي حق تخليت عنى من أجل وهم تافه شعرت به نحو لينتون؟.. فلا الشقاء أو الهوان أو الموت، ولا أي شيء مما يمكن أن يصيبنا به الله أو الشيطان، كانت لتستطيع أن تفرق بيننا.. ولكنك فعلت ما تعجز عنه كل هذه القوى، وفعلته بملء إرادتك.. إنني لم أحطم قلبك. أنت التي حطمته بيدك.. وعندما حطمته، حطمتِ قلبي معه!.. إنك ترينني قويًا متين الأسر، ولكن ذلك لتعس حظي.. فهل تظنينني أتمنى الحياة طويلًا؟.. وأي نوع من العيش ذلك الذي يمكن أن أحياه، بينما أنتِ.. آه! يا إلهى!.. أتراك أنت تتمنين العيش بينما روحك في قبر من القبور؟

فشرقت كاثرين بدموعها، وبأنينها، وقالت:

- دعني وحدي.. دعنى وحدي.. إذا كنت قد أخطأت، فهأنذا أكفر عن خطئي بالموت. وهذا فوق ما يكفيك!.. لقد هجرتني، أنت أيضًا.. ولكني لن أعاتبك أو أعنف عليك.. إننى أصفح عنك.. فاصفح عني!

- ما أصعب الصفح وأنا أنظر إلى هاتين العينين، وأتحسس هاتين اليدين الناحلتين!.. قبليني ثانية، ولكن لا تدعيني أرى عينيك!.. لقد غفرت لكِ كل ما فعلته بى.. فإننى أحب قاتلي!.. ولكن قاتلك أنتِ!.. كيف يمكنني أن أحبه؟

وساد الصمت بينهما، واختفى وجه كل منهما في وجه الآخر، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه.. وأغلب الظن أن البكاء كان متبادلًا بينهما.. فإن هيثكليف كان خليقًا بأن يبكي في مناسبة عظيمة كهذه..

وبدأ القلق يتسرب إلى نفسي، كلما مضى الوقت.. فقد كان النهار يمر سراعًا، كما عاد الرجل الذي كنت قد بعثت به إلى القرية، من مهمته، وبدأت أميز من بعد، في أشعة الشمس ناحية الغرب فوق الوادي، جماعات من الناس تتكاثر وتتكاثف عند باب كنيسة (جيمرتون)، فقلت:

- لقد انتهى القداس، وسوف يكون سيدي هنا بعد نصف ساعة..

فزمجر هيثكليف باللعنات والسباب، وشدد من عناقه لكاثرين، ولكنها لم تتحرَّك قط.. ولم تمض هنيهة، حتى رأيت جمعًا من الخدم يجتازون الطريق نحو الجناح الذي يقع فيه المطبخ.. ولم يكن مستر لينتون يبعد عنهم كثيرًا وهو يسير خلفهم.. وفتح بنفسه البوابة الكبيرة، وأخذ يسير في بطء واسترخاء قادمًا نحو المنزل.. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذي كان يترقرق كنسمات الصيف..

عندئذ هتفت قائلة:

- ها هو ذا قد حضر.. فأسرع بالانصراف بحق السماء.. إنك لن تجد أحدًا على الدرج

الأمامي.. فأسرع بالخروج، واختف برهة بين الأشجار ريثما يدخل المنزل، حتى لا يراك..

فقال هيثكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعي رفيقته:

- لا بد لي من الذهاب الآن يا كاتى.. ولكن إذا قُدر لي أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل أن يحين موعد نومك.. لن أذهب إلى أبعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك..

فتشبثت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة، وهي تجيبه:

- كلّا.. لا ينبغي أن تذهب.. ولن تذهب..

فتوسل إليها في قلق:

- ساعة واحدة فقط!

- ولا دقيقة واحدة!

فازداد الدخيل القلق إلحاحًا، وقال:

- بل لا بد لي من الذهاب.. سوف يأتي لينتون إلى هنا حالًا..

ولقد كان بوسعه أن ينهض، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها، ولكنها ازدادت به تعلقًا وازدادت أصابعها به تشبثًا، وقد لاح في أساريرها عزم رهيب جنونى، ثم صرخت قائلة:

- كلا.. لا تذهب.. لا تذهب!.. إنها المرة الأخيرة.. ولن يقتلنا إدجار.. هيثكليف.. إننى سوف أموت.. سوف أموت..

فصاح هيثكليف، وهو يغوص في مقعده:

- يا لك من حمقاء!.. ها هوذا.. صه يا حبيبتى، اسكتى يا كاثرين!.. سوف أبقى.. وإذا أطلق عليَّ الرصاص وأنا جالس في مكاني، للفظت أنفاسي الأخيرة، وشفتاى تباركانه!

وعادا إلى عناقهما من جديد.. وسمعت وقع خطوات سيدي فوق الدرج، فتصبب العرق البارد من جبيني، واستبد بي الفزع، وقلت لهيثكليف ضارعة:

- هل تنوى أن تصغى إلى هذيانها؟.. إنها لا تعرف ما تقول.. فهل تدمرها وتقضى عليها، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحمى به نفسها؟.. انهض.. فما زالت في الوقت فسحة لخلاصك.. إن هذا أشر عمل شيطاني ارتكبته في حياتك قط.. لقد قُضى علينا جميعًا.. السيد، والسيدة، والخادمة!

وكنت أعصر يدي، وأنشج بالبكاء.. وسمع مستر لينتون تلك الضجة، فأسرع الخطى.. وفي غمرة اضطرابى وانفعالى، سررت إذ رأيت ذراعي كاثرين تتهاويان مسترخيتين بجانبها، ورأسها يميل إلى الأمام فقلت لنفسي:

- لقد أغمى عليها، أو ماتت!.. وذلك أفضل كثيرًا.. ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت، حتى لا تبقى طويلًا عبئًا على من يحيطون بها، مجلبة للشقاء إليهم!

وانقضَّ إدجار على ضيفه المتطفل، وقد امتقع وجهه دهشة وغضبًا.. ولست أدرى ما الذي كان ينوى أن يفعله.. فقد وضع الآخر حدًّا لكل ما كان يمكن حدوثه، بأن وضع بين يديه ذلك الجسد الساجي الذي يبدو خلوًّا من الحياة، قائلًا:

- انظر إليها.. وإذا لم تكن شيطانًا أو عدوًّا لدودًا، فأسعفها أولًا، ثم قل لي بعد ذلك كل ما

تشاء..

وأسرع يغادر المكان، ويجلس في حجرة الجلوس.. ودعاني مستر لينتون، فرحنا نبذل الجهود المضنية، ونلجأ إلى شتى الوسائل، لنعيدها إلى الصواب، حتى نجحنا في إقامتها أخيرًا.. ولكنها كانت ذاهلة اللب.. كانت تئن وتتأوه، ولكنها لم تعرف أحدًا.. ونسى إدجار، في غمرة قلقه عليها، صديقها البغيض.. أما أنا فلم أنس.. فانتهزت أول فرصة سنحت لي، ومضيت إليه فرجوته أن ينصرف، مؤكدة له أن كاثرين أحسن حالًا، وأنه سوف يسمع مني في الصباح كيف قضت ليلتها.. فقال:

- إنني لن أمتنع عن مغادرة الدار.. ولكنى سوف أبقى في الحديقة.. وأرجوك يا نللى أن تبرى بوعدك غدًا.. وسوف تجدينني تحت أشجار الحور.. فإذا لم تفعلي فسوف أقوم بزيارة أخرى سواء أكان لينتون هنا أم لم يكن!

وألقى نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرج، وإذ استوثق من أن ما ذكرته له كان يبدو صحيحًا، غادر المنزل في خطوات سريعة، وأخلاه من محضره المنكود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

حوالي منتصف تلك الليلة وُلدت كاثرين التي رأيتها في (مرتفعات ويذرنج).. وُلدت هزيلة ضامرة في الشهر السابع من حملها.. وبعد مولدها بساعتين، لفظت الأم أنفاسها الأخيرة!.. ماتت دون أن تسترد من الوعي ما يكفي لأن تفتقد هيثكليف، أو تشعر بوجود إدجار.. وكان حزن هذا الأخير لما أصابه من الثكل، أمرًا يجلّ عن الوصف، وتألم النفس للحديث عنه.. كما أظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه في نفسه. وفي رأيي أن ما زاد من فداحة المصاب لديه، أنه تُرك بغير عقب من الذكور. وكان قلبي يعتصر حسرة وألمًا لذلك، وأنا أتأمل اليتيمة الضعيفة، فرحت أنحى باللائمة - في نفسي - على لينتون العجوز الذي أوصى بأن تنتقل أملاكه، إذا عرضت مثل هذه الحالة، إلى ابنته بدلًا من حفيدته.. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة، فلم تلق من أحد ترحيبًا، ولم يهش لمولدها إنسان.. فلو أنها ماتت في تلك الساعات الأولى لها في الوجود، لما اكترث لذلك أحد قط. وقد عوضنا هذا الإهمال فيما بعد، ولكن المنكودة استهلت وجودها بغير صديق، مثلما يُخشى أن تختتمه!

وتسلل ضوء الصباح - الذي كان مشرقًا بهيجًا خارج الدار - من ثنايا مصاريع نوافذ الحجرة الصامتة، فأضفى على الفراش وشاغلته وهجًا رقيقًا لينًا. وكان إدجار لينتون يضع رأسه على الوسادة، مطبق العينين، ومحياه الناصع البياض يبدو - في شحوب الموت الذي يعلوه - أشبه بالوجه الساجي إلى جواره، وقد تماثلا سكونًا وجمودًا.. ولكن أساريره كانت تنطق في جمودها بالألم المضني، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلامًا ودعة. كان جبينها ناعمًا وضاءً، وأجفانها مطبقة، وشفتاها تنفرجان في ابتسامة هادئة.. وما أحسب أن أيًّا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو أوفر منها جمالًا.. ونالني قبس من ذلك السكون المطلق الذي يحيط بها في رقادها، فما أحسست قط بأن عقلي عاش في إطار أشد قداسة مما كان عليه عندما رحت أتأمل تلك الصورة الصافية من الراحة الالهية!.. ورحت أرجع في نفسي، عن غير قصد، صدى الكلمات التي نطقت بها منذ ساعات قلائل، قلت: (إنها بعيدة عنا تشرف علينا جميعًا من علٍ.. وسواء أكانت لا تزال على الأرض، أم أنها الآن في السماء، فإن روحها قد رجعت إلى مستقرها ومثواها عند خالقها).

ولست أعرف إن كانت تلك صفة اختصصت بها، ولكن الواقع أننى قلما أحس شيئًا غير السعادة عندما أقوم وحدي بالحراسة في حجرة يرفرف عليها الموت، ما لم يقاسمني هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه أو ملىء قلبه يأسًا.. فإنى أرى راحة وطمأنينة لا تستطيع الأرض ولا الجحيم أن تحطمهما، وأحس باليقين في عالم يأتي بعد ذلك، لا نهاية له ولا ظلمات فيه.. تلك الأبدية التي يلجون أبوابها، حيث لا تتقيد الحياة بحدود في مدتها ومداها، ولا الحب في حنانه وروعته، ولا السرور في عنفوانه ووفرته.. وقد تبينت في تلك المناسبة مبلغ الأثرة والأنانية في حب مثل مستر لينتون، عندما يحزن على خلاص كاثرين السعيد!!.. ومن المحقق أن المرء قد يشك أحيانًا، بعد تلك الحياة المليئة بالعناد والمشاكسة والتهور التي كانت تحياها، فيما إذا كانت تستحق أن تُقاد أخيرًا إلى مرفأ السلام والطمأنينة.. إن المرء قد يشك في ذلك في سويعات التفكير الهادىء المجرَّد عن العاطفة، لا في ذلك الوقت، أمام جثمانها.. فإن السكينة التي كانت ترين على ذلك الجثمان المسيحي، بدت كأنما تضمن سكينة مماثلة للروح التي كانت تسكنه!

(تُرى هل تعتقد يا سيدي أن مثل هؤلاء الناس يلقون السعادة في العالم الآخر؟.. إننى أبذل الكثير في سبيل معرفة ذلك..)

ولكني تنكبت الإجابة على سؤال مسز دين، الذي أدهشني وقتئذ كشيء أدنى إلى الضلالة.. فاستطردت تقول:

(إننا لو اقتفينا سبيل كاثرين لينتون، لما حقَّ لنا أن نظنها سعيدة.. ولكننا سوف ندعها لخالقها.. كان السيد يبدو نائمًا، فجازفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة، وتسللت إلى حيث الهـواء النقي المنعش خارج الدار.. وحسبني الخدم قد خرجت لأنفض عنى النعاس بعد حراستى الطويلة، ولكني في الحقيقة إنما خرجت لأرى مستر هيثكليف.. فلو أنه مكث بين أشجار الحور الليل بطوله، لما سمع شيئًا من الجلبة التي قامت في (الجرانج).. اللهم إلا إذا كان قد سمع وقع حوافر جواد الرسول الذي بعثنا به إلى (جيمرتون).. ولو أنه اقترب من الدار، لأدرك من الأضواء المتنقلة هنـا وهناك، والأبواب الخارجية وهي تُفتح وتغلق، أن الأمر لم يكن على ما يرام في الداخل. وكنت أود أن أجده، ومع ذلك كنت أخشى هذا اللقاء.. كنت أحس بشناعة الأنباء التي يجب أن أنقلها إليه، وتمنيت أن ينتهي ذلك الموقف سريعًا، ولكني لم أكن أعرف كيف أقولها له!.. ووجدته هناك، على قيـد خطوات من البستان، مستندًا إلى شجرة عتيقة، عارى الرأس، ملبد الشعر بالندي الذي تجمع على الغصون المورقة حديثًا، والذي كانت قطراته تتساقط حوله.. وكان قـد قضى فترة طويلة في وقفته هذه، لأنني رأيت طائرين يذهبان ويعودان، وليس بينهما وبينـه إلا زهـاء ثلاثة أقدام، وقد انهمكا في بناء عشهما، ولا يريان في قربه منهما إلا ما يريان في كتلة من الخشب، على حين انفلتا هاربين عند اقترابى..



وجدته هناك، على قيد خطوات من البستان، مستندًا إلى شجرة
تيقة عاري الرأس، ملبّد الشعر بالندى..

ورفع عينيه نحوي، وقال:

- لقد ماتت!.. ولم أكن بحاجة إلى انتظارك لأعرف ذلك.. ضعي منديلك هذا جانبًا، ولا تدعي دموعك ومخاطك يسيلان أمامي!.. لعنة الله عليكم جميعًا.. إنها ليست في حاجة إلى شيء من دموعكم!

كنت أبكي رثاء لحاله بمثل ما كنت أبكي عليها.. فإننا أحيانًا نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة للناس أو لأنفسها.. وعندما وقعت أنظاري على وجهه للمرة الأولى أدركت أنه علم بالكارثة.. وطرأت لى فكرة سخيفة، هي أن قلبه قد غشيته السكينة فراح يصلى، إذ كانت شفتاه تتحركان في تمتمة صامتة، وقد أحنى رأسه كأنما ركعت أنظاره على الأرض.. فقلت وقد كتمت شهقاتى وجفت عبراتى:

- أجل.. لقد ماتت.. وأرجو أن تكون قد ذهبت إلى السماء، حيث يمكن أن نلحق بها، كل واحد منا، لو أصغينا إلى صوت النذير، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير..

فسألني هيثكليف فيما يشبه السخرية:

- وهل أصغت هي إذن إلى صوت النذير؟.. هل ماتت أشبه بقديسة؟.. هيا قصي على كل ما حدث، في صدق ودقة.. كيف لقيت..

كان يهم بأن ينطق باسمها، ولكنه لم يستطع التلفظ به، وكان وهو يضغط على شفتيه كأنما يصارع، في صمت، حزنه المكنون، متحديًا - في الوقت نفسه - إشفاقى عليه ورثائى له بنظرات نارية ضارية، وعينين لا تطرفان.. وأخيرًا اضطر، برغم صلابته، إلى البحث عن متكأ خلفه، إذ انتهى ذلك الصراع بهزيمته وأخذت الرعدة تسري في بدنه حتى أخمص قدمه، على الرغم منه.. ثم تابع القول:

- كيف لقيت نهايتها؟

فقلت في نفسي: (أيها التعس المسكين!.. إن لك قلبًا وأعصابًا مثل ما لإخوانك من بني البشر.. فلماذا تتلهف على إخفائها؟.. إن كبرياءك لن تخفى على الله!.. وأنت إنما تدفعها إلى أن تظل تهصر قلبك وأعصابك، حتى تنتزع منك عبرات الهوان والمذلة!).

ثم أجبته بصوت عال:

- في هدوء الحمل الوديع.. تنهدت ثم بسطت جسمها، أشبه بطفل يصحو من نومه، ثم يعود إلى الاستغراق فيه ثانية.. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقة واحدة، ثم يسكن إلى الأبد!

فسألني مترددًا، كأنما يخشى أن تتضمن إجابتي أشياء لا يطيق سماعها:

- هل.. هل لم تذكر اسمي قط؟

- إنها لم تستعد حواسها، ولم تعرف أحدًا، منذ أن فارقتها.. وهي ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة، كأنما كانت خواطرها الأخيرة تسرح في أيامها البهيجة الأولى.. لقد ختمت حياتها في حلم رقيق، وأدعو الله أن تقوم من الموت بمثل هذه الدعة في العالم الآخر..

فصاح في انفعال مروّع، وهو يضرب الأرض بقدمه، ويزمجر في نوبة مفاجئة من العاطفة الجامحة:

- بل فلتقم في عذاب الجحيم!.. لماذا؟.. لقد كانت كاذبة حتى النهاية.. أين هي؟.. إنها

ليست هناك في المنزل.. وليست في السماء.. ولم يشملها الفناء.. فأين هي؟ أواه يا كاثرين، لقد قلت إنك لا تبالين بآلامي جميعًا، وأنا أدعو الله دعاءً واحدًا - سأظل أردده حتى يجف لساني - فلا عهدت الراحة والسلام، يا كاثرين إيرنشو، ما دمت حيًّا.. وقد قلت إنني قتلتك.. فلتلازمني روحك إذن لتقض مضجعي!.. إن روح المقتول لا تفتأ تحوم حول قاتله، كما أعتقد.. والأشباح قد رؤيت تجوب الأرض، فيما أعلم.. فكوني معي دائمًا، على أية صورة تتراءين فيها.. وادفعي بي إلى الجنون!.. ولكن لا تتركيني في هذه الهاوية، حيث لا أستطيع أن أجدك معى.. آه!.. يا إلهي!.. هذا شيء يقصر عنه النطق!.. إننى لا أستطيع العيش بغير حياتي.. ولا أستطيع الحياة بغير روحى..

ثم أخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن، ثم يرفع عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر في شيء، إنما هو أشبه بعواء وحش كاسر يتمشى إليه الموت تحت طعنات المدى والحراب.. ولاحظت رشاشًا من الدماء على لحاء الشجرة، كذلك كان جبينه ويداه ملوثة بالدم.. والأرجح أن المنظر الذي شهدته لم يكن إلا تكرارًا لما كان يجرى خلال الليل.. ولكنه لم يثر في نفسي رحمة أو شفقة، وإنما كان يخيفني ويروعني.. وبرغم ذلك فقد أنفت أن أتركه على هذه الحال.. ولكنه في اللحظة التي استرد فيها من الوعي ما يكفي لأن يدرك أنني أراقبه، صاح بي في صوت كقصف الرعد، يأمرني بالانصراف.. ولقد أطعته على الفور، إذ كان مما تعجز عنه قدرتي أن أهدىء روعه أو أسرى عنه..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون في يوم الجمعة التالي لوفاتها.. وظل نعشها، حتى ذلك الموعد، مكشوفًا وقد نثرت فوقه الزهور وأوراق الأشجار العطرية، في حجرة الاستقبال الكبرى.. وكان لينتون يقضى الأيام والليالي بجواره، حارسًا لا يغفل ولا ينام.. أما الشيء الذي خفي عن الجميع، ما عداى، فهو أن هيثكليف كان يقضي الليالي، على الأقل، في الحديقة وقد حُرم من الراحة كإدجار.. ولم أكن على أي اتصال به، ومع ذلك كنت أدرك رغبته وعزمه على الدخول، إذا تهيأت له الفرصة المواتية.. فما أن حل مساء الثلاثاء، وأسدل الظلام ستوره، واضطر سيدي لفرط تعبه أن يأوى إلى فراشه نحو ساعتين، حتى مضيت ففتحت إحدى النوافذ، وقد تأثرت من مثابرته على البقاء في الحديقة، لأهيىء له فرصة يلقى فيها على وجه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة.. ولم يغفل انتهاز هذه الفرصة، في حذر ولفترة قصيرة.. بل لقد كان من الحذر في دخوله، دون أي صوت أو جلبة، بحيث ما كنت لأكتشف حضوره، لولا أن وجدت الغطاء قد اختل نظامه حول وجه الجثة، وإن لاحظت على الأرض بجوار الفراش خصلة من الشعر الذهبي قد حزمت بخيط من الفضة، ما كدت أفحصها حتى أدركت أنه أخذها من نوط كان معلقًا حول رقبة كاثرين.. كان هيثكليف قد فتح القلادة وألقى بمحتوياتها على الأرض، ووضع بدلها خصلة من شعره الأسود.. ولكني حزمت الاثنتين معًا ووضعتهما في القلادة سويًّا!

وقد دُعى مستر هندلى إيرنشو لتشييع جثمان شقيقته إلى مقرها الأخير، ولكنه لم يحضر ولم يرسل اعتذارًا!.

وهكذا كانت الجنازة قاصرة، فيما عدا زوجها، على المستأجرين والخدم فحسب.. أما إيزابيلا فلم يدعها أحد..

ولقد دُهش القرويون إذ رأوا أن كاثرين لم تدفن في صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون، ولا في مقابر أهلها خارجه.. وإنما دفن جثمانها في قبر منفرد، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر، في ركن قصي من فناء الكنيسة، بجوار السور الذي كان منخفضًا في ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبات التوت البريّ الممتدة من منطقة الأحراش والبراري، حتى كادت تغطيه تمامًا.

وفي البقعة نفسها يرقد زوجها الآن، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط، وقد أقيمت عند

أقدامهما كتلة صماء من الحجر الأسمر لتميز موضع القبرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة المشئوم - يوم وسدنا كاثرين الثرى - آخر عهدنا بالطقس الجميل، طيلة شهر كامل.. ففي مســاء ذلك اليوم انقلب الجو بغتة، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقي، فأخذت ترخي حملها من المطر الغزير بادىء ذي بدء، ثم قطع البرد الصلبة، وأخيرًا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض.. حتى إذا أصبحنا في الغداة، كان من العسير أن يتصوّر إنسان أننا قضينا ثلاثة أسابيع في جو شبيه بأيام الصيف.. فقد اختفت الأقاحي والزهور البرية تحت ركام الثلوج المتدفقة، وسكتت القنابر عن شدوها الصداح، وذبلت أوراق الشجر الوليدة وأسود لونها.. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردًا، موحشًا، كئيبًا..

كان سيدي معتكفًا في حجرته، أما أنا فقد احتللت حجرة الجلوس الوحيدة، وحولتها إلى دار للحضـانة!.. وكنت جالسة فيهـا، وفوق ركبتي تلك الطفلة الشبيهة بدميـة صغيرة لا تكف عن الأنين، وقد أخذت أهدهدها وأهزها يمنة ويسرة، وأرقب بين الفينة والفينة رقائق الثلج التي كانت لما تزل تنهمر فوق إفريز النافذة المجردة من الستائر، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة، عندما فُتح الباب، ودخل شخص مبهور الأنفاس، يضحك بصوت عال!.. وقد طغى سخطى وغضبي على دهشتي لحظة قصيرة، إذ حسبت القادم واحدة من الخدم، وصحت بها منتهرة:

- حسبك وكفى!.. كيف تجرؤين على إظهار طيشك ومجونك هنا؟.. ماذا يقول مستر لينتون إذا سمعك؟..

فأجابني صوت مألوف:

- أرجو المعذرة!.. ولكني أعلم أن إدجار في فراشـه الآن، كما غلبني الضحك ولم أستطع إيقافه..

وإذ نطقت المتحدثة بهذه العبارة، تقدمت نحو المدفأة، وهي تلهث بأنفاسها وقد وضعت يدهـا على جنبهـا.. وما لبثت أن استطردت بعد صمت قصير:

- لقد ظللت أجرى طول الطريق من (مرتفعات ويذرنج)، إلى حيث كانت السيول تدفعنى وتغمـرني.. فليس في وسعى أن أحصى عدد المرات التي وقعت فيها.. أواه!.. إن كل ما في بدني يخزني ويؤلمني.. ولكن لاتنزعجي!.. سوف أشرح لك كل شيء بمجرد أن أجد في نفسي القدرة على الكلام.. وكل ما أرجوه الآن هو أن تأمرى بإعداد العربة لتقلني إلى جيمرتون، وأن تطلبي من إحدى الخدم إحضـار بعض الثياب لي من خزانة ملابسي..

كانت القادمة، كما أحسبك قد أدركت، هي مسز هيثكليف (إيزابيلا).. ومن المحقق أنها لم تكن تبدو في حالة تبرر الضحك.. كان شعرها متهدلًا على كتفيها تتخلله ندف الثلج، ويقطر منه المـاء.. وكانت ترتدي ثوبًا من ثيـاب الفتيات التي اعتادت لبسها، يلائم سنها أكثر مما يليق بمركزها.. ثوبًا طويلًا ذا أكمام قصيرة.. كما لم تكن تغطى رأسها أو تضع وشاحًا حول عنقها.. وكان ثوبها حريريًا رقيقًا ألصقه البلل بجسمها، على حين كانت قـدماها لا يحميهما سوى نعل خفيف مفتوح.. وإلى جانب ذلك، كان يمتـد تحت أذنها جرح غائر لم يحل دون نزف الدم منه بغـزارة سوى البرد القارس، كما كان وجهها الناصع البياض مليئًا بالكدمات والخدوش، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على التماسك من الإعياء والهزال معًا.. ولك أن تتصور مبلغ فزعي الذي لم يخفف من حدته الوقت الذي انقضى منذ أن وقعت أنظاري عليها حتى استطعت أن أفحصها في إمعان، فصحت بها قائلة:

- أيتها السيدة العزيزة، إننى لن أتحرك من مكاني، ولن أسمع منك كلمة واحدة أخرى، حتى

تنزعى كل قطعة من ثيابك، وتستبدلى بها ثيابًا جافة دافئة.. ولا ريب أنك لن تذهبي الليلة إلى جيمرتون وأنت في هذه الحالة، فلا داعي إذن لإعداد المركبة..

- بل سوف أذهب حتمًا، سواء ركبت أم مشيت!.. ولكن لا اعتراض لدىّ على تبديل ملابسي والظهور بالمظهر اللائق.. و... آه!.. انظرى كيف يجرى الدم فوق عنقي الآن!.. إن حرارة النار تجعله لاذعًا أليمًا!

وأصرت على أن أنفذ أوامرها قبل أن تسمح لي بأن ألمسها بيدي.. ولبثت حتى سمعتنى آمر الحوذي بإعداد المركبة، وإحدى الوصيفات بإحضار ربطة من الثياب واللوازم الأخرى، وعندئذ فقط رضيت بأن أقوم بتضميد جرحها، ومساعدتها في استبدال ملابسها..

وعندما فرغت من مهمتى، اتخذت مجلسها على مقعد مريح بجانب الموقد، وأمامها قدح من الشاي الساخن، ثم بدأت تقول:

- تعالى الآن يا إيلين، واجلسي أمامي.. لكن أبعدى أولًا بنت كاثرين المسكينة، فلست أحب أن أراها.. ولا ينبغي أن تحسبيني قليلة الاكتراث لموت كاثرين بسبب مسلكي الأحمق عند دخولي.. فقد بكيت، أنا الأخرى، بمرارة شديدة، وكان لدى من أسباب البكاء أكثر مما لدى أي إنسان غيرى، إذ افترقنا متخاصمتين، كما تذكرين، ولن أغفر لنفسى ذلك قط.. ولكني برغم ذلك ما كنت بالتي تشاطره أحزانه، ذلك الوحش المفترس.. آه!.. ناولينى محراك النار!.. هذا آخر شيء اقتنيته، مما يمت إليه بصلة..

ثم نزعت خاتم الزواج الذهبي من أصبعها الثالث وألقت به على الأرض، وراحت تدق عليه بالمحراك الحديدي، متابعة الحديث:

- سوف أحطمه، ثم أرمى به إلى النار..

وشفعت القول بالفعل، إذ تناولت الحلية المشوهة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة، واستطردت تقول:

- والآن.. عليه أن يشتري خاتمًا آخر، إذا استطاع أن يدركني ويعيدني إليه ثانية!.. وهو خليق بأن يحضر ليأخذني من هنا، لا لشيء سوى إغاظة إدجار والنيل منه.. لذلك لا أجرؤ على البقاء، حتى لا تتملك هذه الفكرة رأسه الشرير!.. ثم أن إدجار لم يكن بي شفوقًا رحيمًا، أليس كذلك؟.. ولست بالتي تتهافت على طلب معونته، ولا بالتي تجلب عليه المزيد من المتاعب.. وقد ألجأتني الضرورة إلى أن أنشد المأوى هنا، ولكني لو لم أعلم أنه بعيد عن طريقي، للبثت في المطبخ ريثما أغسل وجهي، وأستدفىء قليلًا، وأدعوك لتحضري لي ما أحتاج إليه، ثم لرحلت ثانية إلى أية بقعة في الأرض بعيدًا عن متناول ذلك اللعين.. ذلك الشيطان المتجسد في بدن إنسان!.. آه!.. لقد كان في ثورة غضب جنونى!.. ولو أنه أدركني وأمسك بي!.. من المؤسف أن هندلي ليس قرينًا له في القوة والبأس!.. ولولا ذلك لما رحلت قبل أن أراه يُمحى من الوجود، لو أن هندلي كان قادرًا على ذلك..

فقاطعتها قائلة:

- حسنًا.. مهلًا يا آنسة، ولا تنطلقي في الكلام بهذه السرعة فسوف تفسدين وضع المنديل الذي ربطته حول وجهك، وتجعلين الجرح يدمى من جديد.. هيا اشربى الشاي، والتقطي أنفاسك المتلاحقة، وخلى عنك هذا الضحك.. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزل المنكوب، ولا بحالتك المؤسفة!

- هذه حقيقة غير منكورة يا إيلين!.. ولكن أصغى إلى هذه الطفلة.. إنها لا تكف عن النواح منذ قدومي.. فأبعديها عن مسامعي ساعة أو بعض الساعة، فلن أمكث هنا طويلًا..

فقرعت الجرس، وعهدت بالوليدة إلى عناية إحدى الخادمات.. ثم مضيت أسألها عما دفعها إلى التعجيل بالفرار من (مرتفعات ويذرنج)، في مثل هذه الحالة الغريبة، وإلى أين تزمع الذهاب، ما دامت تأبي البقاء معنا.. فأجابت:

- كان ينبغي، بل لقد كنت أود، أن أبقى لأسرى عن إدجار وأقوم على رعاية الطفلة المنكودة.. لهذين السببين ولأن (الجرانج (هو بيتي الطبيعي الحق.. ولكنى أؤكد لك أنه لن يدعنى وشأنى.. أتظنينه يطيق رؤيتي هنا ناعمة البال، تكتسي عظامي الناحلة باللحم، أو يطيق مجرد التفكير في أننا نعيش هنا في هدوء وهناء، ثم لا يصمم على أن ينفث سمه فيقضى به على راحتنا وسلامنا؟.. إنني الآن راضية مطمئنة إذ تحققت من كراهيته لى إلى الحد الذي يسوؤه فيه حقًّا أن يجدني على مدى السمع أو مرمى البصر.. كنت ألاحظ عندما أمثل في حضرته كيف تتقلص عضلات وجهه، في حركات لا إرادية، معبرة عما يضمره لي من حقد، وما يكنه لى من بغضاء، ينبعث بعضها من علمه بالأسباب القوية التي تدفعني إلى الإحساس بمثل هذه البغضاء نحوه، وينشأ باقيها من نفوره الأصيل منى.. وهذه البغضاء قد أضحت من القوة بحيث تجعلني أشعر عن يقين بأنه لن يسعى ورائي أو يطاردني في أرجاء إنجلترا كلها، إذا ما دبرت فرارًا نهائيًا، ولذلك يجب أن أذهب إلى مكان بعيد.. ولقد شُفيت تمامًا من تعلقى السابق به، ورغبتى المأفونة في أن ألقى مصرعى على يديه!.. بل شد ما أود الآن أن يقتل نفسه بيده!.. لقد قضى على حبي له، وأطفأ شعلته المتقدة، بحيث هدأ بالى واسترحت!.. ذلك فما زلت أذكر كيف أحببته، وما زلت أتصور كيف كان يمكن أن أقيم على حبه لو.. لا.. لا.. فحتى لو كان يهيم بي حبًّا، فإن طبيعته الشيطانية كانت خليقة بأن تكشف عن وجودها على صورة ما.. ولا بد أن كاثرين كانت ذات ذوق منحرف إلى حد شنيع حتى تنطوى له على كل هذا القدر من التقدير والإعزاز، برغم علمها حق العلم بطبيعته.. يا للوحش!.. أرجو أن يمحو الله ذكراه من الوجود، ومن ذاكرتى!

فقلت:

- صه!.. صه!.. إنه إنسان على أية حال.. ألا كوني أكثر إنصافًا وإحسانًا، فهناك رجال أسوأ منه بكثير برغم كل شيء..

فردت علىَّ قائلة:

- ولكنه ليس إنسانًا على الإطلاق، ولا حق له في شفقتى وإحسانى.. لقد وهبته قلبى، فأخذه وظل يعصره ويخنقه حتى قضى عليه، ثم ألقاه إلىّ ثانية جثة هامدة!.. إن الناس يحسون بقلوبهم يا إيلين، وما دام قد دمر قلبى، فكيف يمكن أن أشعر نحوه بشيء؟.. وما كنت لأشفق عليه أو أرثى لحاله، ولو ظل يئن ويتأوه من اليوم حتى يوم مماته، ويذرف الدموع دمًا على كاثرين.. كلا.. كلا.. لن أفعل حقًّا..

وعندئذ أخذت إيزابيلا في النحيب، ولكنها ما أن ذرفت بعض الدموع حتى كفكفت عبراتها واستطردت تقول:

- إنك سألتني عما دفعني إلى الفرار أخيرًا؟.. لقد اضطررت إلى هذه المحاولة، لأننى أفلحت في إثارة غضبه بما يفوق خبثه ولؤمه.. فإن انتزاع الأعصاب من جذورها، بملاقط محماة في النار، يحتاج إلى مزيد من البرود والهدوء أكثر من الضرب واللطم فوق الرأس.. وقد ثارت ثائرته حتى نسى حذره الذي كان يفاخر به، ولجأ إلى العنف القتّال.. وملأني السرور إذ استطعت أن أخرجه عن طوره، فأيقظ هذا السرور في نفسي غريزة المحافظة على الحياة، وهكذا انطلقت هاربة على الفور.. فلو عدت إليه يومًا من الأيام، وألقيت بنفسي بين يديه ثانيـة، فإنني أستحق أن ينتقم منى شر انتقام..

وأنت تعلمين أن مستر إيرنشو كان يجب أن يحضر الجنازة أمس.. وقد ظلّ محتفظًا بوعيه وصحوته، ولم يقرب الخمر، لهذا الغرض.. فلم يذهب إلى الفراش، كعادته، في السادسة صباحًا فاقد الوعي، ليقوم عند الظهر فيستأنف الشراب.. وهكذا استيقظ مكتئبًا يكاد الانقباض يقتله، لا يصلح للذهاب إلى الكنيسة إلا كما يصلح للذهاب إلى مرقص.. وبدلًا من هذا أو ذاك، جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسًا مترعة من الجن أو البراندي..

أما هيثكليف - وإن بدني ليقشعر عندما أنطق باسمه - فقد ظل غريبًا عن المنزل منذ يوم الأحد الماضي حتى اليوم.. ولست أدرى إن كانت الملائكة هي التي كانت تطعمه، أم أخوه من الجان في العالم السفلي!.. ولكنه لم يتناول ذرة من الطعام معنا زهاء أسبوع.. كان يعود إلى المنزل في الفجر، فيصعد إلى حجرته ويوصد بابها عليه، كأنما كان هناك من يفكر في اشتهاء رفقته!.. وهناك يظل يصلى ويبتهل كأنه من غلاة المتدينين.. ولكن المعبود الذي كان يبتهل إليه كان من التراب والرماد!.. وكان (الله)، إذا دعاه مختلطًا على نحو غريب بأبيه الشيطان الأسود!.. وبعد أن يتم هذه الصلوات الثمينة، التي كانت تطول عادة حتى يبح صوته ويختنق في حلقه، فإنه يبرح الدار لا يلوى على شيء، فيمضي قدمًا إلى الجرانج.. وشد ما أعجب كيف أن إدجار لم يُرسل في طلب شرطي يقوده إلى السجن!.. أما أنا، فعلى ما كنت فيه من حزن وأسى على كاثرين، فقد كان من المستحيل أن أتحاشى اعتبار هذه الفترة التي نجوت فيها من طغيانه المهين، كإجازة سعيدة!

واستعدت مرحى بما يكفي لسماع خطب جوزيف الطويلة الأبدية دون بكاء، وللمضي في الدار ذهابًا وجيئةً في خطى غير خطي اللص المذعور التي كنت أمشي بها من قبل.. ولا أحسبك تظنينني خليقة بأن أبكي من أي شيء يقوله جوزيف، ولكنه وهيرتون شرّ رفقة يمكن أن يُبتلى بها إنسان.. ولخير لى أن أجلس مع هندلي، وأستمع إلى حديثه البشع المروع، من أن أجلس مع (السيد الصغير)، وحاميه الأمين، ذلك الشيخ المأفون المرذول.. وعندما يكون هيثكليف في المنزل، فإنني أضطر غالبًا إلى الالتجاء إلى المطبخ في رفقتهما، أو أرافق الجوع في إحدى الحجرات الرطبة غير المأهولة.. أما إذا كان خارج الدار، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع، فإني أقيم لنفسي منضدة ومقعدًا عند ركن المدفأة بحجرة الجلوس، ولا أبالي بما يفعله مستر إيرنشو ليشغل به نفسه، كما أنه من جانبه لم يكن ليزج بنفسه فيما أتخذه أنا من ترتيبات. وهو الآن أكثر هدوءًا مما اعتاد أن يكون، ما لم يستفزه أحد أو يستثيره، وأشدّ عبوسًا واكتئابًا، وأقل غضبًا وهياجًا.. ويؤكد جوزيف يقينه في أنه أصبح رجلًا آخر، وأن الله قد مس قلبه، وهكذا نال الخلاص كأنما (طهرته النار).. وقد حيرني أن أستشف علامة واحدة من علامات هذا التبدّل المزعوم، ولكن ذلك ليس من شأني في شيء!

وكنت ليلة الأمس أجلس في ركني المعهود، أطالع في بعض الكتب القديمة، حتى ساعة متأخرة إذ أوشك الليل أن ينتصف.. وكان الصعود إلى الطابق العلوي يبدو بشعًا مروعًا، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التي تهب في الخارج، ومع انطلاق أفكاري باستمرار نحو فناء الكنيسة وذلك القبر الحديث البناء!.. ولم أكن أجرؤ على رفع أنظاري من الصفحات المفتوحة أمامي، لأن ذلك المنظر الحزين كان يُسارع إلى احتلال مكانها أمام عيني.. وكان هندلي يجلس في الناحية الأخرى، وقد أحنى رأسه وأسنده إلى راحته، ولعله كان يفكر في ذلك الأمر نفسه!.. وكان قد كفَّ عن الشراب عند مرحلة لم تصل به إلى فقدان الصواب، وجلس ساكنًا لا يتحرك أو ينطق بكلمة نحو ساعتين أو ثلاث.. ولم يكن يُسمع في المنزل كله صوت، غير ولولة الرياح التي كانت ترجَّ النوافذ بين آن وآخر، وغير طقطقة الفحم في المدفأة، أو طقات المقراض كلما أزلت به ذبالة الشموع المحترقة.. أما جوزيف وهيرتون فالأرجح أنهما كانا ينعمان بسبات عميق في فراشهما.. كان مجلسنا حزينًا غاية الحزن، وكنت خلال قراءتي، أزفر زفرات حارة، إذ كان يبدو لي أن كل ما في العالم من بهجة نضب

معينـه وتلاشى من الوجود، ولن يعود إليه قط ثانية..

وأخيرًا مزق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ وهي تتحرك في مكانها، إذ بكّر هيثكليف في عودته من جولته الليلية عن المعتاد، وأحسب أن العاصفة التي هبَّت فجأة كانت السبب في ذلك.. ولكن باب المطبخ كان موصدًا من الداخل بالمزاليج، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر.. عندئذ انبعثت واقفة، وعلى شفتي صيحة لم أستطع كتمانها، كانت تعبر عمـا يختلج في نفسي، وحدت برفيقى الذي كان يحملق بأنظاره في الباب إلى أن يستدير وينظر إلىَّ، قائلًا:

- سوف أدعه واقفًا فى الخارج خمس دقائق أخرى، فهل لديك مانع؟

- كلّا.. لك أن تدعه خارجًا الليل بطوله من أجلى.. أسرع.. ضع المفتاح في القفل وادفع المزاليج وراء الباب..

وفعل إيرنشو ذلك قبل أن يصل القادم إلى واجهة الدار، ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة أمامي، حيث استند إليه، ومال نحوي، وأخـذ يتفرس في عينيّ متفحصًا، ليرى إن كنت أشاطره ذلك الحقد الناري الذي كان يتوهج في عينيه.. ولكنه كان يبدو ويحس كأنه قاتل يتأهب للفتك بفريسته، فلم يستطع أن يدرك مشاعري تمامًا، وإن كان قد تبين منها ما يكفي لتشجيعه على الكلام.. فقال:

- إن لكلينا دينًا عظيمًا لابد من اقتضائه من ذلك الرجل الذي يقف خارجًا.. فإذا لم يكن أحدنا جبانًا رعديدًا، فإن في وسعنا أن نوحد جهدنا لاستخلاص هـذا الدين.. فهل تراك رخوة خائرة العزيمة كأخيك؟.. وهل تودين احتمـال ما تعانينه حتى النهاية ولا تحاولين مرة واحدة أن تثأرى لنفسك؟..

فأجبته:

- لقد أضناني الاحتمال الآن، ولسوف يسرني أن أثأر لنفسي على نحو لا يرتدَّ علىَّ وبالًا.. ولكن الغدر والعنف حراب ذات نصال مرهفة في كلا طرفيها، وهي تجرح أولئك الذين يلجأون إليها بأشد مما تفعل بأعدائهم..

فصرخ هندلي في وجهي قائلًا:

- إن الغدر والعنف هما الجزاء الحقّ للغدر والعنف!.. وإننى يا مسز هيثكليف لا أسألك أن تفعلي شيئًا، بل اجلسى ساكنة في مكانك وأنسى أن لك لسانًا يستطيع النطق!.. والآن، هل في وسعك أن تفعلي ذلك؟.. إنني على يقين من أنك لن تقلى عنى سرورًا واستمتاعًا بمشاهدة نهاية الشيطان الأخيرة!.. إنه سوف يكون هـلاكك، إذا لم تسبقى إلى إهلاكه، وسـوف يكون دمارى.. ألا لعنة الله على الوغد الجهنمي!.. إنه يقرع الباب كأنما أصبح سيد هذه الدار!.. عديني بأن تمسكي لسانك، وسترين أنك قبـل أن تدق الساعة، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة، قد غدوت امرأة حرة!

وأخرج من صدريته ذلك السلاح الذي وصفته لك في خطابي، وأراد أن يُطفيء الشمعة لولا أننى بادرت إلى اختطافها منه، وأمسكت بذراعه قائلة:

- لن أمسك لساني.. كما أنك لا يجب أن تمسه.. دع الباب موصدًا، واركن إلى الهدوء قليلًا..

فصاح الإنسان اليائس قائلًا:

- كلا.. لقد انتهيت إلى قرار حاسم، وأقسم بالله أن سوف أنفذه.. سوف أُسـدى إليك جميلًا

برغم أنفك، وأرد إلى هيرتون حقوقه.. ولا أراك في حاجة لأن تشغلي رأسك بحمايتي!.. لقد ذهبت كاثرين، ولم يعد في الوجود من يحزن عليَّ، أو يلحقه العار بسببي لو أنني قطعت عنقى هذه اللحظة.. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر..

ولو أنني ناضلته وقتئذ فكأنني كنت أصارع دبًّا هائجًا، ولو ناقشته فكأنني كنت أجادل مجنونًا فاقد الصواب.. فلم تعد أمامي من حيلة ألجأ إليها سوى أن أعدو إلى إحدى النوافذ لأحذر ضحيته مما ينتظره من قضاء.. فصحت في نبرات يخالجها الانتصار:

- خيرٌ لك أن تبحث عن مأوى لك في مكان آخر الليلة، فإن مستر إيرنشو يفكر في أن يطلق عليك النار إذا أصررت على محاولة الدخول..

- بل خير لك أن تفتحي الباب أيتها الـ..

قال ذلك وهو يخاطبني بلفظ رشيق لا أرى ما يدعو لترديده!.. ولكني عدت أقول له:

- لن أزج بنفسي في هـذا الأمر، فما عليك إلا أن تدخل وتُصاب بالرصاص إذا كان ذلك يسرك!.. أما أنا فقد أديت واجبى..

وما انتهيت من كلامي حتى أغلقت النافذة ثانية، وعدت إلى مكاني بجوار الموقد.. وإذ كانت ذخيرتي من النفاق قـد فرغت، فلم يعد في وسعي أن أتظاهر بالقلق نحو الخطر الذي يتهدده!.. أما إيرنشو فقد راح يسبني في حـرارة ويؤكد أنني ما زلت أحب الوغد بعد، ويُطلق عليَّ صنوفًا من النعوت والصفات لما أظهرته من نفسية وضيعة!.. أما أنا فكنت في قرارة قلبي (ولم يؤنبني ضميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلي ورحمة لو استطاع هيثكليف أن يضع نهاية لبؤسه، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو أن يرسل هيثكليف إلى مثواه العادل!.. وفيما كنت جالسة أهدهد هـذه الخـواطر، إذا بمصراع إحدى النوافذ الضيقة خلف مقعدي يهوى إلى الأرض فجأة بعد أن أهوى عليه هيثكليف بضربات عنيفة، ثم بدا من خـلال النافذة وجهه الأسود الهضيم.. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كتفيه، فابتسمت ابتهاجًا لما أحسست به من أمن مزعوم.. وكان الثلج الأبيض يغطى شعره وثيابه، بينمـا كانت أنيابه الحـادة المفترسة تتألق في الظلام، وقـد جعله البرد والغضب يكشر عنها..

وما لبث أن راح (يزوم (كما يقول جوزيف، قائلًا:

- دعيني أدخل يا إيزابيلا، وإلا جعلتك تندمين طويلًا..

فأجبته:

- ليس في وسعى أن أرتكب جريمة قتل.. فإن مسـتر هنـدلى يقف مترقبًا وفي يده سكين ومسدس محشـو بالرصاص..

- افتحي لي باب المطبخ..

- سوف يسبقك هندلي إليه.. ثم ما أتفه هـذا الحب الذي تطوى عليه جوانحك فلا يجعلك تطيق رذاذًا من الثلوج!.. لقد كنا نرقد في فرشـنا هانئين ناعمين طالما كان قمر الصيف مشرقًا زاهيًا، ولكنك في اللحظة التي تعود فيهــا عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجأ ومأوى!.. لو أنني كنت في مكانك يا هيثكليف، لذهبت ورقدت فوق قبرها حتى أموت أشبه بكلب أمين ذي وفاء!.. فإن الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقًّا، أليس كذلك؟.. وقد أوحيت إليَّ، بما لا يقبل الشك، بأن كاثرين كانت وحـدها كل ما في حياتك من بهجة وسعادة، ولست أستطيع أن أتصور كيف تفكر في أن تعيش بعد فقدها!

وعندئذ هتف رفيقي وهو يندفع نحو فجوة النافذة:

- إنه هناك.. أليس كذلك؟. إذا استطعت أن أُخرج ذراعى فسوف أصيبه حتمًا!

وأخشى يا إيلين أن تعديني شريرة متأصلة الشر، ولكنك لا تعرفين كل شيء، فلا تحكمي عليّ.. فإنني ما كنت لأشترك أو أحرض على أية محاولة للاعتداء على حياته، مهما يكن من أمر.. ولكن ما من شك في أنني كنت أتمنى موته!.. ولذلك فقد خاب أملى إلى حد مخيف، وانخلع قلبي من الرعب مما سوف يكون لحديثي العنيف من عواقب مروعة، عندما ألقى بنفسه على سلاح إيرنشو وانتزعه من قبضته..

وانطلقت الرصاصة مدوية.. أما السكين فإنها عندما ارتدت إلى مخبئها، أطبقت على رسغ صاحبها.. وانتزعها هيثكليف في قوة خارقة، حتى مزقت اللحم وهي تجرى فوقه، ثم ألقى بها في جيبه وهي تقطر بالدماء.. وعندئذ تناول حجرًا ضخمًا وراح يحطِّم به الفاصل بين النافذتين، ثم وثب إلى داخل الحجرة.. وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعي، من فرط الألم، ومن فيض الدماء التي تدفقت من شريان كبير مقطوع..



وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعي، من فرط الألم، ومن فيض الدماء التي تدفقت من شريان كبير مقطوع..

فأخذ الوغد يركله ويطؤه بقدميه ويدق البلاط برأسه المرة تلو المرة، وهو يمسك بي بيده الأخرى ليحول دون استنجادى بجوزيف.. وكان يبذل جهدًا فوق طاقة البشر في نكران الذات ودفع عوامل الإغراء، حتى لا يجهز عليه نهائيًا، ولكنه إذ بدأ يلهث من التعب أخيرًا، كف عن متابعة عمله الشيطاني، وراح يجر الجسم المسجى حتى الأريكة، ثم مزق كم سترة إيرنشو وأخذ يربط الجرح في خشونة وحشية وهو يبصق ويلعن في حمية لا تقل عن التي كان يركله بها.. وإذ ألفيت نفسي قد تحرّرت من قبضته، لم أضيع شيئًا من الوقت في البحث عن الخادم الشيخ، الذي ما كاد يستوعب في بطء وتبلد فحوى قصتى العاجلة، حتى أسرع يهبط الدرج كل اثنتين معًا، وهو يغمغم لاهثًا:

- ماذا يجب عمله الآن؟.. ماذا يجب عمله الآن؟..

فصاح به هيثكليف في صوت كهزيم الرعد:

- هاك ما يجب عمله.. إن سيدك مجنون، ولو ظلّ على هذه الحال شهرًا آخر، فسوف أبعث به إلى مستشفى الأمراض العقلية.. ثم كيف اجترأت، بحق الشيطان على إيصاد الأبواب دوني، أيها الكلب الأهتم؟.. لا تقف هكذا تغمغم وتهمهم في مكانك.. تعال، فإنني لن أقوم على تمريضه.. اغسل هذه الأقذار ونظف الجرح.. ولكن حذار من شرر شمعتك، فان أكثر من نصف هذه الدماء من الكحول!

فهتف جوزيف وهو يرفع ذراعيه، وعينيه، إلى السماء فزعًا ورعبًا:

- وإذن فقد كنت تعمل على الفتك به؟.. إن عيني لم تقعا على مثل هذا المنظر قط من قبل!.. فليكن الله..

وعندئذ دفعه هيثكليف دفعة قوية ألقت به على ركبتيه وسط الدماء، ثم طوح إليه بمنشفة.. وبدلًا من أن يأخذ جوزيف في مسح الدماء، ضمّ يديه معًا، وانطلق في صلاة انتزعت ألفاظها العجيبة الضحك منى برغم إرادتي.. فقد كنت في حالة عقلية تجعلني أتأثر من أتفه شيء.. بل الواقع أنني كنت فاقدة الشعور متبلدة الحس كما يبدو بعض المجرمين وهم عند أعتاب المشنقة!

فقال الطاغية وقد نبهته ضحكتي:

- آه!.. لقد نسيتك.. أنتِ التي يجب أن تقوم بهذا العمل.. اركعى على الأرض.. هل كنت تتآمرين معه ضدى أيتها الأفعى؟.. هيا.. هذا هو العمل الذي يليق بك..

وراح يهزنى حتى اصطكت أسناني في قوة، ثم طوَّح بي إلى جوار جوزيف.. وكان هذا الأخير ماضيًا في دعواته وابتهالاته، حتى أتمَّها في ثبات، وعندئذ نهض ناذرًا أن يذهب على الفور إلى (الجرانج)، فقد كان مستر لينتون قاضيًا، ولو ماتت له خمسون زوجة فلن يتأخر عن التحقيق في هذا الأمر..

وكان من العناد والإصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هيثكليف من الأوفق أن ينتزع من شفتي ملخصًا لما حدث.. كان يقف فوق رأسي، لاحثًا بالشر والضغينة، بينما كنت أنطق بشهادتى في نفور، ردًا على أسئلته المتتابعة.. وقد احتاج الأمر إلى جهد عظيم لإقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتدى، خصوصًا وأن اجاباتي كانت تُنتزع مني في عناء.. ومهما يكن من أمر، فسرعان ما أقنعه مستر إيرنشو نفسه بأنه ما زال على قيد الحياة، فقد أسرع جوزيف بإحضار جرعة من الشراب كان لها أثرها في إسعاف سيده، فما لبث أن استرد الوعي والحراك.. وإذ كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شيء عن المعاملة التي لقيها منه بينما كان فاقد الرشد، فقد دعاه بالسكير المخرف، وقال إنه سوف يغضي

عن مسلكه الأثيم، ثم نصحه بأن يذهب إلى فراشه!.. وكم كان سروري إذ فارقنا بعد أن ألقى بهذه النصيحة القيمة.. فاستلقي هندلى على الأرض بجوار الموقد، أما أنا فانصرفت إلى حجرتي، متعجبة من أننى أفلت منه بهذه السهولة..

وعندما نزلت صباح اليوم، قبل الظهر بنصف ساعة، كان مستر هندلى جالسًا بجانب النار، شاحب الوجه كالأموات، بينما وقف شيطانه الزنيم مستندًا إلى المدفأة، وهو لا يقل عنه شحوبًا واصفرارًا.. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل إلى تناول الطعام، حتى إذا ما طال انتظاري، وبرد الطعام وفتر فوق المائدة، بدأت الأكل وحدي.. وكنت أستشعر نوعًا من الرضى والسمو، كلما ألقيت بين الحين والآخر نظرة على رفيقيّ الصامتين، وأحس في أعماقي براحة ضميري الذي لا يثقله وزر أو سوء.. فلما فرغت من طعامي، تذرعت بالجرأة لممارسة حريتي المعتادة في الاقتراب من الموقد، فدرت حول مقعد إيرنشو، وجثوت في الركن إلى جانبه..

ولم يلق هيثكليف نظرة واحدة نحوي، أما أنا فقد رحت أحدق النظر إليه وأتفرس في أساريره، بقلب قوى غير هياب، وكأنها قد تحولت إلى حجر منحوت.. كان جبينه، الذي حسبته ذات مرة معبرًا عن الرجولة الحقة، والذي أحسبه الآن كجبين الشيطان، تظلله سحابة كثيفة من الهم والأسى.. وكانت عيناه الثعبانيتان، قد أطفأ بريقهما السهد، وربما البكاء إذ كانت أهدابهما وقتئذ رطبة ندية.. أما شفتاه اللتان تجردتا من سخريتهما الضارية، فقد أطبقتا في قوة وكأنما ختم عليهما حزن دفين مكتوم.. ولو أنه كان شخصًا آخر، لأخفيت وجهي بين يدي أمام مثل هذا الحزن العظيم.. أما في حالته هو، فقد وجدت فيها ما يرضيني ويثلج قلبي.. ومهما يكن يبدو من الخسة والنذالة أن يسبّ المرء عدوًا مهزومًا، إلا أننى ما كنت لأدع هذه الفرصة تمر دون أن أرميه بسهم من يدى.. فساعة ضعفه هي اللحظة الوحيدة التي أذوق فيها لذة مقابلة الإساءة بالإساءة..

فقاطعتها قائلة:

- بئس ما فعلت يا آنسة!.. ان المرء ليظن أنك ما فتحت كتابًا مقدسًا في حياتك.. وإذا كان الله قد ابتلى أعداءك، فان ذلك خليق بأن يكفيك.. فمن النذالة والكفران معًا أن تضيفي عذابك إلى عذابه جل شأنه!

فاستطردت تقول:

- إنني أوافقك على ما تقولين يا إيلين بصفة عامة.. ولكن أي عذاب ذلك الذي يصيب هيثكليف ويرضيني، إذا لم تكن لى يد فيه؟.. إنني كنت أرجو أن تقل آلامه، لو أننى كنت التي سببتها، وكان هو يعرف أننى سببها.. آه!.. إننى مدينة له بالكثير!.. وإنني لخليقة بأن آمل أن أصفح عنه، بشرط واحد فقط.. ذلك أن أجزيه عينًا بعين وسنًا بسن، وكل عصرة من الألم عصرة مثلها، حتى أهبط به إلى مستواي!.. وإذ كان هو البادىء بالعدوان والإساءة، فدعيه يكن البادىء باستجداء الصفح، وعندئذ.. عندئذ فقط يا إيلين يمكن أن أظهر لك شيئًا من الكرم.. ولكن من المحال قطعًا أن أستطيع الانتقام لنفسي، ولذلك فإنني لن أستطيع الصفح عنه..

ثم أردفت تتابع الحديث:

طلب هندلي بعض الماء، فناولته الكوب، ثم سألته عن حالته، فقال:

- لست مريضًا بالقدر الذي كنت أوده.. وبغض النظر عن آلام ذراعي، فإن كل قيراط من بدني يخزني ويؤلمني كأنما كنت أحارب فرقة من العفاريت..

فكانت ملاحظتي التالية أن قلت:

- نعم.. ولا عجب!.. لقد اعتادت كاثرين أن تزهو بأنها تقف بينك وبين أي أذى جسماني.. وكانت تعنى أن أحد الناس لن يجرؤ على إيذائك، حتى لا يُسيء إليها.. والآن تأكدت أن الناس لا يقومون حقيقة من قبورهم، وإلا كان من الممكن أن تشهد كاثرين ليلة الأمس منظرًا كريهًا منفرًا.. ألست تحس بالكدمات والقطوع في صدرك وكتفيك؟..

- لست أدرى تمامًا.. ولكن ماذا تعنين؟.. هل اجترأ على ضربي بينما كنت طريحًا على الأرض؟..

فهمست قائلة:

- كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب رأسك بالبلاط، وكان اللعاب يسيل من فمه شوقًا إلى تمزيقك بأنيابه.. لأنه ليس إلا نصف إنسان، وأما باقيه فشيطان رجيم..

فتطلّع مستر إيرنشو بأنظاره إلى أعلى محملقًا، مثلى، في وجه عدونا المشترك الذي كان مستغرقًا في همومه وآلامه بحيث كان يبدو غافلًا عن كل ما يدور حوله.. وكان كلما طال وقوفه، كلما ازداد انطباع أفكاره السوداء على أساريره وضوحًا..

فتأوه هندلى، وتلوى في مقعده وهو يهمّ بالنهوض، وكأنه لا يستطيع صبرًا، وقال:

- آه!.. لو أن الله يهبني من القوة القدر الذي يكفي لأن أخنقه بيدي وأنا في النزع الأخير، لدخلت الجحيم راضيًا مسرورًا!

ولكنه غاص في مقعده ثانية، وقد تملكه اليأس، بعد ما تبين قصوره عن النضال.. بينما كنت أقول بصوت مرتفع:

- لا.. لا.. فيكفي أنه قتل واحدًا منكم.. إن كل إنسان في (الجرانج) يعرف أن شقيقتك كانت خليقة بالبقاء على قيد الحياة الآن، لولا مستر هيثكليف.. وهكذا فإن الأفضل للمرء أن يكون محل بغضه وكراهيته من أن يكون موضع حبه وهيامه.. وإنني كلما ذكرت كيف كانت السعادة تحلق فوقنا جميعًا، وكيف كانت كاثرين سعيدة هانئة قبل مقدمه، أراني ألعن ذلك اليوم من كل قلبي..

وأغلب الظن أن هيثكليف أدرك ما في هذا القول من الصدق، أكثر من إدراكه ما كان يعتمل في قلب الشخص الذي نطق به.. فقد ثار انتباهه لكلماتي، كما رأيت، إذ أخذت عيناه تمطران الدموع بين أهدابهما، وراح يلتقط أنفاسه في أنات مختنقة.. فرحت أحملق النظر إليه مواجهة، ثم ضحكت ساخرة.. فانطلقت نحوي من نافذتى جهنم الغائمتين نظرات نارية لم تدم أكثر من لحظة.. ولكن الشيطان الذي كان يطلّ منهما عادة كان كامدًا، غريقًا، بحيث لم يخالجني الخوف لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة أخرى..

فقال الثاكل المحزون:

- قومى، واغربي عن ناظرى..

وقد فهمت كلماته من قبيل الحدس والتخمين، إذ كان صوته مختنقًا لا يكاد يبين منه لفظ أو حرف.. فأجبته:

- أرجو المعذرة!.. ولكني كنت أحب كاثرين أيضًا.. وها هو ذا شقيقها يحتاج إلى العناية التي سوف أقدمها له، إكرامًا لذكراها.. أما وقد ماتت الآن، فإني أراها في هندلى.. إن عينيه تشبهان عينيها تمامًا، لولا محاولاتك في جعلهما بارزتين مجللتين بالسواد والحمرة!.. كما

أنها..

فصاح قائلًا:

- انهضى أيتها التعسة الحمقاء، قبل أن أسحقك وأقضى عليك..

ثم همَّ بحركة جعلتني أتحرك في مكاني بدورى، ولـكنى أردفت، قائلة، وقد أعددت نفسي للفرار:

- ولكن لو أن كاثرين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت أن تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقير المزرى، لقب (مسز هيثكليف)، لغدت وشيكًا في مثل هذه الصورة الأليمة.. إنها - هي - ما كانت لتحتمل مسلكك الفظيع في سكون وهدوء، ولوجد بغضها واشمئزازها متنفسًا..

وكان ظهر المقعد المرتفع، وشخص إيرنشو، يحولان بينه وبيني.. وهكذا فإنه بدلًا من أن يحاول الانقضاض علىّ، اختطف سكينًا من فوق المائدة، وقذف بها رأسي، فأصابتني تحت أذنى، وأوقفت العبارة التي كنت على وشك أن أنطق بها.. ولكني انتزعتها، ووثبت نحـو الباب، ثم ألقيت إليه بعبارة أخرى أحسبها كانت أشد عمقًا في نفسـه من قذيفتـه التي رماني بها!.. وكانت آخر لمحة رأيتها منه، أنه اندفع نحوي في وحشية، ولكن حال بينه وبين ملاحقتي أن مضيفه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان متماسكين بجوار المدفأة.. وفي أثناء فراري من المطبخ، طلبت إلى جوزيف أن يُدرك سيده، وتعثرت في هيرتون الذي كان يدلى جروًا رضيعًا من فوق ظهر المقعد في مدخل المطبخ.. وفى سعادة الروح التي أفلتت من يوم الحساب، انطلقت أقفز وأثب وأطير طيرانًا في الطريق المنحدرة، ثم ما لبثت أن تركت منحنياتها ومضيت أخترق البراري رأسًا، فأتدحرج فوق الشطآن، وأخـوض خلال المستنقعات، وأستحث خطاى نحو (الجرانج (الذي اتخذت منه منارًا يهدينى سـواء السبيل.. وإننى لأفضل ألف مرة أن يُحكم علىَّ بالسكني الأبدية في تلك المنـاطق الجهنميـة، من أن أقضي ولـو ليلة واحدة تحت سقف (مرتفعات ويذرنج (ثانية..

وكفت إيزابيلا عن الكلام، وأخذت رشفة من الشاي، ثم نهضت وطلبت إلىَّ أن أعاونها في ارتداء قبعتها والتدثر بشال كبير أحضرته لها، وقد أعارت توسلاتي لها بالبقاء ساعة أخرى أذنًا صماء، ثم ارتقت مقعدًا فقبَّلت صورة كاثرين وصـورة إدجار، ومنحتني قبلة أخرى، وأسرعت إلى العـربة وفى صحبتها كلبها (فاني (الذي كان ينبح في فرح شـديد لاستعادة سـيدته.. وانطلقت بها العربة، فلم تضع قدمها في تلك الأنحاء بعد ذلك قط.. ولكن نشأ بينها وبين سـيدى تراسل منتظم بعد أن ازدادت الأمور استقرارًا.. وأعتقد أنها اتخذت مقرها الجديد في الجنوب، بالقرب من لندن.. وهناك وضعت غلامًا، بعد بضعة شهور من فرارها، أسمته (لينتون)، وقالت إنه كان منذ مولده عليلًا هزيلًا شكسًا..

وقابلنى مستر هيثكليف في القرية ذات يوم، وسألني عن المكان الذي تقيم فيه، فرفضت أن أخبره به.. فقال إن الأمر ليس بذي أهمية لديه، ولكن عليها أن تحذر الحضور للإقامة مع أخيها وليقم بالانفاق عليها إذا شاء، ولكن على ألا تساكنه أو تقيم معـه.. ومع أننى أبيت الإدلاء إليـه بأية معلومات، فقد اكتشف، عن طريق بعض الخدم الآخـرين، المكان الذي تُقيم فيه، ومولد الطفل أيضًا.. ولكنه مع ذلك لم يُقدم على إزعاجها أو ملاحقتها.. وهو إحجام أحسبها تحمد له بواعثه وهي نفوره منها وكراهيته لها.. وكان غالبًا ما يسألني عن الغلام، كلما رآني.. ولما سمع اسمه ابتسم في عبوس وقال معقبًا:

- إنهم يريدون أن أكرهه أيضًا أليس كذلك؟

- بل لا أحسبهم يريدون أن تعرف عنه شيئًا البتـة..

- ولكن سوف آخذه، عندما أريـد.. وليكونوا من ذلك على يقين..

ومن حسن الحظ أن أمه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت.. وكان ذلك بعد وفاة كاثرين بثلاثة عشر عامًا، عندما كان لينتون الصغير في الثانيـة عشرة من عمره، أو أكثر قليلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتح لي أية فرصـة للتحـدث إلى سيدي غداة زيارة إيزابيلا غير المتوقعة.. فقد كان عزوفًا عن الحديث لا تسمح له حالته بمناقشة أي موضوع.. فلما استطعت أن أحملـه على الإصغاء رأيت أن فراق شقيقته لزوجها قد سرَّه كثيرًا، إذ كان يمقت هيثكليف مقتًا شديدًا بلغ من الغزارة ما لم أكن أحسب أن اعتـدال طبيعته يسمح به.. كان نفوره واشمئزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب الذهاب إلى أي مكان يُحتمـل أن يراه فيـه أو يسمع عنه.. ولهذا السبب، فضلًا عن حـزنه العميق، تحوَّل إدجار إلى ناسك يعتزل الناس والـعالم.. فتخلى عن وظيفته القضائية، وامتنع حتى عن الذهاب إلى الكنيسة، وتجنب زيارة القـرية في جميـع المناسبات، وراح يمضي حيـاته في عزلة تامة داخـل حدود بستانه وضياعه، لا يتجاوزها إلا في جولة يقوم بها وحيـدًا بين البراري، أو زيارة يؤديها لقبر زوجته، معظمها في المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيره من المارة من ديارهم..

ولكنه كان من الطيبة والتدين بحيث لم يقم على الاستسلام للشقاء طويلًا.. لم يكن - كما فعل الآخر - يدعـو روح كاثرين إلى ملازمته وارتياده! وساهم الزمن في جعله يذعن للقضاء، وكساه طابعًا من الكآبة أحلى من المرح المألوف!.. وكان يستعيد ذكراها في حب وحنـان عميقين، وفي الدعـاء لها بالتنعم بعالم أفضل، لم يكن يشك البتة في ذهابها إليه!.. ولكن كان له عزاؤه وعواطفه الدنيـوية أيضًا.. فقد مكث أيامًا حسبته خلالها لا يهتم على الإطلاق بالنبتة الصغيرة التي خلفتها الراحلة.. ولكن جموده ما لبث أن ذاب بأسرع مما تذوب الثلوج في شهر أبريل، حتى أنه قبـل ان تستطيع الصغيرة أن تنطق بكلمة أو تحبو خطوة، كانت تحتل في قلبه عرشًا مكينًا.. وسماها كاثرين، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا الأسم كاملًا قط، كما لم يكن يدعـو كاثرين الأولى باسمها المصغر قط.. ربما لأن هيثكليف اعتـاد أن يدعـوها به.. كانت الصغيرة تسمى (كاثى (دائمًا.. وكان له في ذلك ما يميزها عن أمها، وما يربطها بها في الوقت نفسه.. وكان تعلقه بها ينبثق من صلتها بأمها أكثر مما ينبعث من أبوته لها..

وقد اعتدت أن أقارن بينه وبين هندلى إيرنشو، وأكدح فكرى، في حيرة ودهشة، للوصول إلى تفسير يقنعنى لما بدا من تناقض مسلكهما إلى هـذا الحـد، في ظـروف متماثلة تمامًا.. كان كلاهما زوجًا شـديد الولع بزوجته، غـزير العاطفة نحو طفله، ومن ثم لم يكن بوسعي أن أفهم كيف لا يسلك كلاهما طريقًا واحدة، سواء أكانت نحو الخير أم نحو الشر.. ولكن هندلي - كما قلت لنفسي - وقد كان أقواهما مراسًا وأكبرهما عقلًا، قد أثبت أنه أسوأ الاثنين وأضعفهما.. فعنـدما ارتطمت سفينته، هجـر الربان مركزه، فاندفع البحارة نحو التمرد والفوضى، بدلًا من أن يحـاولوا إنقـاذ سفينتهم المنكودة، ولم يدعوا لها ذرة من الأمل في النجاة.. وعلى العكس من ذلك، أظهر لينتون تلك الشجاعة الحقة التي تتميز بها النفس المؤمنة المخلصة.. كان يؤمن بالله ويثق به، فوهبه الله الراحة والسكينة.. غدا أحدهما معقـلًا للأمل، والآخر فريسة لليأس.. اختار كل منهما نصيبه، فقـُدر عليه أن يحتمله بحق.. ولكنك لا تريد أن تسمع منى هـذا النقد الأخلاقي يا مستر لوكوود.. وتود أن تحكم بنفسك - مثلما استطعت أن أفعل - على كل هذه الأشياء.. أو هـذا على الأقل ما سوف تظن أنك فاعله.. والأمر بعد ذلك سواء.

وجاءت نهاية إيرنشو مثلما كان يمكن للمرء أن يتوقعها.. وقد أعقبت وفاة شقيقته سريعًا،

لا يكاد يفصل بينهما أكثر من ستة شهور.. ولم نكن في (الجرانج (نعرف أقل شيء عن حالته قبل موته، فكل ما استطعت أن أعرفه إنما سمعت به عندما ذهبت للمساعدة في معدات الجنازة.. فقد حضر مستر كينيث ليبلغ النبأ إلى سيدي، في صباح أحد الأيام، وكان الوقت مبكرًا، فلم يشأ أن يصدمني بذكر الأنباء السيئة مباشرة، وإنما قال لي وهو يدخل راكبًا جواده في الفناء:

- حسنًا يا نللي!.. إنه الآن دورك ودوري في ارتداء ثياب الحداد.. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم؟..

فسألته في لهفة شديدة: من؟..

فقال وهو يترجل ويعلق عنان الجواد في الخطاف بجوار الباب:

- لماذا؟.. عليك أن تحدسي بنفسك.. ثم عليك أن ترفعي طرف مرولتك، فإني واثق من أنك ستحتاجين إليها..

فصحت قائلة:

- إنه - يقينًا - ليس مستر هيثكليف؟..

فقال الطبيب:

- ماذا؟.. وهل كنت تجدين دموعًا تذرفينها عليـه؟.. كلا.. فهيثكليف شاب متين الجسم قوى البنية.. وهو يبدو مشرقًا ناضرًا اليوم، فقد رأيته للتو.. وقد بدأ جسمه يمتلىء باللحم سريعًا منذ أن ضاع نصفه الحلو..

فعدت أهتف في صبر نافد:

- من إذن يا مستر كينيث؟..

- هندلى إيرنشو.. صديقك القديم هندلى، وصاحبي التعس المنكود، ولو أنه كان شديد الضراوة معي في هـذه الآونة الطويلة الأخيرة.. آه!.. لقد قلت إننا سوف نفجر الماء من العيون!.. ولكن لا.. دعى عنك البكاء.. فقد مات مخلصًا لخلقه ومبادئه!.. مات ثملًا كأحد اللوردات!.. آه!.. يا للفتى المسكين!.. إننى حزين من أجله كذلك.. فالمرء لا يملك إلا أن يحزن لفقد رفيق قديم، ولو أنه كان ينطوى على أسوأ الصفات التي لا يتخيلها إنسان، وفعل معى الكثير من أنواع الخداع الدنيئة!.. ويبدو أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، أي في مثل سنك تمامًا.. فمنذا الذي كان يظن أنكما ولدتما في سنة واحدة؟..

وأعترف أن تلك اللطمة كانت أشـد وقعًا على نفسي من صدمة وفاة مسز لينتون.. وبدأت ذكريات أيامنا القديمة تطوف بقلبي، فجلست في الشرفة، ومضيت أبكي بحرقة كأنما أبكي قريبًا تربطنى به صلة الدم، راغبة إلى مستر كينيث أن يدعو خادمًا أخرى لتقوده إلى السيد.. ولم يكن في وسعى أن أمنع نفسي من إمعان الفكر في هذا السؤال: (أتراه لقى معاملة كريمة لائقة؟.. (فإنني مهما فعلت، فإن هـذه الفكرة سوف تظل تلاحقنى وتنغص عيشى.. وقد كانت من الإلحاح المضنى بحيث عزمت على أن ألتمس الإذن لي بالذهاب إلى (مرتفعات ويذرنج)، لأساهم في أداء الواجب الأخـير نحو الفقيد.. وكان مستر لينتون، في بادىء الأمر، يأبى كل الإباء أن يسمح لي بذلك، ولـكني رحت أدافع في حـرارة وذلاقة لسان عن الحال التي يرقـد فيها هنـدلى مجردًا عن الأصدقاء والأحبـة، وقلت إن لسـيدي القـديم وأخي في الرضاعة، من الحقـوق في خدماتي ما لا يقل عن حقـوق مستر لينتون نفسه.. وفضلًا عن ذلك فقـد ذكرته بأن هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته، وأن من واجبه، وهو

أقرب الناس إليه الآن، أن يكون حاميه وحارسه.. وقلت إنه ينبغي له، بل يجب عليه، أن يتحرى عن الحالة التي تُركت بها أملاك شقيق زوجته، وأن ينظر في رعاية مصالحه.. ولكنه كان وقتئذ في حالة لا تسمح له بمباشرة مثل هذه الشئون، فأمرني بأن أتكلم في ذلك مع محاميه، ثم سمح لي بالذهاب.. وكان محاميه هو محامي مستر إيرنشو في الوقت نفسه، فذهبت إلى زيارته في القرية، وسألته أن يصحبني.. ولكنه هزَّ رأسه سلبًا، ونصح لي بأن ندع مستر هيثكليف وشأنه، مؤكدًا أنه لو عرفت الحقيقة، فسيتبين أن هيرتون قد تُرك أدنى إلى المعدمين والشحاذين.. ثم أردف قائلًا:

- لقد مات أبوه غارقًا في الدين، بعد أن رهن كل ما يملكه.. والأمل الوحيد أمام الوريث الطبيعي الآن، هو أن نتيح له الفرصة لكي يخلق في قلب الدائن شيئًا من الاهتمام به بحيث يميل إلى معاملته بنوع من الرفق والتسامح.

فلما بلغت (مرتفعات ويذرنج)، أوضحت أنني جئت كى أشارك في عمل الترتيبات اللائقة بالفقيد.. وقد أعرب جوزيف عن ارتياحه لحضوري، وكان يبدو في حزن عميق.. أما هيثكليف فقد قال إنه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودي، ولكن في وسعي أن أبقى، وأن آمر بما أراه نحو معدات الجنازة، إذا رغبت في ذلك.. ثم عقب قائلًا:

- إن الأصوب أن يُدفن جثمان هذا المعتوه في مفترق الطرق دون احتفال من أي نوع.. فقد حدث أن تركته عشر دقائق بعد ظهر الأمس، فما كان منه في هذه الفترة الوجيزة إلا أن أوصد أبواب المنزل في وجهي، ثم أمضى الليل بطوله يشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد.. وحطمنا الباب في الصباح، إذ سمعناه يرسل نخيرًا عاليًا كالحصان فوجدناه ملقى فوق الأريكة، غائبًا عن الصواب، لا يفيق ولو سلخنا جلده أو شققنا رأسه!.. وأرسلت في طلب كينيث، فلم يحضر إلا وقد تحوَّل هذا البهيم إلى رمة!. كان ميتًا، باردًا، متيبسًا.. وهكذا ترين أنه كان من العبث أن نحدث مزيدًا من الضجة بسببه..

وأيد الخادم الشيخ هذه الرواية، ولكنه غمغم يقول:

- كنت أفضل أن يذهب في طلب الطبيب بنفسه، فإننى كنت خليقًا بأن أعنى بالسيد خيرًا منه.. ثم أنه لم يكن قد مات عند ذهابي.. لا شيء من ذلك البتة!

وأصرَّرت على أن تُشيع جنازته بما يليق به من احترام، فقال مستر هيثكليف إنه يدع لى التصرف في هذا الأمر كما أشاء أيضًا، ولكنه يود أن يذكرني بأن المال الذي سينفق على الجنازة إنما سيخرج من جيبه هو!.. وكان يبدو جامدًا، في غير مبالاة، لا ينم مظهره عن حزن أو فرح.. وإن دل على شيء البتة، فإنما يدل على رضى صارم، كما يرضى المرء عندما ينتهي بنجاح من مهمة شاقة.. بل لقد لاحظت مرة في الواقع شيئًا يشبه الابتهاج في مظهره، وكان ذلك على وجه التحديد عندما حُمل النعش إلى خارج المنزل.. ومع ذلك فقد كان من النفاق بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة.. وقبل أن يغادر المنزل مع هيرتون، حمل الغلام المنكود ووضعه فوق إحدى الموائد، ثم غمغم يقول له في تلذذ غريب: (والآن يا صغيري العزيز، لقد أصبحت لي وحدي، وسوف نرى إن كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الأخرى، ما دامت الريح التي تهب عليهما وتثنيهما واحدة!).. وسر الطفل البرىء لهذا الحديث الذي لم يفقه منه شيئًا، وراح يعبث بسوالف هيثكليف ويربت على خده.. ولكنى تكهنت بالمعنى الذي يرمي إليه، فقلت في مرارة:

- إن هذا الصبي يجب أن يعود معى إلى (ثرشكروس جرانج (يا سيدى، فهو آخر شيء في العالم يمكن أن يصبح لك!

فسألني في اهتمام: وهل قال لينتون ذلك؟

- بلا شك.. لقد أمرني أن أعود به معى..

فقال الوغد:

- حسنًا.. إننا لن نناقش هذا الأمر الآن.. ولكن بي ميلًا إلى أن أربى غلامًا صغيرًا، فبلغى سيدك أنه إذا حاول أخذ هذا الصبي، فلا بد لي من أن أحلّ ابني محله.. ولست أتعهد بترك هيرتون يذهب دون أن أنازع حق سيدك في أخذه، أما الآخر فإني واثق من إحضاره حتمًا.. فلا تنسى أن تبلغيه ذلك..

وكان هذا التلميح كافيًا لغل يدي.. فلما عدت أخبرت سيدى بما قال، ولما كان إدجار لينتون قليل الاكترات للأمر منذ البداية، فإنه لم يتكلم عن التدخل في الأمر بعد ذلك قط.. ولست أعتقد أنه كان قادرًا على عمل شيء، حتى ولو كان راغبًا في ذلك..

وهكذا أصبح الضيف سيد (مرتفعات ويذرنج (الآن، حيث استولى عليها بيد من حديد، وأثبت للمحامي - الذي أثبت ذلك لمستر لينتون بدوره - أن إيرنشو قد رهن كل شبر من الأراضي التي كان يملكها ليحصل على المال الذي يشبع به جنونه بالمقامرة.. وكان هيثكليف نفسه هو المرتهن..

وعلى هذا النحو أصبح هيرتون - الذي كان ينبغي أن يكون الآن السيد الأول في المنطقة - خالي الوفاض لا يملك شيئًا، ويعتمد اعتمادًا كليًّا على عدو أبيه اللدود، ويعيش في منزل أسرته كأحد الخدم - وإن كان محرومًا من ميزة الأجر الذي يتقاضاه الخدم! - وهو عاجز عن استعادة حقوقه، لأنه محروم من الأصدقاء والأنصار، ولأنه يجهل كيف كان ضحية الغدر والخيانة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

وتابعت مسز دين قصتها فقالت:

كانت الأعوام الاثنا عشر التي تلت تلك الفترة المشئومة، أسعد أيام حياتي، فكان أعظم ما لقيته فيها من متاعب ناشئًا من تلك الأمراض الطفيفة التي كانت تنتاب أحيانًا سيدتنا الصغيرة، مثلما تصيب جميع الأطفال يستوي في ذلك الغني منهم والفقير.. وفيما عدا ذلك فإنها بعد أن أجتازت الشهور الستة الأولى، نشأت كالشجرة الباسقة، واستطاعت أن تمشى وأن تتكلم على طريقتها الخاصة، قبل أن يُزهر العشب مرة أخرى حول قبر مسز لينتون، أي قبل أن يمر عام على وفاتها.. كانت أكثر (الأشياء (استمالة للقلب وأقدر من استطاع، في يوم من الأيام، أن يجلب شعاعًا من الشمس إلى المنزل الموحش!

كان محياها آية من آيات الجمال، فقد ورثت عيون آل إيرنشو السوداء الساحرة، وورثت من آل لينتون بشرتهم الناصعة البياض، وملامحهم الدقيقة، وشعرهم الأشقر المجعد.. وكانت روحها عالية، في غير خشونة.. وتميزت بقلب شديد الحساسية والحيوية إلى حد الإفراط في عواطفه.. وكنت كلما رأيت فيها ذلك الاستعداد للتعلق الشديد بما تهواه، أذكر أمها.. ومع ذلك فلم تكن تشبهها، لأنها كانت قادرة على أن تكون وديعة رقيقة كالحمامة، كما كان لها صوت عذب جميل، ومحيا ترتسم فيه علائم التفكير والانشغال.. لم يكن غضبها ثائرًا جموحًا، ولم يكن حبها ضاريًا عنيفًا، وإنما كان عميقًا حنونًا.. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لهـا أخطاء تشين مزاياها.. من ذلك ميلها إلى الشقاوة!.. بل وكانت لها إرادة عنيدة كتلك التي يكتسبها الأطفال المدللون سواء أكانوا مسالمين بطبعهم أم مشاكسين.. فلو صادف أن غاظها أحد الخدم فإنها لا تزيد على القول دائمًا: (سوف أخبر بابا!..).. أما إذا لامها والدها، ولو بنظرة واحدة، فإنك تخاله أصابها بما يحطم القلوب!.. ولست أعتقد أنه خاطبها يومًا من الأيام بكلمة خشنة أو عبارة قاسية..

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه، وجعل من ذلك مسلاة له.. ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها وميلها إلى العلم، في شغف وفضول، قد جعلا منها تلميذة مجـدة ناجحة.. وكانت تدرس في سرعة ونهم، وتلتهم الدروس التهامًا أثلج قلب والدها وجزى تعبه في تعليمها خير الجزاء..

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمرها قـد خرجت إلى ما وراء حدود البستان وحدها.. كان مستر لينتون ربما صحبها إلى خارج البستان ميلًا أو ميلين، في مرات نادرة.. ولكنه لم يكن يأمن أن يعهد بها إلى أحد سواه.. كان اسم القرية (جيمرتون (لفظًا لا قيمة له ولا معنى في أذنيها.. وكانت الكنيسة هي المبنى الوحيد الذي اجتازت عتبته، فيما عدا منزلها.. أما (مرتفعات ويذرنج (و (مستر هيثكليف (فلم يكن لهما وجود بالنسبة إليها.. كانت تعيش في عزلة تامة، وكانت فيما يبدو قانعة بذلك راضية تمامًا.. وأقول (فيما يبدو (لأنها كانت أحيانًا كلما سرحت بأنظارها، من نافذة حجرة ألعابها، في المناظر البعيدة تقول في تردد:

- كم ينبغي أن ينقضى من الوقت يا إيلين قبل أن أستطيع السير إلى قمم هذه التلال؟.. شد ما أعجب ما الذي يقع في الناحية الأخرى منها.. هل هو البحر؟.

فكنت أقول:

- كلا يا مس كاثي.. بل تلال أخرى شبيهة بهذه تمامًا..

وسألتنى مرة:

- ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقفت تحتها؟.

وكان السفح الشديد الانحدار لصخرة (بنستون كراجز (يلفت نظرها بصفة خاصة، ولا سيما عندما تتألق فوقه أشعة الشمس الغاربة، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والأراضي المجاورة لها.. فقلت لها إنها مجرد كتل من الحجر والصخور الصلدة التي لا تحوي شيئًا من التربة يصلح لإنبات شجرة واحدة..

فتابعت أسئلتها في إلحاح:

- ولماذا تظل مضيئة وقتًا طويلًا بينما يخيم الظلام هنا؟.

- لأنها مرتفعة ارتفاعًا عظيمًا عن مكاننا هذا.. كما أنه ليس في استطاعتك أن تتسلقيها، فهي شديدة الارتفاع شديدة الانحدار، والثلوج تعلوها في الشتاء قبل أن تصل إلينا.. بل لقد وجدت الثلوج مرة، في أواسط الصيف، تحت ذلك التجويف الأسود الذي ترينه في الجانب الشمالي الشرقي!

عندئذ صاحت في جذل:

- آه!.. هل ذهبت إلى هناك إذن؟ سوف أستطيع الذهاب بدوري إذن عندما أبلغ مبلغ النساء!.. وهل ذهب أبي إلى هناك يا إيلين؟..

فسارعت إلى الإجابة قائلة:

- سوف يخبرك أبوك يا آنستي، أنها لا تستحق عناء الزيارة.. إن البراري التي تتجولين معه فيها، أعظم منها جمالًا وروعة، كما أن (بستان ثرشكروس (هو أجمل مكان في العالم..

فغمغمت كأنما تحدِّث نفسها:

- ولكني أعرف البستان ولا أعرف هذه التلال!.. ولسوف يبهجني أن أقف فوق تلك القمة العالية وأجيل أنظاري فيما يُحيط بى!.. سوف يأخذنى مهري الصغير (ميني (إلى هناك يومًا من الأيام!

وذكرت إحدى الوصيفات أمامها مرة اسم (كهف الحوريات (فأدار ذكره رأسها بالرغبة في تنفيذ هذا المشروع، وكانت لا تفتأ تكدر صفو والدها بالحديث عنه، فكان يعدها بأن تقوم بهذه الرحلة عندما تتقدّم في العمر.. ولكن مس كاثرين كانت تقيس عمرها بالشهور، فكان السؤال الذي لا يُبارح شفتيها: (والآن، هل كبرت بما يكفي لذهابي إلى بنستون كراجز؟.. (ولكن الطريق إلى هناك كان يدور ملاصقًا (لمرتفعات ويذرنج)، ولم يكن إدجار يميل إلى المرور بها، وهكذا كانت تتلقى دائمًا هذه الإجابة: (كلا يا حبيبتي!.. لم يحن الوقت بعد!).

قلت إن مسز هيثكليف عاشت أكثر من اثني عشر عامًا بعد أن هجرت زوجها، وأُضيف أن أفراد أسرتها كانوا جميعًا ضعاف البنية، فكانت تنقصها، كما تنقص إدجار، تلك الصحة اليانعة التي تلقاها عادة في أهل هذه المنطقة.. ولست أدرى عن يقين ماذا كان مرضها الأخير، ولكني أحسب أنها وأخاها قد ماتا بمرض واحد، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور في بدايتها، ولكنها غير قابلة للشفاء، وتلتهم الحياة سريعًا في النهاية.. وقد كتبت إلى أخيها لتخبره بقرب نهايتها بعد مرض ألزمها الفراش أربعة شهور متوالية، ورجته أن يذهب إليها، إذا استطاع، لأن لديها الكثير من الأمور التي تريد تسويتها، ولأنها تريد أن تودعه الوداع الأخير، وتعهد إليه بلينتون الصغير آمنة مطمئنة.. وكانت ترجو أن يترك هيثكليف لينتون مع خاله، كما كان معها، وتجد سرورًا في إقناع نفسها بأن أباه كان عزوفًا عن الاضطلاع بإعالته أو تعليمه.. فلم يتردد سيدى لحظة واحدة في الاستجابة لرجائها.. وعلى

الرغم من نفوره من مغادرة منزله في الزيارات العادية، كما كان عهده في الآونة الأخيرة فإنه سارع إلى تلبية تلك الدعوة، وعهد بكاثرين إلى عنايتي الساهرة أثناء غيابه، وأصدر لي أوامره المشددة بألا أدعها تجوب خارج البستان، ولو في صحبتي.. أما خروجها وحدها فأمر لم يخطر له على بال.

وطالت غيبته ثلاثة أسابيع.. ففي اليومين الأولين كانت الصغيرة المعهود بها لعنايتي تجلس في ركن المكتبة وقد منعها الحزن من القراءة أو اللعب، وهكذا لم تسبب لي إلا القليل من المتاعب وهي في هذه الحالة من الهدوء والسكينة.. ثم تلت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والمشاكسة.. وإذ كنت كثيرة المشاغل، وقد تقدَّم بي العمر، وليس في وسعي أن أجاريها في القفز والجرى والصعود والهبوط لتسليتها، فقد استنبطت طريقة تستطيع بها أن تسلى نفسها بنفسها.. وذلك بأن أبعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة، سيرًا على الأقدام تارة وراكبة مهرها الصغير تارة أخرى، ثم أتملقها بالإصغاء في صبر وأناة إلى قصص مغامراتها الحقيقية والخيالية، عندما تعود من جولاتها..

كان الصيف مشرقًا بكل روعته وبهجته، فكانت تجد متعة كبيرة في هذه النزهات الانفرادية، بحيث كانت كثيرًا ما تبقى خارج الدار من وقت الإفطار حتى موعد الشاي بعد الظهر، ثم تقضى أمسياتها في رواية قصصها الخيالية المثيرة.. ولم أكن أخشى أن تخترق الحدود المرسومة لها، لأن البوابات كانت عادة محكمة الغلق، ولأني حسبتها لا تجرؤ على اجتيازها والتوغل خارجها وحدها لو أنها كانت مفتوحة على مصراعيها..

ولكني سرعان ما تبينت - لسوء الحظ - أن ثقتي لم تكن في موضعها.. فقد حضرت لي كاثرين ذات صباح، في الساعة الثامنة، وقالت إنها سوف تكون اليوم تاجرًا عربيًّا يعبر الصحراء بقافلته، وأن عليَّ أن أوفر لها المزيد من المؤن لنفسها ولسائر أعضاء القافلة من الدواب، وهي حصانها وثلاثة (جمال (ممثلة في كلب سلوقي كبير واثنين من كلاب الصيد.. فأعددت لها كمية وفيرة من الفطائر والحلوى وجمعتها في سلة علقتها على أحد جانبى سرج الحصان، وعندئذ اعتلت ظهره في خفة ومرح، وقد ارتدت قبعتها ذات الحافة العريضة والنقاب الحريري الخفيف ليحميا رأسها ووجهها من شمس يوليو القاسية، ثم انطلقت تعدو بالجواد وهي تطلق ضحكة مرحة، وتسخر من نصائحي وتحذيراتي بتجنب الإسراع في السير، والتبكير في الحضور.. ولكن الخبيثة لم تظهر حتى موعد تناول الشاى، ولم يعد من أفراد قافلتها سوى الكلب السلوقي إذ كان متقدمًا في العمر مغرمًا بالراحة والاسترخاء..



طلقت تعدو بالجواد وهي تطلق ضحكة مرحة، وتسخر
نصائحي وتحذيراتي بتجنب الإسراع في السير..

أما كاثي والمُهر وكلبا الصيد فلم يظهر لأي منهم أثر في أي مكان.. وبعثت بالرسل يجوسون خلال الممرات في البستان والمزارع، وأخيرًا مضيت للبحث عنها بنفسي.. والتقيت بعامل يشتغل في إصلاح السياج حول أحد الحقول، عند حدود مزرعتنا، وسألته إن كان قد رأى سيدتنا الصغيرة، فقال:

- لقد رأيتها في الصباح حيث طلبت مني أن أقطع لها غصنًا من شجرة البندق، ثم وثبت بجوادها فوق السور عند تلك البقعة التي ينخفض فيها أكثر من غيرها، وأسرعت تعدو حتى اختفت عن الأنظار!

ولك أن تتصور مبلغ ما اعتراني من جزع لدى سماعي هذه الأنباء، وخطر لي على الفور أنها لابد قد ذهبت إلى (صخور بنستون (التي كانت تتوق لرؤيتها عن كثب.. فهتفت أقول لنفسي: (ويلاه!.. ماذا يكون مصيرها؟.. (ثم اندفعت خلال الثغرة التي كان العامل يصلحها في السياج، ومضيت قدمًا نحو الطريق، أغذ السير كأنني في سباق، وأقطع القفار ميلًا بعد ميل، حتى بلغت منحنى أرى عنده (مرتفعات ويذرنج)، ولكني لم أتبين أثرًا لكاثرين من قرب أو من بعد.. وكانت (صخور بنستون (تقع على بعد ميل ونصف من مسكن مستر هيثكليف، كما كان ذلك يبعد عن (الجرانج (بأربعة أميال، وهكذا بدأت أخشى أن يهبط الظلام قبل أن أستطيع بلوغها، ورحت أغمغم قائلة لنفسي: (وماذا يكون الحال لو كانت قد زلت قدمها في أثناء تسلق الصخور، فسقطت قتيلة، أو كُسرت بعض عظامها؟.. (والواقع أن جزعى كان أليما أشد الألم، ولذلك غمرنى سرور الارتياح - باديء ذي بدء - عندما كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فإذا بي أرى (شارلى (أحد كلبي الصيد، بل أشرسهما، ملقى تحت إحدى النوافذ، وقد ورم رأسه وأخذ الدم ينزف من أذنه.. ففتحت باب السور وأسرعت إلى المنزل ورحت أطرق بابه بقوة ولهفة، وما لبث أن فُتح عن امرأة كنت أعرفها، كانت تعيش من قبل في جيمرتون والتحقت بالخدمة هنا على أثر وفاة مستر إيرنشو، فما كادت ترانى حتى صاحت:

- آه!.. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة؟.. لا تخشى شيئًا.. إنها هنا بخير وسلامة.. ولكنى مسرورة لأنه لم يكن السيد هو الذي يطرق الباب..

فغمغمت مبهورة الأنفاس من المشي السريع واللهفة والقلق:

- إنه ليس في المنزل إذن؟

- كلا.. كلا.. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد.. ادخلي وارتاحي قليلًا..

فدخلت، وإذا بي أرى حملي الشارد جالسة بجوار المدفأة، تتأرجح في مقعد صغير كان لأمها وهي صغيرة.. وكانت قبعتها معلقة في مشجب على الجدار، بينما كانت تبدو في راحة واطمئنان كأنها في بيتها، وقد راحت تمرح وتتحدث في طلاقة إلى هيرتون - الذي أصبح الآن شابًّا قويًّا في الثامنة عشرة - وهي في أحسن حالاتها النفسية.. وكان هيرتون يحملق بأنظاره إليها في دهشة وفضول بالغين، ولا يفقه إلا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التي كان لسانها الذلق لا يكف عن صبها في أذنيه..

وأخفيت فرحتي برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء، وصحت:

- مرحى.. مرحى.. يا آنسة!.. سوف تكون هذه آخر مرة تركبين فيها جوادك، حتى يعود أبوك من سفره.. وما عدت أثق بك أو أطمئن إلى اجتيازك عتبة الدار أيتها الفتاة الشقية!

فهتفت في مرح وهي تثب من مجلسها وتسرع إلى جانبى:

- آه يا إيلين!.. سوف تكون لديّ قصة رائعة لأرويها لك الليلة!.. ولكن أراك عثرت عليّ، فهل أتيت إلى هـذا المنزل في حياتك قبل الآن؟

فتجاهلت سؤالها، وقلت في صرامة:

- ضعى قبعتك وهيا إلى المنزل على الفـور.. وإننى شديدة الاستياء منك، يا مس كاثي، فقد أتيت خطأ جسيمًا.. ولا فائدة من العبوس أو البكاء، فإن ذلك لن يجـزى ما سببته لي من قلق وجزع بينما كنت أذرع المنطقة طولًا وعرضًا في البحث عنك!.. وكلما فكرت كيف عهد لي مستر لينتون بالمحافظة عليك ومنعك من الخروج من المزرعة، وإذا بك تتسللين إلى الخارج على هذا النحو، ازددت استياءً من مسلكك.. وهذا يدل على أنك ثعلب صغير ماكر، ولن يضع أحد ثقته بك بعد ذلك قط!

وكانت قد بدأت في النحيب، فإذا بها تكف دفعة واحدة، وتقول:

- ما الذي فعلته؟.. إن أبي لم يأمرني بشيء.. كما أنه لن يؤنبني يا إيلين، فإنه لم يكن قط صارمًا قاسيًّا مثلك!

فعدت أقول:

- هيا.. هيا.. سوف أربط لك شريط القبعة.. والآن دعينا من المشاكسة.. آه!.. يا للعار!.. أتكونين في الثالثة عشرة، وتتصرفين كطفلة صغيرة؟

وقد فهت بهذه الملاحظة الأخيرة عندما دفعت القبعة عن رأسها وأسرعت تقف بجوار المدفأة بعيدًا عن متناول يدي.. وتدخلت الخادمة قائلة:

- رويدك، ولا تكوني قاسية على الصبية الطيبة يا مسز دين!.. إننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا، إذ كانت تتوق إلى المضي في طريقها، خشية أن تقلقي عليها.. وقد عرض عليها هيرتون أن يذهب معهـا، وأحسب أنه كان ينبغي أن يرافقها، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة..

وكان هيرتون في أثناء هـذا النقاش يقف واضعًا يديه في جيبى سراويله، وقد استبدّ به الارتباك فلم يستطع النطق بكلمة واحدة، وإن كان يبدو غير مرتاح إلى تطفلي!

واستطردت أقول غير مكترثة بتدخل المرأة:

- كم من الوقت يجب أن أنتظرها؟.. سوف يحل الظلام بعد عشر دقائق.. فأين مهرك يا مس كاثي؟.. وأين (فينكس)؟.. سوف أتركك وأمضى لشأني، ما لم تسرعي.. فافعلي ما يحلو لك!

- إن المُهر في الفناء.. أما فينكس فمحبوس هناك، لأنه معضوض، وكذلك شارلي.. وقد كنت على وشك أن أخبرك بكل شيء في هذا الأمر، ولكنك سيئة الخلق، ولا تستحقين الاستماع إلى روايتي!

والتقطت القبعة من الأرض، واقتربت منها لأضعها فوق رأسها ثانية، ولكنها إذ رأت الشـاب والخـادمة ينحازان لصفها، بدأت تقفز حول الحجرة بعيدًا عنى.. وشرعت في مطاردتها فإذا بها تجري هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الأثاث وتحتها وخلفها، مما جعل استمراري في المطاردة مثيرًا للسخرية، فضحك هيرتون والخادمة، وشاركتهما هي في الضحك، وأمعنت في القحة حتى صحت أخيرًا في انفعـال شديد:

- حسنًا يا مس كاثي.. لو أنك عرفت منزل من هـذا لكان يسرك ان تغادريه على الفور..

فنظرت هي إلى هيرتون قائلة:

- إنه منزل أبيك، أليس كذلك؟

فلم ينطق إلا بكلمة (كلا)، وقد أغضى بنظراته إلى الأرض واحمر وجهه احمرارًا شديدًا من الخجل.. فلم يكن يقوى على الصمود أمام نظراتها الثابتة ولو أن عينيها كانتا تشبهان عينيه تمامًا..

فعادت تسأله:

- منزل من إذن؟.. سيدك؟

فازداد تورد وجهه عمقًا حتى غدا أرجواني اللون، ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول، وغمغم بكلمة سباب، ثم أشاح بوجهه بعيدًا..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهي توجه لي الخطاب:

- من هو سيده؟ لقد كان يتكلم فيقول (بيتنا)، و (قومنا).. ولذلك حسبته ابن صاحب المنزل.. ثم إنه لم يقل أبدًا (يا سيدتي (وهو يخاطبني، وكان يجب أن يقولها إذا كان خادمًا، أليس كذلك؟

فغدا وجه هيرتون رماديًا داكنًا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد، بينما جذبت محدثتي في صمت، وأفلحت أخيرًا في إعدادها للرحيل.. وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدًا من سياس (الجرانج (قائلة:

- اذهب الآن واحضر جوادي.. ويمكنك أن تأتى معى، فإني أريد أن أرى أين ينهض صائد العفاريت من وسط المستنقعات، وأسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن.. ولكن أسرع!.. ماذا دهاك؟.. لقد أمرتك بأن تحضر لي الجواد..

فزمجر الشاب قائلًا: (سوف أراك هالكة في الجحيم قبل أن أكون خادمًا لك!).

فقالت كاثرين في دهشة: سوف تراني ماذا؟

- هالكة في الجحيم أيتها الساحرة السليطة اللسان!

فتدخلت قائلة:

- كفى يا مس كاثى!.. لقد رأيت أنك زججت بنفسك في رفقة غير لائقة بك.. أمثل هذه الألفاظ تُوجه إلى سيدة شابة؟.. ولكني أرجوك ألا تبدئى النقاش والشجار معه، وتعالى نبحث عن (المهر مينى (بنفسنا ونرحل من هنا..

فهتفت تقول، وقد شلت الدهشة البالغة حواسها:

- ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة يا إيلين؟ أليس المفروض أن يطيع ما آمره به؟.. سوف أخبر أبي بما قلته أيها المخلوق الشرير.. والآن!

فلم يبد على هيرتون ما ينم على اكتراثه بهذا الوعيد، وهكذا انبثقت الدموع من عينيها لشعورها بالمهانة، وتحوَّلت إلى المرأة، صائحة:

- اذهبي أنت فأحضرى المهر وأطلقي سراح الكلب في التو واللحظة!

فأجابتها الخادم:

- حنانك يا آنسة!.. إنك لن تخسرى شيئًا بالرقة وحسن المعاملة.. ومع أن مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب الدار، إلا أنه ابن خالك.. أما أنا فلم يؤجرني أحد لخدمتك!

فصاحت كاثرين في ضحكة ساخرة: هو؟.. هو ابن خالي أنا؟..

- نعم.. هذه هي الحقيقة..

فنظرت إليَّ في قلق بالغ وتابعت الحديث:

- آواه يا إيلين!.. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء الفظيعة.. لقد ذهب أبي ليحضر ابن عمتي من لندن، وهو ابن أحد السادة!.. أما هذا..

وكفَّت عن الكلام وانفجرت باكية، إذ قلب كيانها مجرد التفكير في وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المهرج..

فهمست أقول لها:

- صه.. صه!.. إن الناس يمكن أن يكون لهم أبناء عمومة وأبناء خؤوله عديدون ومن كل نوع، يا مس كاثى، دون أن يسوؤهم ذلك.. وكل ما في الأمر أنه لا ينبغي لهم أن يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم إذا كانوا شريرين بغضاء..

- ولكنه ليس.. إنه لا يمكن أن يكون ابن خالى يا إيلين!

وكانت كلما أمعنت التفكير في الأمر ازدادت حزنًا وهمًّا، حتى ألقت بنفسها بين ذراعي كأنما تحتمى بي من هذه الفكرة..

أما أنا فقد اشتد بي الضيق والكدر منها ومن الخادمة معًا لتصريحاتهما المتبادلة!.. فلم أشك لحظة أن قرب وصول لينتون، الذي ذكرته كاثي، سوف يبلغ لمستر هيثكليف.. وكنت موقنة أشد اليقين من أن أول ما ستفعله كاثرين عند عودة والدها هو أن تطلب منه إيضاحًا لما ذكرته الخادمة عن قرابتها لهذا الفتى الجلف السيىء الأدب!

وكان هيرتون قد أفاق من نفوره واشمئزازه من اعتباره أحد الخدم، وبدا عليه التأثر لحزنها وأساها.. فمضى وأحضر المهر أمام الباب، ثم أراد استرضاءها فأخذ من الوجار جروا صغيرًا معوج السيقان ووضعه في يدها وهو يطلب إليها أن تُهدىء من روعها لأنه لم يكن يقصد شيئًا.. فتمهلت في البكاء ريثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفزع، ثم انفجرت باكية من جديد!

ولم أستطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين الذي رأيته الآن شابًا رياضيًا متين البنيان وسيم الطلعة ممتلئًا صحة وعافية، إلا أنه يرتدى ثيابًا خشنة رثة تلائم أعماله اليومية في الحقل، وجولاته الدائمة في البراري سعيًا وراء الأرانب الجبلية وغيرها من أنواع الصيد والقنص.. ومع ذلك خُيل إليَّ أنني أستطيع أن أستشف وراء محياه عقلًا يحوي من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط.. ومن المحقق أن هناك أشياء كثيرة طيبة تختفي وسط الأعشاب والحشائش ويطغى عليها تكاثرها الكثيف السريع فيخفي تحته نموها البطيء الذي لا يجد العناية الكافية لكي يؤتي ثماره.. ومع ذلك فقد رأيت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارًا وفيرة لو أتيحت لها ظروف أكثر ملاءمة.. وأحسب أن مستر هيثكليف لم يسىء معاملته بدنيًا، والفضل في ذلك يرجع إلى طبيعة الفتي الذي شب لا يعرف الخوف، والتي كانت بذلك لا تتيح الفرصة للإغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد.. فلم يكن على شيء من الخجل والاستكانة التي كان يمكن لهيثكليف أن يجد فيهما دافعًا لسوء معاملته له.. وهكذا يبدو أنه إنما كرس حقده وضغينته ليجعل منه بهيمًا جاهلًا فظ

الخلق.. فلم يُلقن شيئًا من مبادىء القراءة والكتابة، ولم يُزجر يومًا عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقًا أو غضبًا، ولم تقد قدماه خطوة واحدة في طريق الفضيلة، ولا صين خلقه بنصيحة واحدة عن مهاوي الرذيلة.. وكان لجوزيف - فيما سمعت - نصيب وفير في دماره، إذ كان تحيزه له – وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله - يدفعه إلى تملقه وتدليله مذ كان صبيًا صغيرًا، لأنه كان يعده رأس العائلة العريقة القديمة.. وبينما كان لا ينفك يتهم كاثرين إيرنشو وهيثكليف – عندما كانا صغيرين حدثين - بإثارة السيد واستنفاد صبره، فدفعه بذلك إلى البحث في الخمر عن السلوى والعزاء مما كان يسميه (أساليبهما الشريرة)، فإنه صار الآن يلقي عبء أخطاء هيرتون كلها على عاتق الغاصب الذي سلب أملاكه.. فإذا انطلق الصبي في السباب لم يحاول تهذيبه، وكذلك لم يحاول تقويمه مهما كان مسلكه مليئًا بالذنوب والأخطاء.. ويظهر أن جوزيف كان راضيًا كل الرضى وهو يراه ينحدر إلى أسوأ مدى.. فقد سمح بدمار الصبي، وبترك روحه تهيم في وديان الضلال، لا لشيء إلا لإعتقاده بأن هيثكليف هو الذي سوف يُكفر عن ذلك كله!.. وكان يعتقد أن هيرتون يجب أن يحفظ دماء أسرته العريقة في ذرية ينجبها، فكان يجد في هذه الفكرة عزاءً ما بعده عزاء.. وكان جوزيف لا يفتأ يصب فيه، قطرة بعد قطرة، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته.. وكان يود - لو وجد الجرأة على ذلك - أن ينمي فيه الحقد والكراهية نحو مالك (مرتفعات ويذرنج (الحالي.. ولكن فزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغا مرتبة الفزع من الشياطين والأرواح الشريرة!.. فكان يقصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح في غمغمة خافتة، وعلى الوعيد بالويل والثبور في سره!.. ولست أزعم أننى أعلم عن يقين مجرى الأمور في (مرتفعات ويذرنج (في تلك الأيام، وإنما أروى ما كنت أسمعه، لأنني لم أكن أرى هنا إلا أقل القليل.. وكان القرويون يؤكدون أن مستر هيثكليف رجل شحيح يسوم مستأجريه العذاب ويقسو عليهم.. غير أنني أشهد، والحق يقال، أن المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة، تحت إدارة النساء اللواتي استخدمهن، وأن مشاهد العربدة والشغب التي كانت تمثل أيام هندلي لم يعد لها وجود بين جدرانه الآن.. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس ونشدان صحبتهم، خيارهم وأشرارهم معًا.. وما زال كذلك حتى الآن..

ومهما يكن من أمر فإن ذلك لا شأن له بمجرى قصتى.. ولنعد إلى مس كاثي، فقد رفضت قبول هدية الصلح، وهي الجرو الرضيع، وطلبت أن يؤتى لها بكلبيها (شارلى وفينكس)، فجاءا يعرجان، وقد تدلى رأساهما.. وعندئذ بدأنا في رحلة العودة إلى المنزل، على أسوأ ما تكون الرحلات، وكل واحدة منا تحمل همها وأساها.. ولم أفلح في أن أستخلص من سيدتي الصغيرة كيف قضت يومها، سوى ذلك الشيء الذي حدسته، وهو أن كعبتها كانت في ذلك اليوم (صخور بنستون).. وأنها وصلت بغير حادث حتى باب (مرتفعات ويذرنج)، عندما تصادف اندفاع هيرتون وفي صحبته رفقة من الكلاب لم تلبث أن هاجمت قافلتها.. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما.. وكان هذا الحادث سببًا للتعارف بينهما، فقد أطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها، وأخبرته بما اعتزمته من الذهاب إلى التلال، ثم سألته أن يرشدها إلى الطريق، وأخيرًا استدرجته إلى مصاحبتها.. وقد كشف لها عن أسرار (كهف الجنيات (وعشرات غيره من الأماكن العجيبة.. ولكنها، وقد كانت غاضبة منى، لم تر أن تمن عليَّ بوصف ما شاهدته من الأشياء المسلية الغريبة.. ومع ذلك استطعت أن أتبين أن رفيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آذت شعوره بمخاطبته كأحد الخدم، وحتى آذت خادمة هيثكليف شعورها بما زعمته من أنه ابن خالها!.. ثم جاءت تلك الألفاظ الشنيعة التي وجهها إليها فملأت قلبها حقدًا وألمًا!.. وهي التي كانت تسمع دائمًا ألفاظ (حبيبتى (و (عزيزتى (و (ملكتى (و (ملاكى (يخاطبها بها كل إنسان في (الجرانج)، فوجه إليها الآن السباب الشائن من شخص غريب!.. إنها لم تكن تفهم لذلك سببًا.. وقد بذلت جهدًا شاقًا لأنال منها وعدًا بإخفاء أحزانها عن والدها، وشرحت لها كيف أنه لا يرتاح إلى أي مخلوق ممن يسكنون (المرتفعات)، وكم يكون مبلغ أسفه وأساه لو

عرف أنها كانت هناك.. ولكن النقطة التي ألححت فيها كثيرًا، هي تلك الحقيقة الواقعة وهي أنها لو أفشت له إهمالي لأوامره، فربما بلغ به الغضب إلى حد يضطرني إلى ترك المنزل.. ولم تكن كاثي لتقوى على احتمال هذه النتيجـة الأليمة، ومن ثم وعدتني بكتمان الأمر، إكرامًا لي، وحافظت على هذا الوعد.. فقد كانت، على أية حال، فتاة رقيقة الشعور حلوة الشمائل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

ثم وافانى خطاب مجلّل بالسواد، يعلن موعد عودة سيدي. فقد ماتت إيزابيلا، وكتب لي السيد طالبًا تحضير ثياب الحداد لابنته، وإعداد حجرة خاصة، وغيرها من وسائل الراحة، لابن أخته الصغير.. وقد جنت كاثرين فرحًا من التفكير في قرب استقبالها لأبيها عائدًا من رحلته، واستسلمت إلى تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لا عدد لها لابن عمتها (الحقيقي).. ثم حلت تلك الأمسية التي كنا نتوقع وصولهما فيها.. وكانت كاثرين منذ الصباح الباكر منهمكة في ترتيب أشيائها الخاصة الصغيرة.. أما الآن، وقد ارتدت ثوبها الأسود الجديد - ويا للطفلة المسكينة!.. إن موت عمتها لم يغمر نفسها بحزن واضح المعالم - فقد اضطرتني بمضايقاتها الكثيرة المستمرة، إلى السير معها حتى نهاية أرضنا لنكون في استقبالهما..

ومضت تثرثر ونحن نتمشى الهويني فوق المرتفعات والمنخفضات المكسوة بالعشب الندى تحت ظلال الأشجار:

- إن لينتون لا يصغرني إلا بستة شهور.. فما أجمل أن يكون رفيقي في اللعب!.. وكانت عمتي إيزابيلا قد بعثت إلى أبي بخصلة من شعره الجميل، فإذا به لا يقل نعومة عن شعري وإن كان يفوقه في خفته وشقرته.. وقد احتفظت بها في عناية داخل صندوق صغير من الزجاج، وكثيرًا ما كنت أفكر أنه سوف يكون أمرًا بهيجًا لو أُتيح لي أن أرى صاحبها عيانًا!.. آه!.. إنني سعيدة حقًا!.. فها هو أبي العزيز، أبي المحبوب يوشك على المجيء!.. تعالى يا إيلين.. دعينا نجر إلى البوابة.. تعالي نجر معًا..

وأخذت تعدو، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتعود من جديد عدة مرات، قبل أن تسعفني خطواتي المتئدة الكليلة ببلوغ البوابة.. وهناك جلست فوق العشب الأخضر على جانب الممر، وحاولت جعلها تتذرع بالصبر في الانتظار.. ولكن ذلك كان محالًا.. فلم تستقر في جلستها دقيقة واحدة.. وكانت تهتف بى:

- ما أشد بطئهما في الحضور!.. آه!.. إنني أرى سحابة من الغبار في الطريق.. فلعلهما قادمان؟.. ولكن لا.. متى يصلان إلى هنا إذن؟.. ألا نمضي فى الطريق قليلًا يا إيلين؟.. نصف ميل مثلًا؟.. مجرد نصف ميل فقط؟.. ألا قولي نعم.. دعينا نمض حتى تلك الخميلة من الشجر عند منعطف الطريق!

ولكني رفضت في إصرار.. وأخيرًا انتهى انتظارها، فقد ظهرت عربة السفر وهي قادمة تعدو في الطريق.. وصاحت مس كاثي ومدت ذراعيها إلى الأمام، عندما رأت وجه أبيها يطلّ من النافذة.. وهبط أبوها من العربة وهو لا يقل عنها لهفة وشوقًا، فمضت فترة طويلة قبل أن يفكر أحدهما في شيء غير شخصيهما.. وانتهزت فرصة استغراقهما في العناق والقبلات، فمضيت أختلس النظر إلى لينتون الصغير، وكان نائمًا في ركن المقعد، متدثرًا بمعطف سميك ذي أطراف من الفراء، كما لو كنا في صميم الشتاء.. فوجدته غلامًا شاحب الوجه، رقيق الجسم، تحسبه فتاة لما يبدو في مظهره من ضعف أنثوي.. وكان الشبه بينه وبين سيدي من القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر.. ولكن كان في مظهره من الوهن والضعف والمرض ما لم يكن لإدجار لينتون قط.. ورآنى سيدي أنظر إلى الغلام، فنصحني - بعد أن صافحنى - بأن أغلق باب العربة وأن أدعه نائمًا لأن الرحلة أتعبته.. وكانت كاثي تتوق إلى أن تلقى عليه نظرة، ولكن والدها طلب إليها أن ترافقه، ومشيا سويًّا في الحديقة، بينما أسرعت أسبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد..

ووقفا عند أسفل الدرج الأمامي، حيث قال مستر لينتون مخاطبًا ابنته:

- والآن يا عزيزتى.. ان ابن عمتك ليس في مثـل قوتك أو مرحك، ولا تنسى أنه فقد والدته منذ عهد قصير.. فـلا تنتظري منه أن يشـاركك اللعب والجرى من أول يوم.. كما أرجو ألا تثقلى عليه بالكلام، وأن تدعيه هادئًا هذا المساء على الأقل..

فأجابت كاثرين:

- سمعًا وطاعة يا أبتاه!.. ولكني أريد أن أراه، فإنه لم يُطل من العربة مرة واحدة!

ووقفت العربة أمام الدرج فأوقظ النائم وحُمل إلى الأرض حيث وقف إلى جوار خاله، الذي وضع يده الصغيرة في يـد ابنته، قائلًا:

- هذه ابنة خالك كاثي، يا لينتون.. وقد أولعت بك من قبل أن تراك، فلا تحزنها بالبـكاء الليلة، وحاول أن تبتسم الآن فقد انتهت الرحلة الشاقة، ولم يبق إلا أن تنال قسطك من الراحة وأن تمرح كما تشاء..

فتراجع الغـلام نافرًا من مصـافحة كاثرين، ورفع يـده ليمسح عبراته التي بدأت تتلألأ بين أهدابه، ثم قال:

- دعني أذهب إلى الفراش إذن..

فهمست قائلة له، بينما كنت أقوده نحو باب المنزل:

- تعال.. تعال، أيها الغلام الطيب.. إنك بذلك تدفعها إلى البكاء مثلك.. انظر كيف تبدو حزينة من أجلك!

ولست أدرى هل كان اكتئابها بسببه أم من أجله، ولـكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحـزن والكآبة مثلما كان يبدو في محياه، عندما رجعت ثانية إلى جانب والدها.. ودلف ثلاثتهم إلى المنزل، وارتقوا الـدرج إلى قاعة المكتبة، حيث كان الشـاي معدًّا لهم.. ومضيت أنزع قبعة لينتون ومعطفه، ثم أجلسته فوق أحـد المقاعد بجوار المائدة، ولكنـه ما كاد يجلس حتى بدأ في النحيب من جديد.. فسأله السيد عن سبب بكائه، فأجاب وهو يشرق بدموعه:

- إنني لا أستطيع الجلوس على المقعد.

فقال خاله في حلم وأناة:

- اذهب إلى الأريكة إذن، وسوف تحمل إليـك إيلين الشاى..

وشعرت بأن السيد قد لقى عناءً شديدًا طوال رحلته، بسبب ربيبه العليل المشاكس، وأنه قد تحمله في صبر وحلم لا ينفذان..

وراح لينتون يجـر قـدميه المتثاقلتين حتى بلغ الأريكة، فاستلقى فوقها، بينما حملت كاثي قدحها ومقعدًا منخفضًـا، وأتت تجلس بجواره.. ولبثت صامتة في باديء الأمـر، ولكن ذلك لم يطل كثيرًا، فقد استقر عزمها على أن تجعل من ابن عمتها الصغير ملهاة لها، كما أرادت أن يكون بالنسبة إليها.. فبدأت تربت على خصلات شعره، وتقبل وجنته، وتقدِّم له الشاي في طبق فنجـانها كأنه طفل صغير، فسره ذلك كثيرًا، لأنه في الواقع لم يكن أكثر من طفل غرير، وأخذ يجفف عينيه من الدموع، وقد أضاء محياه بابتسامة خائرة!



بدأت تربت على خصلات شعره، وتقبل وجنته، وتقدم له
لشاي في طبق فنجانها كأنه طفل صغير..

فقال لي السيد بعد أن ظلّ يرقبهما لحظة:

- أوه!.. سوف يطيب له العيش هنا كثيرًا، إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا يا إيلين.. فإن صحبة طفلة في سنه لن تلبث أن تنفث فيه روحًا جديدة، وسوف تساعده رغبته في الاستزادة من الصحة والقوة، على اكتسابهما سريعًا..

فقلت في نفسي: أجل.. إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا!

.. فقد اكتنفتني موجة من الريبة والتوجس الأليم، من أنه لم يكن ثمة في ذلك غير أمل ضئيل.. ورحت أفكر كيف يمكن لهذا الغلام العليل الهزيل أن يعيش في (مرتفعات ويذرنج)؟.. وأية رفقة تلك التي ستجمع بينه وبين أبيه وهيرتون، وأية دروس تلك التي سوف يتلقاها عنهما؟

ومن المؤلم أن شكوكنا سرعان ما تحققت، بل بأسرع مما كنت أتوقع.. كنت قد أخذت الصغيرين إلى الطابق العلوي، بعد أن انتهيا من تناول الشاي، وانتظرت بجانب لينتون حتى استغرق في النوم - إذ لم يشأ أن أفارقه حتى ينام - ثم نزلت إلى الطابق الأرضي حيث وقفت إلى جوار المائدة في البهو أشعل شمعة لحجرة نوم مستر إدجار، عندما قدمت خادمة من المطبخ لتقول لي إن جوزيف، خادم مستر هيثكليف، بالباب يطلب التحدث إلى السيد.. فسرت في بدني رعدة عنيفة، وقلت:

- سوف أسأله أولًا عما يرغبه، فإنها ساعة غير ملائمة لإزعاج الناس، وفي اللحظة التي يعودون فيها من رحلة طويلة.. ولست أظن السيد على استعداد لأن يراه..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ، بينما كنت أنطق بهذا القول، ودلف إلى البهو.. كان متسربلًا في رداء الأعياد والآحاد، وقد اكتسى وجهه الهضيم سمة من المشاكسة والتظاهر بالتقوى.. وكان يمسك قبعته بيد، وعصاه باليد الأخرى، وقد راح ينظف حذاءه في ممسحة الأرجل..

فقلت له ببرود:

- طاب مساؤك يا جوزيف.. أي أمر أتى بك إلى هنا الليلة؟

فأجاب وهو يزيحني بيده جانبًا في ازدراء:

- إنه مستر لينتون الذي أريد أن أتحدث إليه..

- إن مستر لينتون على وشك الذهاب إلى الفراش، فإذا لم يكن ما تريد قوله له شيئًا هامًا، فإنني على يقين من أنه غير مستعد لسماعه الآن..

ثم تابعت كلامي قائلة:

- وخيرٌ لك أن تجلس، وتعهد إليَّ برسالتك..

فراح يُجيل أنظاره في الأبواب المغلقة المتجاورة، ثم قال:

- أيها حجرته؟

فأدركت أنه مُصرّ على رفض وساطتى، وهكذا صعدت في نفور بالغ إلى المكتبة، وأعلنت للسيد مقدم ذلك الزائر الذي يحضر في وقت غير ملائم للزيارة، ناصحة له بأن يرفض مقابلته ويستمهله إلى اليوم التالي.. ولكن قبل أن يتسع الوقت أمام مستر لينتون ليفوضني في أداء ذلك، كان جوزيف قد صعد في أعقابي، واندفع إلى داخل الحجرة حيث

وقف عند طرف المائدة القصى، واضعًا كلتا قبضتيه فوق قمة عصاه، ثم اندفع يقول بصوت جهوري، كأنما كان يتوقع معارضة أو رفضًا لمطالبه:

- لقد أرسلني هيثكليف لأخذ غلامه، ولن أعود بدونه!

فأخلد إدجار لينتون إلى الصمت لحظة، وقد خيمت على أساريره سحابة من الحزن البالغ.. إنه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله، فوق أنه ذكر آمال إيزابيلا ومخاوفها وتمنياتها المتلهفة لولدها، عندما استودعته إياه وعهدت به إلى عنايته ورعايته، فاستبد به حزن مرير لمجرد التفكير في التخلي عنه، وراح ينقب في أعماق فكره وقلبه عن طريقة يتجنب بها الاستسلام لطلب هيثكليف.. ولكن القريحة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه الغاية، كما أنه لو كشف عن أية رغبة في الاحتفاظ بالغلام، فان ذلك سوف يزيد أباه تشبثًا واستمساكًا به.. ولم يبق أمامه إلا أن يسلمه لأبيه.. ولكنه، مهما يكن من أمر، لن يرضى بإيقاظه من النوم في هذه الساعة..

وعندئذ قال في هدوء:

- أخبر مستر هيثكليف أن ابنه سوف يأتي إلى (مرتفعات ويذرنج (غدًا.. فإنه في فراشه الآن، وفي حالة من الإعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة.. ويمكنك أن تخبره أيضًا أن والدة لينتون كانت تود أن يبقى في رعايتي، إذ أن صحته الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه، ويقول بلهجة آمرة:

- كلا.. إن ذلك لا يعني شيئًا بالنسبة له.. فإن هيثكليف لا يُقيم وزنًا للأم، ولا لك!.. ولكنه سوف يسترد ابنه، ولا بد لي من أخذه الآن!

فقال مستر لينتون في حزم وصرامة:

- لن تأخذه الليلة.. والآن، انزل حالًا، واذهب إلى سيدك فأعد على مسامعه ما قلته لك.. خذيه يا نللى إلى تحت.. اذهب!

ثم أمسك بذراع العجوز الثائر ودفعه إلى خارج الحجرة، وأغلق الباب دونه.. فصاح جوزيف وهو ينسحب في بطء وتمهل:

- حسنًا جدًّا.. سوف يحضر بنفسه غدًا.. وعليك أن تطرده هو الآخر، إذا جرؤت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون، تجنبًا لخطر تنفيذ هذا الوعيد، أن يكلفني بأخذ الصبي إلى دار أبيه، في الصباح الباكر، على مهر كاثرين الصغير، ثم أضاف قائلًا:

- ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله، سواء أكان حسنًا أم سيئًا، فإنه يجب عليك ألا تذكرى لابنتي كلمة واحدة عن المكان الذي ذهب إليه.. لأنها لا يمكن أن تتصل به من الآن فصاعدًا، ومن الخير لها أن تظل جاهلة بوجوده في مكان قريب، لئلا يستبد بها القلق، وتتوق إلى زيارة (المرتفعات (لرؤيته.. قولى لها فقط إن أباه قد بعث في طلبه فجأة، فاضطر إلى فراقنا..

وقد أظهر لينتون الصغير تمنعًا ونفورًا من إيقاظه من فراشه في الساعة الخامسة، وأبدى دهشته البالغة عندما أخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة.. ولكني هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه، مستر هيثكليف، الذي اشتدت رغبته في رؤيتـه بحيث لم يُطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة..

فصاح الغلام في حيرة غريبة ودهشة بالغة:

- أبي؟.. أبي أنا؟.. إن أمي لم تذكر لي قط أن لي أبًا!.. وأين يقيم هذا الأب؟.. إننى أفضل البقاء مع خالي..

- إنه يقيم على مسافة قريبة من (الجرانج).. وراء هذه التلال تمامًا.. والمكان لا يبعد كثيرًا عن هنا بحيث يمكنك أن تأتى سيرًا على الأقدام عندما تستكمل صحتك وتستعيد قواك.. ثم إنك يجب أن تُسر للذهاب إلى دارك ورؤية أبيك.. وعليك أن تحاول أن تحبه، كما كنت تحب أمك، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك..

فسألني لينتون:

- ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل؟.. ولماذا لم تكن أمي تعيش معه كسائر الناس؟..

- كانت أعماله تستلزم بقاءه في الشمال، على حين كانت صحة والدتك تقتضي إقامتها في الجنوب.

فعاد الغلام يسأل في إلحاح:

- ولماذا لم تحدثني أمي عنه إذن؟.. لقد كانت تحدثني كثيرًا عن خالي فتعلمت أن أحبه من زمن طويل.. فكيف يمكن أن أحب أبي، وأنا لا أعرفه؟..

فقلت:

- أوه!.. إن الأطفال جميعًا يُحبون والديهم.. ولعل والدتك خشيت أن ترغب في الذهاب إلى أبيك والإقامة معه إذا أكثرت من التحدث عنه أمامك. ولكن لنسرع الآن، فإن الركوب مبكرًا في مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى..

- وهل هي ذاهبة معنا؟.. تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها أمس..

فأجبته: كلا.. إنها لن تذهب الآن..

فأردف يسألني: وهل يذهب خالي معنا؟..

قلت: كلا سوف تذهب إلى هناك في رفقتي..

فعاد يستلقي في فراشه ويدس رأسه في الوسادة، وقد استغرق في التفكير وعلا القطوب أساريره، وما لبث أن انخرط في البكاء قائلًا:

- إنني لن أذهب من غير خالي.. فما أدراني إلى أين تريدين أن تأخذيني!

وحاولت إقناعه بأن إظهاره النفور من لقاء أبيه أمر غير كريم.. ومع ذلك ظل يقاوم، في عناد وإصرار، محاولاتى تهيئته للخروج، حتى اضطررت إلى الاستعانة بالسيد لملاطفته وملاينته حتى ينهض من الفراش.. وأخيرًا قام الغلام المسكين، بعد أن بذلنا له الوعود والتأكيدات - الزائفة طبعًا - بأن غيابه لن يطول، وأن مستر إدجار وكاثي سوف يزورانه هناك، وغير ذلك من الوعود (الزائفة (الأخرى التي كنت أخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق.. وقد أثر فيه الهواء النقي المنعش المحمل بعبير الزهور البرية، وأشعة الشمس المشرقة، والخبب الرقيق للمهر (مينى)، بإشاعة الأمل والهدوء في نفسه واحلالهما محل الاضطراب والقنوط.. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى بدأ يمطرني بالأسئلة عن بيته الجديد، وعن قاطنيه، في اهتمام وحيوية متزايدين.

فقد استدار ليلقي نظرة أخيرة على الوادي الخصيب الذي كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع في سحابة أشبه بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء، وما لبث أن سألني:

- هل (مرتفعات ويذرنج (مكان بهيج مثل (ثرشكروس جرانج»؟..

فأجبته:

- إنه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله، كما أنه ليس في سعته وفسحته.. غير أنك هناك تستطيع أن ترى جمال الريف حولك على مدى بعيد.. ثم إن الهواء هناك سوف يساعد على تقدم صحتك، إذ هو أكثر جفافًا وعذوبة.. ولعلك، في بادىء الأمر، تجد المبني عتيقًا قاتمًا، مع أنه منزل محترم يعد ثاني اثنين هما أفضل منازل هذه المنطقة.. وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحراش، كما أن هيرتون إيرنشو - وهو ابن خال مس كاثي، وبالتالي يُعد قريبًا لك - سوف يُريك أجمل المواقع وأروع المناظر.. وسيكون في وسعك أن تحمل كتابًا، عندما يكون الجو جميلًا ملائمًا، فتتخذ من العشب الأخضر ركنًا للدرس والاستمتاع بالقراءة.. كما أن خالك قد يصحبك في نزهة على الأقدام، فإنه كثيرًا ما يخرج للمشى فوق التلال..

- وما شكل أبي؟.. أهو شاب كخالى، وفى وسامته وظرفه؟..

- إنه في مثل سنه، ولكنه أسود الشعر والعينين، وأكثر منه عبوسًا وصرامة.. وهو أطول قامة، وأعظم هامة.. ولعلك لا تجده، في بادىء الأمر، رفيقًا عطوفًا، لأنه ليس من طبعه أن يكشف عن عواطفه.. ولكن عليك أن تكون معه صريحًا ودودًا.. ومن الطبيعي أن يزداد حبًّا لك وولعًا بك أكثر من أي عم أو خال، لأنك ابنه..

فغمغم لينتون:

- أسود الشعر والعينين؟.. إنني لا أستطيع أن أتصوره.. وعلى ذلك فإني لا أشبهه، أليس كذلك؟..

- لا تشبهه كثيرًا..

ولكني قلت في نفسي وأنا أنظر إليه: (بل إنك لا تشبهه البتة).. بينما رحت أتأمل بشرته

الناصعة البياض وجسده النحيل، وعينيه الواسعتين الناعستين، اللتين تشبهان عينى أمه، إلا أنهما لا يشع منهما أي أثر لروحها الوثابة المتلالئة، فيما عدا لحظات خاطفة تومضان فيها من أثر المرض الذي ينهكه..

وتنبهت على صوته وهو يغمغم:

- أليس من العجيب أنه لم يحضر قط لرؤية أمي أو رؤيتي؟.. فهل رآني من قبل؟.. إن كان قد فعل، فلا بد أننى كنت طفلًا صغيرًا، لأنني لا أذكر أقل شيء عنه!

فأجبته:

- لا تنس يا سيد لينتون أن ثلاثمائة ميل مسافة عظيمة، كما أن عشر سنوات تبدو مختلفة في طولها في نظر شخص كبير عما هي في نظرك أنت.. ولعل مستر هيثكليف كان يعتزم الذهاب إليكما من صيف لآخر، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية قط، حتى فات الأوان الآن.. وأرجو ألا تزعجه بالأسئلة في هذا الأمر، فإن ذلك سوف يضايقه، دون جدوى أو فائدة..

وشُغل الغلام بالاستغراق في أفكاره وتأملاته بقية رحلتنا، حتى وقف بنا المهر أمام بوابة الحديقة عند المنزل الريفي.. ورحت أراقبه خفية لأتبين في أساريره المشاعر التي تختلج بها نفسه، فرأيته يتأمل الواجهة المنقوشة، والنوافذ ذات الحوافي المنخفضة، وخمائل عنب الديب المتناثرة، وأشجار الحور المائلة على سوقها، في اهتمام بالغ رصين، ثم يهز رأسه!.. كانت مشاعره الخاصة تفيض استهجانًا للمنظر الخارجي لمقره الجديد، ولكنه كان من اللباقة بحيث أرجأ تذمره وشكواه، لعله يجد في الداخل ما يعوضه عن هذا القبح الذي أثار اشمئزازه..

وقبل أن يترجل عن مهره، مضيت وفتحت الباب.. كانت الساعة وقتئذ قد بلغت السادسة والنصف، وكانت الأسرة قد فرغت لتوها من تناول طعام الإفطار، وأخذت الخادم في إزالة بقايا المائدة وتنظيفها.. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدَّث إليه عن جواد أعرج، على حين كان هيرتون يستعد للذهاب إلى حقل الدريس..

فلما وقعت أنظار مستر هيثكليف عليّ، هتف قائلًا:

- أهلًا بك يا نللى!.. لقد كنت أخشى أن أضطر للذهاب بنفسي إلى (الجرانج (لأخذ ما أملكه.. ولكني أراك أحضرته إلى هنا، أليس كذلك؟.. دعينا نر ما يمكن أن نصنعه به!

ثم نهض من مجلسه، ومشى إلى الباب بخطواته الواسعة، يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكهما الفضول وحب الاستطلاع.. فأجال لينتون المسكين عينيه المرتاعتين في الوجوه الثلاثة التي كانت تتطلّع إليه..

وبدأ جوزيف قائلًا، بعد أن تفحصه في صرامة وإمعان:

- يقينًا أنه بادلك أيها السيد، وأرسل لك ابنه هو!

أما هيثكليف فقد ظلّ يحدج ابنه بنظرات متفرسة حتى أصابت الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك، وعندئذ أطلق ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول:

- ما شاء الله!.. ما أبهى هذا الجمال وما أروعه!.. وما أحلاه من (شيء (ساحر فتان!.. أترينهم كانوا يطعمونه القواقع واللبن الرائب يا نللى؟.. آه!. ليمحق الشيطان روحى!.. ولكن ذلك أسوأ مما توقعت بكثير.. ويعلم الشيطان أنني لم أكن مغرقًا في الأمل والخيال!

فطلبت إلى الطفل الحائر المرتعد أن يترجل عن مهره، وأن يدخل البيت.. ولم يكن المنكود

قد فهم تمامًا ما يعنيه حديث أبيه، أو هل كان هو المقصود به أم غيره.. والواقع أنه لم يكن واثقًا بعد أن ذلك الغريب المتجهم الذي يفيض لسانه بالسخرية اللاذعة هو أبوه.. ولكنه تعلق بي وقد ازدادت رعدته وارتعاشه.. فلما جلس مستر هيثكليف وصاح به: (تعال هنا (أخفى وجهه في ذراعي وانخرط في البكاء..

فمد هيثكليف يـده وجذبه حتى أوقفه بين ركبتيه، ثم أمسك بذقنه ورفع رأسه عاليًا وهو يقول:

- صه.. صه!.. دعك من هـذا الهراء.. إننا لن نؤذيك يا لينتون.. أليس هذا اسمك؟.. إنك ابن أمك بأكملك!.. فأين نصيبي فيك أيها الكتكوت البكاء!

ونزع قلنسوة الغلام، ودفع إلى الخلف غدائره الشقراء الكثيفة، وراح يتحسس ذراعيه النحيلتين وأصابعه الصغيرة.. وكف لينتون عن البكاء أثناء هذا الفحص الدقيق، ورفع عينيه الواسعتين الزرقاوين يفحص بهما فاحصه!

وبعد أن اقتنع هيثكليف بأن أطراف الصبي كانت جميعًا سواءً في الرخاوة والضعف، سأله قائلًا:

- هل تعرفني؟

فأجابه لينتون وفي عينيه نظرة خوف جوفاء: كلا..

- لعلك سمعت عنى إذن؟..

فأجابه ثانية: كلا..

- أتقول كلا؟.. ما أقبح ذلك من أمك!.. ألم توقظ فيك قط مشاعر الاحترام نحـو أبيك!.. دعني أخبرك إذن أنك ابنى.. وأن أمك كانت فاجرة شريرة إذ تركتك جاهلًا حقيقة الأب الذي أنجبك!.. والآن لا ترع ولا تجفل منى، ولا تدع وجهك يحمر هكذا.. ولو أن ذلك يُعد شيئًا عظيمًا أن نرى أن الدماء التي تجري في عروقك ليست بيضاء هي الأخـرى.. وكن صبيًا طيبًا، أكن لك خير الآباء..

ثم التفت نحوي قائلًا:

- وأنت يا نللى إذا كنت متعبة فيمكنك أن تجلسي.. وإلا فعودي إلى بيتك!.. وأحسبك سوف تروين كل ما ترينه وتسمعينه هنا لصاحب (الجرانج (التافه الحقير.. كما أن هذا (الشيء (لن يستقر أو يهدأ ما دمت تحومين حوله..

فأجبته:

- حسنًا.. ولكني أرجو أن تكون رفيقًا بالصبي يا مستر هيثكليف، وإلا فإنك لن تستطيع الإبقاء عليه طويلًا.. واذكر أنه كل ما لك من قرابة في هـذا العالم، بل كل ما سوف يكون لك..

فقال ضاحكًا:

- لا تخشى عليه شيئًا، فسوف أكون رفيقًا به غاية الرفق.. ولكن لا ينبغي لأحد غيرى أن يكون رفيقًا به أو مشفقًا عليه.. فإني غيور على احتكار عواطفه لنفسي!.. وسوف أبدأ الرفق به من الآن!.. اذهب يا جوزيف وأحضر طعامًا لإفطاره.. وأنت يا هيرتون، أيها العجل الشيطاني، امض إلى عملك!

فلما خرج كل منهما لشأنه، استطرد يقول:

- نعم يا نللى.. فإن ابني هو المالك المرتقب لأملاككم.. ولست أود أن يموت قبل أن أكون واثقًا من أننى وارثه!.. وفضلًا عن ذلك فإنه أبني، وأريد أن أتمتع بلذة النصر عندما أرى عقبى يصبح المالك الوحيد لضياعهم وأملاكهم، وعندما أرى ابني يستخدم أبناءهم ليحرثوا أرض آبائهم وهم فيها أجراء يتلقون أجورهم من يده.. إن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذي يجعلني أطيق هذا الجرو.. إنني أحتقره لتفاهة شخصه، وأمقته للذكريات البغيضة التي يثيرها في نفسي.. ولكن هذا الاعتبار الذي ذكرته لك كاف كل الكفاية، وهو معي في أمان، وسينال من الرعاية ما لا يقل عما يضفيه سيدك على ابنته.. لقد أعددت له حجرة في الطابق العلوي، وفرشتها بأثاث جميل.. كما عينت له مدرسًا، سوف يحضر ثلاث مرات كل أسبوع من مسافة عشرين ميلًا، ليعلمه كل ما ينبغي أن يتعلمه.. وقد أمرت هيرتون أن يُطيع أمره.. والواقع أننى رتبت كل شيء بحيث يظل محتفظًا بروح السيادة والسمو على كل من يعيش معه.. ولو أنني أشعر بالأسف العميق إذ وجدته لا يستحق كل هذا العناء.. وإذا كنت قد تمنيت شيئًا من السعادة في هذه الدنيا، فهو أن أجد ابني شيئًا ذا قيمة خليقًا بالإعجاب والتقدير والزهو.. وها أنذا أجد الخيبة المريرة والفشل الذريع مع هذا التعس الكالح الوجه الذي لا يكف عن الأنين والنواح!

وفيما كان يتحدَّث إلىّ، عاد جوزيف يحمل طبقًا من عصيدة اللبن، وضعه أمام لينتون الذي ظل يتململ أمام الطعام التقليدي للمنزل، وينظر إليه شزرًا، ثم يقول إنه لا يستطيع أن يأكله!.. ورأيت الخادم الشيخ يشاطر سيده سخريته بالغلام على نطاق واسع، ولو أنه كان مرغمًا على الاحتفاظ بشعوره في أعماق قلبه، لأن هيثكليف كان جادًّا في ارغام أتباعه على احترام الغلام واعتباره سيدًا..



. جوزيف يحمل طبقًا من عصيدة اللبن، وضعه أمام ليتون
ي ظل يتململ أمام الطعام التقليدي للمنزل..

فحملق جوزيف في وجه لينتون، وقال وهـو يخفض من صوته خشية أن نسمعه:

- لا تستطيع أن تأكله؟.. ولكن السيد هيرتون لم يكن يأكل شيئًا سواه قط عندما كان صبيًّا صغيرًا.. وأظـن أن ما يصلح له يصلح لك تمامًا مثله..

فأجابه لينتون في لهجة آمرة قاسية:

- إننى لن آكله.. خذه من هنا..

فاختطف جوزيف الطبق في حنق وأحضره إلينا، حيث دفع به تحت أنف هيثكليف قائلًا:

- هل في هذا الطعام شيء يُعيبه؟..

- ما الذي يمكن أن يعيبه؟..

- لست أدرى.. ولكن ذلك الصبي الرقيق الأنيق يقول إنه لا يستطيع أن يأكله!!.. وأحسبه على حق، فقد كانت أمه مثله تمامًا لا تستطيب طعامنا!

فأجابه السيد غاضبًا:

- إياك أن تذكر أمه أمامي.. اذهب فأحضر له من الطعام ما يوافقه ويستطيع أن يأكله، وهـذا كل شيء.. ما هو طعامه المعتاد يا نللى؟

فاقترحت أن يأتوا له بلبن ساخن أو قدح من الشاي؛ وسرعان ما تلقت مدبرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شيء من ذلك.. فسررت، وقلت في نفسي أن أنانية أبيه سوف تساهم في تهيئة وسائل الراحة له، فإنه يرى تكوينه الضعيف وحاجته إلى أن يُعامل في رفق بالغ.. ولسوف يتعزى مستر إدجار عندما أخبره بالتحول الذي طرأ على خلق هيثكليف..

وإذ لم يعد لي عذر في التواني والبقاء أكثر من ذلك، فقد تسللت خارجة، بينما كان لينتون مشغولًا، يرد في حيـاء ملاطفات أحـد الكلاب.. ولكنه كان من التيقظ والانتباه بحيث لم يمكن خداعه.. فما كدت أغلق الباب، حتى سمعته يصيح ويردد في فزع هذه الكلمات:

- لا تتركيني!.. لا أريد البقاء هنا!.. لا أريد البقـاء هنا..

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليوصد الباب، وأدركت أنهم يحولون بينه وبين الخروج، فأسرعت أمتطى ظهر المهر، وأستحثه على العدو.

وعلى هـذا النحو انتهت مدة حراستي القصيرة لليتيم الصغير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

كانت مهمتنا مع كاثي الصغيرة شاقة مؤلمة في ذلك اليوم.. فقد استيقظت من النوم وهي تفيض مرحًا وسرورًا، وتتلهف إلى لقاء ابن عمتها.. وما أن بلغتها أنباء رحيله حتى راحت تذرف الدمع المرير، وتنتحب في نشيج أليم، بحيث اضطر إدجار نفسه إلى تهدئتها بالتأكيد لها بأنه سوف يعود ثانية، وإن كان قد احتاط فأردف قائلًا: (إن استطعت إليه سبيلًا)، ولم يكن ثمة أمل في ذلك.. وقد أفلح هذا الوعد في تهدئة روعها قليلًا، ولكن الزمن كان أعظم قدرة وأبعد أثرًا.. فعلى الرغم من أنها كانت لا تفتأ، بين الحين والحين، تسائل أباها عن موعد عودة لينتون، فإنها قبل أن يُقدر لها أن تراه مرة ثانية، كانت ملامحه قد اختلطت في ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان، بحيث لم تعرفه عندما رأته!

وكنت كلما قابلت مدبرة منزل (مرتفعات ويذرنج (عند زيارتي لقرية (جيمرتون (لقضاء مهمة فيها، سألتها عن حال السيد الصغير وصحته، إذ كان يعيش في عزلة مثل كاثرين نفسها، فلا يراه أحد ولا يرى أحدًا.. فكنت أستشف منها أنه ما يزال على ضعف صحته، وأنه رفيق كثير النكد والمشاكسة.. وقد ذكرت لي أنه يبدو أن مستر هيثكليف يزداد له مع الأيام كراهية ومقتًا، وإن كان يجهد في إخفاء ذلك.. فقد كان شديد النفور من سماع صوته، ولا يطيق جلوسه به في حجرة واحدة أكثر من بضع دقائق، وقلما كانا يتبادلان من الحديث أكثر من كلمات معدودات.. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضى أمسياته في حجرة صغيرة يطلقون عليها اسم (البهو (تجوزًا، أو يمضي يومه كله راقدًا في فراشه إذ لم تكن تفارقه نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام من نوع ما.. وأضافت المرأة قائلة:

- وما رأيت في حياتي مخلوقًا رعديدًا خائر القلب، أو مفرطًا في الحرص على نفسه مثل هذا الصبي.. فإنه سوف يموت حتمًا إذا تركت النافذة مفتوحة قليلًا عند حلول المساء.. وإذا مسته نسمة من نسمات الليل العليلة فإنها سلاح قاتل فتاك!.. ولا بد من أن تُوقد له المدفأة في أشد أيام الصيف حرًّا.. ودخان الطباق في غليون جوزيف غاز سام سوف يقضى عليه!.. وهو يصرّ على أن تكون لديه دوامًا أنواع مختلفة من الحلوى والفطائر.. أما اللبن فلا ينقطع عنه.. اللبن دائمًا وأبدًا.. وهو في ذلك لا يعبأ البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عندما يغتال نصيبنا منه.. وترينه دائمًا يجلس في مقعده بجوار المدفأة، ملتفًا بمعطفه ذي الفراء، وإلى جانبه بعض الفطائر وقدح من الماء أو غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة ليظل ساخنًا فيرشف منه جرعة بعد أخرى.. وإذا أشفق عليه هيرتون وأتى ليسليه قليلًا - وهيرتون طيب القلب، وإن كان جافًا خشنًا - فإنهما سرعان ما يفترقان وأحدهما يسب ويلعن والثاني ينشيج بالبكاء والنحيب!.. وفي يقيني أن السيد كان خليقًا بأن يُسر كثيرًا لو أن هيرتون ظل يضربه حتى يحيله جثة هامدة، لولا أنه ابنه. وكذلك أعتقد أنه خليق بأن يطرده لو عرف نصف ما يضفيه الصبي على نفسه من رعاية وحيطة وتدليل!.. ولكنه قلما يتعرض لخطر الإغراء بذلك، فإنه لا يدخل (البهو (قط، وإذا أظهر لينتون شيئًا من هذه الأساليب في حجرة الجلوس حيث يقعد، فإنه يطرده من الحجرة ويأمره بالصعود إلى الطابق العلوي على الفور..

وقد حدست من هذا الحديث أن حرمان هيثكليف الصغير من العطف والحنان كلية قد جعله أنانيًا سيىء الخلق حتى ولو لم يكن كذلك أصلًا.. وهكذا تضاءل اهتمامي به، ولو أنني شعرت بنوع من الأسى لمصيره، ووددت لو أنه تُرك معنا.. وكان مستر إدجار يشجعني على الحصول على المزيد من المعلومات عنه، وأحسب أنه كان يفكر فيه كثيرًا، ولا يتأخر عن المجازفة في سبيل رؤيته.. وقد طلب إليَّ مرة أن أسأل مدبرة المنزل إن كان يأتي إلى القرية أحيانًا؟.. فعلمت منها أنه لم يذهب للقرية إلا مرتين، راكبًا جوادًا، وفي صحبة والده.. وفي كل من المرتين كان يدَّعى أنه منهوك القوى ثلاثة أيام أو أربعة بعدها..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل - إذا صدقت ذاكرتي - بعد عامين من مجيئه، وخلفتها أخرى لم أكن أعرفها، ما تزال هناك حتى الآن..

ومرت الأيام (بالجرانج (على نهجها السابق البهيج، حتى بلغت مس كاثي السادسة عشرة من عمرها.. ولم نكن نحتفي بعيد ميلادها على الإطلاق، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتي الراحلة.. وكان والدها قد اتخذ لنفسه عادة لا تتغير، هي أن ينفرد بنفسه ذلك اليوم في المكتبة، ثم يسير عند الغسق إلى فناء كنيسة جيمرتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى منتصف الليل.. وهكذا كانت كاثرين تُترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها، وبوسائلها الخاصة..

وفي العشرين من مارس من ذلك العام، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة.. فما أن بدأ والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتي الصغيرة ترتدي ثياب الخروج، قائلة إنها استأذنت أباها لتقوم بجولة عند أطراف البراري والأحراش معى، فأذن لها مستر لينتون بذلك، بشرط أن نذهب إلى مسافة قريبة وأن نعود بعد ساعة، وأردفت كاثي صائحة:

- أسرعي إذن يا إيلين.. إنني أعرف أين أريد الذهاب.. حيث يقيم سرب من طيور الأحراش، أود أن أرى إن كانت قد أقامت أعشاشها بعد..

فأجبتها:

- لابد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال.. فالطيور لا تعشش عند أطراف البراري..

- كلا.. إنها ليست مسافة بعيدة، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبي..

فوضعت قلنسوتى واندفعت معها إلى الخارج، دون أن أعير الأمر اهتمامًا أو أفكر فيه مرة ثانية.. وكانت تقفز أمامي فتسبقني، ثم تعود إلى جانبي، ثم تجرى أمامي من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه.. ولقد تملكتنى - في بادىء الأمر - نشوة من الطرب عندما سمعت أصوات القنابر وهي تصدح من قرب ومن بعد، واستمتعت بأشعة الشمس الدافئة اللذيذة، وعندما رحت أرقب طفلتي المدللة وبهجتى الغالية، بغدائرها الذهبية السابحة في الهواء خلفها، ووجنتيها المتوردتين المتألقتين، كأنهما في نعومتهما وصفائهما ونضارتهما وردتان بريتان متفتحتان، وعينيها اللتين تشان بهاءً ومرحًا ولا تظللهما سحب المتاعب والأحزان.. كانت في تلك الأيام مخلوقة سعيدة، وملاكًا طاهرًا.. وليتها استطاعت، وقتئذٍ، أن تقنع بما كانت فيه!

وما لبثت أن قلت:

- حسنًا.. أين طيورك البرية يا مس كاثي؟.. كان ينبغى أن نكون عندها الآن، فقد بعدنا عن بساتين (الجرانج (كثيرًا..

وكانت تجيبني باستمرار:

- آه!.. إنها غير بعيدة من هنا.. هى على بعد قليل يا إيلين.. تسلقى تلك الرابية، واعبرى ذلك الجسر، وما أن تصلى إلى الجانب الآخر حتى تجديني عند الطيور!

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته، حتى بدأت أخيرًا أحس بالتعب والإجهاد، فقلت لها إننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا.. وكانت قد سبقتني بمسافة طويلة، فطفقت أصيح منادية إياها، ولكنها لم تسمعنى، أو لم تكترث لندائي، إذ ظلت تقفز هنا وهناك، حتى اضطررت إلى تعقبها.. وأخيرًا اختفت عن ناظرى داخل تجويف بين التلال، وقبل أن أراها

ثانية كانت أقرب إلى (مرتفعات ويذرنج (بميلين عنها إلى منزلها.. وتبينت شخصين يمسكان بها، كان أحدهما - فيما اعتقدت - مستر هيثكليف نفسه.. كانت كاثي قد ضُبطت متلبسة بسرقة الطيور، أو على الأقل بالعبث في أعشاشها، فإن المرتفعات كانت ضمن أملاك هيثكليف، وكان من حقه أن يعاقب من يسطو عليها.. فلما بلغت مكانهم، وأنا أجر قدمي المكدودتين، رأيتها ترفع يديها مؤكدة ما تنطق به، وهي تقول:

- إننى لم آخذ شيئًا، ولم أجد شيئًا.. ولم يكن في نيتي أن آخذها لو وجدتها.. ولكن أبي أخبرني بوجود الكثير منها هنا فوق التلال، فوددت أن أرى البيض..

فرمقني هيثكليف بأنظاره وهو يبتسم ابتسامة شريرة تنم عن معرفته من تكون الفتاة، وبالتالي عن نواياه الخبيثة نحوها، ثم سأل عمن عساه يكون (أبوها).. فأجابته:

- إنه مستر لينتون صاحب (ثرشكروس جرانج).. وقد أدركت أنك لم تعرفني وإلا ما خاطبتني بهذه اللهجة!

فقال في سخرية:

- أتحسبين إذن أن أباك عالى القدر رفيع المكانة موفور الاحترام؟..

فراحت كاثرين تحدِّق فيه بأنظارها في دهشة واستغراب، قائلة:

- ومن تكون أنت؟.. ثم إننى رأيت هذا الرجل من قبل، فهل هو ابنك؟..

وأشارت إلى هيرتون، الذي كان ثاني الاثنين، والذي لم يكن قد اكتسب إلا زيادة في الحجم والقوة فضلًا عن عامين من عمره، وإن كان يبدو على ما عهدته فيه من خشونة وجلافة..

فأسرعت أقاطعها قائلة:

- سوف يطول غيابنا ثلاث ساعات، يا مس كاثي، لا ساعة واحدة.. ولابد لنا حقًا من العودة إلى المنزل الآن..

فأجابها هيثكليف وهو يزيحني جانبًا:

- كلا.. إن هذا الرجل ليس ابني.. ولكن لي ابنـًا رأيته أنت من قبل أيضًا.. ومع أن مربيتك في عجلة، إلا أننى أرى من الخير لك ولها أن ترتاحا قليلًا.. فهل لك أن تدوري حول هذه الدغلة، وتسيرى إلى منزلي؟.. إنكما إذا ارتحتما قليلًا فستعودان إلى داركما في وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن.. ثم إنك سوف تلقين منا كل ترحاب..

فهمست إلى كاثرين أنه لا ينبغي إطلاقًا أن تلبي هـذه الدعوة، وأن تثق في كلامي بأن هذه الزيارة أمر لا يمكن حدوثه، فإذا بها تسائلني بصوت عال:

- لماذا؟.. لقد تعبت من الجرى، والعشب هنا ندى لا أستطيع الجلوس فوقه، فدعينا نذهب يا إيلين.. ثم إنه يقول إنني رأيت ابنه.. ولكني أحسبه مخطئًا في ظنـه.. وفي وسعى أن أحدس أين يقيم.. في ذلك المنزل الريفي الذي زرته أثناء عودتي من (صخور بنستون (ذلك اليـوم.. ألست تقيم هناك؟..

فأجاب هيثكليف:

- بلى.. وأنت يا نللى، أمسكي لسانك، فإن زيارتها لنا سوف تكون مبعث سرور لها.. تقدَّم أمامنا يا هيرتون مع الآنسة، أما أنت يا نللي فسوف تسيرين معى..

فصحت، وقد أخذت أحاول التملص من قبضته على ذراعى:

- كلا.. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان!

ولكنها كانت وقتئذ توشك أن تصل إلى الدرج الخارجي للمنزل، بعد أن راحت تركض بأقصى سرعتها حول أدغال الأحراش.. ولكن المعين لمرافقتها لم يستمر في مهمته، فقد أسرع بالابتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الأنظار..

فاستطردت قائلة:

- إن ما تفعله يا مستر هيثكليف خطأ بالغ الخطورة.. فأنت تعرف أنك لا تضمر خيرًا.. سوف ترى الفتاة لينتون، وسوف تعود لتروى كل شيء لأبيها بمجرد وصولنا، وبذلك ينصب اللوم كله فوق رأسي..

- إننى أريدها على أن ترى لينتون، فإنه يبدو أحسن حالًا هذه الأيام، وهو قلما يكون في حالة تصلح لأن يراه أحد.. وسوف نقنعها الآن بأن تُبقى أمر هذه الزيارة في طي الكتمان.. فأين الضرر في ذلك؟..

- الضرر في ذلك هو أن والدها سوف يحنق علىَّ إذا تبين أنني سمحت لها بدخول منزلك.. كما أنني مقتنعة تمامًا بأن لك غرضًا خبيثًا في تشجيعها على ذلك.

- بل إن غرضى شريف على قدر المستطاع، وسأخبرك بكل تفاصيله في صراحة.. فأنا أريد أن تتوثق الصلة بين ابن العمة وبنت الخال، وأن يتحابا ثم يربط الزواج بينهما.. وإني في ذلك أسدى يدًا كريمة إلى سيدك نفسه.. فإن ابنته الصغيرة لا أمل لها ولا مستقبل في وراثته، فإذا عملت بما يطابق رغباتي فإن ذلك يكسبها الحق في مشاركة لينتون ميراث خاله.

- إذا مات لينتون - وهو أمر قريب الاحتمال لأن حياته غير مضمونة - فإن كاثرين ستكون الوارثة.

- كلا.. إنها لن تكون الوارثة.. فليس في الوصية نص يضمن لها ذلك.. وإنما سوف تنتقل أملاكه إلى.. ولكي نضع حدًا لهذا الجدل العقيم، أقول لك إننى أريد أن يتزوجا وقد استقر عزمي على تنفيذ إرادتي..

فقلت له حانقة:

- أما أنا فقد استقر عزمي على ألا تقرب كاثي منزلك معى مرة أخرى..

فأمرني بأن ألزم الصمت، إذ كنا قد وصلنا إلى البوابة حيث وقفت مس كاثي في انتظارنا.. ثم سبقنا في الممر ليفتح لنا باب المنزل.. وكانت سيدتي الصغيرة لا تفتأ ترمقه بالنظرة تلو النظرة، كأنما لا تستطيع أن تستقر على رأى قاطع في حقيقة أمره.. وكان كلما التقت عيناه بعينيها، ابتسم في وجهها، وكلما تحدَّث إليها رقق من صوته في خطابها.. وقد بلغت بي البلاهة أن تصورت أن ذكرى أمها قد تُلين قلبه وتحول دون رغبته في إيذائها..

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة، وقد عاد من نزهته بين الحقول، إذ كان لا يزال مرتديًا قبعته وكان يطلب إلى جوزيف أن يأتيه بحذاء جاف.. وكان قد ازداد طولًا بالنسبة لسنه، فما زالت تنقصه بضعة أشهر ليبلغ السادسة عشرة.. أما ملامحه فقد احتفظت بجمالها، وازدادت عيناه تألقًا، وبشرته توردًا عما أذكره عنها.. ولو أنه كان تألقًا وقتيًا اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة..

وتحوَّل مستر هيثكليف نحو كاثى، سائلًا:

- من هذا؟.. هل تعرفينه؟..

فراحت تنقل أنظارها بين الواحد والآخر في تشكك، قبل أن تجيب:

- أهو ابنك؟..

- نعم.. ولكن هل هذه أول مرة ترينه فيها؟.. فكري قليلًا.. آه!.. إن ذاكرتك ضعيفة خائرة.. وأنت، ألا تذكر ابنة خالك التي اعتدت أن (تهوسنا (برغبتك في رؤيتها يا لينتون؟

فما أن سمعت الاسم حتى اضطرمت بالفرحة الطاغية والدهشة البالغة وصاحت قائلة:

- ماذا؟.. لينتون؟.. أهذا لينتون الصغير؟.. ولكنه يفوقنى طولًا الآن!.. هل أنت لينتون حقًّا؟..

فتقدَّم الفتي نحوها مؤكدًا أنه بعينه.. فراحت تقبله في حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما أحدثه الزمن من تغيير في مظهر كل منهما.. كانت كاثرين قد بلغت غاية طولها، وغدت ملفوفة العود في غير بدانة، رخصة البدن في قوة فولاذية، تشع بالصحة والحيوية الدافقة.. أما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة، وجسمه مفرط النحول، ولكن كان في مسلكه ومظهره رشاقة تلطف من هذه العيوب، وتجعله يبدو مقبولًا.

وبعد أن فرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمتها، مضت نحو مستر هيثكليف الذي كان يقف بجانب الباب، مقسمًا انتباهه بين داخل البيت وخارجه، متظاهرًا بالنظر إلى الخارج وهو في الحقيقة يرقب من في الداخل فحسب.. فهمت على أطراف أصابعها لتقبله وهي تهتف، قائلة:

- إنك زوج عمتى إذن؟.. والله لقد أحببتك، برغم عبوسك وتقطيبك في باديء الأمر!.. ولكن لماذا لا تحضر لزيارة (الجرانج (مع لينتون؟.. أليس من العجيب أن نكون جيرانًا متلاصقين كل هذه السنين ثم لا تزورنا قط؟.. لماذا بالله فعلت ذلك؟..

فأجاب:

- لقد زرت (الجرانج (مرة أو مرتين، أكثر مما ينبغي، قبل مولدك.. ولكن رويدك.. يا للعنة!.. إذا كان لديك الكثير من القبلات، فوفريها وامنحيها للينتون.. فإنك تضيعينها عبثًا فوق وجهي!

وتركته كاثرين، وطارت إلىَّ لتهاجمني بقبلاتها المسرفة وهي تصيح:

- وأنت يا إيلين.. أيتها الخبيثة الشريرة!.. كم جاهدت في منعي من الدخول!.. ولكني سوف أسير إلى هنا كل صباح في المستقبل.. هل تسمح لي بذلك يا عماه؟.. وهل أحضر أبي معى أحيانًا؟.. هلا يسرك أن ترانا؟..

فأجاب (العم (وهو لا يكاد يستطيع إخفاء القطوب الذي علا وجهه، والناتج من نفوره من كلا الزائرين:

- آه. طبعًا.. طبعًا..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة، مستطردًا:

- ولكن مهلًا.. لقد فكرت في الأمر، ووجدت من الخير أن أخبرك بالحقيقة.. فإن مستر

لينتون ناقم عليَّ، إذ تشاجرنا مرة في حياتنا، في ضراوة وقسوة.. ولو ذكرت له شيئًا عن قدومك إلى هنا فسوف يعترض بشدة على زياراتك لنا.. ولذلك أرى أنه لا يجب أن تخبريه بهذه الزيارة، إلا إذا كنت قليلة الحرص على رؤية ابن عمتك في المستقبل.. إن لك أن تحضري كلما شئت، ولكن لا تذكري له ذلك..

فسألته في استخذاء: ولماذا تشاجرتما؟..

- كان يرى أننى من الفقر بحيث لا أصلح زوجًا كفؤًا لأخته.. ثم حزن لفوزي بها، واعتبر ذلك إهانة لكبريائه، لا يمكن أن يغفرها لي البتة..

فقالت الفتاة:

- هذا خطأ منه، وسوف أخبره بذلك يومًا من الأيام.. ولكني ولينتون لا شأن لنا ولا دخل بمنازعاتكما.. وما دمت لن أحضر إلى هنا ثانية، فعليه أن يأتي إلى (الجرانج)..

فغمغم ابن عمتها:

- إن المسافة بعيدة لا أستطيع سيرها.. وسوف يقتلني المشي أربعة أميال حتمًا.. كلا.. تعالى أنت إلى هنا يا مس كاثرين، بين آن وآخر.. لا كل صباح كما قلت، بل مرة أو اثنتين كل أسبوع!

فصوَّب هيثكليف نحو ابنه نظرة تفيض بالمرارة والازدراء، وهمس يقول لي:

- أغلب ظني، يا إيلين، أن جهودى سوف تذهب هباء.. فإن (مس كاثرين)، كما يدعوها هذا الغلام التافه، سوف تفطن سريعًا إلى حقيقة قيمته، فتطرحه وراء ظهرها، أو تبعث به إلى الشيطان!.. آه لو كان هيرتون محله!.. أتعلمين أننى كثيرًا ما اشتهيت لو كان هيرتون ابني برغم ما هو فيه من ضعة الآن.. لقد كنت خليقًا بأن أحب الفتى لو لم يكن ابن هندلى!.. ولكني أحسبه بمنجاة من حبها!.. وسوف أدفع به لمنافسة هذا المخلوق الحقير، إلا إذا نفض هذا عن نفسه خموله.. والواقع أننا لا نقدر أنه سوف يعيش حتى يبلغ الثامنة عشرة.. آه.. لعنة الله على هذا المخلوق التافه الهزيل!.. إنه منهمك في تجفيف قدميه، ولا يلقى إليها بالًا أو اهتمامًا!.. لينتون!

فأجاب الصبي: نعم يا أبتاه..

- أليس لديك ما تصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار؟.. ولو بعض الأرانب أو أعشاش ابن عرس؟!.. خذها يا بني إلى الحديقة، قبل أن تستبدل حذاءك، واصحبها إلى الاسطبل لتريها جوادك..

فتمتم لينتون مخاطبًا كاثي في نبرات تنم عن نفوره من التحرك من مكانه:

- ألا تفضلين الجلوس هنا؟..

فتطلعت الفتاة نحو الباب في نظرات متشوقة، وبدا عليها التلهف إلى الحركة والنشاط، ثم أجابت في استحياء:

- لست أدرى حقًّا!

وظلّ قابعًا في مقعده لا يفارقه، بل لقد ازداد انكماشًا والتصاقًا بالمدفأة.. وعندئذ نهض هيثكليف ومضى إلى المطبخ فاجتازه إلى الفناء، وسمعناه ينادي هيرتون، وسمعنا هيرتون يلبي النداء، وما لبث الاثنان أن دخلا إلى الحجرة.. وكان الشاب يغتسل كما بدا في توهج

وجنتيه وشعره الندى..

فلما رأته مس كاثي ذكرت ما سمعته من مدبرة المنزل ذات يوم، فصاحت قائلة:

- آه!.. دعنى أوجه إليك سؤالًا يا عماه.. أهذا ابن خالى حقًّا؟..

- نعم.. إنه ابن خالك.. أفلا تحبينه؟..

فبدت الحيرة في أسارير كاثرين، فاستطرد قائلًا:

- ألا تجدينه شابًّا لطيفًا؟..

فوقفت الفتاة الشقية على أطراف أصابعها وهمست في أذن هيثكليف بكلمات انطلق على أثرها مقهقهًا.. فأربد وجه هيرتون وبان عليه الحرج، فأدركت أنه شديد الحساسية لكل ما ينم عن الاستهانة بأمره، وأن لديه فكرة مبهمة عن ضآلة شأنه بالنسبة لهم.. ولكن سيده، أو حاميه، بـدد عبوسته بأن قال موضحًا:

- سوف تكون المفضل لديها بيننا يا هيرتون، فهى تقول إنك.. ترى ماذا قـالت؟.. حسـنًا.. إنه شيء شديد الإطراء لك.. فاذهب معها، وطف بها أنحاء المزرعة، واسلك سبيل السيد المهذب، فلا تنطق أمامها بكلمات غير لائقة، ولا تحملق في وجه الآنسة عندما تكون غير منتبهة إليـك، واغضض من بصرك عنـدما تنظر إليك.. وإذا تحـدثت إليها فانطق بكلماتك في بطء ووضوح، ولا تضع يديك في جيوبك.. هيا اذهب معها الآن، وكن معها مضيفًا رقيقًا على قدر ما تستطيع من لطف ورقة!

ثم أخذ يرقبهما وهما يمران أمام النافذة، فإذا هيرتون إيرنشو قد أشاح بوجهه تمامًا عن رفيقته، وقد بدا كأنمـا يدرس المناظر الممتدة أمامه، والمألوفة لديه، في اهتمـام شخص غريب يراها للمرة الأولى، أو استغراق فنان يرى فيها ما يشوقه..

وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفي، في نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حـد ما، ثم ما لبثت أن انصرفت عنـه إلى البحث عن الأشياء التي تثير فضولها وتسليتها، وهي تتواثب من مكان لآخر، وتترنم ببعض الألحان تعويضًا لها عما يعوزها من حديث بسبب صمت رفيقها..



وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفي، في نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حدٍ ما، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه..

ومضى هيثكليف يقول لي:

- لقد ربطت لسانه، فلا يجرؤ على النطق بكلمة واحدة.. هل تذكرينني يا نللي عندما كنت في مثل سنه.. لا، بل أصغر منه ببضع سنين؟.. وهل ظهرت قط بمثل هـذا الغباء، أو هذا (التنطع (كما يسميه جوزيف؟

- بل أسوأ منه.. لأنك كنت أكثر تجهمًا وعبوسًا!

فتابع كلامه، كأنما يحدِّث نفسه، أو ينطق بما يجول بخاطره:

- إننى أجد فيه ما يسرني ويشفي غليلى، ويرضى كل ما علقته عليه من آمال!.. ولو أنه ولد أبله أو معتوهًا لما شعرت بنصف ما أستمتع به الآن من سرور ورضى.. ولكنه ليس معتوهًا.. وفى وسعى أن أرثى لكل ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس، لأننى أنا نفسي عانيتها يومًا من الأيام.. وإني أعلم كل ما يكابده الآن تمامًا.. ولكنها مع ذلك، مجرد بداية لما سوف يكابده ويعانيه فيما بعد.. ولن يكون في قدرته قط أن ينتشل نفسه من أعماق الجهالة والجلافة التي تردى فيها.. فقد استطعت أن أظفر به بأسرع مما ظفر بي والده الوغد، وأن أرمى به إلى أحط مما رماني.. فإنه يتيه فخرًا بجلافته وفظاظته.. وقد علمته كيف يسخر ويزدري كل ما ليس حيوانيًا، وأن يعده سخفًا وضعفًا.. أفلا تظنين أن هندلي كان يمكن أن يفخر كثيرًا بابنه، لو أتيح له أن يراه الآن؟.. ألا يفخر بابنه مثلما أفخر أنا بابني هـذا؟.. ولكن هناك فرقًا شاسعًا بينهما.. فأحدهما ذهب خالص ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق.. والثاني صفيح رخيص ولكنه يُصقل ليحاكي آنية من الفضة!.. إن ابنى خلو من أي شيء ذي قيمة، ومع ذلك فإنني أستحق الثناء إذ أجعله يمضي إلى أبعد ما يمكن لشيء تافه مثله أن يبلغه.. أما ابنه هو فإن له ميزات وصفات من الطراز الأول، ولكنها ضائعة.. وقد قبرت وطمرت في التراب حتى غدت أسوأ من عدمها.. فأنا ليس لدي ما آسف عليه.. أما هو فإنه خليق بأن يكون أشد أسفًا وأسى من أي إنسان عرفته.. وأحسن ما في الأمر أن هيرتون مولع بي ولعًا شديدًا.. ولعلك تعترفين بأنني في ذلك قد بززت هندلي وتفوقت عليه.. فلو أن الوغد الميت استطاع أن يقوم من قبره ويأتي ليناقشنى الحساب على ما فعلته بولده، لأثلج صدري برؤية ذلك الولد نفسه يهاجمه حتى يرده إلى قبره، وقد أحنقه أنه جرؤ على الاعتداء على الصديق الأوحد الذي له في هذه الدنيا!

وأطلق هيثكليف ضحكة شيطانية إعجابًا بهذه الفكرة!.. ولم أحر جوابًا، لأنني رأيت أنه لم يكن ينتظر الجواب.. وفى الوقت نفسه كان رفيقنا الصغير - الذي كان يجلس بعيدًا عنا بحيث لم يسمع ما قاله أبوه - قد بدأ يتململ في مقعده ويُظهر علامات القلق.. ولعل ذلك كان ندمًا منه إذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاثرين خشية أن يناله بعض التعب.. ولاحظ أبوه نظراته القلقة الهائمة من خلال النافذة، ويده المترددة وهي تمتد نحو قبعته وترتد عنها، فصاح به في حرارة مصطنعة:

- قم أيها الولد الكسول، والحق بهما.. إنهما الآن عند ركن المنزل، بجوار خلايا النحل!

فاستجمع لينتون همته الخائرة، وغادر مكانه بجوار المدفأة.. وكان الباب مفتوحًا، وفيما كان يجتازه إلى الخارج سمعت صوت كاثرين تسأل رفيقها المستوحش عن تلك الكتابة المنقوشة فوق الباب.. فراح هيرتون يحملق بأنظاره إلى النقوش، وهو يحك رأسه في بلاهة تفوق بلاهة مهرجي الملاعب.. وما لبث أن أجاب:

- إنها كتابة لعينة، ولا أستطيع قراءتها!

فصاحت كاثرين:

- لا تستطيع أن تقرأها؟.. إننى أقرؤها بسهولة، فإنها كتابة إنجليزية.. ولكني أريد أن أعرف سبب وجودها فوق الباب.

وعندئذ قهقه لينتون طربًا، وكان ذلك أول مظهر يبـديه من مظاهر السرور والانشراح، ثم قال لابنة خاله:

- إنه لا يعرف الحروف الأبجدية!.. فهل يمكنك أن تصدقى وجود مثل هذا الجهل الفاحش؟..

فسألته مس كاثي في جد واهتمام:

- هل هو شخص طبيعي مكتمل العقل كما ينبغي أن يكون؟.. أم أنه غر ساذج به شذوذ؟.. لقد ألقيت عليه سؤالين منذ قليل فكان يبدو في كل مرة من الغباء بحيث حسبته لا يفهمني.. أما أنا فإني لا أستطيع فهمه حقًا!

فانبعث لينتون يضحك من جديد، وهو يرمق هيرتون بنظرات الشماتة والتشفى، وكان من المؤكد أن الفتي في تلك اللحظة لم يكن يبدو مجردًا من ملكة الفهم..

ومضى لينتون يقول:

- ليس به من شيء سوى البلادة والكسل، أليس كذلك يا إيرنشو؟.. إن ابنة الخال تحسبك أبله أو غبيًا، وهكذا تلقى عواقب سخريتك بما تسميه: (تعليم الكتب).. ثم هل لاحظت يا كاثرين طريقة نطقه المروعة، على غرار العوام من أهل يوركشاير؟..

فزمجر هيرتون قائلًا، وهو أسرع بديهة في إجابة رفيقه الدائم:

- وما الفائدة منها بحق الشيطان؟..

وكان يهم بالمضي في زمجرته شأوًا بعيدًا، لولا أن الشابين أصابتهما نوبة من المرح الصـاخب، فانفجـرا في قهقهـة متواصلة، وقد طربت آنستي الطائشة إذ تبينت أنها تستطيع أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موضعًا للمرح والتسلية.

وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة:

- وما فائدة (الشيطان (في هذه العبارة؟.. لقد أمرك أبي بألا تفوه بأية كلمات غير لائقة، وها أنت لا تستطيع أن تفتح فمك دون أن تلوك واحدة منها!.. هيا.. حاول أن تسلك مسلك السادة المهذبين..

فصاح الشاب الريفي حانقًا:

- لو لم تكن أقرب إلى الفتاة منك إلى الفتى لقضيت عليك في التو واللحظة، أيها المخلوق التافه الهزيل!

ثم أسرع بالابتعاد عنهما وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب والمذلة معًا، فقد كان يشعر بعمق الإهانة التي أصابته، وبعجزه عن الأخذ بثأره..

وكان مستر هيثكليف قد سمع هذا الحوار، كما سمعته، فابتسم مغتبطًا إذ رآه ينصرف عنهما، ولكنه أعقب ذلك بنظرة غريبة تفيض بالنفور والكراهية، حدَّج بها ابنه ورفيقته الثرثارين، اللذين مضيا في حديثهما عند مدخل البيت، وقد وجد الفتى ما ينعشه ويثير حيويته في الحديث عن أخطاء هيرتون ونقائصه، ورواية الأقاصيص عن تصرفاته، كما

استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنتبه إلى ما تنم عليه من سوء الطوية.. وعندئذ بدأت أكره لينتون، أكثر مما كنت أرثى له، وعذرت أباه في احتقاره واستصغار شأنه..

ومكثنا هناك حتى العصر، إذ لم يمكنى أن انتزع مس كاثى قبل ذلك.. ولكن من حسن الحظ أن سيدي لم يكن قد غادر حجرته، فظلّ جاهلًا غيبتنا الطويلة.. وكنت أتلهف على اطلاع الآنسة الشابة على حقيقة أخلاق الناس الذين غادرنا بيتهم، ولكنها كانت قد وضعت في رأسها أننى متحاملة عليهم، فصاحت قائلة:

- آه!.. إنك تنحازين إلى جانب أبي يا إيلين.. ولقد تبينت الآن مقدار تحيزك، وإلا لما خدعتني كل هذه السنين بزعمك لي أن لينتون يقيم في مكان بعيد جدًا.. إننى شديدة الغضب منك حقًا، غير أن سروري اليوم يطغى على غضبي فيحول دون انفجاره!.. ولكن عليك أن تمسكي لسانك عن زوج عمتي!.. إنه عمى!.. فاذكرى ذلك جيدًا وحذار أن تنسيه! أما أبي فسوف أعاتبه على شجاره معه!

وانطلقت في الحديث على هذه النغمة حتى اضطررت إلى التخلي عن كل محاولة لإقناعها بخطئها.. ولم تذكر شيئًا عن الزيارة في تلك الليلة، لا لشيء إلا لأنها لم تر مستر لينتون.. ولكن في اليوم التالي افتضح السر كله، لفرط كربى وغمي!

ومع ذلك فرب ضارة نافعة!.. فلم يكن الأمر من السوء كما تصورت.. إذ فكرت في أن مستر لينتون أقدر منى على حمل مسئولية التوجيه والتحذير، وأقوى منى تأثيرًا عليها.. غير أنه كان كثير التردد والتهيب في إقناعها بالأسباب القوية التي تبرر رغبته في قطع كل صلة لها بأهل (مرتفعات ويذرنج)، كما كانت كاثرين لا تقنعها سوى المبررات القوية لكل قيد يُفرض على حريتها أو يحد من رغباتها المدللة!

فما كادت تحييه تحية الصباح، في اليوم التالي، حتى هتفت قائلة:

- هل بوسعك، يا أبتاه، أن تحدس من رأيت بالأمس في نزهتي بين الأحراش؟.. آه!.. أراك جفلت يا أبي!.. وقد خانك الحذر الآن، أليس كذلك؟.. حسنًا، لقد رأيت.. ولكن أصغ إلى وسوف تسمع منى كيف كشفت أمرك، وأمر إيلين - حليفتك - التي كانت، مع ذلك، تتظاهر بالإشفاق علىّ، عندما كنت أعلل النفس بالأمل ويستبد بي القلق نحو عودة لينتون إلينا ثانية!

ثم مضت تروى القصة الأمينة الكاملة لرحلتها وما انتهت إليه.. أما السيد، فعلى الرغم من أنه كان يرمقني بنظرات التأنيب أكثر من مرة، إلا أنه لم يقل شيئًا حتى فرغت من قصتها، وعندئذ جذبها إليه وسألها إن كانت تعرف لماذا أخفى عنها وجود لينتون في جوارنا القريب؟.. وإن كانت تظن ذلك لمجرد أنه يأبى عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج من استمتاعها بها؟.. فأجابته:

- لقد كان ذلك لأنك تكره مستر هيثكليف..

- إذن فأنت تعتقدين أنني من الأنانية بحيث أهتم بمشاعري أكثر من اهتمامي بمشاعرك يا كاثي؟.. كلا.. لم يكن ذلك لأنني أكره مستر هيثكليف.. بل لأن مستر هيثكليف هو الذي يكرهني، ولأنه أقرب الناس إلى الأبالسة والشياطين، يجد لذته في الإساءة إلى من يبغضهم وتدميرهم تدميرًا عند أول فرصة يتيحونها له.. وكنت أعرف أنه ما من سبيل أمامك إلى توثيق عرى الود مع ابن عمتك دون أن تتصلى به وتلقيه.. وكنت أعرف كذلك أنه سوف يبغضك لأنك ابنتي.. وهكذا اتخذت وسائل الحيطة حتى لا ترى لينتون ثانية، لمصلحتك أنت، لا لأي سبب آخر.. وكان في نيتي أن أشرح الأمر كله يومًا من الأيام عندما تكبرين،

ويؤسفني أنني توانيت في ذلك..

فقالت كاثرين، وهي لا تبدو مقتنعة تمامًا:

- ولكن مستر هيثكليف كان ودودًا في ترحيبه بي يا أبتاه!. ولم يبد أي اعتراض على لقاء أحدنا بالآخر أو رؤيته له.. بل قال إن بوسعي الحضور إلى منزله كلما طاب لي، على ألا أخبرك بذلك، لأنك كنت قد تشاجرت معه، ولن تغفر له زواجه من عمتي إيزابيلا.. أما أنت فلا تسمح لى بذلك.. فأنت وحدك الملوم الآن يا أبي!.. إنه، على الأقل، راض عن توطيد صداقتنا، أنا ولينتون.. أما أنت فتقف في سبيلها!

وإذ رأى السيد أنها لا تريد أن تصدق ما يتصف به زوج عمتها من خلق شرير، راح يروى لها في إيجاز مسلكه مع إيزابيلا، ووسائل الغدر التي تملك بها (مرتفعات ويذرنج)! ولم يكن يطيق المضي في هذا الحديث طويلًا، لأنه على الرغم من قلة ما ذكره عنه، إلا أنه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك الروع نفسه وتلك البغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ وفاة مسز لينتون.. كان لا يفتأ يردد في فكره تلك العبارة المريرة: (كان يمكن أن تظل على قيد الحياة حتى الآن، لولا ما فعله بها (فكان هيثكليف يبدو في عينيه قاتلًا سفاكًا.. ولكن مس كاثي - التي لم تعرف من أنواع الشرور سوى أفاعيلها الصغيرة التافهة، من العصيان أو العسف أو الانفعال، الناجمة عن طبعها الحامي، وطيشها الصبياني، والتي كانت تندم عليها يوم حدوثها - ذهلت واستبدت بها الدهشة من هذا (القلب الأسود (الذي يستطيع أن يجتر الحقد والضغينة، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السنين، ويتابع تدبير الخطط في صبر وعزم دون أن يلم به شبح من تأنيب الضمير!.. وبدت من التأثر والضيق بهذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية - وهو شيء لم يسبق لها أن قرأت عنه في دراساتها، أو خطر ببالها حتى الآن - بحيث فضَّل مستر إدجار أن يكف عن متابعة الكلام في هذا الموضوع، فاكتفى بأن ينهي الحديث بقوله:

- سوف تعرفين فيما بعد، يا عزيزتي، لماذا أود أن تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته.. أما الآن، فعودي إلى مشاغلك وملاهيك السابقة، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط..

فقبلت كاثرين أباها، وعكفت على دروسها في هدوء زهاء ساعتين كعادتها، ثم صحبته في جولة بين الحقول.. ومضى اليوم كله كما تمضي سائر الأيام.. غير أنني عندما أوت إلى حجرتها في المساء، ولحقت بها لأساعدها في إبدال ثيابها، وجدتها راكعة بجوار الفراش وقد انخرطت في البكاء..

فتعجبت من ذلك، وهتفت بها قائلة:

- واها لك من طفلة بلهاء!.. لو أنك ذقت شيئًا من الأحزان الحقيقية، لخجلت من إراقة دمعة واحدة سدى لمثل هذه المعارضة التافهة لرغباتك!.. فاحمدى الله، يا مس كاثرين، على أن حياتك خلو من أي حزن جوهرى، أو ظل لمثل هذا الحزن.. وفكرى لحظة لو أن السيد، وأنا، قضينا نحبنا، ووجدت نفسك وحيدة في هذا العالم، فكيف يكون شعورك عندئذ؟.. قارنى بين ظروفك الحالية ومثل هذا المصاب الجلل، واحمدى الله على ما أولاك من أصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك، بدلًا من إراقة عبراتك في اشتهاء المزيد من الأصدقاء!

فأجابت:

- إننى لا أبكي من أجل نفسي يا إيلين، وإنما من أجله هو.. لقد كان يتوقع أن يراني ثانية غدًا، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة.. وسوف يطول انتظاره عبثًا..

- هراء!.. فهل تحسبينه يفكر فيك بمثل تفكيرك فيه؟.. أليس لديه رفيق هو هيرتون؟.. إنك لا تجدين واحدًا في المائة من الناس يبكي فقد قريب له لم يره أكثر من مرتين في أمسيتين متباعدتين!. وسوف يدرك لينتون حقيقة الأمر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك..

فاستوت قائمة، وهي تقول:

- ولكن هل لي أن أكتب إليه رقعة صغيرة أبين له فيها السبب في عدم حضوري، وأرسل له معها هذه الكتب التي وعدته بإعارتها له؟.. إن كتبه ليست في مثل طرافة كتبى، وكان يتلهف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية.. هل يمكنني أن أكتب إليه يا إيلين؟..

فأجبتها في حزم:

- محال أن يحدث ذلك.. ولن يحدث قط.. تكتبين إليه، فيكتب إليك، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد؟.. كلا يا مس كاثرين.. أن هذه الصلة يجب أن تُقطع نهائيًا، فهكذا يتوقع أبوك منك، وسوف أعمل على تنفيذ مشيئته..

فبدأت تلح من جديد، وقد اكتست أساريرها بطابع التوسل والرجاء:

- ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة أن..

غير أني قاطعتها في صرامة:

- صه!.. إننا لن نعود إلى الحديث عن رسائلك الصغيرة.. هيا إلى الفراش!

عندئذ رمقتني بنظرة تقطر سمًا، حتى لقد بلغ من أثرها في نفسي أنني لم أقبل في بادىء الأمر على تقبيلها كعادتي كل مساء، واكتفيت بإحكام الغطاء فوقها، ثم أغلقت عليها الباب وقد ركبني هم عظيم.. ولكني ترددت في منتصف الطريق، وندمت على مسلكى، فعدت إليها في هدوء.. ويا للمفاجأة!.. كانت الآنسة تقف بجوار المنضدة وأمامها قطعة من الورق الأبيض، وفي يدها قلم من الرصاص أسرعت بإخفائه عند دخولي، وهي تشعر بذنبها.. وعندئذ بادرتها قائلة:

- إنك لن تجدى من يحمل هذه الرسالة يا كاثرين، لو استطعت كتابتها.. ولكني الآن سوف أطفيء الشمعة وأدعك في الظلام..

وعندما مددت يدي بقصبة الإطفاء لأخمد ضوء الشمعة المعلقة، تلقيت لطمة شديدة على يدي، وسمعتها تزمجر في سخط (أيتها الشريرة!).. ولكني لم ألق إلى الأمر بالًا، وغادرت الحجرة في سكون.. وعندئذ أوصدت المزلاج في عنف شديد، وقد تملكتها نوبة من نوبات النزق والمشاكسة المألوفة منها..

ذلك فقد أتمت رسالتها وبعثت بها إلى المرسل إليه مع غلام لبان كان يحضر من القرية إلى (الجرانج).. ولكني لم أعلم ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت.. فقد مرت الأسابيع، واستعادت كاثى مرحها وانشراحها، وإن كانت قد غدت مولعة، إلى حد عجيب بالتسلل إلى الأركان والانفراد بنفسها.. وكنت إذا اقتربت منها فجأة، وهي مستغرقة في القراءة، أجدها تجفل وتضم الكتاب إلى صدرها كأنما تحاول إخفاءه، وغالبًا ما كنت ألمح أطراف أوراق منفصلة تطل من بين صفحات الكتاب.. بل لقد اتخذت لنفسها عادة جديدة، وهي التبكير في مغادرة حجرتها والنزول إلى المطبخ حيث تظل تحوم حوله كأنما تنتظر وصول شيء لا أدرى كنهه..

وكان لها في إحدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبث بمحتوياته ساعات طويلة وتحرص كل الحرص على أخذ مفتاحه معها كلما انصرفت عنه.. فحدث ذات يوم، بينما كانت منهمكة في التنقيب في درجها، أن حانت منى نظرة إلى الدرج، فإذا بلعبها التي كانت تملؤه قد اختفت وحلت محلها بضعة من الأوراق المطوية.. فثار فضولى. بل وشكوكي، وعولت على أن ألقي نظرة على كنوزها الخفية.. وهكذا ما كادت هي والسيد يأويان إلى حجرتيهما ذات ليلة، حتى رحت أبحث بين مفاتيحى حتى وجدت منها واحـدًا يفتح قفل ذلك الدرج، ففتحته وأفرغت محتوياته جميعًا في ميدعتي، ثم أخذتها إلى حجرتي لأفحصها على مهل، وفي مأمن من المفاجأة.. ومع أنني كنت أرتاب في الأمر إلى حد ما، فقد كانت دهشتى بالغة إذ تبينت في تلك القصاصات مجموعة من الرسائل - لابد أنها كانت يوميـة تقريبًا - من لينتون هيثكليف، كان معظمها ردودًا على رسائل بعثت بها إليه.. وكانت الرسائل الأولى مقتضبة يبدو فيها التعثر، ولكنها ما لبثت أن تحولت تدريجيًّا إلى رسائل غرام غزيرة العاطفة، مليئة بالسذاجة التي تبررها سن كاتبها، وإن كان بعضها، مع ذلك، يحوي لمسات رائعة أيقنت أنه استعارها من مصـدر أوفر خبرة وحذقًا!.. وراعنى أن ألفيت بعضها خليطًا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة، يبدأ بالمشاعر القوية وينتهي بالعاطفة المشبوبة، في ذلك النوع من الكلمات التي قد يستخدمها طالب حدث في مناجاة حبيبة روحانية من حوريات السماء!.. ولست أدرى إن كانت هذه الرسائل قد أشبعت كاثي وأرضت مشاعرها، ولكنها كانت في نظري من سقط المتاع!.. وبعد أن قلَّبت فيها حتى اكتفيت، جمعتها في منديل أخفيته عنـدى، ثم عدت فأوصدت الدرج على خواء..

ونزلت سيدتي الصغيرة مبكرة، على عـادتها، وأخذت تحوم حول المطبخ، فرحت أرقبها من طرف خفي حتى رأيتها تذهب إلى الباب، في اللحظة التي قدم فيها غلام صغير معين.. وبينما كانت الخادمة تملأ له قـدر اللبن، رأيت كاثى تدس شيئًا في جيب سترته، وتلتقط شيئًا آخـر من الجيب نفسه، في حركة سريعة خفيـة.. فتسللت ودرت حول المنزل إلى الحديقة، وتربصت للرسول، الذي راح يدافع في نضال المستميت عن وديعته، حتى انسكب اللبن على الأرض أثناء صراعه معى، ولكني أفلحت أخيرًا في انتزاع الرسالة منه، وأنذرته بسوء العاقبة إذا لم يمض إلى منزله قدمًا لا يلوى على شيء.. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت أقرأ رسالة مس كاثى الغرامية في إمعان، فوجدتهـا أشد بساطة وأعظم بلاغة من رسائل ابن عمتها.. كانت رسـالة رائعة، والحق يقال، على رغم الحماقة التي كانت تنضح بها.. فهززت رأسي وكررت عائدة إلى المنزل أقلب وجوه الرأي في هذا الأمر..

وكان اليوم مطيرًا، فلم تستطع كاثي القيام بنزهتها المعتادة في البستان.. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح، حتى لجأت إلى الدرج المعهود تنشد فيه تسليتها.. وكان أبوها جالسًا إلى جوار المائدة منهمكًا في القراءة، أما أنا فقد تعمدت الاشتغال برتق أهداب ستائر النافذة، ورحت أرقب حركاتها بعين لا تغفل..

وما من طائر عاد إلى عشه ليجده خاويًا وقد عاثت فيـه يد عدو أثيم، بعد أن كان قد تركه مليئًا بأفراخ صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القاتل والحزن المرير، في صرخاته وخفقات أجنحته، بأكثر مما فعلت كاثي بتلك الشهقة الواحدة التي انطلقت من صدرها، وذلك التحول الفجـائي الذي اعترى أساريرها السعيدة فبدلها تبديلًا هائلًا مروعًا..

فرفع مستر لينتون رأسه وهتف بها قائلًا:

- ماذا حدث يا حبيبتي؟.. هل جرحت نفسك؟..

فتحققت من لهجته ونظرته أنه لم يكن مكتشف ذخيرتها، فقالت لاهثة:

- كلا يا أبي.. لا شيء.. إيلين!.. إيلين!.. تعالى معى إلى الطابق العلوي فإني مريضة!

فلبيت دعوتها وصحبتها إلى خارج المكتبة، فما كدنا نبلغ البهو العلوي ونوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها، وهتفت قائلة:

- أواه يا إيلين!.. أنت التي أخذتها!.. آه.. رديها إلي، ولن أفعل ذلك مرة أخرى.. لن أفعل ذلك أبدًا.. ولكن لا تخبرى أبي.. أنك لم تخبرى أبي يا إيلين؟.. قولى إنك لم تخبريه بالأمر؟.. لقد كنت مفرطة في الحماقة، ولكني لن أفعل ذلك بعد الآن قط!

فخاطبتها في رصانة وحزم وطلبت إليها أن تنهض قائمة، ثم قلت:

- إذن فقد مضيت في هذا الأمر شأوًا بعيدًا في الخفاء، كما يبدو الآن يا مس كاثرين! لقد كان الأجدر بك أن تخجلي منها، فلا تطلبيها ثانية!.. فيا لها من حزمة لطيفة من التفاهات تلك التي تقضين ساعات فراغك في دراستها وحفظها!.. ولماذا؟.. إنها خليقة بأن تطبع وتنشر!.. وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما أنثرها تحت ناظريه؟.. إننى لم أطلعه عليها بعد، ولكني لا أخالك تظنين لحظة أنني سوف أحفظ أسرارك المضحكة هذه!.. يا للعار!.. لابد أنك أنت التي خطوت الخطوة الأولى في تبادل هذه السخافات، فإني موقنة من أن الفتى ليس خليقًا بالتفكير في مبادأتك بها!

فراحت تنشج بالبكاء وقد انسحق قلبها، وهي تقول:

- إننى لم أفعل.. لم أفعل شيئًا من ذلك.. ولم أفكر يومًا واحدًا في حبه قبل أن..

فقاطعتها صائحة بكل ما وسعنى من الاستنكار والازدراء:

- حبه؟.. ما شاء الله!.. أتقولين (حبه)؟.. وهل سمع أحد بشيء كهذا؟.. إن في وسعي أن أجاريك فأتحدث عن حب الطحان الذي يحضر مرة كل عام ليشترى منا الغلال!.. ما أجمله من حب، حقًّا!.. إنك لم تقضي من حياتك في المرتين اللتين رأيت فيهما لينتون أكثر من أربع ساعات!.. فكيف تتكلمين عن الحب إذن؟.. هذه هي تفاهاتك الصبيانية، وسوف أذهب بها إلى المكتبة، وسأرى ما الذي يقوله أبوك عن مثل هذا الحب!

فوثبت على يدي لتنتزع منى كنزها الثمين، ولكني رفعته إلى ما فوق رأسي، وعندئذ بدأت في فيض من التوسلات التي انطلقت من فمها في حرارة ولهفة، راجية مني أن أحرق الرسائل أو أفعل بها أي شيء إلا أن اطلع أباها عليها.. وإذ كنت في الحقيقة أميل إلى زجرها وتعنيفها بمثل ميلى إلى الضحك منها (لأنني كنت أقدر أن الأمر كله لا يعدو نزق الفتيات الصغار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير في الأمر برهة، ثم سألتها قائلة:

- إذا رضيت بحرقها، فهل تعدينني وعدًا صادقًا بألا تبعثى إليه أو تتلقى منه رسائل أو كتبًا - لأننى أرى أنك قد أرسلت إليه بعض الكتب - أو خصلات شعر أو خواتم أو لعبًا؟..

فصاحت كاثرين وقد طغت الكبرياء على خجلها:

- إننا لا نتبادل اللعب!

- أو أي شيء آخر يا سيدتي العزيزة إذن.. وسوف أذهب إلى أبيك الآن ما لم تبذلى لي هذا الوعد توًّا..

فهتفت قائلة وهي تتشبّث بثوبى:

- إننى أعدك يا إيلين.. فهيا ضعيها في النار.. هيا.. هيا..

ولكني عندما شرعت في إفساح مكان بين قطع الفحم بمحراك النار، كانت التضحية أكثر من أن تطيق الفتاة احتمال آلامها، فراحت تتوسل إليَّ بأن أبقى على واحدة أو اثنتين من الرسائل، قائلة وقد تمزق قلبها:

- واحدة أو اثنتين فقط يا ايلين، من أجل خاطر لينتون!

ولكني مضيت في مهمتي الأليمة، ففتحت ركن المنديل وبدأت أسقط الرسائل في النار واحدة بعد الأخرى، وألسنة اللهب تعلو في المدفأة أقواسًا..

فصرخت كاثرين ودفعت يدها وسط النيران فأخرجت بعض الأوراق التي لم تجهز النار عليها واحترقت أطرافها فحسب، غير مبالية بما يصيب أصابعها من تحريق، وهي تصيح بي:

- سوف أحتفظ بواحدة أيتها القاسية الشريرة!

فأعدت الرسائل الباقية في يدي إلى المنديل، وهممت بأن أخطو نحو الباب قائلة:

- حسنًا جدًّا.. ما زال لدى ما أريه لأبيك..

عندئذ أفرغت في الموقد ما كانت تطوى عليه يدها من أوراق مسودة الأطراف، وراحت تستحثني على إنهاء هذه المذبحة سريعًا.. فلما فرغت من هذه المهمة جعلت أحرك الرماد لأجهز عليه.. ثم غطيته بملء مجرفة من كتل الفحم.. أما هي فقد انسحبت إلى حجرتها الخاصة وقد أطبقت شفتيها دون أن تنبس بكلمة واحدة، وبدا عليها الشعور بما نالها من إهانة فادحة..

ونزلت لأخبر السيد أن ما أصاب الآنسة من توعك قد زال تمامًا، وأنني رأيت من الخير لها أن ترقد في فراشها قليلًا..

ولم تنزل للغداء.. ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاي، فإذا بها شديدة الامتقاع وقد احمرت جفونها.. إلا أنها كانت محتفظة بهدوئها الظاهري إلى حد يثير الإعجاب..

وفي صباح اليوم التالي توليت اجابة على الرسالة برقعة صغيرة قلت فيها:

(المرجو من السيد هيثكليف ألا يبعث بشيء من الرسائل إلى مس لينتون بعد الآن، لأنها لن تتسلمها..).

ومن ذلك الوقت أصبح صبي اللبان يأتي بجيوب خاوية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

مرّ عيد القديس ميخائيل، وأخذ الصيف يستحث خطاه راحلًا، والخريف يقبل مبكرًا.. ولكن الحصاد كان متأخرًا في ذلك العام، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد.. وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرًا للتجول بين عمال الحصاد، فكانا يبقيان معهم، في مراحل الحصاد الأخيرة، حتى الغسق.. وكان الجو في تلك الأمسيات رطبًا شديد البرودة، حتى أصيب سيدى ببرد شديد سكن رئتيه وأبي الرحيل عنهما، كضيف ثقيل، واضطره إلى ملازمة الدار طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط..

أما كاثي المسكينة، التي تملك الروع قلبها من مغامرتها الصغيرة، فقد ازدادت حزنًا ووجومًا منذ أن اضطرت إلى التخلي عن الاستمرار فيها، فكان أبوها يلح عليها في الإقلال من القراءة، والإكثار من الخروج للنزهة.. وإذ كانت قد حُرمت رفقته، فقد وجدت لزامًا عليَّ أن أعوضها عن هذا الحرمان - على قدر الإمكان - بصحبتي لها.. ولكن هيهات أن أسد الفراغ الذي خلفه، فلم يكن في وسعى أن أفرغ من مشاغلي اليومية الكثيرة إلا ساعتين أو ثلاثًا أكرسها لمرافقتها.. ومع ذلك كان من الجلي أنها كانت أقل ارتياحًا إلى رفقتي عنها إلى صحبة أبيها..

وبعد ظهر يوم من أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر - وكان يومًا مطيرًا، للعشب فيه وللممرات حفيف ووسوسة، مبعثهما أوراق الشجر الجافة الندية، وللسماء الزرقاء الباردة فيه أقنعة من السحب الكثيفة كأنها سفن عظيمة تشق عباب السماء مصعدة من الأفق الغربي، ومنذرة بحمولة من المطر الغزير.. رجوت سيدتي الصغيرة أن تعدل عن جولتها، لثقتى من هطول الأمطار كالسيول، ولكنها رفضت وأمعنت في الرفض.. فخرجت معها على مضض، بعد أن تسربلت بمعطف كبير وحملت مظلتى، وصحبتها في السير حتى نهاية الحديقة، وهي نزهة جافة متكلفة كانت تقوم بها عادة إذا انحرف مزاجها، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت العلة بمستر إدجار وساءت حاله عن المعتاد.. وما كان ليبوح لنا بذلك قط، وإنما هو أمر نحدسه - كاثى وأنا - كلما طال صمته ولاحت الكآبة والانقباض في أساريره.. ومضت تسير في خطى حزينة متمهلة، لا تجرى ولا تقفز كعادتها، برغم أن الرياح الباردة كانت خليقة بأن تغريها بالعدو والتوثب.. وكنت أرمقها من طرف خفى، فألاحظ بين الحين والآخر أنها ترفع يدها لتمسح شيئًا عن وجنتها.. فرحت أتطلع حولي باحثة عن شيء أغريها به لأسرى عنها وأخرجها من لجة تفكيرها الحزين.. وكان على أحد جانبي الطريق مرتفع وعر تناثرت فيه بضعة من أشجار البندق والبلوط الضامرة وقد تعرى شطر من جذورها، وأخذت تترنح غير مستقرة في مواضعها.. وكانت التربة في ذلك المرتفع من الرخاوة بحيث لم تحتمل أشجار البلوط، فانحنى معظمها، تحت دفع الرياح الشديدة، ومال على الأرض في وضع أفقى.. وكانت مس كاثرين، في أيام الصيف، تجد متعة فى تسلق جذوع هذه الاشجار، والجلوس بين أغصانها، تتأرجح على ارتفاع عشرين قدمًا من الأرض.. وكنت أبتهج كلما رأيت خفتها ورشاقتها ومرحها الصبياني ولهوها المنبعث عن قلب خالٍ من الهموم، إلا أنني، في الوقت نفسه، كنت أجد من الأوفق أن أوجه لها اللوم كلما ضبطتها على هذا الارتفاع، فكنت أفعل ذلك في لهجة تدرك منها أنه ليس ثمة ما يضطرها إلى الهبوط!.. كانت تظل منذ تناول الغداء حتى ساعة الشاى مضطجعة في أرجوحتها التي يهزها النسيم، لا تفعل شيئًا سوى الترنم بالأغاني القديمة - أهازيج الطفولة التي كنت أهدهدها بها - أو مراقبة الطيور في أعشاشها ومشاهدة الأب والأم صاحبى العش وهما يطعمان أفراخهما ويغريانها على الطيران، أو تستكن في استرخاء، مطبقة الجفون، يتداولها التفكير وأحلام اليقظة، ملأى بسعادة تقصر الكلمات عن وصفها..

وأشرت إلى فجوة صغيرة بين جذور شجرة ملتوية، وصحت قائلة:

- انظرى يا آنسة!.. إن الشتاء لم يحل هنا بعد.. فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك، هي آخر براعم زهور الليلك التي كانت تكسو السفح كله في شهر يوليو بغلالة زرقاء رائعة الجمال.. فهل لك أن تتسلقى الهضبة، وتقطفيها، لتريها لأبيك؟

فراحت كاثي تحدِّق النظر طويلًا في الزهرة الوحيدة التي كانت تهتز في مثواها الأرضى، قبل أن تجيب أخيرًا:

- كلا.. لن أمسها؟.. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة.. ألا ترينها كذلك يا إيلين؟

- نعم.. فهي أشبه بك طهارة ونحولًا.. أما ترين وجنتيك الشاحبتين كأنهما خاليتان من الدماء؟.. هاتي يدك في يدى ودعينا نجر معًا، فإنك اليوم من الإعياء بحيث أحسبني قادرة على مجاراتك!

فلم تزد على أن قالت: كلا..

واستمرت تمشى على مهل، وهي تتلكأ هنا وهناك لتتأمل قطعة من الطحلب، أو خصلة من العشب الجاف، أو ثمرة من الفطر يشع لونها البرتقالي الفاقع بين أكوام أوراق الشجر الجافة السمراء.. وكانت ترفع يدها، بين الحين والآخر، إلى وجهها، وهي تشيح به بعيدًا عن أنظاري..

فدنوت منها، وأحطت كتفها بساعدى، وسألتها قائلة:

- كاثرين.. لماذا تبكين يا حبيبتي؟.. ما ينبغي لك أن تبكي لأن أباك أصيب بالبرد.. واحمدي الله أنه لم يمرض بما هو أسوأ من ذلك..

عندئذ أطلقت لدموعها العنان، ولم تعد تعمد إلى إخفائها عنى، وقد اختنق صوتها وأنفاسها بنشيج متتابع، وهي تجيبني:

- آه!.. سوف يصبح مرضه أسوأ بكثير.. وماذا ترينني فاعلة إذا ذهب أبي، وذهبت أنت، وخلفتماني وحدى في العالم؟.. إننى لا أستطيع أن أنسى كلماتك يا إيلين، فإنها لا تكف عن الرنين في أذني.. فكيف تتبدل حياتي، وكم يصبح العالم موحشًا مخيفًا أمامي، عندما يحين أجل أبي، وتدركك المنية أنت الأخرى!

فأجبتها:

- لكل أجل كتاب!.. ومن يدري، فقد تموتين قبلنا!.. من الخطأ أن يتعجل المرء السوء قبل وقوعه!.. فدعينا نرجو أن تنقضى أعوام وأعوام قبل أن يذهب أحدنا.. إن السيد ما زال شابًّا، وأنا لم أتجاوز الخامسة والأربعين وما زلت قوية سليمة، كما أن والدتى عاشت حتى الثمانين، وظلت محتفظة بمرحها ونشاطها إلى النهاية!.. وإذا فرضنا أن مستر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره، فإن الأعوام الباقية أكثر من التي انقضت من عمرك يا آنسة، ومن السخف أن تحزني على مصيبة لن تحل إلا بعد عشرين عامًا أو تزيد!

فتطلَّعت إلىَّ في نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء، كأنما تنشد في كلماتي المزيد من الطمأنينة والعزاء، وغمغمت تقول:

- ولكن عمتي إيزابيلا كانت أصغر من أبي..

- إن عمتك إيزابيلا لم تجد من يعني بتمريضها مثلك ومثلي.. ولم تلق من أسباب السعادة، مثلما يلقى السيد، كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة في العيش.. إن كل ما يلزمك، يا عزيزتي، هو أن تحسني رعاية ابيك، وأن تشيعى المرح والبهجة في نفسه بأن

يراك دائمًا مرحة مبتهجة، وأن تتجنبي إثارة القلق في نفسه من أيـة ناحية.. فاذكرى ذلك يا كاثي ولا تنسيه!.. ولا أخفى عنك أنك قد تقتلينه بطيشـك واندفاعك في عاطفة حمقاء خياليـة نحو ابن شخص يسره أن يرى أباك موسدًا في قبره، أو إذا أظهرت له أنك تذوبين حزنًا وأسى بسبب فراق رأي من صالحك أن يفرضه عليك..

فأجابت قائلة:

- إنني لا أحزن لشيء على وجه الأرض إلا لمرض أبي.. ولا أبالي بأي شيء بجانب أبي.. ولن أفعـل شـيئًا البتة - مطلقًا - لن أفعل شيئًا أو أقول كلمة واحدة تضايقه، ما دمت محتفظة بجميع حواسي.. إنني أحبه أكثر من نفسي يا إيلين.. وقد عرفت ذلك مما أفعله كل ليـلة من الصلاة والدعاء بأن أعيش بعـده، لأننى أوثر أن أتعذب وأشقى لفقده، على أن يشـقى ويتعـذب إذا توفاني الله قبله.. أفلا يدل ذلك على أننى أحبه أكثر من حبي لنفسي!

- ما أجمل هذه الكلمات!.. ولكن الأعمال أيضًا يجب أن تثبت شعورك هذا.. وأرجو أن تذكري، عندما تتحسن صحته، تلك القرارات التي اتخذتها في ساعات الخـوف والتوجس..

وكنا، أثناء حديثنا، قد اقتربنا من باب موصـد يؤدي إلى الطريق خارج الحديقة.. وكانت السيدة الشابة قد استعادت مرحها وإشراقهـا ثانيـة، فتسلقت الجدار وجلست على قمة السور، وأخذت تميل إلى الخارج لتلتقط بعض الثمار النابتة وسط زهور أشجار الورد البري القرمزية، التي تظلل جانب الطريق.. كانت الثمار السفلي قد اختفت، أما العليا فلم يكن يستطيع الاقتراب منها، غير الطيـور وحدها، إلا من يتخذ موضع كاثي الحالي.. وبينما كانت تميل لتجذبها نحوها سقطت قبعتها في الطريق، فاقترحت أن تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها، نظرًا لأن الباب كان موصـدًا.. ورجـوتها أن تكون حـذرة حتى لا تقع، وسرعان ما اختفت عن الأنظار في خفـة وسرعة.. ولكن العودة لم تكن بمثل هـذه السهولة، إذ كان الجدار أملس مصقولًا، جيد الطلاء، خلوًا من أي نتوء أو متكأ، كما أن فروع شجيرات الورد الرخوة، وأغصان شجيرات العليق الشاردة، كانت لا تقوى على أداء أية معونة عند تسلق الجـدار.. أما أنا فلم أنتبه إلى ذلك، لغفلتي وحمقى، حتى سمعتها تضحك قائلة:

- سوف تضطرين إلى إحضـار المفتاح يا إيلين، أو أضطر إلى الانطلاق عدوًا حتى كوخ الحارس.. فليس في استطاعتي تسلق السور من هنا..

- أبقي حيث أنت.. إن في جيبي ربطـة مفاتيح لـعل فيها ما يفتح هذا البـاب، وإلا ذهبت لإحضار المفتاح..

وأخذت كاثرين تتسلى بالغناء والرقص أمام الباب ريثمـا مضيت أجرب المفاتيح واحدًا بعد الآخر، ولكني بلغت آخرها دون أن أجد بينها ما يُطابق قفل الباب.. فأعدت عليها رغبتى بأن تبقى مكانهـا، وكنت على وشـك أن أهرع نحو الدار بأسرع ما في طاقتي عندما بلغ مسامعى صوت جعلني أجمد في مكاني، وكان ذلك وقع حوافر جـواد يقترب مسرعًا..

وتوقفت كاثى عن الرقص كذلك، فسألتها بصوت خفيض:

- من هذا؟

وإذا برفيقتي تهمس في لهفة بالغة:

- إيلين.. ليتك تستطيعين فتح الباب سريعًا!

عندئذ انبعث صوت عميق (هو صوت راكب الجواد) يصيح قائلًا:

- مهلًا يا مس لينتون!.. شد ما يسرني أن ألقاك.. ولكن لا تتعجلى الدخول، فإن هناك إيضاحًا أود أن أسألك عنه وتجيبيني عليه..

فأجابته قائلة:

- إني لن أخاطبك يا مستر هيثكليف، فإن أبي يقول إنك رجل شرير تمقته وتمقتنى معًا!.. وقد أيدت إيلين ذلك..

فقال هيثكليف (وكان هو نفسه القادم):

- لا شأن لذلك بالغرض الذي أحدثك من أجله.. إننى لا أمقت ابني، على الأقل.. والأمر الذي أود أن أسترعي انتباهك إليه إنما يخصه هو.. نعم.. يحق لك أن يحمـر وجهك خجلًا!.. ألم تكوني، منذ شهرين أو ثلاثة، تكتبين إلى لينتون كل يوم؟.. أكنت تتخذين من الحب ملهاة ومسلاة إذن؟.. إنكما، كلاكما، تستحقان الجلد بالسياط جزاءً وفاقًا، وخصوصًا أنت، لأنك أكبر سنًا، وأبلد شعورًا، كما وضح فيما بعد!.. ولكني حصلت على خطاباتك، وسوف أبعث بها إلى أبيك إذا لم تعيرى كلامي أذنًا واعية، أو أبديت استهانة بما أقول.. إننى أحسبك مللت هذه اللعبة، فانصرفت عنها.. أليس كذلك؟.. حسنًا.. إنك عنـدما طرحتها عنك، طرحت لينتون معها في هوة من اليأس والقنوط!.. لقد كان جادًا، لا لاهيًا ولا عابثًا، فأحبك حقًا.. والحقيقة الواقعة، كوجودي على قيد الحياة أمامك. أنه على وشك الموت من أجلك، وقد سحق قلبه - حقًا لا مجازًا - غدرك وتقلب أهوائك.. ومع أن هيرتون ظل طوال الأسابيع الستة الأخيرة يمازحه ويلاعبه ليسرى عنه، وعلى الرغم من أننى اتخذت نحوه تدابير أكثر صرامة، وحاولت أن أخيفه وأروعه ليدع حمقه وغفلته، فإنه يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وسوف يغيبه الثرى قبل الصيف المقبل، إلا إذا أنقذته وأعـدت إليه الحياة!

فصحت من وراء الباب قائلة:

- كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجرأة؟.. امض لشأنك بالله عليك!.. فلست أدري كيف تختلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة!.. سوف أحطم القفل بحجر، يا مس كاثي، فلا تصدقى كلمة من هذا الهراء الخبيث.. وقد أدركت بنفسك أن من المستحيل أن يموت أحد غرامًا بشخص غريب عنه..

فغمغم الشقى الذي انكشف أمره، قائلًا:

- لم أكن أعلم أن هناك جواسيس يسترقون السمع!.. أهـذه أنت يا مسز دين العظيمة؟.. إننى أحبك، ولـكنى لا أحب نفاقك يا ذات الوجهين!

ثم استطرد يقول بصوت عال:

- وكيف يمكن لك (أنت (أن تكذبي على (الطفلة المسكينة (بهذه الجرأة، فتؤكدى لها أنني أبغضها، وتخترعى لها من قصص الغيلان ما يخيفها منى وينفرها من بيتي؟.. اسمعى يا بنيتي العزيزة، يا كاثرين لينتـون (وهـذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة في عروقى) سوف أغيب عن منزلي طوال هذا الأسبوع.. فاذهبي لترى بنفسك أننى لم أخبـرك إلا صدقًا.. اذهبى يا عزيزتي!.. بل عليك أن تتخيلى والدك في مكاني، ولينتون في مكانك، ثم فكرى بعـد ذلك كيف تكون نظرتك إلى حبيبك الجحود، إذا أبى أن يخطو خطـوة واحدة لمواساتك، بينما أبوك نفسه يرجوه ويستعطفه!.. ولا تقعي في هذا الخطأ نفسه لا لشيء سوى الغباء والحمق.. إنني أقسم لك بخلاص روحي، إنه يسير نحو القبر سيـرًا حثيثًا، وليس من يستطيع إنقاذه سواك..

وتهاوى القفل تحت طرقاتى فاندفعت خارجة، بينما كان هيثكليف يتابع كلامه لها، وهو

يحدجني بنظرة صارمة، قائلًا:

- أقسم لك إن لينتون مشرف على الموت حقًا، وإن الحزن والحسرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة!.. وأنت يا نللى، إذا كنت مصرة على منعها من الذهاب، فامضى إلى هناك بنفسك لتريه بعينيك.. إنني لن أرجع من رحلتي إلا في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل، ولا أحسب أن سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمتها!

فقلت لكاثرين: (تعالى معى).

وكنت قد أمسكت بذراعها وأنا لا أكاد أجرها إلى الداخل جرًا، بعد أن رأيتها تتلكأ مترددة، وتتطلّع إلى وجه محدثها بعينين يملؤهما القلق والانشغال، بينما كانت أساريره الجامدة من الصرامة بحيث تخفي خداعه ولؤمه.. وما لبث أن دفع بجواده إلى جانبها، ومال فوقه نحوها، قائلًا:

- إنني أعترف لك يا مس كاثرين بأن صبرى قد نفد من لينتون وحالته، كما ضاق به هيرتون وجوزيف ذرعًا، وأعترف لك أيضًا بأنه يعيش في وسط سمته الفظاظة والخشونة.. وأنه يذوى سريعًا لحرمانه من العطف والحب.. لذلك فإن كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له.. فلا تلقى بالًا إلى تحذيرات مسز دين القاسية، بل كوني رفيقة كريمة، وأسعى إلى رؤيته.. فإنك تتراءين له في أحلامه بالليل والنهار، وهو لا يتخلى عن عقيدته بأنك تكرهينه، بعد أن امتنعت عن زيارته والكتابة إليه..

فأغلقت الباب ودحرجت وراءه حجرًا ليدعمه بعد أن تحطم قفله، ثم نشرت مظلتى وجذبت وديعتي تحتها، إذ بدأ المطر يتساقط علينا من بين فروع الأشجار الشجية الأنين، نذيرة لنا بألا نتواني في الخارج حتى لا تفاجئنا سيوله المنهمرة.. وكان إسراعنا وتلهفنا على العودة للدار يمنعاننا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هيثكليف، ولكنني تكهنت، بإلهام من غريزتي، بأن قلب كاثرين كان ملبدًا بغيوم الظلمات الكثيفة.. وكان الحزن والأسى يطبعان أساريرها بطابع غريب بدلها تبديلًا، حتى لقد أنكرتها.. وكان من الجلي أنها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته..

ووجدنا السيد قد أوى إلى حجرته قبل عودتنا، فتسللت كاثي إليها لتسأل عن حالته، فألفته مستغرقًا في النوم، وعندئذ عادت لتطلب مني أن أجلس معها في المكتبة.. وتناولنا الشاي معًا، فلما فرغنا منه استلقت على البساط، وطلبت منى ألا أتكلم، زاعمة أنها متعبة مرهقة.. فأخذت كتابًا وتظاهرت بالقراءة.. وما أن حسبتني مستغرقة فيها، حتى بدأت بكاءها الصامت الذي يبدو أنه أصبح الآن مسلاتها المفضلة!.. وتركتها تسري عن نفسها برهة، ثم اندفعت في عتاب طويل، محاولة تسفيه أقوال مستر هيثكليف ومزاعمه عن ابنه، والسخرية منها، كأنما حسبت أنها ستوافقنى.. ولكن واأسفاه!.. فلم تكن لي تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليقة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذي أحدثته روايته.. وكان ذلك ما يرمى إليه تمامًا..

وأجابتني أخيرًا:

- ربما كنت على حق يا نللي، ولكني لن أحس بالراحة قط حتى أعرف الحقيقة.. ولا بد لي من أن أخبر لينتون بأنه لم يكن لي ذنب في امتناعي عن الكتابة إليه، وأن أقنعه بأنني لن أتغير عن عهده قط..

فما جدوى الغضب والاحتجاج إزاء سذاجتها الحمقاء، وسلامة نيتها البلهاء؟..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وفاق.. ولكن اليوم التالي شهدني على الطريق إلى

(مرتفعات ويذرنج)، مهرولة بجانب مهر سيدتي العنيدة.. فلم يكن في وسعى أن أطيق رؤيتها حزينة، وأن أحتمل مرأى وجهها الشاحب وعينيها المقروحتين بالبكاء.. ورضخت لرغبتها، وقد تراوحنى أمل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه، عند استقباله لنا، مبلغ ما في الرواية من كذب وبهتان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – **Group Link**

لينك القنـــاة – **Link**

فهرس الجزء الثاني..


كتابى
46
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الثالث
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٥٩٠٨١٥٥

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة كتابي) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كتابي

(العدد رقم 46)

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثالث

والأخير

إميلي برونتي

إعداد: حلمي مراد


الجـزء الثالث
مرتفعات ويذرنج
النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

ملخص الجزئين الأول والثاني..

عندما توفى (إيرنشو) - صاحب دار (مرتفعات ويذرنج) - خلف وراءه ولدًا متلافًا، هو (هندلى)، وابنة عنيدة، خشنة متمردة، هي (كاثرين)، و.. ولدًا من أصل مجهول، التقطه من رحلة له إلى (ليفربول)، ويغلب على الظن أنه غجري، هو «هيثكليف»، وقد جمع العنف والخشونة بين كاثرين وهيثكليف، ولكن (هندلى) حرص على التفرقة بينهما، وعلى محاولة ترويض كاثرين وإذلال هيثكليف!.. ولم تلبث الفتاة أن تعرفت إلى (إدجار لينتون) - ابن صاحب الضيعة القريبة (الجرانج) - فبهرها منه جمال شكله، ورقة طباعه، ولم تلبث أن تزوجت منه بالرغم من أنها كانت تزدري ضعفه ونعومته بالنسبة لغلظة (هيثكليف) وخشونته..

ونقم هيثكليف عليها هذا الزواج، كما حقد على أخيها إمعانه في إذلاله، فلم يلبث أن اختفى من (مرتفعات ويذرنج)، ليظهر بعد سنوات وقد أصاب قسطًا من الغنى جعل (هندلى) يستضيفه في داره.. واستغل الخبيث تردى ابن ولى نعمته في المقامرة، وإدمانه الشراب، فراح يعمل على تحطيمه، وعلى إخضاعه لسلطانه - بفضل ما كان يقرضه من مال يقامر به - وعلى إفساد ابنه (هيرتون) عليه، وتنشئته على ما نشأ هو عليه من خشونة، وضراوة، وجهل هو أقرب إلى الأمية.. وفي الوقت ذاته، راح هيثكليف يسعى لإرضاء حقده على غريمه الذي ظفر بكاثرين - (إدجار لينتون) - متوسلًا بقوة تأثيره عليها.. وهكذا تسبب في أزمة عصفت بما كان بين الزوجين من وئام.. ثم استغل الهوى الصبياني الذي تملك أخت إدجار - (إيزابيلا) - نحوه فعمل على تنميته، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطي، ورغبة في أن يرث أملاكه بعده!.. وإذ اكتشفت كاثرين الأمر، عنفت في تأنيب هيثكليف، وطرده (إدجار).

وأثار تدخل (إدجار) ثائرة (كاثرين)، فتصنعت الإصابة بنوبة صرع. ثم جن جنونها إذ لم يأبه زوجها بها، فأصابها نوع من الخبل والهذيان، وعرضت نفسها للبرد القاسي، فأصيبت بحمى عنيفة.. وفي غمرة المرض الفتاك، ولوعة (إدجار) على زوجته، أغرى هيثكليف (إيزابيلا) بالفرار معه، وتزوجها - عن غير حب - ثم عاد بها إلى مرتفعات ويذرنج، حيث راح يسومها العذاب، إمعانًا في الانتقام من أخيها.

ولم يكتفِ الوغد بذلك، بل حرص على أن يتسلل إلى (الجرانج)، وأن يلقي كاثرين، يتنازعه الحب لها، والحقد عليها لأنها احتقرته وتزوجت غريمه الغني.. وعلى أثر مشهد عنيف بينهما أثناء مرضها، أغمى على (كاثرين)!.. وفي المساء ذاته، وضعت طفلة، حملت نفس اسمها (كاثرين)، ثم ماتت!.. وكانت الصدمة قاسية على «إدجار» فاعتزل الناس أجمعين، وكرس حياته لطفلته.. ولم تزد هذه الصدمة هيثكليف إلا إمعانًا في حقده عليه، وفي بطشه بإيزابيلا حتى اضطرت المسكينة إلى الفرار منه إلى ركن مغمور من لندن، حيث وضعت طفلًا أسمته (لينتون)..

ثم مات (هندلى) من تأثير إفراطه في الخمر، فاستولى الوغد الوضيع على مرتفعات ويذرنج، وعلى (هيرتون) - ابن غريمه -لينشئه جلفًا، فظًا، عنيفًا مثله..

وكانت (كاثرين) الصغيرة قد كبرت، في رعاية أبيها ومربيتها مسز (إيلين دين) - راوية القصة - دون أن ترى العالم خارج أسوار دارها - (الجرانج) إلا في صحبة أبيها.. وعندما بلغت الثالثة عشرة، تلقى أبوها من أخته (إيزابيلا) رسالة تستحلفه فيها أن يخف إلى جوارها وهي تحتضر، فسافر.. وفي غيابه، شقت (كاثى) عصا الطاعة على مربيتها،

وانطلقت على جوادها إلى غير هدى، فإذا القدر يسوقها إلى «المرتفعات)، حيث أبدى لها هيثكليف تلطفًا جعلها تُخدع في حقيقته.. وحيث استهجنت هوان حال (هيرتون) وفظاظته، دون أن تدري أنه ابن خالها!

وأقبل (لينتون) مع خاله - الذي اعتزم أن يكفله - فإذا به ضعيف، هياب، حائر، كثير البكاء.. على أنه كان جميلًا برغم ذلك، وقد اجتذب (كاثى) بحاله هذه. ولكن أباه «هيثكليف) لم يكد يعلم بوصوله، حتى أصر على أنه أولى بكفالته، واستطاع أن يأخذه من خاله.. وكأنما كان هـذا طعمًا لاستدراج (كاثي) إلى مرتفعات ويذرنج، ولتحويل عطفها على الفتى إلى حب.. فلما فطنت المربية، حالت بين الفتاة وبين مراسلة «لينتون» أو زيارة مرتفعات ويذرنج. وساعدها على ذلك أن (إدجار» كان قد أُصيب بمرض خطير، يُخشى منه عليه إذا هو عرف الأمر.

ولكن هيثكليف فاجأ الفتاة يومًا - وهي مع مربيتها خارج الدار - وأنبأها بأن حزن (لينتون) لانقطاع صلته بها قد أسلمه إلى مرض يوشك أن يقضى عليه.. وهدد، وأنذر.. ثم قال إنه سيغيب عن داره أسبوعًا، وفي وسع الفتاة أن تتأكد خلال ذلك من صدق قوله..

وفى الصباح التالي، انطلقت الفتاة مع مربيتها إلى مرتفعات ويذرنج، لترى ما إذا كان لينتون مريضًا حقًّا!

والآن تستطيع أن تستأنف القصة:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

أسفرت الليلة المطيرة عن صباح تحجب ضياءه غلالة من الضباب الرطيب، كان بعضه من ندف الثلج السابحة في الهواء، وبعضه الآخر من رذاذ خفيف من قطرات المطر المعلّقة في الفضاء.. وكانت جداول الماء تنساب من أعلى التلال، في قرقرة خافتة، فتقطع طريقنا بين وقت وآخر.. وأصاب البلل قدمى، فزاد من حنقى وضيق صدري، وجعلني في تلك الحالة من السخط التي تلازمنا عندما نقدم على صنع شيء لا تهش له نفوسنا..

وجعلت دخولنا إلى (المرتفعات) عن طريق المطبخ، حتى أستوثق من غياب مستر هيثكليف حقًّا، إذ كنت قليلة الثقة بما يقوله ويؤكده!.. ووجدت جوزيف، وقد بدا كأنه ينعم وحده بجنة لا يشاركه فيها أحد، جالسًا بجوار موقد احتدم أواره، وعلى المائدة القريبة منه قدح مثل الدلو مليء بالجعة، رصت حوله قطع كبيرة من فطير الشوفان المقدد، وقد وضع غليونه الأسود القصير في ركن فمه.. وهرعت كاثرين إلى الموقد تستدفىء بناره المستعرة، بينما كنت أسأله إن كان السيد داخل الدار.. ولقد ظلّ سؤالي بلا جواب فترة طويلة، حتى خلت أن العجوز قد أصابه الصمم، فأعدت عليه السؤال بصوت أشد ارتفاعًا..

فانبعث يزمجر، أو بالأحرى أنه كان يصرخ من أنفه:

- كلا.. كلا.. وما عليكما إلا أن تعودا من حيث أتيتما!

وكدت أهم بالرد عليه عندما صاح صوت حانق من الحجرة الداخلية:

- جوزيف!.. كم مرة ينبغي لي أن أناديك؟.. لم يبق في المدفأة إلا جمرات قليلة يكسوها الرماد الآن.. جوزيف!.. تعال في الحال!

ولكن أنفاس الغليون القوية المتلاحقة، وتلك النظرة الساهمة نحو الموقد، كانت تنبيء بأنه لا يعير هذا النداء أذنًا صاغية.. وكانت مدبرة المنزل وهيرتون مختفيين عن الأنظار، ولعل الأولى خرجت في جولة لتتبضع، وانصرف الثاني إلى عمله في الحقول.. وعرفنا صوت لينتون، فدخلنا إليه.. وكان عندما سمع وقع خطانا، قد حسبنا خادمه الذي يهمله ولا يعنى به، فصاح قائلًا:

- آه!.. كم أتمنى أن تهلك جوعًا في سجن سحيق!

فلما تبين خطأه، سكت فجأة، بينما اندفعت بنت خاله نحوه كالطير الحبيس يُطلق من عقاله.. فرفع رأسه عن مسند المقعد الكبير الذي كان مضطجعًا فيه، وقال:

- أهذه أنت يا مس لينتون؟.. كلا.. كلا.. لا تقبليني، فإن ذلك يقطع أنفاسي ويجعلني ألهث كالمخنوق!

فلما أفاق قليلًا مما غشيه من عناق كاثرين، التي وقفت جانبًا وقد بدت عليها خيبة الأمل، استطرد يقول:

- يا إلهي!.. لقد قال لي أبي إنك قد تحضرين لزيارتي، وها قد صح حدسه.. هل لك أن تتكرمي بإغلاق الباب؟.. لقد تركته مفتوحًا وراءك، كما أن هؤلاء.. هؤلاء المناكيد لا يريدون إحضار الفحم للمدفأة!.. آه!.. ما أشد البرد الآن!

فأخذت أحرك الرماد وأحضرت بنفسي ملء دلو من فحم غذيت به النار.. فراح العليل يشكو ويتذمر من تطاير بعض الرماد عليه، ولكنه لم يلبث أن فاجأته نوبة من السعال الأليم أسكتته.. وكان يبدو سقيمًا محمومًا مما جعلني أغضى عن سوء خلقه..

فلما انتهى سعاله، وانفرجت أساريره، غمغمت كاثرين قائلة:

- حسنًا يا لينتون.. هل سرتك رؤيتي؟.. وهل بوسعى أن أكون ذات نفع لك؟

- لماذا لم تحضري قبل الآن؟.. كان الأولى بك أن تأتى بنفسك بدلًا من الكتابة لي، فإن تلك الخطابات الطويلة أرهقتنى إرهاقًا مروعًا!.. وكنت أفضل لو تحدثت إليك بدلًا من تدبيجها.. أما الآن فلم أعد أحتمل الكلام ولا أي شيء آخر!.. تُرى أين زيللا؟

ثم التفت نحوي، واستطرد يقول:

- هل لك أن تذهبي إلى المطبخ لترى أين هي؟

ولم أكن قد تلقيت منه لفتة أو كلمة شكر على خدمتى الأخرى بتزويد المدفأة بالفحم، وإذ كنت غير راغبة في الذهاب إلى هنا وإلى هناك تنفيذًا لمشيئته، فقد اكتفيت بأن أجبته: (ما من أحد هناك سوى جوزيف).

فأشاح بوجهه عنى، وهو يقول في ضيق وتبرم:

- أريد جرعة من الماء.. وقد اعتادت زيللا أن تهيم على وجهها إلى جيمرتون منذ أن غاب أبي، وتركني أعاني هذا الشقاء.. لقد اضطررت إلى النزول إلى هنا، فقد أصروا على تجاهل ندائي كلما بقيت في الطابق العلوي..

وإذ رأيت كاثرين قد صُدت في محاولاتها الودية للتقرب إليه، سألته:

- هل تجد من أبيك رعاية كافية يا سيد لينتون؟

- رعاية كافية؟.. إنه على الأقل، يجعل الآخرين يولونني شيئًا من الرعاية في حضوره.. ولكن يا لهم من أوغاد أشقياء!.. هل تعرفين يا مس لينتون أن ذلك الوحش هيرتون يضحك منى ساخرًا؟.. إنني أكرهه.. بل إنني في الواقع أكرههم جميعًا.. فإنهم ثلة من المخلوقات البغيضة الممقوتة!

وبدأت كاثي تبحث في الحجرة عن بعض الماء لتسقيه، حتى عثرت على إبريق فوق الخوان، فملأت منه كوبًا وأحضرتها إليه.. ولكنه طلب إليها أن تضيف إليه ملء ملعقة من النبيذ من زجاجة موضوعة فوق المائدة.. ثم جرع رشفة صغيرة، بدأ بعدها أشد راحة وأكثر هدوءًا، وقال إنها رحيمة رقيقة الشعور..

وسرَّها أن تلمح على شفتيه إشراق فجر ابتسامة، فعادت تكرِّر سؤالها الأول:

- وهل أنت مسرور لرؤيتى؟

- نعم.. إنني كذلك حقًّا.. فإن سماع صوت كصوتك أمر جديد على.. ولكن امتناعك عن الحضور سبّب لي كثيرًا من اللوم والإيلام، فقد أقسم أبي إننى المسئول عن ذلك، وكان يصفني بأننى (شىء تافه خائر النفس يدعو إلى الرثاء)!.. ويقول إنك تحتقرينني، وأنه لو كان في محلى لكان قد أصبح الآن سيد (الجرانج) أكثر من أبيك.. ولكنك لا تحتقرينني، أليس كذلك يا مس..

فقاطعته سيدتي الصغيرة قائلة:

- بودي أن تقول كاثرين أو كاثي.. أنا أحتقرك؟.. كلا.. كلا.. إنك أحب الناس إلى نفسي بعد أبي وإيلين!.. ومع ذلك فإني لا أحب مستر هيثكليف، ولن أجرؤ على الحضور إلى هنا بعد عودته.. فهل سيغيب أيامًا عديدة؟

- لن يطول غيابه كثيرًا.. ولكنه يكثر من الذهاب إلى البراري منذ أن بدأ موسم الصيد، وسيكون في وسعك أن تقضى معى ساعة أو اثنتين في غيبته.. قولى إنك ستفعلين، وأحسبني لن أكون نكدًا مشاكسًا معك، لأنك لا تثيرين غضبي، بل تبدين دائمًا راغبة في مساعدتي.. هل ستحضرين؟

فأجابت وهي تربت على شعره الطويل الناعم:

- نعم.. إذا استطعت فقط أن أنال موافقة أبي.. عندئذ سوف أقضي نصف وقتى معك يا لينتون الجميل.. شد ما وددت لو أنك كنت أخي!

فأجاب في لهجة مرحة طروب:

- في تلك الحالة سوف تحبينني كما تحبين أباك.. ولكن أبي يقول إنك سوف تحبينني أكثر منه ومن أي إنسان في العالم، إذا ما كنت زوجتى لذلك أفضل لو كنت زوجة لي!

فقالت في رصانة:

- كلا.. لن أحب أحدًا قط أكثر مما أحب أبي!.. ثم إن الناس يكرهون زوجاتهم أحيانًا، ولكنهم لا يكرهون إخوتهم وأخواتهم.. ولو كنت أخي لأقمت معنا، ولأحبك أبي وتعلق بك مثلما يحبني ويتعلّق بي..

فأنكر لينتون أن الناس يكرهون زوجاتهم قط، ولكن كاتي عادت تؤكد أنهم يفعلون، وتدفقت الحكمة من فمها عندما ضربت مثلًا لذلك كراهية أبيه نفسه لعمتها.. وحاولت أن أتدخل لأكبح زمام لسانها الطائش، ولكني لم أفلح في ذلك حتى كانت قد أخرجت من جوفها كل ما تعرفه.. فصاح لينتون، وقد استبد به الضيق، يؤكد أن قصتها كاذبة..

فقالت كاثرين في صراحة أشبه بالقحة:

- لقد أخبرني أبي بذلك.. وأبي لا يكذب قط..

فصاح لينتون:

- إن أبي يزدرى أباك ويحتقره، ويسميه المغفل الخسيس!

فردّت عليه كاثرين:

- إن أباك رجل شرير، وأنت أشد شرًا منه إذ تردد ما يقوله.. ولابد أنه بلغ غاية الشر حتى دفع عمتى إيزابيلا إلى هجره كما فعلت!

- إنها لم تهجره.. فلا تعارضيني!

فصرخت سيدتي الصغيرة:

- بل هجرته فعلًا..

عندئذ قال لينتون:

- حسنًا.. سوف أخبرك أنت بشيء يهمك.. لقد كانت أمك تكره أباك، فما رأيك؟

فشهقت كاثرين، وأخرسها الغضب عن النطق إلا بكلمة: (أوه!..) فاستطرد يقول:

- وكانت تحب أبي!

فتلاحقت أنفاسها وتورد وجهها بحمرة الغضب والانفعال، ثم صاحت:

- أيها الكاذب الصغير، إنني أكرهك الآن!

ولكن لينتون غاص في مقعده، وأسند رأسه إلى ظهر المقعد وراح يرمق غريمته في الجدال - وكانت تقف خلفه - مستمتعًا بما يبدو عليها من انفعال وغضب. وما لبث أن راح يكرّر في لهجة منغومة:

- كانت تحبه!.. كانت تحبه!

فتدخلت قائلة:

- صه يا سيد لينتون!.. هذه أيضًا رواية أبيك. فيما أظن..

- إنها ليست روايته.. وعليك أن تمسكي لسانك!.. كانت تحبه!.. كانت تحبه يا كاثرين!.. كانت تحبه!.. كانت تحبه!

فطاش صواب كاثرين، ودفعت المقعد دفعة قوية جعلت لينتون يهوى على أحد ذراعيه، وما لبث أن أصابته نوبة من السعال الخانق وضعت حدًّا لزهوه وانتصاره.. ودامت النوبة طويلًا حتى أقلقتني، أما ابنة خاله، فقد راحت تبكي بكل قوتها، وقد أذهلها ما أقدمت عليه من أذى، ولو أنها لم تقل شيئًا تعتذر به عما اقترفته.. وأمسكت به بين ذراعي حتى زالت عنه نوبة السعال، وعندئذ دفعني بعيدًا، وأحنى رأسه فوق صدره حيث لبث صامتًا بلا حراك.. وكفكفت كاثرين عبراتها، هي الأخرى، وجلست ناحية، وهي تنظر إلى النار في وجوم..

وانقضت دقائق عشر على هذا النحو، فقطعت الصمت الذي يرين فوقنا، لأسأله:

- كيف حالك الآن يا سيد هيثكليف؟

- ليتها تحس بما أحس به، هذه المخلوقة القاسية الحقود!.. إن هيرتون لا يمسنى بأصبعه قط، ولم يضربني، مرة واحدة في حياته.. ثم إنني كنت أحسن حالًا اليوم، وها هى ذى قد..

واختنق صوته في نشيج حار، فلم يتمّ عبارته.. بينما أخذت كاثرين تعض شفتها حتى تحول دون انفجارها باكية من جديد..

وظل يئن ويتوجع، كشخص يعانى آلامًا مروعة، أكثر من ربع ساعة.. وكان من الجلى أنه كان يفعل ذلك عن عمد ليزيد من كرب ابنة خاله وضيقها، إذ كان كلما لمح عبرة تنساب من عينيها في صمت، زاد من أنغام الألم المتجددة في صوته الباكي!

ونفد احتمالها أخيرًا، فما لبثت أن قالت:

- إنني آسفة لما ألحقته بك من أذى يا لينتون.. ولكنى - أنا - ما كنت لأتألم من مثل هذه الدفعة اليسيرة، وما خطر ببالي أنها سوف تؤلمك.. ولكنها لم تؤذك كثيرًا، أليس كذلك يا لينتون؟.. قل إنك لم تتألم منها كثيرًا، ولا تدعني أعود إلى منزلي وأنا أفكر في أننى قد آذيتك.. أجب.. كلمنى!

- لا أستطيع أن أكلمك!.. لقد آذيتني إلى درجة سوف تجعلني أقضي الليل مسهدًا مختنقًا من هذا السعال اللعين.. ولو أنك أصبت به لعرفت ما هو.. ولكنك سوف تستغرقين في نوم هادىء مريح، بينما أتألم وحدي، وليس بقربي أحد.. تُرى كيف تحبين أن تقضى هذه الليالي المروعة، لو أصابك ما أصابني؟!

فقلت له:

- ما دمت قد اعتدت على قضاء هذه الليالي الفظيعة، فإن الآنسة ليست هي التي تفسد راحتك، ولن يتغير عليك شيء لو لم تكن قد حضرت.. ومهما يكن من أمر يا سيد لينتون، فإنها لن تزعجك مرة أخرى، وأرجو لك المزيد من الراحة والهدوء بعد ذهابنا..

ولكن كاثرين مالت فوقه وهي تسأله في حزن وأسى:

- هل يجب أن أذهب؟.. هل تريد أن أذهب يا لينتون؟

فأجابها في سخط:

- إنك لا تستطيعين تغيير ما أحدثته!.. إلا إذا زدته سوءًا بمضايقاتك لى حتى تصيبيني بالحمى!

فرددت سؤالها من جديد: حسنًا.. هل يجب أن أذهب إذن؟

فقال وهو يرتد إلى الوراء نافرًا:

- دعينى وحدي على الأقل، فإني لا أطيق كلامك!

فتلكأت لحظة، وهي تقاوم طويلًا إلحاحي عليها بالانصراف.. فلما وجدته لا ينظر إليها ولا يكلمها، بدأت تسير متمهلة نحو الباب، وبدأت أسير في أعقابها.. ولكن ردتنا عن المضى في طريقنا صرخة مفاجئة، فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى إلى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة، حيث راح يتلوى، لا من الألم، وإنما لمجرد المشاكسة المنبعثة من طفل عريق في الشغب، يعمل بكل ما في وسعه على مضايقة الغير ومعاندته.. وقد استطعت أن أتبين حقيقة ميوله من مسلكه، وأدركت للتو أن من الجنون بذل أية محاولة للتسرية عنه أو تسليته وإدخال السرور على نفسه..



ق ليتون من مقعده وهوى على الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة..

ولكن رفيقتي لم تكن على هذا الرأي، فقد عادت إليه في عجلة ولهفة وفزع، وجثت على الأرض بجانبه، وهي تذرف الدمع السخين وتدلله وتهدىء من روعه، حتى هدأ أخيرًا بعد أن انقطعت أنفاسه من كثرة الصراخ، وليس من تأنيب ضميره لإزعاجه إياها!.. فتدخلت قائلة:

- سوف أحمله إلى الأريكة، حيث يمكنه أن يتلوى ويتقلب كيفما يروق له، إذ ليس في وسعنا أن نبقى لرعايته وحراسته.. وأرجو يا مس كاثى أن تكوني قد اقتنعت الآن بأنك لست الشخص الذي يفيده وجوده، وأن حالته الصحية ليس مرجعها إلى تعلقه بك.. ها قد وضعته فوق الأريكة، فتعالى ننصرف!.. وما إن يدرك أن ليس هنا من يبالي بهرائه، حتى يخلد إلى السكون راضيًا مسرورًا..

ولكنها أحضرت وسادة وضعتها تحت رأسه، وعرضت عليه بعض الماء، غير أنه رفض الماء وراح يتململ فوق الوسادة كأنها حجر أو كتلة من الخشب، فحاولت أن تجعلها أكثر راحة له، ولكنه قال:

- إنها لا تريحنى، فهي ليست مرتفعة كما يجب..

فأحضرت كاثرين وسادة أخرى وضعتها فوق الأولى.. ولكن ذلك المخلوق المثير غمغم قائلًا:

- إنها أعلى مما ينبغي!

فسألته في يأس:

- وكيف تريد أن أسويها إذن؟

فدار حول نفسه حتى رفع رأسه واتخذ له متكأ فوق كتف كاثرين التي كانت منحنية بجانب الأريكة.. فقلت:

- كلا.. إن هذا المسند لا يصلح لك يا سيد هيثكليف، وعليك أن تقنع بالوسادة، فقد أضاعت الآنسة عليك من وقتها ما فيه الكفاية حتى الآن، ولن نستطيع البقاء خمس دقائق أخرى..

فقاطعتنى كاثي قائلة:

ـ كلا.. كلا.. بل نستطيع البقاء!.. إنه الآن طيب صبور، وقد بدأ يفهم أنني كنت خليقة بأن أحس بشقاء عظيم، أكثر مما سوف يعانيه، لو اعتقدت أن زيارتي له هي التي زادته سوءًا، وأنني بذلك لن أجرؤ على معاودة الزيارة.. قل الحقيقة يا لينتون، لأننى لن أحضر ثانية إذا كنت قد آذيتك!

فأجاب:

- بل يجب عليك أن تأتي، لتساعدي على شفائى.. يجب أن تأتي لأنك آذيتني، وأنت تعرفين إلى أي حد بلغ إيذاؤك هذا.. فلم أكن مريضًا عند قدومك بالقدر الذي بلغته الآن، أليس كذلك؟

فقلت له:

- بل أنت الذي أسأت إلى صحتك بإمعانك في البكاء والصراخ والانفعال..

وقالت ابنة خاله:

- إنني لم أفعل شيئًا على الإطلاق!.. ولكننا، على أية حال، سوف نغدو أصدقاء الآن، فهل تريدنى حقًّا؟.. هل تود أن ترانى بين الحين والآخر؟

فأجاب في صبر نافد:

- قلت لك إنني أود ذلك!.. والآن تعالى اجلسى على الأريكة، ودعيني أتوسد ركبتك.. فهكذا كانت تفعل أمي أمسيات برمتها!.. اجلسي ساكنة ولا تتكلمى قط.. ولكن في وسعك أن تغنى، إذا كنت تعرفين الغناء.. أو لعلك تُسمعينني ملحمة طويلة مسلية، من تلك الملاحم التي وعدت بأن تعلميني إياها، أو تقصين عليَّ قصة جميلة.. ولكنني أفضل الملحمة.. هيا.. ابدئي!

فأخذت كاثرين تُنشد له أطول ملحمة استطاعت أن تتذكرها.. وطابت نفساهما لهذه المهمة. وطلب لينتون ملحمة غيرها، ثم أخرى بعدها، برغم اعتراضاتي المتكررة.. وظلا على هذه الحال حتى دقت الساعة الثانية عشرة، وسمعنا صوت هيرتون في الفناء وهو يعود لتناول الغداء..

ونهضت كاثرين متكرهة، فأمسك لينتون الشاب بطرف ردائها وهو يقول:

- ألا تأتين إلى هنا في الغد يا كاثرين؟

فتوليت الإجابة، وقلت:

- كلا.. لا في الغد ولا بعده!

ويبدو أنها، برغم ذلك، قد طمأنته بإجابة مختلفة، إذ رأيت وجهه يتهلل فرحًا وهي تنحنى فوقه وتهمس في أذنه..

فلما غادرنا المنزل، بدأت أقول:

- إنك لن تحضري غدًا يا آنسة، فاذكرى ذلك جيدًا.. ولا أظنك تحلمين بشيء كهذا، أليس كذلك؟

ولكنها لم تزد على الابتسام، فاستطردت قائلة:

- آه!.. سوف آخذ حذري تمامًا.. سوف أُصلح ذلك القفل، ولن تجدى طريقًا أخرى تهربين منها..

فقهقهت مسرورة، وقالت:

- سوف أتسلق السور!.. فإن (الجرانج) ليس سجنًا يا إيلين، وأنت لست سجانتى.. وفضلًا عن ذلك فإني أشرفت على السابعة عشرة، وأصبحت امرأة!.. وإنى واثقة من شفاء لينتون سريعًا، إذا ما أتيح له أن أقوم على العناية به ورعايته.. ثم إننى، كما تعرفين، أكبر منه سنًّا، وأكثر تعقلًا، وأقل تدللًا وصغارا، أليس كذلك؟.. ولن يلبث حتى يستجيب لتوجيهاتي، مع قليل من الملاينة والملاطفة من جانبي.. فإنه يغدو فتى جميلًا رقيقًا عندما يكون في أطيب حالاته.. وسوف أجعل منه طفلي المدلل، لو أصبح لى.. إننا لن نتشاجر قط بعد أن يعتاد أحدنا الآخر.. أليس كذلك؟.. ألا تحبينه يا إيلين؟

فصحت قائلة:

- أحبه؟.. إنه أسوأ مضغة رأيتها تناضل الأسقام لتبلغ سن المراهقة، خلقًا وطباعًا.. ومن

حسن الحظ أنه لن يبلغ العشرين قط، كما تكهن مستر هيثكليف.. بل إننى لأشك حقًّا في بقائه حيًّا إلى الربيع القادم.. وما أقلها من خسارة سوف تصيب أسرته بموته عندما يحين أجله!.. لقد كان من حسن طالعنا أن أباه قد أخذه، فلو بقي معنا لظل يزداد أنانية ونكدًا، كلما زدناه عطفًا ورفقًا!.. وكم يسرني أنه لن تتاح لك أية فرصة لتتخذى منه زوجًا لك يا مس كاثى!

فقطبت رفيقتي أساريرها في وجوم وهي تسمع هذا الحديث.. فإن كلامي عن موته بهذه البساطة وقلة الاكتراث قد جرح شعورها.. وما لبثت أن قالت، بعد فترة من التفكير والتأمل:

- إنه أصغر منى، وهو بذلك خليق بأن يعيش أكثر منى.. وسوف يعيش!.. بل لابد أن يعمر مثلى على الأقل!.. وهو الآن من القوة بمثل ما كان عند قدومه إلى الشمال أول مرة.. إننى واثقة أن علته ليست إلا بردًا خفيفًا، كالذي أصاب والدي.. وأنت تقولين إن أبي سوف يُشفى قريبًا، فلماذا لا يُشفى هو كذلك؟

فصحت بها حانقة:

- حسنًا.. حسنًا.. لا حاجة بنا لأن نشغل نفسينا بهذا الأمر.. فأصغي إليَّ يا آنسة، وتدبرى قولى جيدًا، إذ أنني سوف أحافظ على كلمتي.. إنك إذا حاولت الذهاب إلى (مرتفعات ويذرنج) ثانية، سواء معي أو بدونى، فسوف أخبر مستر لينتون.. وما لم يسمح لك، فإن كل صلة بينك وبين ابن عمتك يجب ألا تتجدّد قط..

فغمغمت كاثي في تجهم:

- لقد تجددت فعلًا..

- إذن يجب ألا تستمر..

فكان جوابها: (سوف نرى!)، ثم أطلقت العنان لمُهرها فانطلق يعدو بها، تاركة إياى أسير مكدودة في المؤخرة!

وبلغنا المنزل قبل موعد غدائنا.. وكان السيد قد حسبنا نقوم بجولة في البستان، فلم يسألنا تفسيرًا لغيبتنا الطويلة..

وما كدت أدخل المنزل حتى أسرعت أستبدل حذائى وجواربي المبللة، ولكن بقائي بها مدة طويلة في (المرتفعات) كان قد أحدث أثره السيىء.. ففي صباح اليوم التالي لم أستطع القيام، ولزمت الفراش ثلاثة أسابيع كاملة عجزت خلالها عن الاضطلاع بواجباتي في المنزل.. ولم أكن قد عانيت مثل هذا المرض قبل ذلك، كما أنني - والحمد الله - لم أصب بمثله منذ ذلك الحين..

وكان مسلك سيدتي الصغيرة أشبه بالملائكة، وهي تأتى لخدمتي والعناية بي والترفيه عنى في وحدتي.. وكان اعتكافى هذه المدة محطمًا لروحي المعنوية إلى حد بعيد، فليس أشد إيلامًا، لشخص اعتاد الحركة والنشاط، من اضطراره إلى التزام السكون والجمود.. ولكن ذلك، والحق يُقال، كان سببًا تافهًا للتذمر والشكوى.. فإن كاثرين كانت لا تكاد تغادر حجرة أبيها، حتى تهرع إلى جوار فراشى.. كان يومها مقسمًا بيننا كلينا، لا تقتطع منه لحظة لمتعتها الخاصة.. بل لقد أهملت وجبات طعامها، ودروسها، ولعبها.. كانت أشد الممرضات ولعًا بواجباتها وتعلقًا بها.. ولا ريب أنها كانت تضم صدرها على قلب كبير، استطاعت أن تهبني منه الكثير، مع حبها العظيم لأبيها.. وقد قلت إن أيامها كانت مقسمة بيننا، ولكن السيد كان يعتكف مبكرًا، كما أنني لم أكن أحتاج لشيء عادة بعد الساعة

السادسة.. وهكذا كانت الأمسيات ملكًا خالصًا لها.. يا للطفلة المسكينة!.. إنني ما فكرت قط فيما كانت تشغل به نفسها في تلك الأمسيات بعد تناول الشاي.. ومع أننى لاحظت كثيرًا، عندما كانت تأتى إلى حجرتى لتتمنى لى ليلة طيبة، توردًا نضيرًا في وجنتيها، واحمرارًا قانيًا في أصابعها النحيلة، إلا أنني كنت أعزو ذلك إلى توهج النار في المدفأة، بدلًا من أن أفكر في احتمال حدوثه من رحلة على الجواد في برد البراري القارس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

في ختام الأسابيع الثلاثة، استطعت أن أغادر حجرتي وأتمشى في أنحاء المنزل.. فلما أُتيح لي الجلوس في المساء لأول مرة بعد مرضى، رجوت كاثرين أن تقرأ لي لأن عيني كانتا كليلتين، أضعفهما المرض.. وكنا جالستين في المكتبة، بعد أن أوى السيد إلى فراشه، فخُيل إليَّ أن رضي كاثرين كان مشوبًا بشيء من التردد أو التكره، وعزوت ذلك إلى أن كتبي من النوع الذي لا تروق لها مطالعته، فطلبت إليها أن تتولى بنفسها اختيار ما تقرؤه، فانتقت أحد كتبها المفضلة ومضت تقرأ لي زهاء ساعة كاملة، ثم بدأت بعد ذلك تقطع القراءة لتمطرني بالأسئلة:

- ألست متعبة يا إيلين؟.. أليس الأفضل أن تخلدي إلى فراشك الآن؟.. هل يعاودك المرض من طول السهر يا إيلين؟

فكنت في كل مرة أجيبها: كلا.. يا عزيزتى.. لست أشعر بأي تعب قط..

فلما رأتني لا أتحرك من مكاني، لجأت إلى محاولة أخرى تظهر بها نفورها من هذه المهمة، فانقلب الأمر إلى التثاؤب والتمطى، حتى ضاق ذرعها فقالت:

- لقد تعبت يا إيلين..

- دعى القراءة إذن، ولنتكلم سويًا..

ولكن ذلك كان لديها أسوأ من القراءة، فراحت تتململ وتتنهد، وتنظر إلى ساعتها حتى بلغت الساعة الثامنة، فنهضت لتذهب إلى حجرتها.. وحدست من نظراتها المتبرمة الثقيلة، ومن فرك عينيها طويلًا، أن النعاس قد أنهكها تمامًا ولم تعد تقوى على مغالبته.. وفي الليلة التالية كانت أضيق صدرًا وأكثر تبرمًا.. وفي الليلة الثالثة من ملازمتها لي شكت من صداع أصابها، وتركتني مبكرة.. وخُيل لي أن مسلكها يبدو غريبًا، فلما طال مكثى وحيدة فترة طويلة، رأيت أن أذهب إليها لأستفسر منها إن كانت قد تحسنت ولأسألها أن تأتي لتضطجع على الأريكة بدلًا من بقائها في الظلام في الطابق العلوي وحدها.. ولكنني لم أجد أثرًا لكاثرين في الطابق العلوي ولا في غيره من أرجاء البيت.. وأكد لي الخدم جميعًا أنهم لم يروها.. فرحت أنصت مليًا عند باب مستر لينتون، ولكن الصمت كان يسود الحجرة فلم أسمع فيها صوتًا أو حسًا.. وأخيرًا عدت إلى حجرتها، وأطفأت شمعتي، وجلست أنتظر في فراغ النافذة..

كان القمر يغمر الحديقة بضيائه المتألق، والأرض قد اكتست بغلالة رقيقة من ندف الثلج المتساقطة، فخطر لي أنها قد تكون فكرت في القيام بجولة في الحديقة تنعشها وتخفف من صداعها.. وما لبثت أن لمحت فجأة شبحًا يسير في حذر بجوار سياج الحديقة الداخلي، حسبته بادىء الأمر سيدتي الصغيرة، ولكنه ما إن برز إلى الضياء حتى تبينت فيه أحد السياس.. وظلّ واقفًا فترة طويلة يتطلع إلى طريق العربات الخارجي في اهتمام، وإذا به يندفع بغتة في خطى حثيثة، كأنما اكتشف شيئًا يرقبه، ثم ما لبث أن ظهر بعد قليل وهو يسحب وراءه مهر الآنسة، وهي تسير إلى جانبه بعد أن ترجلت عنه في التو واللحظة.. ومضى الرجل بوديعته في حذر وتلصص نحو الأسطبل، بينما تسللت كاثي إلى المنزل من نافذة مفتوحة في حجرة الجلوس، وتسلقت الدرج في خفة وسكون إلى حيث كنت في انتظارها في الطابق العلوي!.. وأغلقت باب الحجرة خلفها في رفق، ثم نزعت حذاءيها اللذين كساهما الثلج، وخلعت قبعتها، وشرعت تتقدَّم، دون أن تحس بتجسسي عليها، لتضع معطفها جانبًا، وعندئذ نهضت بغتة وبرزت من مكمني!

وعقدت المفاجأة لسانها من الفزع لحظة، وبدا ارتياعها في الشهقة التي انبعثت منها، وجمدت في مكانها بلا حراك..

وكنت شديدة التأثر بما بدا منها من رفق وعناية بي أثناء مرضى القريب، فبدأت أقول لها دون أن تنطوى كلماتى على شيء من التأنيب أو اللوم:

- إلى أين ذهبت على ظهر جوادك في مثل هذه الساعة يا عزيزتي الآنسة كاثرين؟.. ولماذا حاولت خداعى باختلاق الأكاذيب؟.. أين كنت؟.. تكلمي!

فتعثرت الكلمات في فمها وهي تقول:

- لقد ذهبت أتنزه عند نهاية البستان! ولم أختلق أية أكاذيب!

- ألم تذهبي إلى أي مكان آخر؟..

فلم تزد على أن غمغمت قائلة: (كلا..)

فقلت في أسى وقد تهدَّج صوتي بالبكاء:

- أواه يا كاثرين!.. أنت تعلمين أنك قد أتيت خطأ كبيرًا، وإلا ما اندفعت إلى الكذب عليَّ.. وإن ذلك ليحزنني كثيرًا.. ولقد كان الأولى لي أن يدوم مرضى ثلاثة أشهر، من أن أسمعك تختلقين الكذب عمدًا..

فاندفعت إلى الأمام، وهي تنفجر باكية، وأحاطت عنقى بذراعيها، قائلة:

- حسنًا يا إيلين.. لقد كنت أخشى أن تغضبي منى، فعديني ألا تغضبي، وسوف تعرفين الحقيقة بحذافيرها، لأنني أكره إخفاءها عنك..

فجلسنا على مقعد بجوار النافذة، وأكدت لها أننى لن أؤنبها مهما يكن سرها، ولو أنني بالطبع كنت قد حدسته.. فبدأت تقول:

- لقد كنت في (مرتفعات ويذرنج) يا إيلين، ولم أتخلف عن الذهاب إلى هناك يومًا واحدًا منذ مرضك، إلا ثلاث مرات قبله، ومرتين بعد أن شُفيت وغادرت حجرتك.. كنت أمنح (مايكل) الكتب والصور ليعد لى (مينى) كل مساء، وليعيده إلى الإسطبل بعد عودتي.. ولكن لا توجهى إليه لومًا أو تأنيبًا هو الآخر.. وكنت أصل إلى المرتفعات في السادسة والنصف، وأظل بها عادة حتى الثامنة، فأعود مسرعة أركض بجوادى ركضًا.. ولم يكن ذهابي إلى هناك بحثًا عن التسلية والترفيه لنفسي، بل لقد كنت كثيرًا ما أقضي وقتى هناك مهمومة مكروبة!.. كنت لا أحس بالسعادة إلا بين الحين والحين، لعلها لم تكن تعدو مرة في الأسبوع!.. وفي بادىء الأمر، كنت أتوقع أن ألقى عناء شديدًا في إقناعك بالسماح لي بالوفاء بوعدي للينتون، إذ كنت قد وعدته، عند انصرافنا، بزيارته في اليوم التالي.. ولكني نجوت من هذا العناء عندما لزمت فراشك في الطابق العلوي في الغداة.. وبينما كان مايكل يثبت قفل باب الحديقة بعد إصلاحه، عصر ذلك اليوم، أخذت منه المفتاح وأخبرته كيف يتوق ابن عمتي إلى زيارتي له، لأنه مريض لا يستطيع الحضور إلى (الجرانج)، وكيف أتوقع من والدي معارضة شديدة لذهابي.. ثم مضيت في مساومته حول إعداد المهر لي.. وكان شغوفًا بالقراءة ويفكر في ترك خدمتنا قريبًا ليتزوج.. وهكذا عرض عليَّ أن يقوم بكل ما أطلبه منه إذا أعرته كتبًا من المكتبة.. ولكنى فضلت أن أعطيه من كتبي الخاصة، فكان رضاه وسروره بها يفوق كل حد..

وفي الزيارة الثانية، بدا لي لينتون نشيطًا في خير حالاته، وأعدت لنا زيللا (مدبرة منزلهم)

حجرة نظيفة ونارًا تتلظى في المدفأة، ثم أخبرتنا بأن جوزيف خرج ليشترك في صلاة جامعة، وأن هيرتون صحب كلابه إلى الخارج - وسمعت فيما بعد أنه كان يسرق الطيور من غابتنا - ومن ثم يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا.. وأحضرت لنا بعض النبيذ الدافيء وكعك الزنجبيل، وأبدت نحونا عطفًا وطيبة بالغين.. وجلس لينتون في المقعد الكبير ذي الوسادتين، بينما اخترت لجلوسى مقعدًا هزازًا صغيرًا بجوار المدفأة، ومضينا نضحك ونتبادل أحاديث المرح والسرور. ولم يعوزنا شيء من فنون الحديث، ورحنا نرسم خطط ما سوف نفعله في الصيف والأماكن التي سنذهب إليها.. وما بي من حاجة إلى ترديد ذلك على مسامعك لأنك ستسمينه سخفًا ولغوًا..

ومع ذلك كدنا نتشاجر ذات مرة.. فقد قال إن أمتع وأبهج طريقة لقضاء يوم حار من أيام شهر يوليو، هي أن يرقد المرء من الصباح حتى المساء فوق تل مغطى بالعشب وسط البراري، والنحل يطن حوله وسط أكمام الزهور، سعيدًا هانئًا، والقنابر تحلق فوق رأسه تصدح بأنغامها الشجية، بينما السماء الزرقاء والشمس الساطعة تملآن الفضاء حوله إشراقًا وضياء لا تفسده السحب.. تلك كانت فكرته المثالية عن سعادة لا تطاولها سعادة الجنان.. أما قصارى السعادة في رأيي فكانت التأرجح بين أغصان شجرة خضراء، لأوراقها حفيف لا ينتهي.. تهب عليها ريح غربية، وترفرف فوقها سحب بيضاء سريعة متتابعة، وتتدفق الأنغام حولها من كل جانب، لا من القنابر فحسب، بل من كل أنواع الطيور الصدَّاحة، وتتراءى البراري من بعد وهي تتكسر وديانًا وأخاديد باردة معتمة، تتخللها قباب عظيمة من الحشائش الطويلة التي تتهدل تحت أنامل النسيم أمواجًا بعد أمواج، ويمتلىء الفضاء حولها بخشخشة الشجر وخرير جداول الماء، والدنيا كلها من حولي يقظي ترقص في وحشية على أنغام من الطرب والسرور.. كان كل ما يريده هو أن يرقد في نشوة من الهدوء والدعة، وكانت كل أمنيتي أن أتلألأ وأرقص في عيد عظيم من أعياد الدنيا.. قلت له إن عالمه ليس إلا عالمًا مسجى بين الحياة والموت، فقال لي إن عالمي ليس إلا عالمًا ثملًا مخمورًا!.. قلت إنني في عالمه لا ألبث أن يدركني النعاس، فقال إنه في عالمي لا يلبث أن يضحي مقطوع الأنفاس!.. ثم أخذته نوبة من القحة وسلاطة اللسان، ولكنى رحت ألاينه حتى اتفقنا في النهاية على أن يُجرب كلانا كلا العالمين، عندما يحين موعد الطقس الملائم، وعندئذ تبادلنا القبلات وعدنا صديقين..

وبعد أن ظللت جالسة في سكون زهاء ساعة، تطلّعت حولى إلى الحجرة العظيمة بأرضيتها العارية الجميلة، وفكرت في روعة اللعب فيها إذا رفعنا المائدة.. فطلبت إلى لينتون أن يدعو زيللا لمساعدتنا، ولتلعب معنا لعبة (الاستغماية)، فتحاول أن تمسك بنا وهي معصوبة العينين، كما اعتدت أن تلعبي معنا يا إيلين.. فلم تطب له هذه اللعبة، وزعم أن ليس فيها متعة أو تسلية.. ولكنه رضى أن يلعب معى بالكرة. ووجدنا كرتين في الصوان وسط كومة من اللعب القديمة و(النحل) والمضارب والسهام المريشة.. وكان على إحدى الكرتين حرف (ك) وعلى الأخرى حرف (هـ)، فرغبت في أخذ الأولى لعلمي أن الحرف المنقوش عليها يرمز إلى (كاثرين)، وأن الأخرى قد ترمز إلى اسمه هو أي (هيثكليف)، ولكن حشو كرته كان يبرز من ثقب فيها، فلم ترق في نظره!.. وظللت أغلبه باستمرار، فتملكه الغضب من جديد وأخذ يسعل، ثم عاد إلى مقعده.. ومع ذلك، فقد عاد إلى مرحه وانبساطه في تلك الليلة بغير عناء، مأخوذًا بسحر أغنيتين أو ثلاث من أغنياتك الجميلة يا إيلين.. وعندما اضطررت إلى الانصراف، راح يرجوني ويتوسل إلىَّ بأن أعود إليه في المساء التالي، فوعدته بذلك.. وعاد بى (مينى) إلى الدار في خفة الهواء وسرعة الريح!.. وقضيت ليلتي حتى الصباح أحلم (بمرتفعات ويذرنج) وبابن عمتى اللطيف المحبوب!

ولازمني الاكتئاب في اليوم التالي لسببين: أولهما أن المرض اشتد عليك، والثاني لأني كنت أود أن يعرف أبي بالأمر، ويوافق على رحلاتي هذه.. فلما فرغت من تناول الشاي، كان

القمر قد أشرق بضيائه الساحر الجميل، وسرعان ما تبدد اكتئابى عندما ركبت ذاهبة إلى هناك.. كنت أمني نفسى بقضاء أمسية سعيدة أخرى، ولكن الذي زاد من ابتهاجى هو أن لينتون كان سيقضى بدوره أمسية سعيدة.. ودخلت بالجواد إلى حديقة المنزل، وهممت بأن أدور حوله إلى الباب الخلفي، عندما قابلني ذلك الشخص هيرتون، وأمسك بعنان جوادى، وطلب إلى أن أدخل من الباب الأمامي.. وراح يربت على عنق (مينى) ويقول إنه جواد جميل أصيل، وكان يبدو كأنما يسعى وراء دفعي إلى تبادل الحديث معه.. ولكني لم أقل له أكثر من أن يترك الجواد وشأنه، حتى لا يركله.. فأجاب بلهجته السوقية وهو يفحص سيقان الجواد بأنظاره في ابتسام: (لو فعل ذلك فلن يُحدث أذى كبيرًا).. وكنت أكاد أميل إلى جعل الجواد يجرب فيه ذلك!.. ومهما يكن من أمر فإنه مضى أمامي ليفتح الباب، وما أن وضع يده على المزلاج حتى تطلّع إلى النقوش التي تعلوه1، وقال في مزيج أبله من الارتباك والزهو معًا:

- أستطيع الآن أن أقرأ هذه الكتابة يا مس كاثرين!

فهتفت قائلة:

- ما شاء الله!.. ما أبدع ذلك!.. أسمعنا إذن من فضلك.. لقد ازددت ذكاءً وحذقًا كما يبدو!

فأخذ يتهجى الحروف، ويتمشدق بالمقاطع، حتى قرأ (هيرتون إيرنشو).. ولكنه ما لبث أن سكت فجأة.. فلما طال صمته قلت أستحثه مشجعة:

- والأرقام؟

- لا أستطيع قراءتها بعد!

فقهقهت ضاحكة في جذل، وصحت به:

- آه يا بليد!

فراح الغبي يحملق في وجهي وقد حامت حول شفتيه تكشيرة واسعة، وتجمعت حول عينيه جهامة وعبوس، كأنما أخذته الحيرة فيما إذا كان يجدر به أن يشاركني المرح، وفيما إذا كانت كلماتي تنم عن مجرد ملاحظة ودية، أم أنها - كما كانت في الحقيقة - تنم عن الازدراء والاحتقار..

وحسمت شكوكه، بأن استعدت فجأة رصانتى، وسألته أن يمضي لشأنه لأننى قدمت لزيارة لينتون، لا لرؤيته هو.. فرأيت وجهه، في ضوء القمر، تعلوه حمرة قانية. وأبعد يده عن المزلاج، ثم انصرف متواريًا عن أنظاري وهو صورة مجسمة للزهو المهيض.. وأحسبه قد خال نفسه سيدًا مهذبًا مصقولًا مثل لينتون لمجرد أنه عرف كيف يتهجى اسمه!.. فخاب أمله إذ وجدني لا أقدر له هذه المنزلة..

قالت مسز دين تتابع حديثها: فقاطعتها قائلة:

- مهلًا يا عزيزتى مس كاثرين.. إننى لن ألومك أو أؤنبك، ولكني لا أحب مسلكك هذا.. فلو أنك ذكرت أن هيرتون هو ابن خالك مثلما كان السيد هيثكليف ابن عمتك، لأدركت مبلغ تجنبك الصواب بمسلكك وتصرفك على هذا النحو.. وعلى الأقل فإن طموحه إلى مجاراة لينتون وتطلّعه إلى أن يكون مهذبًا مصقولا مثله، أمر كان يستحق منك الاعجاب والإطراء.. ولعله لم يرد تعلم القراءة لمجرد رغبته في التفاخر، فلست أشك في أنه خجل عندما عيرته بجهله، فأراد أن يداوى هذا الجهل، ويستجلب غبطتك ورضاك.. لذلك فإن السخرية من جهوده المتواضعة إنما تنم عن سوء الأدب!.. ولو أنك رُبيت في مثل ظروفه، فهلا كنت

نشأت أقل تهذيبًا وأكثر همجية؟.. لقد كان وهو طفل صغير لا يقل عنك نشاطًا وذكاء، وإنه ليؤلمني ويؤذى شعوري أن يلقى الآن مثل هذا الازدراء والاحتقار، لا لسبب إلا لظلم ذلك السافل هيثكليف له، وسقيه إياه كؤوس الهوان والمذلة..

فدهشت لحماستى وغيرتى، وصاحت قائلة:

- حسنًا يا إيلين.. لا أحسبك سوف تبكين من أجله!.. اصبرى حتى تسمعى إذا كان قد حفظ الحروف الأبجدية مرضاة لي، وإذا كان ذلك الوحش يستحق المعاملة في أدب ورقة!.. لقد دخلت إلى حجرة الجلوس، فوجدت لينتون راقدًا فوق الأريكة، وقد همّ بالنهوض لملاقاتي وهو يقول:

- إننى مريض الليلة يا حبيبتي كاثرين، فعليك أن تتولى الحديث كله، وتدعيني أصغى إليك فحسب.. تعالى واجلسى بجانبى!.. لقد كنت واثقًا من أنك ستفين بوعدك، وسوف تعدينني الليلة أيضًا بالحضور غدًا..

وكنت قد أدركت أننى لا ينبغي لي أن أضايقه او أعانده، لأنه كان سقيمًا.. فرحت أتحدث إليه في رفق وهدوء، لا أوجه إليه أي سؤال، متجنبة كل ما قد يثيره.. وكنت قد أخذت له معى بضعة من أجمل كتبي، فطلب إلى أن أقرأ له قليلًا في أحدها، وكنت على وشك أن ألبي رغبته، عندما دفع إيرنشو الباب في عنف، وقد جمع بين سموم الحقد والنية السيئة المبيتة، فتقدم نحونا مباشرة، وأمسك بذراع لينتون وجذبه فطوّح به من فوق الأريكة وهو يقول في صوت مدغوم من شدة الغضب والانفعال، وقد انتفخت أوداجه وبدا ثائرًا شديد الهياج:

- هيا اذهب إلى حجرتك!.. وعليك أن تأخذها إلى هناك ما دامت تحضر لرؤيتك.. إنك لن تحرمني من الجلوس هنا، فاذهب إلى الشيطان أنت وهي!

وانطلق يرمينا بأقذع السباب، ولم يدع للينتون الفرصة لإجابته، بل سحبه إلى باب المطبخ ودفعه إليه، ثم رفع قبضته في وجهي بينما كنت أتبع لينتون، حتى ظننت أنه يتوق إلى أن يصرعنى أرضًا!.. وتملكني الفزع لحظة، فسقط أحد الكتب من يدي، وعندئذ ركله بقدمه ورائي وهو يوصد خلفنا باب المطبخ.. وفي تلك اللحظة سمعت ضحكة خبيثة مجلجلة تنبعث من جانب الموقد، فاستدرت ورأيت ذلك الشيخ البغيض جوزيف واقفًا يفرك يديه المقددتين، وهو يهتز طربًا ويقول:

- كنت واثقًا من أنه سيطردكما.. فهو فتى عظيم، سرت في عروقه روح أجداده العظيمة.. إنه يعلم، مثلما أعلم، منذا الذي كان يجب أن يكون السيد هنا.. ها.. ها.. ها!.. لقد أفزعكما تمامًا.. ها.. ها.. ها!

ولم أبد اكتراثًا لسخرية الوغد العجوز، وسألت ابن عمتى:

- أين يجب أن نذهب الآن؟

ولكن لينتون كان شديد الامتقاع يرتعد غضبًا وانفعالًا.. وصدقيني يا إيلين أنه لم يكن جميلًا وقتئذ.. كلا.. بل كان يبدو لي مخيفًا مفزعًا.. لأنه وجهه النحيل وعينيه الواسعتين كانت جميعًا تتقلص في غضب جنونى مغلول.. فأمسك بمقبض الباب وراح يهزه بكل ما وسعته قوته، وكان موصدًا من الداخل، وهو يصيح بصوت حاد:

- إذا لم تفتح لى الباب فسوف أقتلك!.. إذا لم تفتح لى الباب فسوف أقتلك!.. أيها الشيطان.. أيها الشيطان.. سوف أقتلك!.. سوف أقتلك!

فجلجلت قهقهة جوزيف الساخرة من جديد، وراح يقول:

- من شابه أباه!.. إنه أبوه تمامًا!.. لقد جمعنا السلالتين حولنا.. واحد هنا وواحد هناك!.. لا تخش شيئًا يا هيرتون، يا بنى، ولا تخف منه فإنه لا يستطيع أن ينالك..

وأمسكت بيدى لينتون وحاولت أن أجذبه بعيدًا عن الباب ولكنه كان يصرخ صراخًا مقيتًا جعلني لا أجرؤ على المضي في محاولتى.. وأخيرًا اختنقت صيحاته في نوبة مروعة من السعال، وما لبث أن تدفق الدم من فمه وسقط على الأرض.. فجريت إلى الفناء وقد غثيت نفسي من الرعب، وناديت زيللا بأعلى صوت أستطعته، وسرعان ما سمعتني.. وكانت تحلب الأبقار تحت مظلة وراء صومعة الغلال، فتركت ما في يدها وهرعت إليَّ تسألني عما هنالك.. وكنت مبهورة الأنفاس لا أستطيع النطق وشرح الأمر، فاكتفيت بأن جذبتها نحو المطبخ، ورحت أنظر حولي باحثة عن لينتون، فاذا بإيرنشو قد ترك حجرة الاستقبال وأتى ليرى آثار الشر الذي أحدثه، فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ويصعد به الدرج إلى الطابق العلوي..



أيته يحمل ليتون المسكين بين ذراعية ليصعد به الدرج إلى الطابق
لوي..

فصعدت وراءه مع زيلا، ولكنه أوقفني عند قمة الدرج، وقال إنني لا ينبغي أن أدخل الحجرة وراءهم، وإنما يجب أن أعود إلى منزلى.. فصحت فيه: أنه قتل لينتون، وأن لابد لي من الدخول.. وعندئذ أوصد جوزيف باب الحجرة وقال إنه لا يخلق بي أن أرتكب مثل هذه الحماقة، وسألني إن كنت أود أن أكون مجنونة مثل لينتون؟.. فظللت واقفة أبكى حتى ظهرت زيلا ثانية، وأكدت لى أنه حرى بأن يتحسن قليلًا، لو كف عن ذلك الصراخ وتلك الجلبة التي يحدثها، ثم أخذتني، وهي تكاد تحملني حملًا، إلى حجرة الجلوس..

وصدقينى يا إيلين أننى كدت أقطع شعر رأسي، ومضيت أبكى وأنتحب حتى غشيت عيناي ولم أعد أبصر شيئًا.. وكان ذلك الوغد الذي تعطفين عليه بهذا القدر يقف تجاهي، ويبيح لنفسه بين آن وآخر أن يطلب إلىّ السكون، ولا يفتأ ينفى مسئوليته عما حدث.. وأخيرًا انتابه الفزع من تأكيدى له بأنني سأخبر أبي بما حدث، وأنه سوف يُلقى في السجن ثم يشنق، فأجهش بالبكاء هو نفسه، ثم انفلت مسرعًا إلى الخارج ليخفى انفعاله واستخذاءه.. ومع ذلك فلم أتخلص منه تمامًا تلك الليلة.. فعندما انتهى الأمر بإرغامي على الرحيل، وابتعدت عن المنزل نحو ثلاثمائة ياردة، انبعث فجأة أمامي من الظلام على أحد جانبي الطريق، وأمسك بزمام جوادى (مينى) وهو يقول لي:

- إننى شديد الحزن يا مس كاثرين.. ولكن، في الوقت نفسه، كان من المؤلم لي..

فعاجلته بضربة من سوطى أصابته بقطع دام في وجهه، وجعلتني أظنه ربما قتلني بسببها.. ولكنه ترك عنان الجواد، وانطلق يهدر بألفاظ السباب كالرعد القاصف، فأطلقت العنان للجواد وعدت إلى المنزل وقد أوشكت أن أفقد حواسي..

ولم أذهب إلى حجرتك لأتمنى لك ليلة طيبة، كما لم أذهب إلى (مرتفعات ويذرنج) في الليلة التالية.. كنت شديدة الاشتياق إلى الذهاب، ولكني كنت مهتاجة الأعصاب إلى درجة غريبة.. كنت أحيانًا أتوجس شرًا وأخشى أن أسمع بموت لينتون، وكنت أحيانًا أرتجف فزعًا لمجرد التفكير في الالتقاء بهيرتون.. وعاودتنى شجاعتي في اليوم الثالث، أو الأحرى أن تقولي إنني لم أطق الصبر على مزيد من الحيرة والشك، فتسللت ماضية إلى هناك مرة أخرى.. ذهبت في الخامسة، ماشية على قدمي، وقد خُيل إلىّ أنني أستطيع تدبير الأمر بحيث أتسلل إلى المنزل، ثم إلى حجرة لينتون، دون أن يراني أحد.. ولكن الكلاب كشفت أمري وأذاعت نبأ مقدمى، فاستقبلتني زيلا قائلة: (أن الفتى يتحسن على نحو بديع). ثم قادتني إلى حجرة صغيرة أنيقة مفروشة بالسجاد، امتلأ قلبى بسرور صامت عندما شهدت فيها لينتون راقدًا فوق أريكة صغيرة، يطالع كتابًا من كتبى.. ولكنه لم يشأ أن يخاطبني أو ينظر إلى خلال ساعة كاملة يا إيلين!.. كان وقتئذ في حالة تعسة من الشراسة وسوء الخلق.. والذي زاد من دهشتي وعقد لساني عن الكلام، أنه عندما فتح فمه لم يفعل إلا لينطق بتلك الفرية المروعة، وهي أنني كنت السبب في ذلك الشجار، وأن هيرتون لا لوم عليه ولا تثريب!.. وإذ وجدتني عاجزة عن الإجابة حتى لا أنفجر باكية، فقد نهضت ومشيت خارجة من الحجرة.. فأرسل خلفى ذلك النداء الخافت: (كاثرين)!.. ولكن لم يكن في حسبانه وتقديره أن يكون ردى عليه ما فعلته، إذ ضربت بندائه عرض الحائط ولم ألتفت إليه، وانصرفت لتوى..

وكان اليوم التالي هو المرة الثانية التي بقيت فيها في المنزل، وقد كاد يستقر في عزمي ألا أزوره بعد ذلك قط.. ولكني لقيت من الشقاء في الذهاب إلى الفراش والنهوض عنه دون أن أسمع عنه شيئًا قط، ما جعل عزمي يتبدد في الهواء حتى قبل أن يستقر تمامًا.. لقد بدا لي مرة أن من الخطأ القيام بتلك الرحلة ثانية، أما الآن فقد بدا لي أن الخطأ كل الخطأ إنما هو في الامتناع عنها.. وحضر إلى مايكل السائس ليسألني هل يسرج (مينى)، فأجبته بالإيجاب، وكنت أعد نفسي والمهر يحملني فوق التلال، قائمة بواجب لا مناص لي من

أدائه.. وقد اضطررت إلى المرور أمام النوافذ الأمامية في طريقي إلى الفناء، إذ لم يكن ثمة جدوى من إخفاء حضوري.

ورأتنى زيللا أسير نحو البهو، فقالت: (إن السيد الصغير في حجرة الجلوس..)

ومضيت إلى تلك الحجرة، فإذا إيرنشو هناك كذلك. ولكنه غادرها على الفور.. وكان لينتون يجلس في المقعد الكبير مغمض العينين، شبه نائم.. فسرت نحو المدفأة، ثم بدأت أقول في لهجة رصينة، عنيت بأن يبدو فيها صدق ما أقوله إلى حد ما:

- هذا آخر لقاء بيننا يا لينتون، ما دمت لا تميل إلىّ، وما دمت تظن أنني لا أحضر إلا بقصد الإساءة إليك، وتزعم أنني أفعل ذلك في كل مرة.. فليقل كل منا للآخر (وداعًا)، وعليك أن تخبر مستر هيثكليف بأنك لا تضمر أية رغبة في رؤيتى، وأن عليه أن يكف عن اختلاق المزيد من الأكاذيب عن هذا الأمر..

فأجاب:

- اجلسى يا كاثرين، واخلعي قبعتك.. إنك تلقين من السعادة أكثر مما ألقاه، ولذلك ينبغي لك أن تكوني أفضل منى وأحسن خلقًا.. إن أبي ينسب إلى من العيوب، ويُظهر نحوي من الازدراء ما يكفي لأن يجعل من الطبيعي أن يتملكني الشك في نفسي!.. إنني أشك فيما إذا لم أكن تافهًا حقيرًا بالقدر الذي لا يفتأ ينعتنى به؟.. وعندئذ أشعر بالحنق والمرارة، فأمقت الناس جميعًا.. إننى أكاد أكون دائمًا تافهًا حقيرًا، سيىء الخلق، خبيث النفس.. وفي وسعك، إذا شئت، أن تقولي لي وداعًا.. فأنت بذلك سوف تتخلصين من شيء يزعجك وتضيقين به.. ولكني لا أريد منك يا كاثرين إلا أن تكونى عادلة معى.. وصدقيني أنني أود لو أننى كنت في مثل رقتك، وحنانك، وطيبتك.. أود ذلك بكل قواى وعن رضى واختيار، دون أن أجاريك في سعادتك وصحتك.. وصدقيني أن طيبتك معى ورفقك بى قد جعلنى أحبك حبًّا عميقًا، أكثر مما لو كنت قد نلت حبك عن جدارة واستحقاق.. ومع أنني لا أستطيع، وليس في قدرتي، أن أخفى عنك طبيعتى المشاكسة، فإنني أشعر بالأسف من ذلك، وأندم عليه.. وسوف أظل آسفًا نادمًا حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة!

أحسست بأنه يقول الحقيقة، وأحسست بأنني يجب أن أصفح عنه.. ومع أنه سوف يتشاجر معي، في اللحظة التالية، فإن من واجبي أن أمنحه المزيد من الصفح والتسامح.. وعُقد الصلح بيننا، ولكن بمداد من الدموع ظللنا نذرفه معًا بقية الوقت الذي مكثته، وإن لم يكن كله دمع الحزن والأسف!.. ومع ذلك فقد أسفت لأن لينتون كانت له هذه الطبيعة المعوجة.. فإنه لن يريح أصدقاءه قط، لا ولن يريح نفسه!

وكنت أذهب معه إلى البهو دائمًا، منذ تلك الليلة، لأن أباه عاد من رحلته في اليوم التالي.. وفي تلك المدة كلها، لم نقض من الأمسيات السعيدة المرحة المليئة بالأمل إلا ثلاثًا!.. أما باقي زياراتي فكانت جميعها كئيبة مليئة بالهموم، بين أنانيته ومشاكسته حينًا، وبين أوجاعه وأسقامه أحيانًا.. ولكني تعلمت أن احتمل الأولى بمثل الصبر والأناة اللذين أحتمل بهما الثانية.. وكان مستر هيثكليف يتجنبني عامدًا، فلم أره طوال هذه المدة إلا مرة واحدة.. فقد ذهبت يوم الأحد الماضي مبكرة عن عادتي، فسمعته يسلق لينتون بألسنة حداد على مسلكه معي في الليلة السابقة وهو شيء لا أدري كيف عرفه، إلا أن يكون يسترق السمع علينا.. كان مسلك لينتون، في الحقيقة والواقع، مثيرًا يبعث على الحنق والسخط.. ولكن، مهما يكن من أمر، فذلك أمر لا يخص أحدًا سواى.. وهذا ما قلته لمستر هيثكليف عندما اقتحمت الحجرة وقطعت عليه محاضرته القاسية.. وعندئذ انفجر مقهقهًا، ثم غادر الحجرة وهو يبدى سروره لأنني نظرت إلى الأمر هذه النظرة.. ومنذ تلك الليلة طلبت إلى لينتون أن يجعل تذمره وسخطه المرير همسًا!

وها أنت قد علمت كل شيء الآن يا إيلين.. ولن يمكن منعي من الذهاب إلى (مرتفعات ويذرنج) إلا على أنقاض سعادة شخصين، في حين أنك لو وقفت موقفًا سلبيًا ولم تفضي لأبي بهذا السر، فإن ذهابي لن يضير أحدًا أو يسيء إليه.. إنك لن تخبريه، أليس كذلك؟.. ولو فعلت لكان عملك قاسيًا خلوًا من الرحمة!

فأجبتها:

- إن الأمر يحتاج إلى دراسة وتفكير يا مس كاثرين، وسوف أقطع برأى فيه غدًا.. أما الآن، فسوف أتركك لتستريحي، وأذهب لأمعن الفكر فيه..

وقد فكرت فيه حقًّا، ولكن بصوت مسموع أمام سيدى.. فما كدت أغادر حجرتها حتى مضيت إليه قدمًا ورويت له القصة بحذافيرها، لم أغفل منها سوى أحاديث الفتاة مع ابن عمتها، وسوى ذكر هيرتون، فلم يجر اسمه على لسانى بكلمة.. واستبد القلق والكرب بمستر لينتون، أكثر مما أظهره أمامي.. وفى الصباح علمت كاثرين بخيانتى لها وإفشاء سرها، وعلمت كذلك بأن زيارتها الخفية لابن عمتها قد قُضى عليها نهائيًّا.. وعبثًا راحت تبكي وتحتج على هذا القرار، وتتوسل إلى أبيها أن يُشفق على لينتون، فكان كل ما نالته منه لتهدئتها أن وعدها بأن يكتب إلى لينتون ويصرح له بالحضور إلى (الجرانج) كلما شاء، ولكن عليه أن يفهم بجلاء أنه ما من سبيل لذهاب كاثرين إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد ذلك.. ولعله لو علم حقيقة حالة ابن أخته النفسية والصحية، لوجد من الملائم أن يضن عليها حتى بهذه الترضية اليسيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

قالت مسز دين تتابع رواية القصة:

وقعت هذه الحوادث، يا سيدي، في الشتاء الماضي، فلم يكد يمر عليها عام بأكمله.. وما خطر لي على بال، في الشتاء الماضي، أنني سوف أجلس بعد انقضاء اثني عشر شهرًا، إلى شخص غريب عن الأسرة لأسليه بقصص أفرادها.. ومع ذلك فمن يدري إلى متى ستظل غريبًا عنها؟.. إنك من الشباب وصغر السن بحيث لا يخلق بك أن تظل دائمًا تعيش وحدك في عزلة وانطواء.. ثم إنه ليخيل إليَّ، على وجه ما، أنه ما من أحد يرى كاثرين لينتون ويستطيع أن يقاوم حبها في نفسه!.. أنت تبتسم الآن، ولكن لماذا يبدو عليك الاهتمام والحيوية كلما أتكلم عنها؟.. ولماذا طلبت إلى أن أعلق صورتها فوق المدفأة في حجرتك؟.. ولماذا؟

فصحت بها مقاطعًا:

- كفى يا صديقتي الطيبة!.. قد يكون من المحتمل جدًّا أنني سوف أقع في حبها، ولكن هل يمكن أن تحبني هي؟.. إنني أشك في ذلك إلى حد بعيد يجعلني لا أجرؤ على المخاطرة بهدوئى وسكينتى جريًا وراء الإغراء.. ثم إنني لست من هذه الديار.. إنني من العالم الزاخر بالعمل وبالناس، ولا بد لى من العودة إلى أحضانه.. فهيا أمضي في حديثك، وأخبريني هل أطاعت كاثرين أوامر والدها؟

فاستتلت مديرة المنزل تقول:

- نعم.. فإن حبها له كان لا يزال أقوى عاطفة تغمر قلبها.. وقد تحدث إليها أبوها في غير غضب أو انفعال.. بذلك الحنان العميق لشخص يوشك أن يترك كنزه وسط المخاطر والأعداء، حيث تظل كلماته الخالدة هي المعين الوحيد الذي يمكن أن يخلفه لها.. ومع ذلك فقد سألني بعد أيام قليلة:

- شد ما أود أن يكتب لنا ابن أختى أو يزورنا، يا ايلين!. ولكن أخبريني برأيك فيه، بصراحة وإخلاص.. هل تحسنت حالته؟.. أو هل هناك أمل في تحسنها عندما يغدو رجلًا؟

- إنه مفرط في الرقة والضعف يا سيدي، ولا أظنه يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال!.. ولكنى أستطيع أن أؤكد لك شيئًا واحدًا، هو أنه لا يشبه أباه في شيء.. ولو شاء سوء الطالع أن تتزوج مس كاثرين منه، فلن يتمرد عليها أو يخرج عن طاعتها إلا إذا كانت شديدة التسامح معه إلى حد البلاهة!.. وعلى أية حال، فإن أمامك، يا سيدي، فسحة من الوقت لتزداد معرفة به ولترى إن كان يصلح زوجًا لها، فما زالت أمامه أعوام أربعة - أو تزيد - حتى يبلغ سن الزواج..

فتنهد إدجار، ومشى إلى النافذة متثاقلًا، ثم راح يتطلّع بأنظاره ناحية كنيسة (جيمرتون).. وكنا وقتئذ بعد ظهر أحد الأيام التي ينتشر فيها الضباب، ولكن شمس فبراير كانت ترسل ضياءً خافتًا بالقدر الذي استطعنا معه أن نميز شجرتي الشربين الباسقتين في فناء الكنيسة، والقبور المتناثرة المتباعدة..

وما لبث أن راح يقول في صوت خفيض، كأنه يناجي نفسه:

- لقد كنت كثيرًا ما أبتهل إلى الله أن يُعجل بما لا بد من وقوعه، ولكني بدأت الآن أخشاه وأنفر من مقدمه!.. وكانت ذكرى الساعة التي هبطت فيها من ذلك التل البعيد عريسًا يوم زفافي، أقل حلاوة وعذوبة من تفكيرى في توقع حملي إليه عاجلًا، بعد شهور قليلة - أو

ربما أسابيع - لأوضع داخل جوفه الموحش.. إنني كنت سعيدًا كل السعادة، يا إيلين، مع صغيرتى كاثي، فقد كانت خلال ليالى الشتاء وأيام الصيف أملًا زاخرًا بالحياة يتواثب إلى جانبي.. كانت سعادتي بها لا تعادلها إلا سعادتي في الاستغراق في التأمل وحدي بين هذه الأحجار، تحت تلك الكنيسة العتيقة، أو راقدًا - خلال ليالى يونيه الطويلة - بين الحشائش النامية فوق قبر أمها، وكلى لهفة وحنين إلى الساعة التي أوضع فيها داخل هذا القبر بدوري.. فماذا أستطيع أن أفعل من أجل كاثي؟.. وكيف ينبغي أن أتركها؟.. إنني ما كنت لأبالي لحظة واحدة بأن لينتون هو ابن هيثكليف، ولا بأنه سوف يأخذها منى، لو علمت أنه قادر على تعزيتها عن فقدى وتهوين المصاب عليها.. وما كنت لأبالي كذلك بأن هيثكليف قد حقق كل أهدافه وأفلح حتى في سلبي آخر ما لدى من أسباب السعادة.. أما أن يكون لينتون شخصًا تافهًا غير جدير بها - مجرد أداة ضعيفة في يد أبيه - فعندئذ لا أستطيع على الأمر سكوتًا، ولا أسمح بأن أتركها له.. ومهما يكن تصرفي من القسوة في تحطيم روحها المرحة النشيطة، فلا بد من أن أثابر على جعلها حزينة مكتئبة أثناء حياتي، وأن أخلفها وحيدة عند مماتى.. آه!.. يا للعزيزة الغالية!.. إننى لأفضل أن أسلمها بين يدي الله، وأوسدها الثرى قبلى!

فأجبته قائلة:

- دع الله يتولاها برعايته يا سيدى.. وإذا قُدر لنا أن نفقدك يومًا – لا سمح الله – فإننى بعنايته ورحمته سوف أكون لها الصديقة والناصحة حتى النهاية.. إن مس كاثرين فتاة طيبة، لا أخاف عليها الوقوع في الزلل عن عمد.. وإن أولئك الذين يؤدون واجبهم يلقون دائمًا خير الجزاء أخيرًا..

وتقدَّم بنا الربيع، ولكن سيدي لم يستكمل قواه ولم يستعد صحته، مع أنه عاود القيام بجولاته في الحديقة مع ابنته.. وكان ذلك في حد ذاته في رأيها - لقلة خبرتها - دليلًا على نقاهته.. وكثيرًا ما كانت وجنتاه تتوردان بحمرة قانية، وعيناه تلتمعان في بريق خاطف، فأيقنت من تمام شفائه!

وفي عيد ميلادها السابع عشر، لم يقم بزيارة المقبرة كعادته.. كان اليوم مطيرًا، فقلت له في ملاحظة عابرة:

- لا ريب أنك لن تخرج الليلة يا سيدي؟

- كلا.. سوف أؤجل زيارتي هذا العام قليلًا..

وكتب ثانية إلى لينتون معبرًا عن رغبته الشديدة في رؤيته.. ولو كان الفتى العليل في حالة تسمح له بالحضور، لسمح له أبوه بالمجيء.. لا شك في ذلك ولا ريب.. ولكن الذي حدث هو أنه - بناء على تعليمات أبيه طبعًا - كتب إلى خاله خطابًا يوحي بأن مستر هيثكليف يعارض في زيارته (للجرانج)، ويقول فيه أن ذكرى خاله الشفوق ما زالت تبعث السرور في نفسه، وبوده أن يلقاه في إحدى جولاته، يومًا من الأيام، ليسعد برؤيته، وليتوسل إليه بنفسه كى لا يظل وابنة خاله مفترقين طويلًا، هذه الفرقة القاطعة.. كان هذا الشطر من الخطاب بسيطًا ساذجًا، وهو - على الأرجح - من إنشائه.. ولكن مستر هيثكليف كان يعلم أنه أفصح لسانًا من ابنه في الدفاع عن صحبته لكاثرين، فقد مضى الخطاب يقول: (لست أرجو أن تسمح لها بزيارتي هنا.. ولكن هل قُدر على أن أحرم رؤيتها إلى الأبد، لأن والدي يمنعني من الذهاب إلى منزلها، وأنت تمنعها من زيارة بيتي؟.. فهلا صحبتها، بين آن وآخر، إلى طريق (المرتفعات) فتتيح لنا بذلك فرصة نتبادل فيها كلمات قليلة في حضورك؟.. إننا لم نقترف ذنبًا نستحق عليه هذا الفراق!.. وأنت نفسك لست غاضبًا منى، وليس لديك - كما تقول - ما يثير حقدك علىَّ وكراهيتك لي!.. فاكتب لي، يا خالى العزيز،

رقعة رحيمة غدًا، واسمح لي بأن ألقاكما في أي مكان تختاره (ثرشكروس جرانج).. وفى يقيني أن لقاء بينك وبينى سوف يقنعك بأنني لست على شيء من أخلاق أبي!.. بل إنه هو نفسه يؤكد أننى ابن أختك أكثر من أن أكون ابنه!.. ومع أن لى أخطائى التى تجهلنى غير جدير بكاثرين فإنها قد صفحت عنها.. وعليك أن تصفح عنها بدورك، من أجل خاطرها!.. وقد سألتني عن صحتي.. إنها أحسن حالًا الآن.. ولكني طالما بقيت محرومًا من الأمل، مقضيًا عليَّ بالوحدة التعسة، أو بمعاشرة أولئك الذين لم يحبوني، ولن يحبوني قط، فمن أين لي أن أكون سعيدًا، أو تتقدم صحتى بخطى حثيثة؟)

وعلى الرغم من حب إدجار للغلام ورثائه له، فإنه لم يستطع تلبية هذا الرجاء، لأنه لم يكن قادرًا على الخروج في صحبة كاثرين.. فكتب إليه أنهم ربما استطاعوا اللقاء في الصيف، ولكنه يود منه في الوقت نفسه أن يستمر في الكتابة إليه بين الحين والآخر، ووعده بأن يقدم له، في خطاباته، كل ما في وسعه من النصح أو راحة البال، لعلمه بمركزه العسير وسط عائلته.. وقد استجاب لينتون لرغبة خاله.. ولو أنه كان حرًّا غير مقيد في كتابته، لكان من الأرجح أن يفسد كل شيء بملء خطاباته بالشكوى والنحيب!.. ولكن أباه كان يرقبه بعين لا تغفل، وكان يصرّ - بطبيعة الحال - على أن يرى كل كلمة يكتبها سيدي إليه أو يكتبها لينتون لخاله.. وهكذا فإنه بدلًا من أن يحشو خطاباته بآلامه وهمومه الشخصية العجيبة، وهي التي لا تفتأ تتخذ في أفكاره أعلى منزلة، فقد راح يردد نغمة واحدة لا يحول عنها، هي ذلك الحكم القاسي بأن يظل محرومًا من صديقته وحبيبته.. وكان يلمح في رفق إلى واجب مستر لينتون بالسماح له بلقاء قريب، وإلا خشي أن يكون قاصدًا خداعه بالوعود المعسولة الجوفاء!

وكانت كاتى خير حليف له في الدار، فاستطاع كلاهما أخيرًا أن يقنعا سيدي بالسماح لهما بنزهة يقومان بها معًا مرة كل أسبوع، راكبين أو ماشيين، في حراستى، وفى البراري القريبة من الجرانج.. فقد حلّ شهر يونيه وهو ما يزال يذوى ويزداد ضعفًا.. وكان يدخر في كل عام شطرًا كبيرًا من دخله لتكون منه ثروة لسيدتي الصغيرة، ولكنه كان، مع ذلك، يحس رغبة طبيعية في أن تستعيد منزل أجدادها، أو على الأقل تعود إليه عما قريب.. وكان يعتقد أن أملها الوحيد في تحقيق ذلك إنما هو بزواجها من وريثه.. فلم تكن لديه أية فكرة عن سير الفتي نحو النهاية بخطي حثيثة، بل بأسرع مما كان يسير هو.. وما من أحد كانت لديه هذه الفكرة، كما أعتقد.. فلم يُدع الطبيب لزيارة (المرتفعات) قط، ولم يكن بيننا من يرى هيثكليف الشاب حتى ينبىء بحالته.. أما أنا فقد بدأت، من جانبي، أعد تشاؤمي السابق كاذبًا، وتصوّرت أنه، ولا ريب، أصبح الآن يفيض صحة وانشراحًا، لكثرة ما ذكره عن الركوب والنزهة بين البراري، وما بدا من تلهفه على متابعة آماله نحو هدفه المنشود.. فلم أتصوّر البتة أن والدًا يمكن أن يعامل ولده المحتضر بمثل ذلك الطغيان الرهيب وتلك القسوة الشريرة التي علمت فيما بعد أن مستر هيثكليف كان يعامله بها، ليرغمه على هذه اللهفة المصطنعة.. وكان يضاعف جهوده وقسوته، كلما بدت له خططه الجشعة، وطمعه المجرد من الشعور، يهددهما الموت بالفشل والانهيار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

كان الصيف قد جاوز عنفوانه، عندما وافق إدجــار - كارهًا – على تحقيق رجائهما، فخرجت وكاثرين راكبتين جوادينا في أول رحلة لها للقاء ابن عمتها.. وكان يومًا شديد الجهامة احتبس فيه الهواء، وغامت الشمس، غير أن السحب المرقطة الرقيقة لم تكن تنذر بالمطر.. وكان موعدنا عند علامة الإرشاد الحجرية في مفترق الطرق، ولكننا عندما وصلنا إلى هناك وجدنا غلامًا من الرعاة في انتظارنا، وقد وفد رسولًا ليقول لنا:

- إن السيد لينتون موجود الآن على ذلك الجانب الآخر ناحية (المرتفعات)، وسيكون عظيم الامتنان لكما إذا تقدمتما قليلًا..

فغمغمت قائلة:

- إذن فقد نسى السيد لينتون أول شرط من شروط خاله وأوامره.. لقد طلب إلينا أن نبقى في حدود أرض (الجرانج) وها نحن نوشك على اجتيازها لأول وهلة..

فأجابت رفيقتى:

- حسنًا.. سوف ندير رؤوس الجياد عندما نصل إلى لينتون، وسوف نجعل نزهتنا بذلك صوب المنزل!

فلما بلغنا مكانه، وكان لا يكاد يبعد عن باب داره بأكثر من ربع ميل، لم نجد معه جوادًا، فاضطررنا إلى الترجل، وتركنا جوادينا يرعيان الكلأ.. وكان راقدًا فوق العشب ينتظر اقترابنا، ولم ينهض من مضجعه حتى أصبحنا على بعد بضع ياردات منه، وعندئذ مشى نحـونا في ضعف واسترخاء، وكان يبدو شديد الشحوب بحيث لم أملك إلا أن أصيح في عجب:

- ما هذا يا سيد هيثكليف؟.. إنك لست في حالة تسمح لك بالتجول بين البراري هذا الصباح.. شد ما تبدو مريضًا!

وكانت كاثرين ترمقه في دهشة وأسى.. وبدلت صيحة الفرح التي كانت توشك على أن تنطلق من شـفتيها، إلى صيحة قلق وانزعاج، والتهنئة التي كانت توشك على أن توجهها إليه لهذا اللقاء الذي طال ارتقابه، إلى سؤال وجهته إليه في لهفة وقلق عما إذا كان يجد نفسه أكثر سوءًا من المعتاد.. فغمغم قائلًا:

- كلا.. بل أحسن كثيرًا..

وكان لاهث الأنفاس، كثير الارتعاش، وظل ممسكًا بيدها كأنما كان بحاجة إلى الاستناد إليها، بينما كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ترمقانها بنظرات شـاردة، في خجل وإعياء.. وكانت التجاويف التي كانت تحيط بهما قد أحالت تلك النظرة الواهنـة - التي كانت لهما ذات يـوم - إلى نظرة ضالة شاحبة..

وعادت بنت خاله تقول في إلحاح:

- ولكنك ازددت سوءًا عما كنت عندما رأيتك آخر مرة، وازددت هزالًا، و..

فقاطعها في عجلة:

- إننى متعب.. والجو اليوم حار لا يسمح لنـا بالمشى، فدعينا نجلس هنا.. ثم إنني أشعر

بالمرض في الصباح، ويقول أبي أن ذلك يرجع إلى سرعة نموى!

فجلست كاثى دون أن يبدو عليها الاقتناع بما يقول، أما هو فقد اضطجع بجانبها.. وأرادت أن تجاهد في سبيل إشاعة جو من المرح حولهما، فقالت:

- إن هذه تشبه الجنة التي تنشدها.. فهل تذكر اليومين اللذين اتفقنا على أن نقضيهما في المكان وعلى النحو الذي يراه كل منا أكثر بهجة وسرورًا؟.. إن هذه هي جنتك أنت بلا جدال، لولا السحب التي تحجب وجه السماء، ولو أنها رقيقة لينة.. وذلك أفضل من وهج الشمس الساطعة.. ولكنك، إذا استطعت، سوف تركب معي في الأسبوع القادم إلى حدائق (الجرانج) لترى جنتى أنا..

ولم يبد على لينتون ما يدل على تذكره شيئًا مما كانت تتحدث عنه، وكان من الواضح أنه يلقى عناءً عظيمًا في احتمال أي نوع من الحوار ومتابعته.. كان عدم اهتمامه بالموضوعات التي طرقها، وعجزه عن المساهمة بدوره في الترويح عنها، من الوضوح بحيث لم تستطع إخفاء امتعاضها وضيقها. فلقد أصاب شخصه ومسلكه تبدل شامل غريب غير واضح الملامح.. كانت المشاكسة التي تطمع في الملاينة إلى حد التدليل قد تركت مكانها فيه إلى نوع من البلادة والجمود وتراخي الشعور.. أصبح فيه القليل من ذلك الخلق المشاغب لطفل يعمد الإثارة والإغاظة حتى يلاطفه الناس ويتملقوه، والكثير من تلك الكآبة والهموم المكبوتة التي تلازم شخصًا عليلًا لا يرجى له شفاء فيرفض العزاء والترويح، ويعد طرب الآخرين ومرحهم إهانة له.. وقد تبينت كاثرين - كما تبينت - أنه يعتبر احتماله لصحبتنا عذابًا وعقابًا، لا فضلًا وعطفًا، فلم تتوان عن اقتراح الرحيل في الحال.. وعلى غير ما كنا نتوقع، أثار هذا الاقتراح لينتون من غيبوبته، ودفع به إلى حالة غريبة من الانفعال، وراح يتطلع نحو (مرتفعات ويذرنج) في ذعر وهلع، وهو يتوسل إلى كاثرين أن تبقى معه ولو نصف ساعة آخر.. فقالت:

- ولكني أظن أنك سوف تكون أكثر راحة في منزلك عنك في الجلوس هنا.. ثم أنني لا أستطيع تسليتك اليوم، كما أرى، بقصصى وأناشيدى وحديثى.. فقد ازددت عنى عقلًا ورزانة خلال هذه الشهور الستة ولم تعد تتذوق لهوى ومرحى.. أما إذا كان في استطاعتي أن أرفه عنك، فإني مستعدة للبقاء عن طيب خاطر..

فأجاب:

- بل امكثى حتى تنالي شيئًا من الراحة.. ولا تظني أو تقولى يا كاثرين أنني في حالة بالغة السوء.. فالجو الثقيل والحرارة الشديدة هما اللذان يجعلاني أبدو متبلد الحس خاملًا.. ثم أنني مشيت قبل مقدمك قدرًا يفوق طاقتى.. فهل لك أن تخبري خالي بأني في صحة لا بأس بها؟

فقالت سيدتي الصغيرة متعجبة من إصراره على توكيد ما يبدو للعيان كذبًا صراحًا:

- سوف أخبره بأنك الذي تقول ذلك يا لينتون.. لا أستطيع أن أشهد بأنك كذلك حقًّا..

فاستطرد يقول متجاهلًا نظراتها المتحيرة:

- وتعالى إلى هنا يوم الخميس القادم ثانية.. وقدمى لخالى شكرى وامتناني على سماحه لك بالحضور.. شكرى الخالص العميق يا كاثرين.. و.. وإذا حدث أن قابلت والدي وسألك عنى، فلا توحي إليه بأننى كنت معك صامتًا بليد الفهم.. ولا تظهري أمامه كئيبة منكسرة الخاطر، كما تلوحين الآن.. فإنه سوف يغضب غضبًا شديدًا..

فصاحت كاثرين وقد حسبت أنها ستكون هدف هذا الغضب:

- إننى لا أبالي بغضبه قط..

فقال ابن عمتها، مرتعدًا:

- ولكنى أبالي به كثيرًا.. فلا تثيريه ضدى يا كاثرين، لأنه شديد القسوة والصرامة..

فتدخلت سائلة:

- أهو قاس معك يا سيد هيثكليف؟.. هل أضجرته الرحمة وسئم التسامح، فانقلبت كراهيته السلبية إلى ايجابية؟

فنظر إلىّ لينتون، ولكنه لم يجب.. ولبثت كاثرين جالسة بجانبه عشر دقائق أخرى، كانت رأسه خلالها تسقط فوق صدره كشخص غلبه النعاس، لا يتكلم ولا ينطق إلا بأنين مكتوم من الألم أو الإجهاد، حتى ملت كاثرين تلك الجلسة فقامت تنشد العزاء في البحث عن حبات التوت البري، وتشركني معها في ثمار بحثها، دون أن تعرض شيئًا منها عليه، لأنها رأت بنفسها أن أية محاولة لتنبيهه لن تجـدى إلا في إضجاره وإغضابه!

وأخيرًا همست في أذني قائلة:

- هل انقضى نصف الساعة يا إيلين؟.. إنني لا أدرى لماذا ينبغي أن نبقى بعد ذلك، فهو مستغرق في النوم، كما أن أبي يتعجل عودتنا إلى الدار..

- حسنًا.. لا يجب أن نتركه نائمًا، فاصبرى حتى يستيقظ، ودعى عنك هذه العجلة.. لقد كنت تتحرقين شوقًا إلى الخروج للقائه، وهأنتذي أرى اشتياقك لرؤية لينتون المسكين قد تبخر وتبدد سريعًا!

فأجابت كاثرين:

- ولكن لماذا طلب أن يراني؟.. لقد كان في طباعه السابقة من سوء الخلق والمشاكسة أحب إلى نفسي منه في الحالة الغريبة التي غدا عليها الآن.. إن الأمر ليبدو كما لو كان إلحاحه في لقائي مهمة أرغم على أدائها خوفًا من تقريع أبيه وانتهاره إياه.. ولكن لا يمكن أن أحضر لمجرد إدخال السرور على قلب مستر هيثكليف الأب مهما تكن لديه من بواعث لإرغامه لينتون على مكابدة هذا العذاب.. وإني، وإن كنت مسرورة لتحسن صحته، إلا أنني حزينة لأنه غدا أقل ظرفًا، بل أقل انعطافًا نحوي إلى حد بعيد..

فقلت:

- هل ترين إذن أنه أحسن صحة؟

. نعم.. لأنه كان دائمًا يولى آلامه وأوجاعه أعظم اهتمام، كما تعلمين.. إنه ليس في صحة طيبة كما طلب إلى أن أقول لأبي، ولكنه أحسن حالًا فيما يبدو..

- هذا ما أختلف عنك فيـه يا مس كاثى.. فإنى أراه أسوأ بكثير..

وفي تلك اللحظة، أفاق لينتون من نعاسه مذعورًا مشدوهًا، يسأل في لهفة هل نادي أحد باسمه، فقالت كاثرين:

- كلا، ما لم تكن سمعته في الحلم!.. ولكني لا أستطيع أن أتصور كيف يمكنك أن تغفو خارج منزلك، ونحن ما زلنا في الصباح..

فقال لاهثًا، وهو يتطلع إلى قمة التل المتجهمة فوقنا:

- ظننتنى سمعت صوت أبي.. هل أنت وأثقة من أن أحدًا لم يتكلم؟

فأجابته ابنة خاله:

- واثقة تمامًا.. وكل ما في الأمر أنني كنت أجادل إيلين في شأن صحتك فهل ازددت قوة حقًّا عما كنت عند افتراقنا في الشتاء يا لينتون؟.. إذا كان الأمر كذلك، فإني واثقة من أن شيئًا واحدًا لم يزدد قوة، وهو تقديرك لي!.. تكلم.. هل أنت أحسن حالًا حقًّا؟

فتدفقت الدموع من عينيه وهو يتمتم:

- نعم.. نعم.. إننى كذلك..

وكأنما كان لا يزال مأخوذًا برهبة ذلك الصوت الخيالي، إذ راحت أنظاره الحائرة تجوب الأنحاء نحونا ليكتشف مكان المنادى.. وعندئذ نهضت كاثرين قائلة:

- كفانا هذا اليوم، ولنفترق الآن.. غير أني لا أخفى عليك أن لقاءنا قد أحزنني وخيب آمالى.. ولكن لن أقول ذلك لأحد سواك، دون أن يكون ذلك لخوفي من مستر هيثكليف!

فغمغم لينتون مرعوبًا:

- صه!.. اسكتى بحق السماء، فإنه قادم!

ثم تعلّق بذراع كاثرين، محاولًا إبقاءها معه.. ولكنها إذ سمعت ما قاله، أسرعت تخلص نفسها من يده، ثم صفرت لمهرها الذي أسرع يلبي النداء ككلب مطيع، ووثبت فوق ظهره، وهي تصيح:

- سأكون هنا يوم الخميس القادم، فإلى اللقاء.. أسرعي يا إيلين!



صفرت لمهرها الذي أسرع يلبي النداء ككلب مطيع، ووثبت

ظهره..

وهكذا خلفناه وهو لا يكاد يحس برحيلنا، إذ كان مستغرقًا في التوجس من اقتراب أبيه..

وقبل أن نصل إلى المنزل، كان سخط كاثرين قد لان حتى غدا شعورًا امتزجت فيه الحيرة بالأسف والرثاء، وأخذت تتراوحها شكوك غامضة قلقة نحو ظروف لينتون الحالية، سواء الجسمانية أو العائلية.. ولقد شاركتها هذه الشكوك، ولو أننى أشرت عليها بكتمان الأمر، والتريث حتى تُهيىء لنا رحلتنا القادمة أسباب الحكم على الأمور..

وسألنا سيدي بيانًا عن رحلتنا، فنقلت إليه كاثرين شكر ابن اخته وامتنانه، ومست حوادث باقي الرحلة مسًّا رقيقًا.. كذلك أجبت على أسئلته بردود غامضة، فلم أكن أعرف ما يجب أن أخفيه، وما يجب أن أكشف عنه الحجاب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

انصرمت أيام سبعة، كان كل منها يترك أثرًا لمروره بالتبدل السريع الذي طرأ على حالة إدجار لينتون.. وأصبحت الساعات تتسابق الآن في غزواتها لصحته، بعد أن ظلت الشهور الماضية تنسج خيوطها على مهل للقضاء عليه.. وكنا نمنى أنفسنا بأن تظل كاثرين جاهلة لحالة أبيها، ولكن روحها الحساسة أبت أن تظل سادرة في خداعها لنفسها، فأدركت حقيقة الأمر في أعماقها، وانشغل بالها بذلك الاحتمال المروع الذي أخذ يستكمل تحوله إلى حقيقة واقعة.. فلما أقبل يوم الخميس، لم يطاوعها قلبها على ذكر شيء عن نزهتها المرتقبة، ولكني توليت ذكر الأمر أمام سيدي، فأذن لي بأن أرغمها على الخروج، لأن غرفة سيدي ومكتبته التي كان يمكث بها فترة يسيرة كل يوم - الفترة اليسيرة التي يحتمل فيها مشقة الجلوس - كانتا قد أصبحتا دنياها بأسرها.. كانت تحقد على كل لحظة تحرمها من الانحناء فوق وسادته أو الجلوس إلى جانبه.. وعلا وجهها الشحوب والامتقاع من الحزن ومن السهر على راحته.. حتى لقد سُر سيدى بالسماح لها بالذهاب إلى ما كان يمنى نفسه بأن يكون تغييرًا سعيدًا للمناظر المحيطة بها، والوسط الذي تعيش فيه، وقد وجد الراحة والعزاء في الأمل الذي راوده من أنه لن يتركها وحيدة تمامًا بعد مماته..

وكانت لديه فكرة ثابتة، استطعت أن أستشفها من الملاحظات العديدة التي أفلتت من لسانه، وهي أنه ما دام ابن أخته يشبهه جسمًا وشكلًا فلا شك في أنه يشبهه روحًا وعقلًا، إذ كانت خطابات لينتون الصغير لا توحي بشيء، أو بأقل القليل، عن خلقه المعيب!.. أما أنا فقد أحجمت، في ضعف مغتفر، عن مكاشفته بالحقيقة، وساءلت نفسي: آية جدوى يمكن أن تكون في إزعاج ساعاته الأخيرة بمعلومات ليست له القوة أو الفرصة على ان يتخذ لها موقفًا ايجابيًا..

وأرجأنا نزهتنا إلى بعد الظهر.. وكان يومًا ذهبيًا من أيام شهر أغسطس، وكل نسمة تهب فيه من ناحية التلال مليئة بالحياة حتى ليُخيل إليك أن أي أمرىء يستنشقها ويكون مشرفًا على الموت، فسوف تبعث فيه الحياة من جديد.. وكان وجه كاثرين أشبه بالمنظر الذي يمتد أمامنا!.. تتتابع عليه الظلال والشمس المشرقة، في سرعة وعجلة.. ولكن الظلال كانت أطول أمدًا، على حين كان الاشراق عابرًا عجولًا، وكان قلبها الصغير المسكين لا يفتأ نادمًا على تلك اللحظات العابرة التي يتناسى فيها همومه ومشاغله..

وجدنا لينتون يرقب مجيئنا في نفس البقعة التي اختارها أول مرة.. فترجلت سيدتي عن مهرها، وقالت لي أنها عازمة على البقاء فترة وجيزة، ومن الأفضل أن أظل راكبة وأن أمسك بمقود جوادها.. ولكنى أبيت ذلك، فما كنت لأخاطر بترك وديعتي تغيب عن أنظاري لحظة واحدة.. وهكذا رحنا نرقى المرتفع المعشوشب معًا، حيث تلقانا السيد هيثكليف بمزيد من اللهفة والانتعاش هذه المرة.. ولكنها لم تكن لهفة السرور، أو لهفة الشوق، وإنما كانت تبدو أشبه بالفزع والذعر..

وابتدرنا قائلًا، وهو ينطق في صعوبة:

- لقد تأخرت كثيرًا!.. وظننت أنك لن تأتى.. ألم يشتد المرض على أبيك؟

فصاحت كاثرين، وهي تطبق فمها على عبارات التحية التي كانت تهم بها:

- لماذا، بربك، لا تكون صادقًا صريحًا؟.. ولماذا لا تقول مباشرة أنك لا تريدنى؟.. إن أمرك عجيب يا لينتون، فهذه هي المرة الثانية التي تأتي بي فيها إلى هنا عن عمد، لا لسبب إلا لجلب الألم والأسى إلينا معًا..

فارتجف لينتون ونظر إليها نظرة طويلة، فيها ضراعة وفيها حياء.. ولكن صبر ابنة خاله لم يكن ليتسع لاحتمال مسلكه الغامض، فقالت:

- إن والدي مريض جدًّا.. فلماذا انتزعتني من جوار فراشه؟.. ولم لم تبعث إليّ لتحلني من وعدى، عندما كنت تتمنى أن أنكث به؟.. هيا.. أريد تفسيرًا لكل ذلك الآن.. فإن اللعب واللهو والعبث أشياء لم يعد لها مكان في فكرى، ولم يعد في وسعي الآن أن أرعى رياءك في خضوع ومذلة..

فغمغم قائلًا:

ـ ريائى؟.. أين ريائي هذا؟.. بحق السماء يا كاثرين، لا تدعى الغضب يتملكك هكذا!.. لك أن تحتقريني كيفما تشائين، فإنى تعس جبان حقير.. وإني أستحق المزيد من التقريع والتأنيب، ولكني أتفه من أن أثير غضبك.. امقتى والدي وأبغضيه، وأبقى لي الاحتقار والازدراء!

فصاحت كاثرين في غضب وانفعال:

- هراء!.. وأنت غلام معتوه أبله!.. انظرى.. إنه يرتعد كما لو كنت أنوي حقًّا أن أمسه!.. كلا يا لينتون، لا حاجة بك إلى أن تتعجل الاحتقار، فإن أي امرىء يحتفظ لك به تحت أمرك عند الطلب!.. انهض، فسوف أعود إلى منزلى.. لقد كان من الجنون حقًّا اجتذابك من جوار الموقد، زعمًا بأننا.. ولكن ما الذي زعمناه؟.. دع طرف ثوبى!.. وإذا كنت قد رثيت لك وأشفقت عليك لبكائك وما يبدو عليك من آثار الفزع الرهيب، فإن الأخلق بك أن تترفع عن شفقتى هذه!.. قولى له يا إيلين كم في مسلكه هذا من هوان شائن!.. انهض، ولا تنزل بنفسك إلى مرتبة الزواحف الخسيسة!.. لا.. لا تفعل هذا!

فقد ارتمى لينتون بهيكله المنهار الأعصاب على الأرض، وراح يتمرغ تحت قدميها، والدموع تخضل وجهه الشاحب الذي ارتسمت عليه معالم الألم الفظيع.. كان يبدو كأن فزعًا مروعًا يهز جسمه هزًّا..

وبين شهقاته ونحيبه، راح يقول:

- آه!.. إنني ما عدت أحتمل ذلك!.. كاثرين!.. كاثرين!.. إننى خائن أيضًا، ولست أجرؤ على إخبارك!.. ولكن لو تركتني، فسيكون مصيرى القتل، إن حياتي بين يديك ياعزيزتي كاثرين، وقد قلت إنك تحبينني.. فإذا كنت كذلك حقًّا، فإن الأمر لن يضرك في شيء!.. إنك لن تذهبى إذن، يا كاثرين الجميلة، الشفوقة، الطيبة؟.. ومن يدري فلعلك توافقين.. وعندئذ يتركنى أبي حتى أموت معك!

وإذ رأت سيدتي الصغيرة ما يقاسيه من عذاب فظيع، انحنت ترفعه من الأرض، وقد تغلب شعور العطف والتسامح القديم على غضبها وحنقها.. وازداد تأثرها وقلقها، فقالت تسأله:

- أوافق على أي شيء؟.. على البقاء؟.. قل لي ما الذي تقصده من هذا الكلام الغريب، وسوف أبقى معك بعض الوقت.. ولكن مسلكك يناقض أقوالك، فتحيرني وتبلبل أفكاري.. فاهدأ وكن صريحًا، واعترف لي للتو بما يثقل قلبك.. إنك لا تود الإساءة إلىّ يا لينتون، أليس كذلك؟.. ولن تدع أي عدو يؤذيني إذا كان في وسعك أن تمنعه، أليس كذلك؟.. أعتقد أنك قد تكون رعديدًا جبانًا في نفسك، ولكنك لن تكون من النذالة بحيث تخون خير صديقة لك..

فراح يعصر أصابعه الرخوة وهو يقول لاهثًا:

- ولكن أبي قد توعدني بشر مستطير، وإني أخشاه.. أخشاه بفزع عظيم.. فلا أجرؤ على أن أقول شيئًا..

فقالت كاثرين في حنان ساخر:

- آه.. حسنًا.. اكتم سرك إذن!.. أما أنا فلست على شيء من الجبن.. انج أنت بنفسك، فإني غير خائفة!

فأثارت نخوتها دموعه، وراح يبكي في ضراوة، ويغطى يديها الممسكتين به بقبلاته وعبراته معًا.. ومع ذلك لم يستطع أن يستجمع شجاعته ليفشى ما يكتمه..

وبينما كنت أفكر فيما عسى أن يكون ذلك السر، وأقرر في نفسي أن كاثرين لا ينبغي أن تتألم في سبيله أو في سبيل أحد غيره، دون أن أحرك ساكنًا، إذا بي أسمع حفيفًا بين الهيش، فتطلّعت إلى يميني، وإذا مستر هيثكليف يوشك أن يهبط فوق رؤوسنا قادمًا من (المرتفعات».. ولم يلق نظره واحدة على رفيقىّ، مع أنهما كانا قريبين منه إلى حد يجعل نحيب لينتون واضحًا مسموعًا في أذنيه، وإنما ناداني في نبرات ودودة لا أحسبه خاطب بها أحدًا من الناس في حياته قط.. وفى ذلك الإخلاص الذي لم أملك نفسي من التشكك فيه، قال:

- ما أجمل أن أراك بالقرب من منزلى يا نللى!.. كيف حالك في «الجرانج)؟

ثم خفض من صوته، واستطرد يقول:

- ولكن طمنيني.. لقد شاع أن إدجار لينتون على فراش الموت، أفلا يكون ذلك مبالغة في خطورة مرضه؟

- كلا.. ذلك صحيح تمامًا، فإن سيدي في الاحتضار.. وسيكون موته أمرًا محزنًا لنا جميعًا، وإن كان نعمة عليه ورحمة له..

- إلى متى يطول احتضاره، في رأيك!

- ومن أين لي أن أدرى؟

فتطلّع ناحية الصغيرين اللذين جمد حراكهما تحت نظراته - لأن لينتون كان يبدو كأنما لا يستطيع أن يجرؤ على أن يحرك أصبعًا أو يرفع رأسًا، كما أن كاثرين لم تستطع الحراك لأنه كان مستندًا إليها متعلقًا بها - ثم استطرد يقول لي:

- لأن هذا الغلام يبدو مصممًا على هزيمتى!.. وكم أكون شاكرًا لخاله لو استحث خطاه وقضى نحبه قبله!.. ولكن هل كان الجرو يلعب لعبته هذه منذ أمد طويل؟.. لقد لقنته (بعض) الدروس عن البكاء والولولة.. فهل كان بشوشًا فرحًا مع مس لينتون عادة؟

- بشوشًا فرحًا؟.. كلا.. بل كان يشكو آلامه ومتاعبه.. وعندما رأيته، وجدته خليقًا أن يكون راقدًا في فراشه، بين يدي الطبيب، بدلًا من أن يهيم على وجهه فوق التلال مع حبيبته!

فغمغم هيثكليف:

- سوف يكون كذلك بعد يوم أو اثنين.. أما الآن..

ثم استطرد بصوت عال:

- انهض يا لينتون!.. انهض حالًا، ولا تزحف على الأرض هناك.. قم سريعًا في هذه اللحظة!

فإن لينتون كان قد عاد إلى الانبطاح على الأرض وقد أصابته نوبة أخرى من الفزع اليائس أحسب أن سببها نظرة أبيه نحوه، فلم يكن ثمة سبب آخر لهذه المذلة.. وقام بمحاولات عديدة لإطاعة أبيه، ولكن قواه القليلة الباقية كانت قد تلاشت تمامًا، فسقط على الأرض ثانية وهو يتأوه متألمًا.. فتقدَّم مستر هيثكليف نحوه، ورفعه حتى أسنده إلى دغلة كثيفة من الهيش، وهو يقول في شراسة رادعة:

- لقد بدأت أغضب منك الآن!.. وإذا كنت لا تسيطر على روحك الخائرة هذه.. آه!.. لعنة الله عليك.. انهض حالًا!

فأجاب الغلام في أنفاس لاهثة متلاحقة:

- سأقوم يا أبتاه.. فقط دعنى وحدي وإلا غشى على.. لقد فعلت كل ما طلبت مني أن أفعله.. إننى واثق من ذلك.. وسوف تخبرك كاثرين أنني.. أننى كنت معها مرحًا طروبًا!.. آه!.. أبقي بجانبى يا كاثرين أعطيني يدك!

فقال أبوه:

- خذ يدي أنا، وقف على قدميك.. والآن؟.. سوف تقدم لك ذراعها.. حسنًا.. انظر إليها هى.. لعلك تتصورين يا مس لينتون أننى الشيطان نفسه، إذ أثير مثل هذا الفزع.. هلّا تكرمت بالسير معه حتى المنزل؟.. سوف يرتعد خوفًا إذا لمسته!

فهمست كاثرين قائلة:

- ولكني لا أستطيع الذهاب معك إلى (مرتفعات ويذرنج) يا عزيزى لينتون.. لقد حرَّم علىّ أبي ذلك.. إنـه لن يؤذيك، فلماذا كل هذا الخوف؟

- لا أستطيع أبدًا أن أدخل هذا المنزل ثانية.. بل ليس لى أن أدخله بدونك!

فصاح أبوه:

- صه!.. إننا سوف نحترم تمسك كاثرين بطاعتها لأبيها.. خذيه أنت إلى المنزل يا نللى، وسوف أعمل بنصيحتك وأحضر له الطبيب دون إمهال..

- حسنًا تفعل.. ولكني يجب أن أبقى مع سيدتي.. فليست العناية بابنك من شأني!

- إنك شديدة الصلابة، كعهدى بك.. ولكنـك ستضطرينني إلى أن أقرص الغلام، وأجعله يملأ الدنيـا صراخًا، قبل أن يُحرك شفقتك وإحسانك!

واقترب منه ثانية، ومدَّ يده نحوه كأنما يريد أن يمسك بذلك المخلوق الهش الخائر.. ولكن لينتون ارتد إلى الوراء مجفلًا، وتعلّق بابنـة خاله، وراح يتوسل إليها أن تصحبه إلى المنزل، في إلحاح جنوني لا يحتمل إباء. وبرغم أنني كنت غير موافقة، فإنني لم أستطع منعها من الذهاب.. وكيف كان يمكنها أن ترفض مصاحبته حقًّا؟.. إننـا لم يكن في وسعنا، ولا في متناول يدنا، أن ندرك كنه ذلك الرعب الذي يملؤه.. وإنما كنا نراه أمامنا ضعيفًا متخاذلًا تحت قبضة هذا الفزع الرهيب، ولا شك أن أية زيادة عليه كانت كفيلة بإصابته بالجنون..

فلما بلغنا باب المنزل، صحبت كاثرين العليل إلى الداخل، على حين وقفت أنتظرها ريثما تقوده إلى مقعد أو أريكة، متوقعة أن تخرج على التو، وإذا مستر هيثكليف يدفعنى إلى الأمام، هاتفًا:

- إن بيتي ليس موبوءًا بالطاعون يا نللى!.. ثم إنني أريد أن أكون كريمًا مضيافًا اليوم.. هيا

اجلسي.. واسمحي لي بأن أغلق الباب!

ولكنه لم يغلقه فحسب، وإنما أوصده بالمفتاح.. فأجفلت، وهممت بالقيام، ولكنه أضاف مستطردًا:

- سوف تتناولان الشاى معى قبل عودتكما، فإننى وحدي اليوم، إذ خرج هيرتون ببعض الماشية إلى السوق، كما ذهبت زيللا وجوزيف في إجازة للراحة والفسحة!.. وبرغم أنني اعتدت هذه الوحدة، إلا أننى أفضل كثيرًا أن أستمتع بصحبة لطيفة، بين آن وآخر، إذا تيسرت لي.. خذى مقعدك واجلسي بجانبه يا مس لينتون.. إنني أقدم لك ما لدى.. وما لدى الآن لا يكاد يستحق شرف قبولك، ولكن لا حيلة لي في الأمر، فهو (الحاضر)، وليس لدي ما أقدمه لك غيره!.. ما لها تحملق في وجهي!.. من العجيب أنني ينتابني شعور وحشى حيال كل شيء يبدو خائفًا منى!.. ولو كنت قد ولدت في مكان آخر حيث القوانين أقل وطأة، والأذواق أقل تأنقًا، لسليت نفسي بتقطيع أوصال هذين الاثنين حيين تقطيعًا بطيئًا، ولجعلت من ذلك تسلية المساء!

ثم زفر بأنفاسه، ولطم المائدة بقبضة يده، وهو يغمغم ساخطًا:

- يا للجحيم!.. شد ما أكرههما!

فصاحت كاثرين، التي لم يكن في وسعها أن تسمع الشطر الأخير من كلامه:

- إنني لا أخشاك ولا أخافك!

ثم خطت متقدمة نحوه، وعيناها السوداوان تومضان بالغضب والعزم القوى، وقالت:

- أعطني ذلك المفتاح.. سوف آخذه بنفسى!.. إننى لن أذوق هنا طعامًا أو شرابًا ولو هلكت جوعًا وظمأ..

وكان هيثكليف يضع المفتاح في يده الممدودة فوق المائدة.. فرفع أنظاره يتطلّع إليها، وقد أذهلته جرأتها، أو لعل صوتها ونظرتها قد ذكراه بالمرأة التي ورثتهما عنها.. واختطفت المفتاح، وكادت تفلح في إخراجه من بين أصابعه المنفرجة، عندما أخرجته فعلتها من ذهوله، وردته إلى الحاضر، فاستعاد المفتاح سريعًا، وقال:

- اسمعى يا كاثرين لينتون.. اذهبى بعيدًا، وإلا صرعتك أرضًا!.. وإن كان ذلك يصيب مسز دين بالجنون!

ولكنها لم تعبأ بوعيده، وأمسكت ثانية بيده المطبقة على المفتاح، وهي لا تفتأ تردد:

- سوف نخرج.. سوف نخرج حتمًا..

وراحت تبذل قصارى جهدها في إلانة عضلاته الفولاذية، فلما فشلت أظفارها في إحداث أي أثر فيها، بدأت تستخدم أسنانها الحادة استخدامًا بارعًا.. وعندئذ رمقنى هيثكليف بنظرة جعلتني أجمد في مكاني، لا أقوى على التدخل، لحظة.. وكانت كاثرين منحنية فوق يده، منهمكة في إعمال أسنانها في أصابعه، فلم تنتبه إلى التبدل الذي اعترى وجهه، عندما فتح أصابعه فجأة، وتركها تأخذ المفتاح من بينها، ولكنها قبل أن تستولى عليه تمامًا، أمسك بها بيده المتحررة ثم جذبها فوق ركبته، وانهال عليها بيده الأخرى بلطمات عنيفة مروعة فوق جانب رأسها، وكل منها خليقة بأن تصرعها أرضًا لو كانت تستطيع السقوط..

واندفعت نحوه ثائرة، إذ رأيت هذا البطش الشيطاني، وبدأت أصيح به: أيها النذل.. أيها الوحش..

ولكن أخرستنى وكزة شديدة تلقيتها في صدري، وقطعت أنفاسي على رغم ما لى من قوة وصحة.. واجتمع علىّ الألم والغضب فترنحت مرتدة إلى الخلف، وقد دارت بي الأرض، حتى سقطت وقد أوشكت أن يصيبنى الاختناق أو ينفجر شريان في رأسي!

وانتهى المشهد في دقيقتين.. فرأيت كاثرين، بعد أن أطلق سراحها، تضع كلتا يديها فوق صدغيها، وهي تبدو كما لو كانت غير واثقة مما إذا كانت أذناها في مكانيهما أو انتزعتا!.. كانت المسكينة ترتعد كقصبة في مهب الريح، وتستند إلى المائدة في ذهول ودهشة بالغين..

وانحنى الوغد ليلتقط المفتاح الذي كان قد سقط على الأرض، وهو يقول:

- إنني أعرف كيف أؤدب الأطفال العصاة، كما رأيت.. والآن اذهبي إلى لينتون، وخذي راحتك في البكاء كيفما شئت.. سوف أكون أباك غدًا - الأب الوحيد الذي سيبقى لك بعد أيام قليلة - وسوف تنالين منى الكثير مما رأيت.. إنك لست ضعيفة، وفي وسعك أن تحتملى المزيد، وستنالين جرعة منه كل يوم لو لمحت في عينيك شيطان القحة مرة أخرى..

وجرت كاثى - لا نحو لينتون - ولكن نحوى، فركعت أمامي وأراحت وجنتها الملتهبة في حجري، وهي تنشج نشيجًا عاليًا.. أما ابن عمتها فقد كمن في ركن الأريكة، هادئًا كالجرذ، يُهنىء نفسه بالسلامة.. بل يُخيل إلىّ أنه كان سعيدًا بأن التأديب حلّ بشخص آخر سواه!

ونهض مستر هيثكليف، إذ رآنا جميعًا واجمين مبهوتين، فتولى بنفسه عمل الشاي في خفة وسرعة.. وكانت الأقداح والأطباق مرصوصة على المائدة منذ البداية، فملأها وناولني قدحًا منها، وهو يقول:

- اطردي عنك الحقد والغضب، وهيـا قدمى الشاي (لدلوعتك ودلوعتي)!.. إنه ليس مسمومًا، وإن كان من صنع يدي!.. أما أنا فذاهب للبحث عن جواديكما..

وكان أول ما طرأ على فكرنا، إثر انصرافه، أن ندبر لنفسينا طريقًا للخروج من أي منفذ، ولو قسرًا.. فأسرعنا نجرب باب المطبخ ولكنا وجدناه موصدًا من الخارج.. ونظرنا إلى النوافذ ولكنها كانت أضيق من أن تتسع للمرور حتى لجسم كاثي النحيل.. فلما رأيت أننا سجينتان ما لنا من خلاص، صحت بالغلام:

- إنك تعلم، يا سيد لينتون، ما يسعى أبوك الشيطاني وراءه، وسوف تخبرنا به على الفور وإلا ألهبت صدغيك كما فعل بابنة خالك..

فقالت كاثرين:

- نعم يا لينتون.. يجب أن تخبرنا.. فقد كان من أجلك أن حضرت إلى هنا، ومن الجحود الشرير أن ترفض مصارحتنا بالحقيقة..

فأجاب مرتاعًا:

- أعطيني أولًا قليلًا من الشاي، لأني ظمآن، وعندئذ سوف أخبرك بكل شيء.. ابعدي عنى يا مسز دين، فإنى لا أحب وقفتك فوق رأسي!.. وأنت يا كاثرين، لقد تركت دموعك تسقط في قدحي.. إنني لن أشربه، فأعطينى قدحًا آخر!

فدفعت إليه كاثرين قدحًا غيره، وجففت دموعها ووجهها.. وشعرت بالاشمئزاز من مسلك ذلك التعس الصغير، منذ أن أمن على نفسه، وفارقه الفزع مما عساه يصيبه!.. كان الذعر

الذي أظهره فوق البراري، قد سكن وهدأ بمجرد دخوله (مرتفعات ويذرنج) وحدست من ذلك أنه كان قد أُنذر بأن يحل به أفظع العقاب إذا فشل في إيقاعنا في الشرك واقتيادنا إلى داخل المنزل.. فلما تمّ له ذلك، لم يعد لديه ثمة سبب مباشر للخوف!

واستطرد يقول، بعد أن رشف قليلًا من الشاي:

- إن أبي يريد أن يعقد زواجنا.. وهو يعلم أن أباك لن يوافق على زواجنا الآن.. ولكنه يخشى أن أموت إذا أرجأنا الأمر.. ولذلك فسوف نتزوج في الصباح، وستبقين هنا هذه الليلة.. فإذا نفذت رغبته، فسوف تعودين إلى منزلك في اليوم التالي، وستأخذينني معك..

فهتفت قائلة:

- تأخذك أنت معها أيها المتقلب المنافق الحقير؟.. أنت تتزوج؟.. لماذا؟.. إن الرجل قد أصابه الجنون، أو يعتقد أننا بلهاء جميعًا!.. هل تتصور أن هذه السيدة الشابة الجميلة، التي تفيض بالصحة والنضارة وطيبة القلب، يمكن أن تتزوج من قرد صغير مشرف على الهلاك مثلك؟!.. وهل تراك تتعلق بفكرة أن هناك أية فتاة - ودعك من مس كاثرين لينتون - يمكن أن ترضى بك زوجًا؟.. إنك تستحق الجلد بالسياط على إحضارك إيانا إلى هنا، بأخاديعك الخسيسة النواحة!.. لا تظهر الآن بهذه البلاهة بعد ما فعلت!.. والله إننى لأود الآن أن أظل أهزك في عنف، جزاء خيانتك الحقيرة، وخدعتك السخيفة!

والواقع أنني أمسكت به وهززته هزة يسيرة، ولكنها كانت كافية لإثارة سعاله، ثم لجأ إلى معينـه العادي من الأنين والبكاء، مما جعل كاثرين تنتهرنى..

وراحت تتلفت حولها في تمهل وإمعان، وهي تقول:

- كلا.. لن نبقى هنا الليلة!.. سوف أخرج من هنا يا إيلين، ولو حرقت هذا الباب..

وكانت تهمّ بتنفيذ وعيدها في الحال، عندما جفل لينتون فزعًا على شخصه العزيز ثانيـة، وتعلّق بها بين ذراعيه الضعيفتين، قائلًا في عويل:

- ألا تريدين أن ترضى بى، فتنقذينى؟.. ألا تريدين أن أذهب معك إلى (الجرانج)؟.. أواه يا عزيزتى كاثرين.. لا ينبغي لك أن تذهبي وتتركيني الآن!.. بل يجب أن تطيعي أبي.. يجب أن تطيعيه حتمًا..

فأجابته:

- بل يجب أن أطيع أبي، وأنقذه من عذاب الانتظار الأليم.. أقضي الليلة كلها هنا؟.. وماذا عساه يظن؟.. إنه سوف يقلق لغيابنا وتشتد كربته.. لابد لي من أن أحطم أي منفذ أو أحرقه حتى أخرج من هنا.. اسكت واهدأ!.. فلست معرضًا لأي خطر!.. أما إذا حاولت منعى يا لينتون.. فإننى أحب أبي أكثر مما أحبك..

وكان الفزع المميت الذي ينتابه من غضب مستر هيثكليف، قد أعاد إلى الغلام فصاحته وذلاقته المنبعثتين من جبنه وخوره، حتى كادت كاثرين تنشغل به عن موقفها.. ومع ذلك ظلّت تصر على وجوب عودتها لمنزلها، ولجأت إلى التوسل والاستعطاف بدورها، محاولة إقناعه بأن يقهر آلامه وينسى أنانيته.. وفيما كانا منهمكين في هذا الجدال دخل سجاننا ثانية، وهو يقول:

- لقد شرد جواداكما، ولم أجدهما، و.. ما هذا يا لينتون؟.. هل عدت إلى البكاء ثانية؟.. ما الذي كانت تفعله بك؟.. هيا.. هيا يكفيك ذلك الآن، فاذهب إلى فراشك.. إنك بعد شهر أو

اثنين يا بني، سوف تكون قادرًا على أن تكيل لها الصاع صاعين وتثأر لنفسك من طغيانها الحالي، بيد مليئة بالقوة!.. إنك الآن تذوى وتضعف من حنينك إلى الحب الخالص، أليس كذلك؟.. ولا شيء سواه في هذا العالم يقض مضجعك ويهدم صحتك.. ولكنها سوف تكون لك!.. اذهب إلى فراشك الآن، ويجب أن تخلع ثيابك بنفسك، فإن زيلالا لن تكون هنا الليلة.. صه!.. كف عن هذه الضجة!.. إنك متى ذهبت إلى حجرتك فإنني لن أقترب منك، ولا حاجة بك إلى الخوف منى.. وعلى فكرة، فإنك أجدت التصرف اليوم، وسوف يكون من شأنى تدبير ما بقى..

وكان ينطق بهذه الكلمات وهو يمسك بالباب منفرجًا لمرور ابنه.. أما لينتون فقد كان في مروره يشبه تمامًا ما يفعله كلب صغير يشك في أن الواقف بالباب يضمر له شرًا ويرتقب فرصة مروره ليطبق الباب عليه فيعصره عصرًا.. وأوصد الباب من جديد، واقترب هيثكليف من المدفأة، حيث كنت وسيدتى نقف صامتتين.. فتطلّعت كاثرين نحوه، ثم رفعت يدها إلى وجنتها في حركة غريزية، إذ كان وقوفه في جوارها يحيى شعورًا أليمًا في نفسها.. وإن أي شخص غيره لخليق بأن ينظر إلى هذه الحركة الصبيانية في إشفاق وتأثر، ولكنه كشر في وجهها، وتمتم قائلًا:

- آه!.. ألم تقولى إنك لا تخافينني؟.. إنك إذن تخفين شجاعتك وراء قناع ماهر، لأنك تبدين شديدة الفزع!

- إننى خائفة الآن فعلًا.. لأننى إذا بقيت هنا فسيشقى والدي لغيابي.. وكيف يمكن لى أن أحتمل شقاءه وعذابه، بينما هو.. بينما هو.. آه!.. دعني أرجع إلى منزلي يا مستر هيثكليف، وأعدك بأنني سوف أتزوج من لينتون، لأن والدي يود أن أتزوج منه، كما أننى أحبه.. لماذا تريد أن ترغمني على ما سأفعله عن طيب خاطر ومن تلقاء نفسي؟..

فصرخت قائلة:

- دعيه يجرؤ على إرغامك!.. إن في هذا البلد قانونًا، والحمد لله، ولو أننا في مكان ناء عن العمران.. سوف أبلغ عنه ولو كان ابني، فهذه جريمة خطيرة لا يسرى عليها قانون العفو!

فصاح الوغد:

ـ اخرسى.. ولتذهب صيحاتك هذه إلى الشيطان!.. إياك أن تتكلمي بعد ذلك!

ثم استطرد يقول لكاثرين:

- إننى يا مس لينتون سوف أجد متعة عظيمة في التفكير بأن والدك سوف يشقى بسببي.. بل سيطير النوم من عيني رضى وارتياحًا.. وما كان في وسعك أن تجدى وسيلة أضمن لبقائك تحت سقف منزلي خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة، خيرًا من قولك لي بأن شقاء والدك وعذابه سيتبعان ذلك!.. أما عن وعدك بالزواج من لينتون، فإنني سأعنى بالوفاء به، لأنك لن تبرحي هذا المكان حتى ينجز هذا الوعد!

فصاحت كاثرين وهي تبكي بحرارة:

- أرسل إيلين إذن لتخبر أبي بأنني سالمة، أو اعقد زواجي الآن!.. يا لأبي المسكين!.. سوف يظن أننا فقدنا يا إيلين!.. فماذا نفعل الآن؟..

فأجاب هيثكليف:

- لن يظن شيئًا من ذلك!.. وإنما سيظن أنكما مللتما خدمته المتواصلة، فذهبتما بعيدًا

تنشدان شيئًا من المتعة!.. وليس في وسعك أن تنكري أنك دخلت منزلى بملء اختيارك، احتقارًا لأوامره التي تُحرم عليك دخوله!.. ومن الطبيعي حقًّا، أن تنشد فتاة في مثل سنك، بعض المتعة والترفيه، وأن تسأم خدمة رجل مريض، ليس إلا والدها!.. لقد انتهت أسعد أيامه، يا كاثرين، يوم بدأت أيامك في الحياة.. وأحسبه كان يلعنك لقدومك إلى العالم (أما أنا فقد لعنتك حقًّا)، فلا بأس بأن يلعنك وهو يغادره!.. وسأشاركه هذه اللعنة.. إنني أكرهك!.. وما لي لا أفعل؟.. أبكي وأمعنى في البكاء ما شئت، فسوف يكون البكاء تسليتك العظمى بعد الآن، كما يبدو لي!.. إلا إذا كان لينتون عوضًا كافيًا لأية خسارة أخرى!.. ويبدو أن والدك الملهم كان يراه كذلك، فإن خطاباته المليئة بالنصائح والعزاء كانت تسليني كثيرًا.. وفي خطابه الأخير، كان يوصى (جوهرتي) بأن يعنى (بجوهرته)، وأن يكون رفيقًا بها عندما ينالها!.. العناية والرفق.. إنها وصايا خليقة بالآباء حقًّا!.. ولكن لينتون في حاجة إلى كل رصيده من العناية والرفق ليسبغهما على نفسه.. وفى وسع لينتون أن يؤدي دور الطاغية الصغير، فيجيد أداءه!.. إنه خليق بأن ينهض بتعذيب أي عدد من القطط لو نزعت أسنانها وقلمت مخالبها!.. وسوف يكون في وسعك أن تقصى على خاله أروع القصص عن رفقه وشفقته، عندما تعودين إلى منزلك ثانية!

فقلت:

- الآن لم تقل إلا صدقًا!.. أتمم كلامك، واشرح خلق ولدك، وأظهرنا على ما فيه من شبه بخلقك.. وأرجو عندئذ أن تفكر مس كاثي مرتين قبل أن تتزوج من الوحش المميت!

فأجابني:

- إننى لا أبالي كثيرًا بالحديث من مزاياه الحبيبة الآن، لأنها إما أن تقبله، أو تبقى سجينة هنا، وأنت معها، حتى يموت سيدك.. وفى وسعي أن أحجزكما هنا، في خفاء، لا يعلم أحد عنكما شيئًا.. فإذا شككت في ذلك فما عليك إلا أن تشجعيها على سحب كلمتها، وعندئذ تتاح لك الفرصة كى تحكمي بنفسك..

فقالت كاثرين:

- إنني لن أسحب كلمتي.. سوف أتزوج منه هذه الساعة، إذا سمحت لي بالعودة إلى (ثرشكروس جرانج) بعد ذلك.. إنك رجل قاس، يا مستر هيثكليف ولكنك لست شيطانًا رجيمًا!.. ولن ترضى بتدمير سعادتي إلى غير رجعة، لمجرد شفاء حقدك، وبدافع من الشر فحسب!.. ولو أن أبي ظنّ أنني تركته عن عمد، ثم مات قبل عودتى، فهل أطيق الحياة بعد ذلك؟.. لقد كففت عن البكاء، ولكنى سوف أجثو هنا، عند قدميك، ولن أقوم ثانية، أو أحول عيني عن وجهك، حتى تنظر إليّ.. كلا.. لا تدر وجهك عنى.. انظر إليّ!.. إنك لن ترى شيئًا يثيرك أو يغضبك.. فأنا لا أبغضك.. ولست غاضبة لأنك لطمتني.. ألم تحب أحدًا قط في حياتك كلها يا عماه؟.. أبدًا؟.. آه!.. يجب أن تنظر إلى مرة واحدة.. إننى تعسة شقية، إلى حد لا يسعك معه إلا أن تأسف لحالي وترثى لي!

فصاح هيثكليف وهو يدفعها عنه في وحشية رهيبة:

- أبعدى أصابعك الشبيهة بأصابع السحالي، وامشى بعيدًا وإلا ركلتك بقدمي!.. إننى أفضل أن تحتضنني أفعى عن أن تقربيني!.. وكيف خُيل إليك، بحق الشيطان أنك قادرة على خداعى وتملقى؟.. إنني أمقتك.. أمقتك!



صاح هيثكليف وهو يدفعها عنه في وحشية رهيبة:

– أبعدي أصابعك الشبيهة بأصابع السحالي..

وكان يهز كتفيه في استخفاف، وينفض جسمه كأنما أصابته قشعريرة الاشمئزاز حقًّا، ويرتد بمقعده إلى الوراء نافرًا.. ونهضت من مجلسي، وفتحت فمي لأبدأ سيلًا جديدًا من السباب، عندما أخرسني قبل أن أفوه بكلمة، منذرًا بأنني سوف أُسجن في إحدى الغرف وحدي إذا نطقت بحرف واحد!

وكان الظلام قد بدأ يتكاثف عندما سمعنا أصواتًا تتكلم عند بوابة الحديقة، فأسرع مضيفنا إلى الخارج لا يلوى على شيء.. كان يحتفظ بقدرته على التفكير، أما نحن فقد شرد فكرنا.. وطال الحديث دقيقتين او ثلاثًا، عاد على أثرها بمفرده..

وكنت أقول لكاثرين:

- لقد ظننته ابن خالك هيرتون.. وليته يعود الآن، فمن يدري لعله ينحاز إلى جانبنا..

فقال هيثكليف، وقد سمع ما قلته:

- إنهم ثلاثة من الخدم حضروا من الجرانج للبحث عنكما.. وكان ينبغي أن تفتحى النافذة وتناديهم!.. ولكني أقسم أن هذه الطفلة قد سرَّها أنك لم تفعلى.. إنها سعيدة لإرغامها على البقاء، ولا شك لدى في ذلك..

فلما علمنا بالفرصة التي أضعناها، أطلقنا العنان لأحزاننا، ووجدنا، كلانا، في البكاء متنفسًا لآلامنا الحبيسة.. وظلّ صامتًا بلا حراك لا يعترض على نحيبنا حتى بلغت الساعة التاسعة.. وعندئذ أمرنا أن نصعد إلى حجرة زيللا بالطابق العلوي، عن طريق المطبخ.. فهمست لرفيقتي أن تطيعه، فربما استطعنا أن نحاول الخروج من نافذتها، أو التسلل إلى إحدى العليات والهرب من كوتها.. ولكن النافذة كانت ضيقة كنوافذ الدور الأرضى، كما أن الباب المؤدي إلى العليات كان بعيدًا عن متناولنا، لأن الحجرة أوصدت علينا من الخارج كما حدث في الحجرة السفلى..

ولم ترقد واحدة منا.. أما كاثرين فقد أخذت موقفها بجوار النافذة، وظلت تحدّق النظر منها وترقب الصباح في لهفة.. وكان جوابها الوحيد على محاولاتي المتعددة باقناعها بأن تستريح قليلًا، تنهدًا عميقًا حسبت صدرها قد انشق منه.. وأما أنا فقد جلست على أحد المقاعد، وجعلت أتأرجح فيه إلى الأمام وإلى الخلف، ورحت أنحى باللوم العنيف على نفسي، لما فرط منى من الإخلال بواجبي مرات عديدة. وبدا لى عندئذ أن كل ما أصاب مخدومي من شقاء ومتاعب، إنما كان مبعثه تقصيري هذا.. وإنى أعلم الآن أن الأمر لم يكن كذلك حقًّا، ولكن ذلك هو ما سيطر على خيالي في تلك الليلة المشئومة حتى لقد خُيل إلىَّ أن هيثكليف نفسه كان أقل جريرة منى!

وحضر إلينا هيثكليف في الساعة السابعة، فسأل إن كانت لينتون قد استيقظت، فانطلقت تعدو نحو الباب وهي تجيب: (نعم.. نعم!)

وعندئذ فتح الباب، وجذبها إلى الخارج وهو يقول: (تعالى إذن!)

فنهضت لأتبعها، ولكنه أوصد الباب دونى، ولما طلبت إليه أن يطلق سراحى، أجاب:

- صبرًا.. صبرًا.. سوف أرسل لك طعام الإفطار بعد لحظة!

ولكنى رحت أطرق الباب في عنف، وأحرك المزلاج الداخلي في صخب.. وسألته كاثرين عن سبب استمرار حبسى، فأجاب بأن على أن أحتمل ذلك ساعة أخرى.. ثم تركاني وانصرفا معًا..

وصبرت على السجن ساعتين أو ثلاثًا، وأخيرًا سمعت وقع خطوات، لم تكن خطوات هيثكليف، ثم صوتًا يقول:

- لقد أحضرت لك شيئًا من الطعام.. افتحي الباب..

فأطعت في لهفة، وعندئذ رأيت هيرتون محملًا بطعام يكفى لغذائي يومًا كاملًا. ودفع بالصفحة بين يدي قائلًا: (خذى!..).

فبدأت أقول:

- ابق معى دقيقة واحدة..

ولكنه صاح في وجهي: (كلا!).

ثم تراجع إلى الوراء، وهو يُوصد الباب من الخارج، غير مكترث للتوسلات التي تدفقت من فمى كى أبقيه معى قليلًا..

وظللت حبيسة اليوم بأسره، والليلة التالية، ثم ليلة أخرى، فثالثة.. خمس ليال وأربعة أيام قضيتها في سجني، لا أرى أحدًا غير هيرتون، مرة واحدة في كل صباح.. وكان مثال السجان الأمين، متجهمًا صارم الأسارير، يصيبه الخرس والصمم أمام أية محاولة منى لإثارة الشعور بالعدالة أو الرحمة في نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون

في صباح اليوم الخامس، أو بالأحرى بعد الظهر، سمعت خطوات مختلفة عن خطى هيرتون تقترب من زنزانتى.. خطى أخف وقعًا وأقصر مدى.. وفي هذه المرة دخل القادم الحجرة ولم يكتف بالوقوف خارجها.. كانت (زيللا) مدبرة المنزل، متدثرة بشملتها القرمزية، ومغطية رأسها بقلنسوة حريرية سوداء، وقد علقت في ذراعها سلة من أغصان الصفصاف..

وما كادت تراني حتى هتفت تقول:

- آه يا إلهي!.. مسز دين!.. أهذه أنت حقًّا؟.. حسنًا!.. إن الناس يتحدثون عنك في (جيمرتون)، وظللت أعتقد أنك غرقت في مستنقع (الجواد الأسود)، والآنسة معك، حتى أخبرني السيد بأنهم عثروا عليك وأنه أسكنك هنا!.. ولكن.. لابد أن تكوني قد ارتقيت جزيرة وسط المستنقع، فلم تغرقي!.. وكم من الزمن لبثت في هـذه الورطة؟.. هل السيد هو الذي أنقذك يا مسز دين؟.. ولكن عجبًا!.. أراك لم يصبك الهزال والنحول!.. ويبدو أنك لم تقاسى كثيرًا، أليس كذلك؟

فأجبتها:

- إن سيدك وغد عريق!.. ولكنه سوف يدفع الثمن غاليًا.. إنه لم يكن في حاجة إلى اختلاق هذه الرواية، فلن يلبث الناس حتى يعرفوا كذبها..

ـ ماذا تعنين؟. إنها ليست روايته، بل هي حديث الناس في القرية.. فهم جميعًا يقولون إنك فُقدت في المستنقع.. وعندما عدت من أجازتي، ذهبت إلى إيرنشو، وقلت له: (لقد وقعت أشياء عجيبة منذ ذهابى يا مستر هيرتون!.. وإنه لمصير محزن لتلك الفتاة اللطيفة، ومسز دين الطيبة!).. فراح يحملق في وجهي حتى ظننتـه لم يسمع شيئًا عن الأمر، وهكذا أخبرته بما تقول الشائعات.. وكان السيد يصغى إلىّ، فما لبث أن ابتسم وقال: (إن كانتا قد سقطتا في المستنقع يا زيللا، فإنهما خارجه الآن!.. إن نللي دين تقيم في حجرتك هذه اللحظة، وفي وسعك أن تطلبي إليهـا الرحيل، عندما تصعدين إليها.. هاك المفتاح!.. كانت رأسها مليئة بالوحل والمـاء الآسن، وأرادت أن تجرى عائدة إلى منزلهـا، وقد أصابها الخبال، ولكني أرغمتها على البقاء هنـا حتى تستعيد حواسها الضائعة!.. والآن يمكنك أن تطلبي إليها الذهاب إلى (الجرانج) على الفور، إذا كانت قادرة على السير، وأن تبلغهم رسالة منى، هي أن السيدة الشابة سوف تلحق بها في الوقت المناسب لحضور جنازة السيد!)

فهتفت في أنفاس لاهثة:

- آه!.. زيللا!.. زيللا!.. إن مستر إدجار لم يمت اليس كذلك؟..

- كلا.. كلا.. اجلسى واهدئي أيتها السيدة الطيبة!.. إنك ما زلت مريضة إذن؟.. كلا.. إنه لم يمت وفى رأى الدكتور كينيث أنه قد يعيش يومًا آخر.. لقد قابلته في الطريق وسألته عنه..

ولكنى، بدلًا من أن أجلس، اختطفت ثيابي الخارجية، وهبطت السلم على عجل، إذ وجدت الطريق خاليًا.. فلما ولجت حجرة الجلوس، رحت أتطلع حولي باحثة عن شخص أسأله عن كاثرين.. وكان المكان مليئًا بأشعة الشمس الدافئة، والباب مفتوحًا على مصراعيه.. ولكني لم أر أحدًا هناك، أو هكذا خُيل إلىّ في بادىء الأمر، لأنني عندما استدرت مترددة بين الرحيل من فورى، أو العودة للبحث عن سيدتي، استرعى انتباهى سعال خفيف ينبعث من ناحية المدفأة.. كان لينتون مضطجعًا فوق الأريكة، وحده في الحجرة كلها، يمتص عصا من

(السكر نبات)، ويتبع حركاتي بعينين خاملتين.. فسألته في صرامة وشدة: (أين مس كاثرين؟).. وقد خُيل إليَّ أننى إذا أفزعته، وهو بمفرده، فسوف يبوح لي بمعلوماته على الفور.. ولكنه ظل يمتص حلواه في براءة، دون أن يجيب، قلت:

- هل رحلت؟

عندئذ أجابني قائلًا:

- كلا.. إنها في الطابق العلوي، ولن ترحل من هنا.. إننا لن نسمح لها بذلك!

فصحت به:

- لن تسمح لها أيها الأبله الصغير!.. أرشدني إلى حجرتها في الحال وإلا جعلتك تصرخ صراخًا حادًا!

- بل إن أبي هو الذي سيجعلك تصرخين إذا ذهبت إلى هناك.. وهو يقول إننى لا يجب أن أكون لينًا مع كاثرين، فهي زوجتي، ومن العار أن ترغب في هجرى!.. ويقول أيضًا أنها تمقتنى، وتتمنى أن أموت، حتى ترث أموالي ولكنها لن تنالها!.. ولن تعود إلى منزلها!.. لن تعود أبدًا.. وفي وسعها أن تبكي وأن تمرض ما شاء لها البكاء والمرض!

وعاد إلى شغلته السابقة في امتصاص حلواه، وقد أغلق جفونه كأنما ينوى أن يستسلم للنعاس.. وعندئذ عمدت إلى الملاينة، فقلت:

- هل نسيت يا سيد لينتون رفق كاثرين بك في الشتاء الماضي، عندما كنت تؤكد لها أنك تحبها، وعندما كانت تُحضر لك الكتب، وتشدو لك بالأغاني، وتأتي - أكثر من مرة - وسط العواصف والثلوج لتراك؟.. لقد كانت تبكي في مرارة، عندما يفوتها الحضور يومًا واحدًا، لأن ذلك سوف يضايقك.. وقد شعرت، في ذلك الوقت، أنها كانت مثال الطيبة والحنو معك، ومع ذلك فأنت تصدق الآن أكاذيب والدك التي يُلقى بها إليك، برغم علمك بأنه يكرهكما معًا، وتنحاز إلى جانبه ضدها.. يا له من عرفان بالجميل، يا سيد لينتون!.. أليس كذلك؟

فتدلى ركن فمه، وأخرج الحلوى من بين شفتيه، بينما تابعت القول:

- هل تراها حضرت إلى (مرتفعات ويذرنج) لأنها تمقتك؟.. وهلا فكرت في الأمر بنفسك؟.. أما عن أموالك، فإنها لا تعلم أنك سوف تقتنى شيئًا.. ثم تقول إنها مريضة، ومع ذلك تتركها وحدها في الطابق العلوي من منزل غريب عليها.. أنت الذي طالما شعرت بقسوة الإهمال!.. كان في وسعك أن ترثى لآلامك ومتاعبك، وكانت هي ترثى لهما كذلك.. أما الآن فإنك لا ترثى لآلامها ولا تريد أن تأخذك الشفقة عليها!.. إننى أذرف الدموع يا سيد هيثكليف كما ترى - أنا العجوز المتهالكة التي لا تزيد عن مجرد خادم - بينما تدخر أنت كل عبرة من دموعك لتذرفها على نفسك، بعد أن تظاهرت بكل هذا الحب نحوها، وكان الأولى بك أن تعبدها عبادة، ثم ترقد هنا هادئًا ناعم البال!.. آه!.. يا لك من غلام أناني حجري الفؤاد!

فأجاب ساخطًا:

- إننى لا أستطيع البقاء معها، وإلا ما بقيت وحدي.. ولكنها لا تفتأ تبكي حتى لا أستطيع الاحتمال.. وهي لا تكف ولا تستريح من البكاء، مهما هددتها باستدعاء والدي.. بل لقد دعوته مرة، فأنذرها بأنه سوف يكتم أنفاسها، إذا لم تخلد إلى السكون.. ولكنها بدأت من جديد، بمجرد انصرافه من الغرفة، تئن وتنتحب الليل بطوله، برغم أننى ضقت بها ذرعًا فصحت بها أن تسكت حتى أستطيع النوم!

ورأيت ذلك المخلوق التعس عاجزًا عن الإشفاق على ابنة خاله، والرثاء لعذابها الفكري، فسألته:

- هل مستر هيثكليف خارج الدار؟

- إنه في الفناء، يتحدث إلى الدكتور كينيث.. وهو يقول إن خالى يعانى سكرات الموت حقيقة هذه المرة!.. وذلك يسرني كثيرًا لأنني سوف أصبح سيد (الجرانج) بعده!.. لقد كانت كاثرين تتشدق دائمًا بالحديث عنه كأنه (منزلها).. كلا.. إنه ليس ملكها.. إنه ملكي أنا.. ويقول أبي أن كل شيء تقتنيه قد أصبح لى.. كتبها اللطيفة جميعًا صارت كتبى.. لقد عرضت عليّ أن تهبني كتبها، وطيورها الجميلة، ومهرها (مينى)، إذا أحضرت لها مفتاح الحجرة وتركتها تخرج من الدار.. ولكني أخبرتها بأنه لم يعد لها ما تهبه أو تمنحه، لأن كل ما لها أصبح ملكي!.. وعندئذ انخرطت في البكاء، ثم أمسكت بصورة صغيرة تعلقها في عنقها، وقالت إن هذه لن تكون لي قط.. ورأيت صورتين، في إطار ذهبي أنيق، إحداهما لأمها، والثانية لخالى، عندما كانا في مقتبل العمر.. لقد حدث ذلك بالأمس فقط، فقلت لها أنهما أيضًا قد أصبحتا ملكى، وحاولت أن أنتزعهما منها.. ولكن الخبيثة لم تمكنى من أخذهما، ودفعتنى دفعة آذتنى.. فصحت مستنجدًا، وذلك يفزعها كثيرًا، فلما سمعت وقع أقدام أبي، حطمت مفصلات الصورة وقسمتها اثنين، ثم أعطتني صورة أمها وحاولت إخفاء الصورة الأخرى.. ولكن أبي سأل عن جلية الخبر، فشرحته له.. وعندئذ أخذ منى الصورة التي كانت معى وأمرها بأن تسلم الأخرى لي.. ولكنها أبت، فضربها - هو - حتى ألقي بها على الأرض، وانتزع الصورة من السلسلة وسحقها تحت قدمه..

الكلام:

- وهل سرك أن تراها تضرب أمامك؟

فقلت له، وأنا أكبت مشاعرى، حتى أستدرجه إلى الكلام:

- لقد أغمضت جفوني!.. وإني أغمض جفوني دائمًا كلما رأيت أبي يضرب كلبًا أو حصانًا، لأنه يفعل ذلك في شدة وعنف!.. ومع ذلك فإني سررت في بادىء الأمر، ورأيتها تستحق العقاب لأنها دفعتنى بيدها.. ولكنها، بعد أن انصرف أبى، أخذتني إلى النافذة، وأرتني قطعًا طويلًا في شدقها من الداخل، تجاه أسنانها، كما أرتنى فمها المليء بالدماء.. وأخذت تجمع أشتات الصورة الممزقة، ثم مضت فجلست ووجهها إلى الحائط، ولم تخاطبني بكلمة واحدة منذ تلك اللحظة!.. وخُيل إلىّ، في بعض الأحيان، أنها لا تستطيع النطق من آلام فمها.. وما كنت أحب أن أفكر في ذلك، ولكنها مخلوقة شريرة لأنها لا تكف عن البكاء باستمرار.. وهي تبدو من الشحوب والضراوة بحيث أصبحت أخافها وأخشاها!

- وهل في وسعك أن تحصل على مفتاح الحجرة كلما أردت؟

- نعم.. عندما أصعد إلى الطابق العلوي.. ولكني لا أستطيع الصعود الآن..

- في أية حجرة هي؟

فصاح في وجهي:

- آه!.. لن أخبرك بمكانها قط.. إنه سرنا الذي لن يعرفه أحد، حتى هيرتون وزيللا لن يعرفاه!.. والآن اذهبى عنى، فقد أتعبتني.. اغربي عن وجهي!

ثم أدار وجهه نحو مسند الأريكة، وأغمض عينيه من جديد..

وفضلت أن أرحل بغير إمهال، دون أن أنشد لقاء مستر هيثكليف، فأحضر نجدة من (الجرانج) لإنقاذ سيدتي الشابة.. فلما وصلت إلى هناك كانت دهشة زملائي الخدم لرؤيتي بالغة، وكذلك فرحتهم بعودتي.. وعندما سمعوا أن سيدتهم الصغيرة بخير، كاد اثنان أو ثلاثة منهم أن ينطلقوا مسرعين ليصيحوا بالنبأ السعيد أمام حجرة مستر إدجار، ولكني سبقتهم لحمل الخبر إليه بنفسي.. وشدّ ما ارتعت لما وجدته من تبدل حالته، وما أصابه من تغيير، حتى في هذه الأيام القلائل!.. كان يرقد في انتظار الموت، أشبه بصورة من الحزن والاستسلام.. وكم كان يبدو في ربيع الشباب عندئذ.. فعلى الرغم من أنه كان في التاسعة والثلاثين من عمره، إلا أن المرء كان يخاله أصغر من ذلك بعشر سنين على الأقل.. وكان يفكر في كاثرين، لأنه غمغم هاتفًا باسمها، فلمست يده في رفق، وهمست قائلة:

- كاثرين قادمة إليك أيها السيد العزيز.. إنها على قيد الحياة، وفي حالة طيبة، وأرجو أن تكون هنا الليلة..

وسرت الرعدة في بدني عندما شهدت أول آثار هذا النبأ عليه.. فقد قام في فراشه نصف قيام، وراح يتلفت حواليه في لهفة ولوعة، ثم هوى في فراشه مغشيًا عليه.. وما أن أفاق من غشيته حتى رويت له زيارتنا الإجبارية (للمرتفعات)، وسجننا هناك.. قلت له إن هيثكليف أرغمني على الدخول عنوة، وهو ما لم يكن صحيحًا كل الصحة.. ولم أتكلم إلا القليل ضد لينتون، كذلك لم أصف له مسلك أبيه الوحشى.. فقد كانت نيتي ألا أضيف المزيد من المرارة - لو استطعت أن أحول دون ذلك - إلى كأسه الطافحة..

واستشف سيدى أن هدف عدوه - أو أحد أهدافه - كان يرمي إلى ضمان أموالها الخاصة لابنه، فضلًا عن الضيعة، أو بالأحرى ضمانها لنفسه!.. أما لماذا تعجل الأمر، ولم يصبر حتى وفاته، فقد كان لغزًا استعصى على سيدي حله.. لأنه كان يجهل أنه وابن أخته يوشكان أن يفارقا الدنيا معًا، كأنهما على ميعاد!.. ومهما يكن من أمر فقد رأي من الأفضل أن يُغير وصيته، وبدلًا من أن يترك ثروة كاثرين الخاصة تحت تصرفها المطلق، فقد عزم على أن يضعها بين أيدى وكلاء يشرفون على استغلالها، ويعطون كاثرين ريعها ما دامت على قيد الحياة، ثم لأبنائها من بعدها إذا رزقت بأولاد.. وبهذه الطريقة لا تؤول إلى مستر هيثكليف إذا مات ابنه لينتون..

وما أن تلقيت أوامره، حتى أرسلت رجلًا لإحضار المحامي. كما أوفدت أربعة غيره، مزودين بالأسلحة الكافية، ليطلبوا سيدتي الصغيرة من سجانها.. وطالت غيبة الفريقين إلى وقت متأخر، وكان الخادم الأول هو السابق في العودة، فقال إن مستر جرين المحامي لم يكن بمنزله عندما وصل إليه، فاضطر إلى البقاء ساعتين في انتظار عودته.. وأن مستر جرين أخبره بأن لديه مهمة صغيرة في القرية يتعين عليه أداؤها ولكنه سوف يكون في (ثرشكروس جرانج) قبل الصباح.. كذلك عاد الرجال الأربعة وحدهم، قائلين إن كاثرين مريضة، بل شديدة المرض إلى حد لا يسمح لها بالخروج، وأن مستر هيثكليف لم يسمح لهم برؤيتها.. وقد أهلت اللوم والتأنيب على رؤوس أولئك الحمقى لتصديقهم هذه الرواية الكاذبة التي لم أكن أستطيع نقلها إلى السيد..

وصممت على أن آخذ فرقة كاملة إلى (المرتفعات) عند الفجر، فأثير عاصفة صاخبة، ما لم تُسلم لنا الأسيرة في هدوء.. فقد نذرت لله أن يراها والدها قبل موته، ثم نذرت مرة ثانية - لو أدى الأمر - أن أقتل ذلك الشيطان على عتبة داره وهو يحاول منعها!

ومن حسن الحظ أنني كُفيت مؤونة الرحلة والمتاعب!.. فقد نزلت إلى الطابق الأرضي في الساعة الثالثة لأُحضر إبريقًا من الماء، وكنت أحمله في يدي وأجتاز الردهة عندما سمعت على الباب الأمامي طرقة حادة روعتنى وجعلتني أقفز مجفلة.. ولكني قلت أطمئن نفسي: (آه!.. إنه جرين.. لا أحد يأتي الآن سوى جرين).. ثم مضيت في طريقي عازمة على أن

أُرسل شخصًا آخر ليفتح الباب.. ولكن الطرق تكرر في إلحاح، دون أن يكون حادًّا أو عاليًّا.. فوضعت الإبريق على حافة سياج الدرج، وأسرعت أفتح الباب بنفسي.. وكان قمر الخريف مشرقًا يسطع بضيائه في الخارج.. ولم أجد المحامي أمامي.. بل كانت سيدتي الصغيرة المحبوبة هي التي اندفعت تحيط عنقى بذراعيها وهي تنتحب هاتفة:

- إيلين.. إيلين.. أما يزال أبي على قيد الحياة؟

- نعم.. نعم يا ملاكي، إنه حي يرزق.. شكرًا لله إذ أعادك إلينا سليمة ثانية..

وكانت تريد أن تهرع إلى الطابق العلوي، حيث حجرة مستر لينتون، وهي على حالها من الأنفاس المبهورة.. ولكنى أرغمتها على الجلوس وسقيتها جرعة من الماء، وغسلت وجهها الممتقع، وتغاليت في تجفيفه بمرولتى حتى بعثت فيه طيفًا من التورد.. وقلت لها بعد ذلك أنني يجب أن أذهب إليه أولًا فأخبره بوصولها.. وتوسلت إليها أن تقول له أنها سوف تكون سعيدة مع هيثكليف الصغير.. فحملقت في وجهي مشدوهة، ولكنها سرعان ما أدركت لماذا نصحتها بالكذب، وأكدت لي أنها لن تشكو من شيء..

ولم يكن في طاقتي أن أحتمل مشهد اللقاء بينهما، فوقفت خارج باب الحجرة زهاء ربع ساعة، ثم غالبت ضعفى وتسللت قريبًا من الفراش.. ومع ذلك رأيت كل شيء هادئًا يحوطه الجلال.. كان يأس كاثرين صامتًا كفرحة أبيها.. كانت تسنده، وفي أساريرها مسحة من الهدوء الظاهري.. وكان يثبت أنظاره فوق محياها، وقد اتسعت عيناه سرورًا ونشوة..

وقد لفظ أنفاسه الأخيرة، يا مستر لوكوود، في سلام ودعة.. قبَّل وجنتها، ثم غمغم يقول:

- إننى ذاهب إليها.. وسوف تأتين إلينا أنت الأخرى، يا طفلتي المحبوبة!

وعندئذ سكن جسده، فلم يتحرك أو ينطق بعدها، ولكن بقيت في عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة، حتى توقَّف نبضه في خفاء، وفاضت روحه في سكينة وسلام.. فلم يكن أحد ليستطيع أن يتبين اللحظة التي مات فيها على وجه التحديد، إذ انقضى كل شيء دون أن يعاني عذاب النزع الأخير!



ندئذ سكن جسده، فلم يتحرك أو ينطق بعدها، ولكن بقيت
عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة..

وسواءً أكانت كاثرين قد استنفدت كل ما لديها من دموع، أم كان حزنها من العمق بحيث حال دون انسكابها، فقد جلست متحجرة العينين حتى مطلع الشمس.. وظلت جالسة حتى الظهر، وكان بودها لو تبقى مستغرقة في أحزانها بجوار فراش الموت، لولا أن ألححت عليها في أن تقوم لتنال قسطًا من الراحة.. وحسنًا فعلت، إذ أفلحت في إخراجها من الغرفة، فما كاد يحين موعد الغداء حتى ظهر المحامي، بعد أن ذهب إلى (مرتفعات ويذرنج) ليتلقى التعليمات فيما يكون عليه مسلكه.. لقد باع الشقى نفسه إلى مستر هيثكليف، وكان ذلك سبب توانيه عن تلبية دعوة سيدي له.. ومن حسن الحظ أن شيئًا من الأمور الدنيوية لم يطرأ على فكر السيد، فيزعجه، بعد سعادته بمقدم ابنته..

وأخذ مستر جرين على عاتقه أن يأمر وينهى في كل شيء وكل إنسان في المنزل!.. وأنذر الخدم جميعًا، ما عداى، بالفصل من الخدمة.. وكان بوده أن يذهب بسلطته المفوضة إلى حد الإلحاح في عدم دفن إدجار لينتون بجوار زوجته، بل في المعبد بين أسرته.. ولكن وصية سيدي كانت قائمة لتحول دون ذلك، فضلًا عن احتجاجي الصاخب على أي إخلال بما تضمنته.. أما كاثرين، مسز لينتون هيثكليف الآن، فقد سُمح لها بالبقاء في (الجرانج) حتى يفارقه جثمان أبيها، الذي أُعدت الترتيبات لتشييع جنازته على عجل..

وعلمت منها أن شدة حزنها ولوعتها قد حفزت لينتون إلى المجازفة بإخلاء سبيلها!.. كانت قد سمعت جدال الرجال الذين بعثت بهم، عند باب المنزل، وأدركت ما يرمي إليه هيثكليف بجوابه لهم، فدفعها ذلك إلى حالة من اليأس الجنوني.. وكان لينتون قد نُقل إلى البهو الصغير في الطابق العلوي على أثر انصرافى، فتملكه الفزع إذ رآها على هذه الحال، حتى حدا به إلى البحث عن المفتاح وإحضاره قبل أن يصعد والده.. وكان من الدهاء بحيث راح يوصد القفل ويفتحه مرة بعد مرة، إلى أن تركه مفتوحًا في النهاية.. فلما حان موعد نومه، توسل إلى أبيه أن يسمح له بالنوم مع هيرتون، فأجيب إلى رغبته لأول مرة.. وتسللت كاثرين قبل انبلاج الصبح، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من الباب الرئيسي خشية أن تثير الكلاب الجاثمة في الردهة ضجة تفضحها، وإنما راحت ترتاد الحجرات الخالية واحدة بعد الأخرى تفحص نوافذها.. فلما بلغت حجرة أمها أخيرًا، استطاعت لحسن الحظ أن تخرج من نافذتها بسهولة، وأن تهبط إلى الأرض مستعينة بشجرة الشربين الملاصقة للنافذة.. وقد لقى شريكها جزاءه لمساعدتها على الفرار، برغم كل ما احتال به من حجج واهية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والعشرون

جلست مع السيدة الصغيرة في المكتبة، مساء يوم تشييع الجنازة، مستغرقتين في التفكير، في حزن وأسى - يصحبهما اليأس عند كاثرين – في الخسارة الفادحة التي ألمت بنا، متخبطتين في تكهناتنا عن المستقبل القاتم العبوس..

وقد اتفق رأينا على أن خير مصير يمكن أن ينتظر كاثرين، هو احتمال السماح لها بمتابعة إقامتها في (الجرانج)، وعلى الأقل أثناء حياة لينتون، على أن يُسمح له بالانضمام إليها هناك، وأن أبقى معهما في وظيفتي كمدبرة للمنزل..

ولكن هذا الوضع كان يبدو أملًا بعيد التصديق، لما فيه من راحة لنا وملاءمة لرغباتنا.. ومع ذلك كنت ما أزال أرجو وأؤمل.. وبدأت أبدى ابتهاجي للاحتفاظ بمنزلى، ووظيفتي، وفوق كل شيء بسيدتي الصغيرة المحبوبة، عندما قدم أحد الخدم - من الذين أُنذروا بالفصل، وإن لم يكن قد غادر المنزل بعد - مندفعًا نحونا، معلنًا أن (الشيطان هيثكليف) يعبر الفناء مقبلًا نحو المنزل، ويسألنا إن كان ينبغي أن يغلق الباب في وجهه!

ولو كنا من الجنون بحيث نأمره باتخاذ هذا الإجراء، لما اتسع لنا الوقت لذلك.. فإن هيثكليف لم يعن بالشكليات كالطرق على الباب، أو إرسال من يستأذن له علينا.. فقد كان سيد الدار، ومن ثم أضفى على نفسه ميزات سيد الدار من شق طريقه فيها قدمًا، ودون أن يلقى بأية كلمة.. وقد هداه صوت الخادم إلى المكتبة، فدخل علينا وطرد الرجل ثم أغلق الباب!

كانت عين الحجرة التي استقبل فيها، ضيفًا، منذ ثمانية عشر عامًا.. وكان القمر نفسه يسترق الخطى من خلال النافذة.. بل إن المنظر الخارجي، وقد أضفى الخريف عليه طابعه، كان أشبه بمثيله في تلك الليلة البعيدة.. ولم نكن قد أوقدنا الشموع بعد، غير أن الحجرة كلها كانت واضحة المعالم.. حتى الصور المعلقة على الجدران.. صورة رأس مسز لينتون الجميل، ورأس زوجها الذي يشع رقة وبهاء.. وتقدَّم هيثكليف نحو المدفأة.. حتى هو لم يغيره الزمن إلا قليلًا.. كان الرجل نفسه، وإن ازداد وجهه شحوبًا وصرامة، وازداد جسمه بدانة نوعًا ما.. ذلك كل ما تغير فيه..

فلما رأته كاثرين، نهضت واقفة واندفعت تهم بالخروج، ولكنه أمسك بذراعها وقال:

- قفي!.. لا فرار لك بعد الآن!.. وإلى أين تريدين الذهاب؟.. لقد أتيت لآخذك إلى منزلك، وأرجو أن تكونى بعد ذلك ابنة مطيعة تقدرين واجباتك، ولا تشجعين ابني على مزيد من العصيان!.. لقد حرت كيف أعاقبه عندما كشفت دوره في خطة فرارك، فهو أرق من نسيج العنكبوت، وقرصة واحدة قد تقضى عليه!.. ولكنك سترين من شكله أنه قد تلقى ما يستحقه.. فقد حملته إلى الطابق الأرضى ذات مساء، وكان ذلك أول أمس، وأجلسته في مقعده، ولم أمسه بيدي بعد ذلك قط!.. ولكني أخرجت هيرتون من الحجرة، وبقينا فيها وحدنا.. وبعد ساعتين ناديت جوزيف ليحمله إلى حجرة ثانية.. ومنذ ذلك الحين أصبح حضورى أشد إرهابًا له من الأشباح المخوفة!.. وأحسبه يراني كثيرًا، وإن لم أكن قريبًا منه، فقد أخبرني هيرتون أنه يستيقظ أثناء الليل، ويظل يصرخ ساعة بأسرها، ويناديك لتحميه منى!.. وسواء أكنت تحبين زوجك الغالي، أم لا تحبينه، فلابد لك من الحضور إلى البيت، لأنه الآن من شأنك، وإني أتنازل لك عن كل ما يهمنى فيه!

فتدخلت لأقول له في ضراعة:

- لماذا لا تدع كاثرين تستمر في الإقامة هنا وترسل السيد لينتون ليعيش معها؟.. إنك لن

تشعر بفقدهما ما دمت تكره كليهما.. إنهما لن يكونا إلا تنغيصًا يوميًا لقلبك الذي لا يشبه قلوب البشر في شيء..

فأجاب:

- إنني أبحث عن مستأجر (للجرانج).. ثم أني أريد أولادى حولى لأطمئن عليهم.. وفضلًا عن ذلك فإن هذه الفتاة مدينة لي بخدمتها لقاء طعامها!.. ولن أدعها تعيش في رفاهية وكسل بعد موت لينتون!.. هيا أسرعي واستعدى للذهاب معى الآن، ولا تلجئيني إلى إرغامك على ذلك!

فقالت كاثرين:

- سوف أذهب، فإن لينتون هو كل ما ينبغي أن أحبه في هذا العالم.. ومع أنك بذلت كل ما في وسعك لتنفره مني، وتنفرني منه، فإنك لا تستطيع الآن أن تجعل أحدًا منا يمقت الآخر.. وأنا أتحداك أن تسيء إليه عندما أكون معه، وأتحداك أن تستطيع إخافتي!

فأجاب هيثكليف:

- يا لك من بطلة متباهية!.. ولكني لا أحبك إلى الحد الذي يجعلني أسيء إليه بسببك.. إنك أنت التي ستجنين ثمرة العذاب كله.. ولست أنا الذي سأجعله بغيضًا إليك، وإنما هو شعوره الطيب وروحه الحلوة!.. إنه يشعر بمرارة الصفراء لفرارك، وما تبع ذلك من عواقب.. ولا تنتظرى منه الثناء على وفائك النبيل، فقد سمعته يرسم صورة بهيجة لما يود أن يفعله بك، لو أوتي مثل ما لي من قوة وبطش.. وها أنت ترين أن النية موجودة لديه، وأن ضعفه بالذات هو الذي سوف يجعله يشحذ ذهنه لاستنباط بديل عن القوة والعنف..

فقالت كاثرين:

- إننى أعرف سوء طويته، فهو ابنك!.. ولكن يسرني أننى أطيب منه قلبًا، حتى أصفح عن سوء نيته!.. وأعرف أيضًا أنه يحبني، ولذلك فإنني أحبه.. أما أنت يا مستر هيثكليف فلا تجد إنسانًا يحبك.. ومهما سببت لنا من شقاء، فإننا نجد العزاء والسلوى، ونشعر بحلاوة الانتقام كلما فكرنا في أن قسوتك تنبعث من شقائك الذي يفوق شقاءنا.. إنك شقي تعس!.. ألست كذلك حقًّا؟.. إنك وحيد كالشيطان، حقود مثله!.. لن تجد إنسانًا يحبك، أو يبكي يوم مماتك.. وما كنت لأتمنى أن أكون في مكانك..

كانت كاثرين تتكلم في شماتة مخيفة.. كانت تبدو كأنما قررت أن تتقمص روح الأسرة التي ستعيش بينها، وتلتمس السرور من أحزان أعدائها..

فقال حموها:

- ستندمين حالًا على أنك على قيد الوجود، إذا لبثت واقفة هنا دقيقة أخرى.. اذهبي أيتها الشريرة، وأحضرى متاعك!

فانسحبت في ازدراء وتشامخ.. وبدأت أرجوه أثناء غيبتها أن يمنحني مكان زيللا في (المرتفعات)، على أن أتنازل لها عن مركزي هنا.. ولكنه لم يقبل في ذلك جدالًا أو نقاشًا، بل أمرني بالسكوت.. وعندئذ، وللمرة الأولى، أتاح لنفسه أن يُلقى لمحة على أرجاء الحجرة، ونظرة إلى الصور.. وبعد أن تأمل صورة مسز لينتون قليلًا، انبعث يقول:

ـ سوف يكون لي هذا المنزل، لا لأنني في حاجة إليه، وإنما..

ثم تحوَّل بغتة إلى المدفأة، وعلى وجهه ما أسميه ابتسامة لأنني لا أجد كلمة أفضل أصفه

بها، واستطرد يقول:

- سوف أحدثك عما فعلته بالأمس.. لقد جعلت اللحاد الذي كان يحفر قبر لينتون يزيل التراب عن غطاء تابوتها، ثم فتحته!.. وقد خُيل إليَّ لحظة أنني أود البقاء هناك أبدًا! عندما رأيت وجهها - وهو ما يزال إلى الآن نفس الوجه! - حتى لقى الرجل عناء في زحزحتى، بعد أن قال إن هبوب الهواء عليه سوف يفسده.. وعندئذ نزعت المسامير من أحد جانبي التابوت، ثم أعدت الغطاء فوقه.. ولم يكن ذلك الجانب ناحية لينتون، لعنة الله عليه!.. ليتهم لحموا تابوته بالرصاص!.. ثم رشوت اللحاد أن يُزيح تابوتها جانبًا، عندما أُوضع هناك بدوري، وينزلني بينهما!.. وسوف أعمل على تنفيذ ذلك، حتى إذا ما أتى شبح لينتون إلينا لم يعرف أيهما تابوتى وأيهما تابوتها!

فهتفت قائلة:

- إنك ممعن في الشر يا مستر هيثكليف.. ألم تخجل من إزعاج الموتى؟

- إننى لم أزعج أحدًا يا نللي!.. وإنما جلبت على نفسي شيئًا من الراحة!.. وسوف أزداد راحة وهدوءًا الآن، وستجدين في هذا ضمانًا أقوى لبقائي تحت أطباق الثرى عندما أذهب إلى هناك.. أتزعمين أنني أزعجتها؟.. كلا.. إنما هي التي كانت تزعجنى وتقض مضجعي، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة خلال ثمانية عشر عامًا متواصلة بلا انقطاع، وبغير رحمة أو شفقة، حتى الأمس!.. بالأمس فقط هدأت واسترحت.. واشتهيت أن أنام نومتي الأخيرة بجوار هذه النائمة، وقد كف قلبي عن الخفقان، وتجمد خدي ملاصقًا لخدها!

- ولو كان بدنها قد تحلّل إلى تراب، أو ما هو أسوأ من التراب، فما الذي كنت تشتهيه عندئذ؟

- أن أتحلل معها، فأكون بذلك أسعد حالًا.. هل تظنينني أخشى أي تبدّل من هذا النوع؟.. لقد توقعت مثل هذا التحوّل عندما رفعت غطاء التابوت.. ولكنى ازددت سرورًا بأن التحلل لن يبدأ حتى أشاطرها مصيرها!.. فضلًا عن أننى لو لم أتلق أمس ذلك الاحساس المحدد بأساريرها الجامدة، لما فارقني أبدًا ذلك الشعور الغريب.. لقد بدا على نحو عجيب.. فأنت تعلمين أنني كدت أجن بعد موتها، وكنت أبتهل إليها بلا انقطاع، من الفجر إلى الفجر، بأن تعيد لي روحها!.. كنت قوى الإيمان بالأشباح، شديد الاعتقاد بأنها تستطيع أن توجد بيننا، بل وتفعل ذلك فعلًا.. وفي اليوم الذي دفنت فيه كاثرين، انهمر الثلج على غير العادة.. وذهبت في المساء إلى فناء الكنيسة، وكانت ليلة باردة كئيبة، كليالي الشتاء.. كان المكان مقفرًا موحشًا، فلم أخش مجيء زوجها الأبله لأنه ما كان ليترك جحره ليجول خارجه في هذه الساعة المتأخرة!.. ولم أخش قدوم غيره، فما أحد لديه ما يدفعه إلى الحضور إلى هناك.. فلما ألفيت نفسي وحدي، وكنت أعلم أن ستة أقدام من التراب الرخو هي الحاجز الوحيد بيني وبينها، قلت لنفسي:

(سوف آخذها بين ذراعي ثانية!.. ولو وجدت جسدها باردًا فسأقول إن هذه الريح الشمالية هي التي تبعث القشعريرة في أوصالى!.. وإذا وجدتها ساكنة بلا حراك، فإنه النوم العميق، ولا شيء غيره!..)

(ثم أحضرت معولًا من مخزن الكنيسة، وأخذت أحفر التراب بكل قواي وارتطم المعول بغطاء الصندوق، فألقيت بالمعول بعيدًا، وأكملت الحفر بأصابعي!.. وبدأ الخشب يطقطق حول المسامير بينما كنت أحاول نزعها، وأوشكت أن أبلغ غايتي، عندما خُيل إليَّ بغتة أننى أسمع تنهدًا كالأنين ينبعث من شخص ما ينحنى فوقى، عند حافة القبر!.. فقلت لنفسي: (لو استطعت فقط أن أنزع هذا الغطاء، فليت ذلك الشخص يهيل التراب فوقي فيدفننا معًا!)..

وأقبلت على مهمتي في يأس المستميت، فإذا بأنين آخر ينبعث ملاصقًا لأذني.. وخُيل إلى أننى أحس بالأنفاس الدافئة تهب على وجهي، وتزيح لفحات الهواء القارس.. كنت أعلم أنه ما من مخلوق من لحم ودم يقف بجانبى!.. ولكن أرأيت إذ تشعرين عن يقين باقترابك من جسم مادي في الظلام، دون أن يمكنك تمييزه؟.. هكذا شعرت عن يقين بوجود كاثي هناك، لا في القبر تحتى، وإنما فوق الأرض معى.. وعندئذ تدفق من قلبى شعور فجائى براحة عميقة غمرت أوصالي جميعًا، وتخليت من فوري عن عملي الشنيع، وشعرت بالعزاء يملؤنى، عزاء صامت مريح.. كنت أشعر بوجودها معى، وكان هذا الشعور يلازمني بينما كنت أردم القبر من جديد، ويقود خطواتي في عودتي إلى المنزل.. لك أن تضحكي، إذا شئت، ولكني كنت واثقًا من أنني سوف أراها هناك..

(كنت واثقًا من أنها معى، فلم أملك إلا أن أتحدث إليها.. فلما بلغت (المرتفعات) اندفعت إلى الباب ملهوفًا، فإذا به موصد من الخارج.. وأذكر أن ذلك الوغد هيندلى إيرنشو وزوجتى الحمقاء هما اللذان قصدا منعي من الدخول.. وأذكر كذلك أننى تمهلت ريثما أشبعت هيندلى ضربًا وركلًا حتى تقطعت أنفاسه، ثم أسرعت إلى الطابق العلوي، إلى حجرتى وحجرتها، فأخذت أتطلّع حولي في لهفة وحنق.. كنت أشعر بها إلى جانبي.. حتى لقد كدت أراها.. ومع ذلك لم أستطع أن أراها!.. ولابد أن يكون العرق قد انبثق من مسامى دمًا قانيًا، من لوعة حنيني إليها، ومن حرارة ضراعتى وتوسلاتي بأن تجود على بنظرة أو لمحة إليها.. ولكني لم أنل واحدة!.. أظهرت نفسها - كما كانت كثيرًا وهي على قيد الحياة - شيطانًا رجيمًا معى.. ومنذ ذلك الحين أصبحت لعبة هذا العذاب الذي يفوق احتمال البشر، يشتد حينًا ويلين حينًا آخر.. كنت أعيش في جحيم من توتر أعصابي على هذا النحو، ولولا أنها متينة كالأوتار لتخاذلت منذ زمن بعيد، ولأضحت في مثل رخاوة أعصاب لينتون!.. وعندما كنت أجلس في حجرة الجلوس مع هيرتون، كان يُخيل إلىَّ أنني لو خرجت لالتقيت بها.. وعندما كنت أسير وسط البراري، كنت أحسبنى سألقاها راجعة إلى المنزل!.. كنت كلما غادرت الدار، تعجلت عودتى إليها، ليقينى أنها لابد أن تكون في مكان ما في (المرتفعات)!.. وعندما نمت في حجرتها، وجدتني أغلب على أمري وأخرج منها إلى غير رجعة.. لم يقر لى قرار أو يهنأ لى مضجع هناك.. فما إن أغمض عيني، حتى كنت أحس بها إما خارج النافذة، أو تزيح حواجز خزانة الفراش، أو داخلة إلى الحجرة.. بل كنت أحس بها تُريح رأسها الحبيب على الوسادة بجانب رأسى، مثلما كانت تفعل وهي طفلة.. فكنت أفتح عيني لأراها.. وهكذا رحت أفتحهما وأغمضهما مائة مرة في ليلة واحدة، فكنت لا ألقى إلا الحسرة وخيبة الأمل.. كانت لي عذابًا مقيمًا!.. وكثيرًا ما كان أنيني ينبعث عاليًا حتى لا أشك في أن ذلك الوغد العجوز جوزيف اعتقد أن ضميرى قد انقلب في صدرى عدوًا ضاريًا!.. أما الآن، بعد أن رأيتها، فقد سكن روعي وارتحت قليلًا.. كان وسيلة غريبة لقتلى والقضاء علىّ - لا بوصة بعد بوصة، بل بمثل قلامة الظفر أو حد الشفرة - أن تظل تخادعني وتلوح لي بطيف أمل كالسراب، خلال ثمانية عشر عامًا!)

وسكت مستر هيثكليف، وأخذ يجفف جبينه.. كان شعره ملتصقًا به، وقد بلله العرق.. وكانت عيناه مركزتين على جمرات النار المتقدة في المدفأة.. أما حاجباه فلم يكونا معقودين كعادته، بل كانا مرتفعين نحو صدغيه، مما خفف من جهامة محياه - وإن كانا يضفيان عليه مسحة غريبة من الانشغال والقلق، ومظهرًا أليمًا من التوتر العقلي والاستغراق في موضوع واحد.. كان في الواقع لا يكاد يخاطبني بحديثه، فلزمت الصمت ولم أرد عليه.. وكنت لا أحب أن أسمعه يتكلم..

وبعد لحظة وجيزة، عاد إلى تأمله للصورة، ثم أنزلها وأسندها إلى ظهر الأريكة، ليسهل عليه تأملها في إمعان.. وبينما كان مستغرقًا في هذه المهمة، دخلت كاثرين وأعلنت أنها على استعداد للذهاب لا تنتظر إلا اسراج مهرها..

فقال هيثكليف لى وهو يشير إلى الصورة:

ـ أرسلي هذه لى غدًا..

ثم أردف قائلًا لكاثرين:

- يمكنك أن تستغنى عن المهر، فإنها أمسية جميلة.. ثم إنك لن تحتاجي إلى جياد في (مرتفعات ويذرنج)، لأن أي رحلة تخرجين فيهـا، لن تستخدمي فيها غير قدميك.. هيا بنا!

فغمغمت سيدتي العزيزة الصغيرة:

- وداعًا يا إيلين!

ثم مالت فوقي تقبلنى، فأحسست بشفتيها باردتين كالثلج.. وأردفت قائلة:

- لا تنسى أن تأتى لزيارتى يا إيلين!

فصاح والدها الجديد:

- إياك أن تفعلي شيئًا كهذا يا مسز دين!.. وعندما أريد أن أتحدث إليك فسوف أحضر إلى هنا!.. فلست أحب أن تتجسسي في منزلي!

وأشار إليها أن تتقدمه، فأطاعته بعد أن تلفتت إلى الخلف لتلقى نظرة الوداع على الحجرة، نظرة قطعت نياط قلبى.. ورحت أرقبهما من النافذة وهما يعبران الحديقة، فرأيت هيثكليف يتأبط ذراع كاثرين برغم معارضتها لذلك في البداية، ثم يسوقها في خطى سريعة واسعة نحو الممر المؤدي إلى الطريق، والذي ما لبثت أشجاره أن أخفتهما عن ناظرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

قمت بزيارة (المرتفعات) ولكني لم أر سيدتي منذ رحيلها عن منزلها.. فقد أمسك جوزيف الباب عندما ذهبت إلى هناك لأسأل عنها ولم يسمح لي باجتياز العتبة.. قال إن مسز لينتون معتكفة في حجرتها، وأن السيد ليس في المنزل.. ولولا أن زيللا أخبرتني عن الحال التي يعيشون عليها، لظللت أجهل من منهم قد مات ومما يزال على قيد الحياة.. وتعتقد زيللا أن كاثرين متعجرفة متعالية، وحدست من حديثها أنها لا تحبها.. فقد طلبت إليها سيدتي الصغيرة أن تساعدها في شئونها الخاصة، عند أول عهدها بالدار، ولكن مستر هيثكليف أمر الخادم بأن تعنى بعملها فحسب، وأن تدع زوجة ابنه تنهض بشئونها بنفسها.. وأذعنت زيللا لأمره راضية فرحة، إذ هي امرأة ضيقة الأفق شديدة الأثرة.. ولكن كاثرين أظهرت غضبًا كغضب الأطفال لهذا الاهمال، وقابلته باحتقار زيللا وازدرائها، وسلكتها ضمن أعدائها، كأنما أساءت إليها إساءة لا تغتفر.. وقد كان لي مع زيللا حديث طويل منذ نحو ستة أسابيع، قبل مقدمك، عندما اجتمعنا ذات يوم فوق البراري، وهاك ما أخبرتني به:

(كان أول ما فعلته مسز لينتون عند وصولها إلى المرتفعات أن انطلقت مهرعة إلى الطابق العلوي، دون أن تعنى حتى بإلقاء السلام علىّ أو على جوزيف، ثم حبست نفسها في حجرة لينتون وظلت بها حتى الصباح.. وعندئذ، بينما كان السيد وإيرنشو يتناولان طعام الإفطار، دخلت عليهما حجرة الجلوس وسألت، وهي ترتعد، إن كان من الممكن استدعاء الطبيب، فإن ابن عمتها قد اشتد عليه المرض..

فأجابها هيثكليف:

- إننا نعرف ذلك.. ولكن حياته لا تساوى مليمًا، ولن أنفق عليه مليمًا واحدًا..

فقالت: ولكني لا أدرى ماذا أفعل، وإذا لم ألق مساعدة من أحد فسوف يموت سريعًا.

فصاح بها السيد:

- اخرجي من الحجرة، ولا تدعيني أسمع كلمة أخرى عنه أبدًا.. إن أحدًا هنا لا يبالي بما يصيبه.. فإن كنت مهتمة به فاسهرى عليه وتولى تمريضه، وإن كنت لا يهمك أمره فأوصدى عليه باب حجرته واتركيه وشأنه!

(وعندئذ بدأت ترهقني بأمره، فقلت لها إنني رأيت من العناء ما يكفيني مع هذا المخلوق النكد، وأن لكل منا مهمتها وعملها الآن، ومهمتها هي أن تسهر عليه وتخدمه، فقد أمرنى مستر هيثكليف بأن أترك هذا العمل لها..

أما كيف كانا يعيشان معًا، فهذا ما لا أعرفه.. يُخيل إلىّ أنه جعل حياتها جحيمًا، وكان لا يكف عن العويل والأنين بالليل وبالنهار، وبذلك حرمها الراحة إلا أقل القليل.. وذلك شيء يتبينه المرء من وجهها الشاحب الممتقع، ومن عينيها المثقلتين المكدودتين.. وكانت أحيانًا تأتي إلى المطبخ شاردة اللب، وتبدو كأنما تتلهف على طلب المعونة.. ولكنى لم أكن لأعصى أوامر السيد.. فلست أجرؤ قط على عصيان أوامره يا مسز دين!.. ومع أنني كنت أرى من الخطأ عدم دعوة الدكتور كينيث لفحص المريض، ولكن لم يكن من شأني أن أنصح بذلك أو أتذمر منه، فقد أبيت دائمًا أن أتدخل في هذه الأمور.. وحدث مرة أو مرتين، أن كنت أفتح باب حجرتى ثانية - بعد أن نأوى إلى مخادعنا - فأجدها جالسة تبكي في مرارة فوق قمة الدرج، وعندئذ أسرع بإغلاق باب الحجرة ثانية، خشية أن يدفعني تأثرى إلى التدخل.. كنت وقتئذ أشفق عليها وأرثى لحالها، ولكني ما رغبت في أن أفقد مركزي كما تعلمين..

وأخيرًا، أتت إلى حجرتي ذات ليلة في جرأة، وكادت تفقدني عقلي من الخوف عندما قالت:

- أخبرى مستر هيثكليف بأن ابنه يحتضر.. فأنا واثقة من ذلك هذه المرة.. هيا انهضى واذهبي إليه!

وما أن نطقت بهذه الكلمات حتى اختفت عن أنظارى.. وأقول لك الحق أنني لم أتحرك من فراشي زهاء ربع ساعة قضيته أرهف السمع وأرتعد من الخوف.. ولكني لم أسمع شيئًا.. كان المنزل يخيم عليه صمت عميق.. فقلت لنفسي: (لقد أخطأت، ولابد أنه أفاق من النوبة التي غشيته!.. لذلك لا حاجة بي إلى إزعاجهم).. وغلبني النعاس، ولكن نومى قطعه ثانية رنين الجرس وهو يدوي حادًا رهيبًا – وهو الجرس الوحيد الذي بالمنزل، وقد وُضع في حجرة لينتون خصيصًا له - وسمعت السيد يناديني لأرى ما هنالك، ولأنذرهم بأنه لا يود أن تتكرر هذه الضجة ثانية..

وعندئذ أبلغته رسالة كاثرين، فراح يسب ويلعن، وما لبث أن خرج بعد دقائق قليلة، وفي يده شمعة موقدة، ثم تقدَّم إلى حجرتهما.. فتبعته.. كانت كاثرين تجلس بجوار الفراش، ويداها مطبقتان فوق ركبتيها.. ومضى حموها نحو الفراش، ورفع الشمعة أمام وجه لينتون، وتطلع إليه، ثم تحسّسه.. وبعد ذلك تحول نحوها قائلًا:

- بماذا تحسين الآن يا كاثرين؟

فلم تنبس ببنت شفة، فعاد يقول:

- بماذا تحسين الآن؟

وعندئذ أجابته:

- أنه أصبح بمنجاة منك، وغدوت حرة!.. وكان ينبغى أن أكون راضية، ولكن..

ثم أردفت في مرارة لا تستطيع كتمانها:

- ولكنك تركتني أكافح الموت طويلًا، حتى لم أعد أحس أو أرى سوى الموت.. إننى أحس كأنني أنا الميتة!

والواقع أنها كانت تبدو أشبه بذلك، فأحضرت إليها شيئًا من النبيذ.. وكان هيرتون وجوزيف، اللذان أيقظهما رنين الجرس ووقع أقدامنا، ثم سمعا كلامنا من خارج الحجرة، قد دخلا علينا.. كان جوزيف، فيما أعتقد، مسرورًا للتخلص من الفتى.. أما هيرتون فكان يبدو منزعجًا قليلًا، وإن كان اهتمامه بالحملقة في وجه كاثرين، أكثر من تفكيره في لينتون.. ولكن السيد أمره بالعودة إلى فراشه ثانية، لأننا في غير حاجة إلى معونته.. وبعد ذلك أمر جوزيف بنقل الجثة إلى حجرته، وطلب إليَّ أن أعود إلى غرفتي.. وهكذا تركنا مسز لينتون وحدها..

(وأرسلني في الصباح لأخبرها بأنها يجب أن تنزل كى تتناول افطارها.. ولكنها كانت قد خلعت ثيابها وبدا عليها كأنما تهم بالذهاب إلى الفراش، فقالت لي أنها مريضة لا تستطيع النزول، وهو شيء لم يأخذني العجب منه.. فلما أبلغت ذلك لمستر هيثكليف أجابنى قائلًا:

- حسنًا دعيها كذلك إلى ما بعد تشييع الجنازة، وعليك أن تذهبي إليها بين الحين والآخر لتحملي إليها ما يلزمها.. ولكن أخبريني بمجرد أن تريها تحسنت..)

وقد مكثت كاتى معتكفة في حجرتها أسبوعين، حسبما ذكرت زيللا، التي كانت تزورها مرتين كل يوم، وأرادت أن تتودد إليها، ولكن محاولاتها من مظاهر العطف المتزايد كانت

تُصد على الفور في كبرياء وترفع..

وصعد إليها هيثكليف مرة ليطلعها على وصية لينتون.. وكان قد أوصى بكل ما كان يملكه، وما كانت تملكه هي، من أموال منقولة، إلى أبيه.. فقد أرغم المسكين، أو أغرى، على ذلك خلال الأسبوع الذي غابته في منزلها عند موت أبيها.. أما الأرض والعقار فلم يستطع ادخالهما في الوصية لأنه كان ما يزال قاصرًا لا يمكنه التصرف فيهما.. وعلى كل حال فإن مستر هيثكليف طالب بإثبات إرثه وإرث زوجة ابنه فيهما، وعُين مشرفًا على نصيبها في التركة.. ومهما يكن من أمر فإن كاثرين لم تكن تستطيع التعرض له في حيازته لممتلكاتها، إذ كانت مجردة من الأصدقاء والنقود..

ومضت زيللا تقول لي: (لم يكن أحد يقرب باب حجرتها قط - عدا المرة التي صعد إليها فيها مستر هيثكليف - سواي.. كذلك لم يكن أحد يسأل عنها البتة.. وكانت المناسبة الأولى التي نزلت فيها إلى حجرة الجلوس، بعد ظهر يوم أحد، وكنت قد حملت إليها طعام الغداء، فوجدتها تبكي وتقول إنها لم تعد تحتمل البقاء في البرد.. فأخبرتها بأن السيد يزمع الذهاب إلى (ثرشكروس جرانج)، وأن وجود إيرنشو ووجودي لا يجب أن يحول دون نزولها.. وهكذا ما كادت تسمع حوافر جواد هيثكليف ينطلق به خارجًا، حتى ظهرت في حجرة الجلوس، مجللة بالسواد، وقد أزاحت غدائرها الذهبية وراء أذنيها في بساطة كأنها واحدة من المتدينات المتزمتات.. فلم يكن في وسعها أن ترخى غدائرها كعادتها.. وكنت وجوزيف نذهب عادة إلى الهيكل في أيام الآحاد.. (قالت مسز دين مفسرة أن الكنيسة الآن بغير قس، ولذلك يستخدمون مكان العماد في جيمرتون هيكلًا للصلاة).. وكان جوزيف قد ذهب يومئذ، فرأيت من الأوفق أن أمكث بالمنزل.. فإن الأفضل دائمًا أن يظل الشباب تحت إشراف شخص أكبر سنًا!.. كما أن هيرتون، مع حيائه وخجله، ليس مثالًا للمسلك الرقيق.. وقد أفهمته أن ابنة عمته قد تحضر لتجلس معنا، وأنها اعتادت دائمًا أن ترى يوم الأحد مبجلًا.. ونصحت له بأن يدع العبث ببنادقه وغيرها من مشاغله المنزلية، مدة مكثها معنا.. وما كاد يسمع ذلك النبأ حتى تورد وجهه وراح ينظر إلى ثيابه ويديه، وسرعان ما اختفت آثار الشحم والبارود في دقيقة واحدة.. ففهمت أنه ينوى الجلوس في صحبتها، وحدست من مسلكه أنه يريد أن يكون لطيف المعشر، حسن المظهر.. ضحكت ضحكة رنانة لا أجرؤ على مثلها في وجود السيد، ثم عرضت عليه أن أساعده في إصلاح شانه - إذا أراد - بعد أن رحت أمازحه وأضحك من ارتباكه.. فبدا عليه الغضب وزمجر ساخطًا لاعنًا!

واستطردت زيللا تقول، وقد رأت عدم ارتياحي لمسلكها:

- لعلك يا مسز دين ترين سيدتك الصغيرة من الرقة والثقافة بحيث لا تليق بمستر هيرتون!.. ولعلك على حق!.. ولكني شد ما وددت أن أطامن من كبريائها قليلًا.. ثم ما الذي ستنفعها به ثقافتها ورقتها الآن؟.. إنها فقيرة مثلك ومثلى.. بل أجزم أنها أشد فقرًا؟.. فأنت تدخرين مرتبك، وبدأت أنا أحذو حذوك!

وسمح هيرتون لزيللا بأن تساعده في إصلاح هندامه، فراحت تطريه وتتملقه لتجعله رضى الخلق مبسوط المزاج.. وهكذا ما إن أتت كاثرين، حتى كان قد نسى إهاناتها السابقة له، وأقبل عليها يحاول أن يبدو لطيفًا معها، حسبما روت لى مدبرة المنزل إذ قالت:

- دخلت السيدة الصغيرة ترتعد من البرد كأنها قطعة من الجليد، وترفع رأسها شامخة كأنها إحدى الأميرات.. ونهضت من مجلسي، وعرضت عليها مقعدى الكبير ذا المسندين.. كلا.. لقد أشاحت بوجهها، وشمخت بأنفها استنكارًا لتلطفى!.. ونهض إيرنشو كذلك، وطلب إليها أن تأتى إلى الأريكة فتجلس ملاصقة للمدفأة، قائلًا إنه واثق من أنها تكاد تموت من البرد!

فأجابته وهي تضغط على الكلمة الأخيرة بكل ما وسعها من ازدراء:

- لقد ظللت شهرًا أو أكثر أكاد أموت من البرد!

(ثم أحضرت لنفسها مقعدًا وجلست بعيدًا عنا كلينا.. وظلت تجلس ساكنة حتى سرى الدفء في بدنها، وعندئذ بدأت تجيل أنظارها حولها، فاكتشفت عددًا من الكتب فوق رف الصوان، فاستوت قائمة على قدميها ثانية، وحاولت أن تمد ذراعها لتحضرها، ولكن الكتب كانت مرتفعة عن متناولها.. وبعد أن لبث ابن خالها يرقب محاولاتها برهة، استجمع شجاعته أخيرًا ونهض لمساعدتها.. فأمسكت بثوبها وتلقت فيه أول مجموعة من الكتب وصلت إليها يده..

(كان ذلك تقدمًا باهرًا من الفتي!.. ومع أنها لم تشكره، إلا أنه كان يشعر بأنه قد جوزي خير الجزاء بقبولها مساعدته.. ووافته الجرأة ليقف خلفها وهي تقلب في الكتب، ثم تمادي إلى درجة الانحناء ليشير إلى ما يثير اهتمامه في بعض الصور القديمة التي تتضمنها.. ولم تروعه تلك الطريقة الوقحة التي كانت تجذب بها الصفحة من تحت أصبعه، بل كان يكتفى بأن يبتعد قليلًا إلى الخلف، ثم يتطلّع إليها بدلًا من الكتاب!.. واستمرت تقرأ، أو تبحث عن شيء تقرؤه.. وبدا اهتمامه يتركز تدريجيًّا في دراسة غدائرها الحريرية الكثيفة، فلم يكن يستطيع رؤية وجهها، كما أنها كانت لا تستطيع أن تراه!.. ولعله لم يكن منتبهًا تمامًا لما أقدم عليه، وإنما كان مثله مثل طفل يجتذبه لهب الشمعة، عندما تحول من مجرد النظر إلى اللمس.. فقد مد يده وربت على إحدى غدائرها في رفق بالغ كأنه يداعب عصفورًا.. وكأنما طعنها بسكين في عنقها!.. فقد استدارت إلى الخلف ثائرة، وهي تصيح به في نبرات تفيض ازدراءً واشمئزازًا:

- امش من هنا حالًا!.. كيف تجرؤ على أن تلمسنى؟.. ولماذا تقف هنا؟.. إنني لا أطيقك البتة!.. وسوف أعود إلى حجرتي ثانية، إذا اقتربت منى بعد ذلك!



ثما طعنها بسكين في عنقها.. فقد استدارت إلى الخلف ثائرة،

ي تصيح به في نبرات تفيض ازدراءً واشمئزازًا..

(فتراجع مستر هيرتون، وقد اكتسى وجهه طابعًا من البلاهة، ثم جلس على الأريكة في هدوء وسكون، بينما استمرت تقلّب صفحات كتبها أكثر من نصف ساعة.. وأخيرًا قام هيرتون ودنا منى ليهمس في أذني:

- اسأليها أن تقرأ لنا يا زيلا، فقد جمدت أطرافى من الجلوس ساكنًا لا أفعل شيئًا.. ثم إنني أحب.. أعنى يمكن أن أحب سماع صوتها.. ولكن لا تقولي إنني طلبت ذلك، بل اجعلى السؤال من تلقاء نفسك..

فقلت في الحال:

- إن مستر هيرتون يود لو قرأت لنا قليلًا يا سيدتى.. وسوف يقدِّر لك هذا العطف، ويشكرك عليه كثيرًا..

فقطبت حاجبيها، ثم رفعت رأسها، لتجيب:

- إن مستر هيرتون، وسائر عصابتكم جميعًا، سوف تحسنون صنعًا لو أدركتم أننى أرفض كل زعم لكم بهذا العطف الذي تجدون من النفاق ما يكفي لإظهاره نحوى.. إننى أحتقركم، ولن يكون لدى ما أقوله لأي واحد منكم.. فعندما كنت على استعداد لأن أهب حياتي لقاء كلمة عطف واحدة، أو مجرد رؤية وجه واحد منكم، ظللتم جميعًا بعيدًا عنى، وتجنبتمونى!.. ولكني لن أشكو إليكم!.. وما دفعنى إلى النزول إلى هنا سوى البرد، لا الرغبة في التسلية ولا في الاستمتاع بصحبتكم!

فغمغم إيرنشو:

- ما الذي كان في وسعى أن أفعله؟.. وكيف يمكن أن أُلام..؟

فقاطعته مسز هيثكليف:

- أوه!.. إنني أستثنيك مما كنت أقول.. فما شعرت البتة بأني في حاجة إلى مثل اهتمامك!

فقال:

- ولكني عرضت أكثر من مرة، وسألت مستر هيثكليف أن يسمح لي بأن أرعاك..

وكأنما كان يزيد قحتها وسلاطتها ضرامًا، إذ أجابته مقاطعة:

- اصمت!.. خير لي أن أغادر الدار، أو أذهب إلى أي مكان، من أن يطرق صوتك الكريه مسامعى!

فغمغم هيرتون قائلًا إنه من ناحيته يرى أن تذهب إلى الجحيم!.. ثم نهض وتناول بندقيته المعلقة، وحرر نفسه من تقاليد يوم الأحد، فلم يعد يتقيد بها بعد ذلك!.. ثم مضى يتحدَّث إلىَّ في انطلاق وتحرر، وسرعان ما رأت من الأوفق أن تنسحب إلى وحدتها وعزلتها.. ولكن اشتداد الصقيع بعد ذلك أرغمها، برغم كبريائها، على التنازل وارتضاء رفقتنا يومًا بعد يوم.. أما أنا فقد عنيت بأن أجنب نفسي الازدراء والاحتقار لقاء ما أبديته نحوها من طيب الشمائل، فأصبحت منذ ذلك الحين في مثل جمودها وتصلبها.. والواقع أنها لا تلقى بيننا من يحبها أو يودها.. فهي لا تستحق حبًا أو ودًا.. لأن أقل كلمة يقولها أحدنا لها، تجعلها تتلوى في وجهه دون أن توقر أحدًا!.. بل إنها لا تتورع عن أن تثور في وجه السيد نفسه على نحو يجعله ينهال عليها لطمًا وصفعًا.. وكلما ازداد إيذاؤه لها، كلما ازداد حقدها وكثرت السموم التي تنفثها..).

ولقد صممت، في بادىء الأمر، عنـدما سمعت حديث زيللا هذا، على أن أترك وظيفتي وأستأجر كوخًا، وأُحضر كاثرين لتعيش معي فيه.. ولكن مستر هيثكليف لن يوافق على ذلك إلا مثلما يرضى بأن يسكن هيرتون منزلًا مستقلًا!.. ولست أرى علاجًا لحالتهـا الآن، إلا إذا استطاعت الزواج ثانية، وهو شيء ليس في قدرتي أن أحققه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا انتهت قصة مسز دين عن هيثكليف وأسرته..

أما أنا، فعلى الرغم من تكهن الطبيب، فقد بدأت أستعيد قواى في خطى حثيثة.. ومع أننا ما نزال في الأسبوع الثاني من شهر يناير، فقد عزمت على الخروج بعد يوم أو اثنين، فأمتطي جوادًا، وأذهب إلى (مرتفعات ويذرنج) لأخبر المـالك بأنني أعتزم قضاء الشهور الستة القادمة في لندن، وأن له، إذا شاء، أن يبحث عن مستأجر آخر (للجرانج) بعد شهر أكتوبر.. فلن أقضي شتاءً آخر في هذه المنطقة مهما أعطيت!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والثلاثون

كان الأمس يومًا مشرق الضياء، ساكن الريح، قارس البرد.. وقد ذهبت إلى (المرتفعات) كما انتويت، ورجتنى مدبرة منزلي أن أحمل رقعة صغيرة منها إلى سيدتها الشابة، فلم أرفض رجاءها، لأن المرأة الطيبـة لم تكن تدرك ما في رجائها هذا من غرابة وشذوذ..

ووجدت باب المنزل الخـارجي مفتوحًا، ولكن البوابة المنيعة كانت موصدة، كما وجدتها في زيارتي السابقة.. فطرقت فوقها بيدي، ودعوت هيرتون إيرنشو من حيث كان يعمل بين أحواض الحديقة، فرفع السلسلة التي كانت موصدة بها، ودخلت.. وقد وجدت الفتى وسيمًا لطيفًا، بقدر ما تكون الوسامة والرقة الريفية.. وقد أعرته انتباهًا خاصًا هذه المرة، ولكنه يومئذ كان يفعل كل ما في وسعه ليظهر أقل القليل من ميزاته!

وسألته إن كان مستر هيثكليف موجودًا، فأجابني: (كلا.. ولكنه سيحضر في موعد الغداء) وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقتئذ، فأعلنت عزمي على الدخول وانتظـاره.. وما كدت أقـول ذلك حتى رمى بأدواته، وصحبني إلى الداخل، لا ليبقى في رفقتي بديلًا لمضيفي، بل ليقوم بمهمة كلب الحراسة..

دخلنا إلى حجرة الجلوس معًا.. وكانت كاثرين هناك، تشغل وقتها فيما يُجدي، إذ كانت تعد بعض الخضر للوجبة المقبلة!.. وكانت تبدو أكثر تجهمًا وأقل بشاشة مما رأيتها أول مرة.. بل إنها لم ترفع عينيها لتنظر إليَّ، واستمرت في عملها بنفس الاغفال لمظاهر اللياقة المتعارف عليها، الذي لمسته منها من قبل.. فلم ترد انحناءتي وتحيتي، وتجاهلتهما تمامًا.. فقلت لنفسي:

- إنها لا تبدو لطيفة ودودة كمـا حاولت أن تقنعني مسز دين!.. إنهـا آية من آيات الجمال حقًّا، ولكنها ليست ملاكًا!

وطلب إليها إيرنشو في جفاء أن تأخذ أشياءها إلى المطبخ، فدفعتها بعيدًا عنها وهي تجيبه في سرعة: (خذها بنفسك!).. ثم قامت فذهبت إلى النافذة وجلست على مقعد صغير، وراحت تحفر أشكالًا لبعض الطيور والحيوانات في قشور ثمـار (اللفت) التي كانت في حجرها.. فدنوت منهـا، متظاهرًا بالرغبة في مشاهدة الحديقة ثم أسقطت رقعة مسز دين فوق ركبتها في براعة وحذق، كما خُيل إليّ وقتئذ، ولكنها ألقت بهـا بعيدًا وهي تسألني بصوت مرتفع:

- ما هذه؟

فساءني أن كشفت بهـذه الحماقة عن حسن صنيعى، وخشيت أن يظن أن الرسالة منى، فقلت:

- إنه خطـاب من رفيقة قديمة لك، هي مدبرة المنزل في (الجرانج»..

وما أن سمعت ذلك حتى همت بالتقاطه وقد غمرها الفرح، لولا أن هيرتون كان أسبق منها إليه، فأخذه ووضعه في جيب صدريته، قائلًا إن مستر هيثكليف يجب أن يراه أولًا.. وعند ذلك أشاحت بوجهها عنا في صمت، ورأيتها تخرج منديلها خلسة وترفعه إلى عينيها.. أما ابن خالها فبعد أن راح يناضل مشاعره الرقيقة في باديء الأمر، أخرج الخطاب من جيبه وطوَّح به إلى الأرض بجوارها، بقـدر ما وسعه من خشونة وفظاظة.. والتقطته كاثرين ومضت تطالعه في لهفة وتشوق، ثم أخذت تلقي على قليلًا من الأسئلة المعقولة والتافهة عن سكان منزلها السابق.. وظلت لحظة تحدِّق بأنظارها ناحية التلال، وما لبثت أن غمغمت

تناجى نفسها:

- ليتني أستطيع أن أركب مهرى (مينى) هناك!.. وشد ما أتوق إلى تسلق الشجر هناك!.. أواه!.. إنني متعبة.. لقد تجمدت أطرافى يا هيرتون!

ثم أسندت رأسها الجميل إلى قاعدة النافذة وهي تخفى تنهدها بالتثاؤب، ثم استغرقت في شرودها الحزين، غير مكترثة، أو منتبهة، إن كنا نراها..

وبعد أن جلست صامتًا بعض الوقت، خاطبتها قائلًا:

- ألا تدرين يا مسز هيثكليف أنني عرفتك من قبل؟.. وأن أواصر المعرفة قد توثقت بيننا حتى لأجد من الغريب ألا تأتي فتتحدثي إلى؟.. إن مدبرة منزلى لا تكل عن الحديث عنك وامتداحك لحظة واحدة، ولسوف يسوؤها كثيرًا أن أعود إليها صفر اليدين من أية أنباء عنك أو منك، اللهم إلا أنك تلقيت خطابها فلم تقولى شيئًا!

فبدا عليها الاستغراب من حديثى، وسألتني:

- هل تحبك إيلين؟

فأجبت مترددًا:

- نعم.. كثيرًا..

- يجب أن تخبرها إذن أنني كنت أود الرد على خطابها لولا أنني لا أملك شيئًا من وسائل الكتابة، وليس عندي كتاب واحد أستطيع أن أنزع منه ورقة لأكتب عليها..

فهتفت متعجبًا:

- لا كتب عندك؟.. وكيف بالله تطيقين العيش هنا بدونها، لو كان لي أن أسأل هذا السؤال؟.. إنني برغم ما لدىّ من مكتبة عظيمة، ينتابني السأم كثيرًا في (الجرانج).. أما إذا حرمتني كتبى، فإنني يتملكني اليأس المرير!

فقالت كاثرين:

- لقد كنت أقرأ فيها دائمًا، عندما كانت عندي.. ولكن مستر هيثكليف لا يقرأ شيئًا قط، ولذلك وضع في ذهنه أن يدمر كتبى جميعًا.. وها قد مضت أسابيع برمتها لم تقع لى نظرة واحدة على كتاب.. ولكن حدث مرة أن رحت أنقب في ذخيرة جوزيف من كتب الدين، وركبه من ذلك هم عظيم.. كما حدث مرة، يا هيرتون، أن وقعت على مكتبة في حجرتك، بعض الكتب اللاتينية واليونانية، وبعض القصص وديوان شعر، وكلها أصدقاء قدماء لي، فأحضرت الأخير إلى هنا.. وقد كنت تجمعها، كطائر العقعق الذي يجمع الملاعق الفضية لمجرد حبه للسرقة!.. فإنها عديمة الجدوى لك.. أو لعلك كنت تخفيها بتلك الروح الخبيثة، وهي أنك ما دمت عاجزًا عن الاستمتاع بها، فلن يستمتع بها غيرك!.. وربما كان حسدك هذا هو الذي دفع مستر هيثكليف إلى حرماني من ذخائري؟.. ولكن معظمها قد سُطر في ذهني، وطبع على صفحة قلبي، ولن تستطيع أن تحرمني من هذا أو ذاك!

فغدا وجه هيرتون أرجوانيًا وهو يسمع ابنة عمته تفشى سرّه وتكشف عن مجموعته الخاصة من كتب الأدب، وأخذ يتمتم متلعثمًا بألفاظ حانقة حاول بها أن ينكر اتهاماتها، فتقدمت لنجدته، قائلًا:

. إن مستر هيرتون شديد الرغبة في زيادة حصيلته من العلم والمعرفة.. وهو لم يكن

يحسدك على ما بلغته من ثقافة، وإنما كان يغبطك.. ولسوف يغدو طالبًا نابهًا في سنوات قليلة..

فقالت كاثرين:

- وهو يريد منى أن أغرق في لجة الجهل أثناء ذلك!.. نعم، لقد سمعته يحاول الهجاء والمطالعة وحده، وكم من أخطاء عجيبة وقع فيها!.. ليتك تعيد قراءة (مطاردة الصيد) كما كنت تفعل بالأمس!.. لقد كانت مهزلة وأي مهزلة!.. لقد سمعتك تقرؤها، وسمعتك تبحث في القاموس عن الكلمات الصعبة ثم تسب وتلعن لأنك لا تستطيع أن تقرأ شرحها!

ولا ريب أن الشاب كان يراه أمرًا بالغ السوء أن يسخر أحد منه لجهله، ثم يسخر منه بعد ذلك لمحاولته التخلص من هذا الجهل!.. وقد شعرت بمثل شعوره، وتذكرت ما روته لي مسز دين عن محاولته الأولى في إنارة ظلمة الجهل التي كان يعيش فيها حبيسًا، فقلت:

- ولكننا جميعًا يا مسز هيثكليف بدأنا بمثل هذه البداية.. كلنا كنا نتعثر ونترنح على عتبة المعرفة.. ومع ذلك فلو كان مدرسونا قد سخروا منا بدلًا من أن يساعدونا، لازداد تعثرنا وترنحنا، ولما بلغنا ما بلغناه..

فأجابت:

- آه!.. إننى لا أريد أن أحد من تحصيله، ولكني لا أرى له حقًّا في الاستيلاء على ما أملكه، ثم يجعله يبدو سخيفًا في نظرى بأخطائه القبيحة وسوء نطقه الفظيع.. إن هذه الكتب، سواء أكانت نثرًا أم شعرًا، تقترن في ذهني بذكريات أخرى.. وإني أكره أن يحط من قدرها ويدنسها عندما يلوكها في فمه!.. وفضلًا عن ذلك كله فقد اختار أحب القطع إلى نفسي، تلك التي أحب أن أرددها أكثر من غيرها، كأنما يصدر في ذلك عن عمد ناشيء من خبث طويته..

فأخذ صدر هيرتون يعلو ويهبط في صمت لحظة طويلة.. كان يعتمل في نفسه شعور قاس من الهوان والحنق معًا، لم يكن في طاقته أن يكبحه.. فرأيت من حسن اللياقة أن أجنبه الحرج، ومن ثم نهضت ومضيت نحو الباب ووقفت في مدخل الحجرة أقلب النظر في المنظر الخارجي الممتد أمامي.. فإذا به يتبعنى، ويغادر الحجرة.. وما لبث أن عاد بعد زمن يسير، يحمل بين يديه عددًا من الكتب والمجلدات ألقي بها في حجر كاثرين وهو يصيح:

- خذيها!.. فما عدت أريد أن أسمع عنها أو اقرأها أو أفكر فيها بعد الآن!

- ولكني لن آخذها.. سوف أقرن بينها وبينك، فأبغضها!

ومع ذلك فقد تناولت أحدها، وكانت تبدو عليه كثرة الاستعمال والتقليب، وراحت تقرأ فيه بنغمة متعثرة كمبتدىء يتعلم الهجاء.. ثم انطلقت ضاحكة، وطوحت بالكتاب وهي تستطرد، في إثارة واستفزاز، قائلة: (اسمع هذه أيضًا!).. ثم بدأت تلقى شعرًا من ملحمة قديمة بالنغمة واللهجة نفسها!

عندئذ لم تعد مشاعره تحتمل المزيد من العذاب، فسمعته - والحق أنني لم أستهجن ما فعله - يضع حدًّا لانطلاق لسانها الخبيث بحركة من يده!.. لقد فعلت الشقية كل ما في وسعها لإيذاء مشاعر ابن خالها، وهي مشاعر إن كانت لم تلق نصيبها من التهذيب، إلا أنها كانت شديدة الحساسية.. فكان الرد البدني هو الوسيلة الوحيدة التي يملكها لتصفية الحساب، وسداد الدين للمعتدى!.. وبعد ذلك جمع الكتب وقذف بها في وسط النيران.. وقد قرأت في أساريره مبلغ ما يعانيه من ألم إذ يقدم هذه الضحية على مذبح الحقد والغيظ!.. وخُيل إلىّ، بينما كانت النار تلتهمها، أنه يستعيد ذكرى ما وفرته له من سرور وانبساط، ونشوة

النصر والمتعة المتزايدة اللتين استمدهما من هذه الكتب.. بل لقد خُيل إلىَّ أنني أستطيع أن أحدس الباعث له على هذه الدراسات التي كان يقوم بها في الخفاء!.. لقد كان قانعًا بعمله اليومي، ومتعه الحيوانية البدائية، حتى عبرت كاثرين طريقه.. فكان خزيه من ازدرائها، وأمله في رضائها، هما اللذان استحثاه في بادىء الأمر على أن ينشد التقدم والارتقاء.. وبدلًا من أن تحميه محاولاته نحو السمو بنفسه من الخزى، أو تنيله الرضاء، وجدها تنقلب إلى عكس النتيجة التي كان يرجوها..

فصاحت كاثرين وهي تلعق شفتها الدامية، وتنظر إلى الكتب المحترقة بعينين تفيضان حنقًا وغيظًا:

- نعم.. فهذا كل ما يستطيع جلف مثلك أن يجنيه من فائدة منها!

وعندئذ أجابها في ضراوة:

- خير لك ان تمسكي لسانك الآن!

ثم غلب عليه الانفعال فمنعه من الاسترسال فى الكلام، وأسرع نحو الباب، فتنحيت قليلًا حتى يستطيع المرور.. ولكن قبل أن يجتاز الدرجـة الحجرية، التقى به مستر هيثكليف وكان قادمًا من الممر، فوضع يده فوق كتفه، قائلًا:

- ماذا تريد أن تفعل الآن يا بنى؟

فأجاب هيرتون:

- لا شيء.. لا شيء!

ثم تملص منه، وابتعد مسرعًا لينشد في الوحدة متنفسًا عن حزنه وغضبه.. فأتبعه هيثكليف بأنظاره لحظة، ثم تنهد وغمغم يقول لنفسه، دون أن يشعر بوجودى خلفه:

- لو كذبت نفسي لكنت بالغ الشذوذ!.. ولكني عندما أبحث عن شبه أبيه في وجهه، أجد ملامح عمته تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم!.. كيف أصبح يشبهها إلى هذا الحد، بحق الشيطان؟.. إنني لا أكاد أحتمل أن أراه!

ثم غض من أنظاره، ومضى إلى داخل الحجرة مهمومًا مكتئبًا.. كانت ترتسم في محياه لمحة من القلق والاضطراب لم ألحظها عليه قط من قبل.. بل لقد بدا في نظري أشد نحولًا وهزالًا.. وكانت زوجة ابنه قد فرت هـاربة إلى المطبخ، على أثر رؤيته من خلال النافذة.. وهكذا بقيت في الحجرة وحدي.

وتقدمت نحوه محييًا، فأجاب:

- يسرني أن أراك قد شفيت وغادرت المنزل ثانية يا مستر لوكوود!.. وهو شعور ينبعث بعضـه عن الأنانية!.. فلا أظنني قادرًا الآن على تعويض خسارتنا فيك في هذه البقعة الموحشة!.. ولقد تملكني العجب أكثر من مرة فيما جاء بك إلى هنا

فكان جوابى: (أحسبها كانت نزوة خاسرة يا سيدى!.. أم لعلها نزوة خاسرة هي تلك التي تحثني الآن على الرحيل.. فسوف أرحل إلى لندن، في الأسبوع القادم، ولابد لي من أن أنذرك بأنني لا أحس ميـلًا أو استعدادا للاحتفاظ (بثرشكروس جرانج) بعد السنة التي اتفقت معك على استئجاره خلالها.. وأعتقد أنني لن أقيم فيه بعد الآن!).

- حقًا؟.. أحسبك قد تعبت من هذا النفي عن العالم، أليس كذلك؟.. ولكن إذا كنت قد أتيت

لتطلب اعفاءك من سداد إيجار مكان لا تنوي أن تشغله، فإن رحلتك إلى هنا لا طائل وراءها!.. فإني لا أتساهل البتة في اقتضاء حقوقى من أي انسان!

فصحت به، وقد أثارني قوله كثيرًا:

- إنني ما أتيت لأطلب شيئًا من ذلك.. ولو أردت باقى الإيجار الآن، فإني على استعداد لسداده..

ثم أخرجت دفتر الشيكات من جيبي، ولكنه قال في برود:

- كلا.. كلا.. فسوف تترك وراءك ما يكفي لسداد دينك، إذا لم تحضر بنفسك لدفعه.. أما الآن فلست في عجلة من الأمر!.. اجلس يا مستر لوكوود، وتناول غداءك معنا، فلا بأس من الترحيب بضيف يأمن المرء من تكرار زيارته!.. كاثرين!.. أعدى المائدة!.. أين أنت؟

فظهرت كاثرين ثانية، تحمل مجموعة من الشوك والسكاكين.. وعندئذ غمغم هيثكليف يقول لها على حدة:

- يمكنك أن تتناولي غداءك مع جوزيف، وأبقى في المطبخ حتى ينصرف!

وأطاعت تعليماته في دقة بالغة.. ولعلها لم تجد ما يغريها بمخالفته.. أو لعل معيشتها بين المهرجين وأعداء البشر قد جعلتها لا تستطيع أن تقدر من هم أرقى منهم عندما تلتقي بهم..

وكان غداءً كئيبًا نوعًا ما، بين مستر هيثكليف في عبوسه وتجهمه، وبين هيرتون في صمته الأبكم. وما لبثت أن ودعتهما مستأذنًا في الانصراف مبكرًا.. وكنت أود أن أخرج من باب المطبخ، عسى أن ألقي نظرة أخيرة على كاثرين، وأغيظ جوزيف العجوز.. ولكن هيرتون كان قد تلقى الأمر بإحضار جوادي أمام الباب الرئيسي، وشيعنى مضيفى بنفسه إلى الباب، وهكذا لم تسنح لي الفرصة لتحقيق رغبتى..

وبينما كنت أنطلق في الطريق نحو منزلى كنت أقول لنفسى:

- يا لها من حياة كئيبة تلك التي تمضي في هذه الدار!.. وما كان أروعه من إدراك مسز لينتون هيثكليف لشيء أكثر شاعرية وخيالًا مما في القصص الخرافية، لو أنني وهي عقدنا أواصر المحبة بيننا، كما تمنت مربيتها الطيبة، ثم ارتحلنا معًا إلى جو المدينة المثير النابض بالحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والثلاثون

سنة ١٨٠٢

دُعيت في شهر سبتمبر الحالي إلى ارتياد البراري في ضيعة صديق لي يقيم في الشمال، وكنت في طريقي إليه عندما وجدت نفسي، على غير انتظار، على بعد خمسة عشر ميلًا من قرية (جيمرتون).. وكان صاحب نزل ريفى على الطريق يحمل دلوًا من الماء لينعش به جيادى، عندما مرت به عربة محملة بالشوفان الأخضر الحديث الحصاد، فصاح به:

- هذه من جيمرتون، ها؟.. إنهم دائمًا يتأخرون في الحصاد ثلاثة أسابيع عن غيرهم من الناس!

وكانت ذكرى إقامتي في تلك الناحية قد غشيتها غلالة رقيقة حالمة، فانبعثت قائلًا:

ـ جيمرتون؟.. إنني أعرفها.. كم تبعد عن هذا المكان؟

فأجاب الفندقى:

- بيننا وبينها خمسة عشر ميلًا، وطريق شديد الوعورة!

فتملكتني رغبة مفاجئة في زيارة (ثرشكروس جرانج).. وكان النهار يوشك أن ينتصف، وقدرت أنني أستطيع قضاء الليلة تحت سقف منزلى، كما كنت سأقضيها في نزل ريفي صغير.. وفضلًا عن ذلك ففى وسعى أن أستغنى عن يوم بسهولة، لأرتب أموري مع صاحب المنزل، وبذلك أوفر على نفسي مشقة الحضور إلى هذه الأنحاء مرة أخرى.. فانتظرت ريثما ارتحت قليلًا، وأمرت خادمي بأن يستفسر عن الطريق إلى القرية، وما لبثنا أن وصلنا إليها بعد ثلاث ساعات لقيت فيها دوابنا عناءً عظيمًا..

تركت خادمي في القرية، وتقدمت وحدي أهبط الوادي.. كانت الكنيسة القائمة تبدو أشد قتامة، والمقبرة الموحشة تلوح أكثر وحشة.. ولمحت شاة من شياه البراري ترعى الكلأ القصير فوق القبور.. كان الجو جميلًا دافئًا، بل أشد دفئًا مما يحتمله المسافر، ولكن الحرارة لم تحل دون استمتاعي بالمناظر الساحرة فوقى وتحتى.. ولو كنت قد رأيتها قرب أغسطس لكان من المحقق أن يدفعني الإغراء إلى قضاء شهر بين ربوعها المنعزلة الموحشة.. فما من شيء أشد فظاعة في الشتاء، وأشد سحرًا وسموًا في الصيف، من تلك الوهاد المحصورة بين التلال، وتلك المرتفعات المتناثرة المغطاة بالعشب والكلأ..

وبلغت (الجرانج) قُبيل الغروب، فطرقت الباب، ولكن الخدم كانوا معتكفين في الجزء الخلفي من المنزل، كما أدركت من ذلك الشريط الأزرق الرفيع الذي كان يتلوى في الفضاء منبعثًا من مدخنة المطبخ، فلم يسمعنى أحـد، ومضيت بجوادي نحو الفناء.. فرأيت تحت مظلة الباب بنتًا في التاسعة أو العاشرة من عمرها جالسة تحبك صوفًا، كما شهدت امرأة عجوزًا متكئة على درج الباب، ومستغرقة في تدخين غليونها.. فسألتها:

- هل مسز دين في الداخل؟

فأجابت:

- مسز دين؟.. كلا.. إنها لا تقيم هنا.. بل هناك في (المرتفعات)..

- وهل أنت مدبرة المنزل إذن؟

- نعم.. أنا التي أرعاه الآن..

- حسنًا.. إنني مستر لوكوود، السيد!.. ترى هل أجد أية حجرة لإيوائي؟.. إنني أريد قضاء الليلة هنا..

فصاحت في دهشة، وفي تلك اللهجة الريفية الغريبة:

- السيد؟.. ماذا؟.. من كان يعرف بمقدمك؟.. كان يجب أن تبعث بكلمة.. فإن المكان كله لا توجد به حجرة جافة أو مفروشة.. ولا واحدة!

ثم ألقت بغليونها، واندفعت إلى الداخل، والبنت في أعقابها.. فتبعتهما وسرعان ما أدركت صدق ما قالته، كما تبينت أننى كدت أخرجها عن صوابها بظهوري المفاجيء، فطلبت إليها أن تهدأ قليلًا وأخبرتها بأنني سوف أخرج للنزهة وعليها أن تحاول في تلك الفترة إعداد ركن في حجرة الجلوس لأتناول عشائي فيه، وأن تعد لى حجرة أنام فيها.. قلت لها إننى لا أريد أن تكنس المكان أو تمسحه، فكل ما أحتاج إليه نار مشبوبة، وفراش جاف نظيف.. وكان يبدو عليها أنها راغبة في بذل غاية جهدها لإرضائي، برغم أنها دفعت فرشاة الكنس في الموقد خطأ بدلًا من محراك النار، وأخطأت في تناول أدوات عديدة أخرى مما تحتاجه في مهمتها.. ولكني انسحبت، معتمدًا على نشاطها في أن أجد عند عودتي مقامًا مريحًا.. وكانت (مرتفعات ويذرنج) هدف نزهتي المزمعة، ولكني ما كدت أخلف الفناء ورائى، حتى خطرت لي فكرة، فعدت لأسألها:

- هل كلهم بخير في (المرتفعات)؟

فأجابتني وهي تهرول حاملة دلوًا مليئًا بالفحم:

- نعم.. حسبما نعرف!

وكنت أود أن أسألها عن سبب رحيل مسز دين عن (الجرانج)، ولكن كان من المحال أن أعوقها وهي في غمرة تلك الأزمة التي تمر بها، فاستدرت وتركت لها المكان..

فلما غادرت حدود البستان، وبدأت أرقى الطريق الحجري الجانبي المتفرع إلى منزل مستر هيثكليف، مضيت أسير على مهل، مع وهج الشمس الغاربة خلفي، وجلال قمر مشرق أمامي، الأولى تسير نحو الأفول، والثاني يبدأ في التألق والسطوع.. وقبل أن يصبح المنزل على مرمى النظر مني، كان كل ما بقي من النهار ضياء كهرمانى خال من شعاع الشمس، يمتد على طول الأفق الغربي.. ولكن كان في وسعى أن أرى كل حصاة في الممر، وكل نصل من نصال العشب، على ضوء ذلك القمر البهي.. ولم أجد نفسي مضطرًا إلى تسلق البوابة، أو الطرق عليها، فما كدت أدفعها بيدي حتى استجابت لي.. فقلت في نفسي أن هناك تقدمًا باهرًا!.. وما لبثت أن تبينت تقدمًا آخر اكتشفته خياشيمى، فقد كان عبير الريحان والزهور المتسلقة يسبح في الهواء منبعثًا من بين أشجار الفاكهة في الحديقة..



ولم أجد نفسي مضطرًا إلى تسلق البوابة، أو الطرق عليها، فما
كدت أدفعها بيدي حتى استجابت لي..

وكانت الأبواب والنوافذ كلها مفتوحة.. ومع ذلك، فكما هي الحال عادة في مناطق الفحم، كانت تضيء المدفأة نار رائعة شديدة الوهج، إن ارتاحت العين لمرآها فإن حرارتها مما لا يطاق.. ولكن (مرتفعات ويذرنج) منزل ذو سعة، يستطيع قاطنوه أن يجدوا فسحة من المكان ليبتعدوا عن لظاها.. وعلى ذلك فإن الاثنين اللذين كانا بحجرة الجلوس وقتئذ، اتخذا لنفسيهما مجلسًا غير بعيد عن النافذة.. كنت أستطيع أن أراهما وأسمعهما يتكلمان، قبل أن أدخل إليهما.. وهكذا تريثت قليلًا ورحت أنظر إليهما مرة وأصغى لهما مرة أخرى، وقد ثار في نفسي شعور غريب امتزج فيه الفضول والغيرة معًا!

سمعت صوتًا رخيمًا كالأجراس الفضية، يشدو قائلًا:

- مضاد.. هذه هي المرة الثالثة التي أعلمك فيها كيف تنطق بالكلمة، أيها الغبي!.. ولن أقولها لك مرة أخرى، فانتبه جيدًا وإلا جذبتك من شعرك!

فأجابها صوت آخر، في نبرات عميقة ذات عذوبة:

- مضاد، إذن.. والآن قبليني إذ أحسنت النطق!

- كلا.. اقرأ القطعة صحيحة أولًا دون أن تأتى غلطة واحدة..

فبدأ المتكلم الرجل يقرأ بصوت مسموع.. كان شابًا في مقتبل العمر، يرتدي ثيابًا أنيقة، ويجلس إلى منضدة وأمامه كتاب مفتوح.. وكانت أساريره الوسيمة تتألق بشرًا وسرورًا، وعيناه لا تكفان عن الشرود، في صبر نافد، من الكتاب إلى يد صغيرة بيضاء كانت موضوعة فوق كتفه، ولا تفتأ تعيده إلى الوعي بلطمة رقيقة على وجنته كلما لاحظت صاحبتها شرود نظراته وعدم انتباهه!.. كانت صاحبة تلك اليد تقف خلفه، وغدائرها الذهبية اللامعة تمتزج بين لحظة وأخرى بخصلات شعره الأسمر، كلما مالت فوقه لتشرف على دراسته.. أما وجهها.. آه!.. لقد كان سعيدًا إذ كان لا يمكنه أن يرى وجهها في جلسته هذه، وإلا لما استطاع الثبات فوق مقعده كما يفعل الآن.. أما أنا فكنت أراه.. وكنت أعض على شفتى حانقًا، إذ أضعت الفرصة التي كان يمكن أن تتاح لى لو أنني قمت بعمل إيجابي بدلًا من الاكتفاء بالتحديق في جمالها الباسم..

وانتهى الدرس، دون أن يخلو من أخطاء أخرى.. ولكن التلميذ طالب بجائزته، فتلقى خمس قبلات على الأقل، ردها في سخاء وحرارة!.. وما لبثا أن سارا نحو الباب، وأدركت من حديثهما أنهما يوشكان على الخروج في نزهة بين الأحراش والبراري.. وبدا لي أن هيرتون إيرنشو سوف يدعو عليَّ من صميم قلبه، إن لم يكن بلسانه، بالتردي في أعمق هوة من الجحيم، لو أظهرت شخصى التعس بجواره وقتئذ!.. وشعرت بحقارتى وخبثى، فأسرعت بالاختفاء وراء ركن المنزل، ثم مضيت أبحث عن ملجأ لى فى المطبخ..

وقد وجدت بابه مفتوحًا هو الآخر، وعند الباب جلست صديقتي القديمة (نللي دين) مشغولة بالحياكة وهي تسلى نفسها بالغناء.. ولكن أنشودتها كانت تُقاطع من الداخل بألفاظ خشنة تنم عن الازدراء والتذمر، في نبرات أبعد ما تكون عن الأنغام الموسيقية!

كان شاغل المطبخ يقول ردًا على حديث لنللى لم أسمعه:

- إننى لأفضل أن أسمع الشتائم تنصب في أذنى من الصباح حتى المساء، ولا أصغى لمجونك أيتها الشمطاء المتصابية!.. يا للعار!.. إنه عار صارخ إذ لا أستطيع أن أفتح الكتاب المقدس، بينما ترفعين عقيرتك بتمجيد الشيطان والتفاخر بكل شرورك التي لم يُولد مثلها على الأرض قط.. آه!.. إنك أفعى خبيثة، وتلك الفتاة أفعى خبيثة أخرى، وهذا الغلام المسكين سوف يضيع بينكما!

ثم أردف يقول في أنين:

- يا للغلام المسكين!.. لقد قيدتاه بسحرهما.. إننى واثق من ذلك!.. آه.. يا إلهى!.. اقض فيهما قضاءك الحق، فلم يعد بين حكامنا قانون ولا عدالة!

فردت عليه المرأة قائلة:

ـ كلا.. وإلا لكنا الآن جالستين بين كتل الخشب المشتعلة!.. ولكن صه أيها العجوز المخرف، واقرأ كتابك المقدس كأي شخص تقى، ولا تُلق بالك إلىّ.. إنني أترنم بلحن جميل هو أنشودة (عرس الحورية آنى)، الذي يتحول إلى لحن راقص..

وكانت مسز دين على وشك البدء من جديد، عندما تقدمت نحوها.. وعرفتني على الفور، فوثبت قائمة، وهي تهتف:

- لك الله يا مستر لوكوود!.. كيف خطر لك أن تعود بهذه الطريقة؟.. إن كل شيء مغلق في (ثرشكروس جرانج)، وكان يجب عليك أن تنذرنا بمجيئك!

فأجبت:

- لقد رتبت الأمر لراحتى هناك، طوال الفترة التي سأمكثها.. فسوف أرحل ثانية غدًا.. ولكن خبرينى كيف انتقلت إلى هنا يا مسز دين؟

- لقد تركت زيللا الخدمة، فطلب إلىّ مستر هيثكليف الحضور، على أثر رحيلك إلى لندن، على أن أبقى هنا حتى تعود.. ولكن أرجوك أن تدخل أولًا.. هل أتيت من (جيمرتون) هذا المساء؟

ـ بل من (الجرانج).. فقد أردت أن أنهى عملي مع سيدك، ريثما يعدون لي مكانًا للمبيت هناك، لأننى لا أحسبني أجد فرصة أخرى لذلك في القريب العاجل..

وقادتني نللى إلى حجرة الجلوس، وهي تقول:

- أي عمل تريد إنهاءه يا سيدى؟.. لقد خرج الآن، ولن يعود في الحال..

- مسألة الإيجار..

- آه!.. إذن عليك أن تسوى الأمر مع مسز هيثكليف، أو بالأحرى معى.. فإنها لم تتعلم بعد كيف تدير شئونها، وأنا التي أتولى ذلك نيابة عنها، فليس ثمة من يقوم بذلك غيرى!

فبدت علىّ الدهشة البالغة، وعند ذلك أردفت تقول:

- آه!.. أرى أنك لم تسمع بموت هيثكليف!

فهتفت مشدوهًا:

- هل مات هيثكليف؟.. منذ متى؟

- منذ ثلاثة شهور.. ولكن اجلس أولًا، ودعني أحمل قبعتك إلى المشجب، وسوف أخبرك بكل شيء عن هذا الأمر.. ولكن مهلًا.. إنك لم تأكل شيئًا، أليس كذلك؟

- لست أريد شيئًا الآن، فقد أمرت بإعداد العشاء في منزلى.. ولكن اجلسي أنت أيضًا.. إنني ما تصورت وفاته قط!.. فدعيني أسمع كيف حدث ذلك.. لقد قلت إنك لا تتوقعين عودتهما في القريب، فهل تعنين الفتى والفتاة؟

- نعم.. وإنني أضطر إلى تأنيبهما كل ليلة لجولاتهما المتأخرة، ولكنهما لا يكترثان بي!.. ولكن خذ على الأقل قدحًا من جعتك القديمة، وسوف تفيدك لأنك تبدو متعبًا..

ثم أسرعت لتحضره قبل أن أستطيع الاعتذار عنه. وعندئذ سمعت جوزيف يسألها: (أليست فضيحة صارخة أن يكون لها عشاق وهي في هذا الشطر من حياتها؟.. ثم لا تكتفى بذلك، بل تقدم لهم الشراب من قبو السيد!.. إنه لا يطيق عار البقاء ساكنًا ليرى ذلك كله)..

ولكنها لم تنتظر لترد عليه، بل عادت بعد لحظة تحمل قدحًا فضيًا يحفه الحبب، أثنيت على محتوياته الثناء الحميد في شهية وحمية!.. وبعد ذلك زودتني بالبقية الباقية من قصة هيثكليف.. فقد كانت نهايته (غريبة) على حد تعبيرها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت مسز دين:

استدعيت إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد أسبوعين من رحيلك عنا، فأطعت مسرورة من أجل كاثرين.. إلا أن أول حديث تبادلته معها، أحزنني وأكربني، إذ وجدتها قد تغيرت كثيرًا منذ فراقنا.. ولم يوضح لي مستر هيثكليف الأسباب التي حدت به إلى تغيير رأيه بشأن حضوري إلى هنا.. فلم يقل لي إلا أنه في حاجة إليّ، وأنه تعب من رؤية كاثرين، وأنني يجب أن أتخذ من البهو الصغير حجرة لجلوسى، وآخذها معي.. ويكفيه أن يضطر إلى رؤيتها مرة أو مرتين كل يوم.. وكانت تبدو مسرورة للنظام الجديد، كما أنني من جانبي توليت تدريجيًا تهريب عدد كبير من الكتب وغيرها من الأشياء التي كانت تتسلى بها في (الجرانج)، وأخذت أمنى النفس بالعيش في راحة محتملة.. ولكن هذا الوهم لم يدم طويلًا.. فبعد أن كانت كاثرين راضية، ما لبثت بعد فترة قصيرة أن غدت سريعة الغضب شديدة القلق لا يقر لها قرار.. فقد كانت أولًا، ممنوعة من الخروج من الحديقة، فكانت شديدة السخط على نحو محزن، من بقائها حبيسة في حدودها الضيقة بينما الربيع يدنو حثيثًا.. من ناحية أخرى، فان انشغالي بمهامي المنزلية، كان كثيرًا ما يرغمني على تركها، فكانت تشكو ما تعانيه من الوحدة.. كانت تفضل الشجار مع جوزيف في المطبخ، على بقائها في عزلتها الهادئة!.. وكنت لا أعبأ بمناوشاتهما، ولكن هيرتون كان كثيرًا ما يضطر إلى الإلتجاء إلى المطبخ أيضًا، عندما يريد السيد أن ينفرد بنفسه في حجرة الجلوس.. ومع أنها كانت، في باديء الأمر، أما أن تترك المطبخ عند اقترابه، أو تساعدني في مشاغلي في هدوء، متجاهلة رؤيته ومتجنبة مخاطبته – ومع أنه كان دائمًا شديد العبوس والصمت بقدر ما يسعه - فإنها لم تلبث، بعد فترة من الزمن، أن غيرت مسلكها وأصبحت تعجز عن أن تتركه وشأنه.. فكانت تتحدث عنه، وتعلق على غبائه وكسله، وتفضى بدهشتها وعجبها من احتماله تلك الحياة التي يحياها، وكيف يستطيع الجلوس أمسية طويلة يحملق في نار المدفأة ويهوم من النعاس!.. وقد قالت مرة:

- إنه أشبه بالكلب، أليس كذلك يا إيلين؟.. أو بحصان عربة الخضر؟.. إنه يقوم بعمله، ويأكل طعامه، وينام نومًا طويلًا!.. لابد أن يكون عقله خاويًا موحشًا!.. هل تحلم قط يا هيرتون؟.. وإذا كنت تحلم في نومك، فعن أي شيء يجرى حلمك؟.. آه!.. ولكنك لا تستطيع أن تخاطبني!

ثم نظرت إليه، ولكنه لم يفتح فمه أو ينظر ثانية.. فاستطردت تقول:

- ربما كان يحلم الآن!.. فقد تقوست كتفه فجأة، كما تفعل كلبتنا (جونو)!.. اسأليه يا إيلين!

فقلت:

- إن مستر هيرتون سوف يسأل السيد أن يبعث بك إلى حجرتك فورًا إذا لم تحسنى الأدب!

فإنني لم أره يقوس كتفه فقط، بل رأيته يشد قبضة يده، كأنه يجد به ميلًا إلى استخدامها!

وفي مناسبة أخرى صاحت تقول:

- إنني أعرف لماذا لا يتكلم هيرتون قط عندما أكون في المطبخ.. إنه يخشى أن أضحك عليه!.. ما رأيك يا إيلين؟ لقد حدث مرة أن بدأ يعلم نفسه القراءة، ولأنني ضحكت منه، أحرق الكتب وتخلى عن مشروعه.. ألم يكن أحمق في ذلك؟

فقلت لها:

- أو لم تكوني أنت شقية شريرة؟.. أجيبي على سؤالي هذا!

- ربما كنت كذلك.. ولكني لم أتوقع أن يكون على هذا الغباء.. اسمع يا هيرتون، لو أعطيتك كتابًا الآن، فهل تأخذه؟.. سوف أحاول..

ثم تناولت كتابًا كانت تطالع فيه فوضعته فوق يده، ولكنه قذف به بعيدًا وغمغم يقول إنها إذا لم تتخل عن عبثها فسوف يدق عنقها!

ولكنها قالت:

- حسنًا.. سوف أضعه هنا، في درج المائدة.. أما أنا فسأذهب لأنام..

ثم همست تطلب مني أن أرقبه لأرى إن كان يقرب الكتاب، وغادرت الحجرة.. ولكنه لم يرض أن يدنو منه، فلما أنبأتها بذلك في الصباح، انتابها كرب عظيم.. ورأيت أنها حزينة لإصراره على عبوسه وكسله.. كان ضميرها يؤنبها إذ جعلته يفزع من مجرد التفكير في اصلاح أمره، وكان لفعالها الحمقاء أثرها الحاسم في ذلك... ولكن ذكاءها كان يعمل ويكد في علاج ما أفسدته.. كنت كلما اشتغلت بكي الثياب، أو تابعت غيره من المهام المنزلية التي لا تحتاج للمشى والتنقل، والتي لا يمكنني القيام بها في البهو، رأيتها تعمد إلى كتاب من كتبها البهيجة، وتروح تقرأ لي فيه بصوت عال.. وكانت، عندما يكون هيرتون هناك، تقف عادة عند جزء مشوق من الكتاب، ثم تتركه موضوعًا فوق المنضدة أو غيرها.. فعلت ذلك وكررته مرارًا، ولكنه كان أشد عنادًا من البغل، وبدلًا من أن يلتقط الطعم الذي ألقته له، كان في الليالي الممطرة ينصرف إلى التدخين مع جوزيف، فيجلس كل منهما إلى أحد جانبي المدفأة، أشبه بالإنسان الآلي!.. وكان الأكبر سعيدًا بصممه الذي يجعله لا يفهم شيئًا من الهراء الشنيع الذي تقوله كاثرين، كما كان يطيب له أن يسمى مطالعتها وحديثها، بينما كان الأصغر يبذل قصارى جهده في التظاهر بعدم الاكتراث.. أما في الليالي الصحو، الجميلة فكان هيرتون يخرج إلى الصيد، وتظل كاثرين تتنهد وتتثاءب وتلح على في أن أتحدث إليها، ثم تنطلق إلى صحن الدار أو الحديقة، في اللحظة التي أهم فيها بالكلام.. وكان آخر ما لجأت إليه، أن راحت تبكي وتقول إنها سئمت العيش، وأن حياتها هباءً في هباء..

وكان مستر هيثكليف يزداد يومًا بعد يوم عزوفًا عن معاشرة أحد، حتى أبعد هيرتون نهائيًا عن حجرة الجلوس.. وعلى أثر حادث أصابه في بداية مارس، أصبح الفتى قطعة ثابتة في المطبخ، لأيام عديدة.. كانت بندقيته قد انفجرت بينما كان يجوب التلال وحده، فمزقت شظية منها ذراعه وفقد قدرًا عظيمًا من دمائه قبل أن يستطيع الوصول إلى المنزل.. وكانت نتيجة ذلك أن قضى عليه، برغم أنفه، بأن يخلد إلى الهدوء والسكون، بجوار المدفأة، حتى استعاد قواه.. وكان مما يوافق كاثرين ويرضيها أن تجده دائمًا هناك، حتى

لقد ازدادت كراهية لحجرتها في الطابق العلوي أكثر منها في أي وقت مضى، وكانت ترغمني على أن أجد عملًا في المطبخ، حتى ترافقني إليه..

وفي يوم الاثنين - الموافق لعيد الفصح - ذهب جوزيف إلى سوق (جيمرتون) ببعض الماشية.. وكنت مشغولة في المساء بترتيب بعض المفارش في المطبخ، وقد جلس إيرنشو واجمًا مهمومًا كعادته، في ركن المدفأة، بينما مضت سيدتى الصغيرة تتلهى برسم الصور على زجاج النافذة، أو تستبدل ملهاتها هذه بالغناء الخافت، أو الصيحات الهامسة، وباستراق النظر في سخط وتبرم نحو ابن خالها الذي كان منصرفًا إلى التدخين في ثبات، وهو لا يحول أنظاره عن الموقد!

فلما أبديت لها أنني لا أستطيع أن أسمح لها بالاستمرار في الوقوف أمام النافذة وحجب الضوء عنى، انتقلت إلى جوار المدفأة.. ولم أكن ألقى بالًا إلى أفعالها قبل ذلك، ولكني سمعتها وقتئذ تبدأ قائلة:

- لقد تبينت يا هيرتون أننى أريد.. أنه يسرني.. أنني أود كثيرًا أن تكون ابن خالي الآن، لولا أنك غدوت دائم التجهم لي والخشونة معى..

فلم يجبها هيرتون بكلمة، فاستطردت تقول في إلحاح:

- هيرتون.. هيرتون.. هيرتون.. هل تسمعني؟

فزمجر في فظاظة لا تُبشر بالخير:

- اغربي عن وجهي!

فقربت يدها في حذر وجذبت الغليون من فمه، وهي تقول:

- دعنى آخذ هذا الغليون..

وقبل أن يتسع له الوقت ليحاول استعادته، كان الغليون قد تحطم وألقى به وسط النيران المتأججة.. فانطلق يسب ويلعن، ثم أخرج غليونًا آخر، فصاحت:

- انتظر!.. يجب أن تصغى إلىّ أولًا، ولن أستطيع الكلام وهذه السحب من الدخان تطفو في وجهي!

- فصرخ في وجهها، في ضراوة وشراسة:

- هل لك أن تذهبي إلى الشيطان، وتدعيني وشأني؟

ولكنها مضت في إلحاحها، فقالت:

- كلا.. لن أذهب إلى الشيطان، ولن أدعك وشأنك.. إننى لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله لأجعلك تتحدث معى.. فأنت قد عقدت العزم على ألا تفهمني.. إنني عندما أنعتك بالبلاهة، فلست أعنى شيئًا البتة.. لست أعنى أنني احتقرك وأزدريك.. فهدىء من روعك، وأولني شيئًا من الاهتمام يا هيرتون!.. إنك ابن خالي، ويجب أن تعترف بوجودى..

- بل لن يكون لي شأن بك، ولا بكبريائك الدنيئة، وأفاعيلك الهازئة اللعينة!.. إنه لأولى لى أن أذهب إلى الجحيم، روحًا وجسدًا، قبل أن أتبعك بنظرة جانبية مرة أخرى!.. اغربي عن وجهي الآن.. حالًا!

فعبست كاثرين، وانسحبت إلى مقعد النافذة وهي تعض على شفتها، وتترنم بنغمة غريبة

تحاول أن تخفي وراءها رغبة متزايدة نحو البكاء..

فتدخلت بينهما قائلة:

- يجب أن تكون صديقًا لابنة عمتك يا مستر هيرتون، ما دامت قد ندمت على شقاوتها معك.. إنك سوف تلقى من صداقتها خيرًا عظيمًا.. سوف تصبح رجلًا آخر لو اتخذتها لك رفيقًا..

فصاح:

- رفيقًا؟.. بينما هي تمقتنى ولا تراني أهلًا لأن أمسح حذاءها؟.. كلا.. كلا.. لن أرضى بالازدراء في سبيل كسب رضاها، ولو جعلتني صحبتها ملكًا متوجًا!

فلم تقو كاثرين على إخفاء حزنها، وانبعثت تبكي وهي تقول:

- لست أنا التي أكرهك، بل أنت الذي تكرهني!.. إنك تمقتنى مثلما يمقتنى مستر هيثكليف، بل أكثر!

- أنت كاذبة لعينة!.. لماذا، إذن، كان يثور ضدى غاضبًا، أكثر من مائة مرة، عندما كنت أنحاز لك وأدافع عنك؟.. وذلك بينما كنت تسخرين منى وتحتقرينني و.. عودي إلى مضايقتك لي، وسوف أذهب إليه وأقول إنك أزعجتني حتى أخرجتني من المطبخ!

فقالت كاثرين وهي تجفف عينيها:

- لم أكن أعرف أنك دافعت عني.. ثم إنني كنت تعسة شقية أشعر بالمرارة من الناس جميعًا.. ولكني الآن أشكرك، وأرجو أن تصفح عنى.. فما الذي يمكن أن أصنعه غير ذلك؟

ثم عادت إلى المدفأة، ومدت إليه يدها في إخلاص.. أما هو فقد احتقن وجهه، وازداد تجهمًا، حتى أصبح كسحابة رعدية توشك أن تنفجر، وظل يشدد الضغط على قبضتيه وقد تعلقت أنظاره بالأرض.. ولابد أن تكون كاثرين قد تبينت، بغريزتها، أن ما دفعه إلى هذا المسلك الفظ لا يعدو أن يكون صلابة في الاعتزاز بالنفس والعناد، لا كرهًا ولا بغضًا.. لأنها بعد أن لبثت مترددة برهة، انحنت فوقه وطبعت على وجنته قبلة رقيقة!.. وكأنما حسبت الخبيثة الصغيرة أنني لم أرها، إذ عادت إلى مكانها السابق بجوار النافذة، في رصانة وبراءة!.. ولكني هزّزت رأسي مؤنبة، فتورد وجهها وهمست تقول لي:

- حسنًا.. ماذا كان ينبغي أن أفعل يا إيلين؟.. لقد رفض أن يصافحني، ورفض أن ينظر إليّ، وكان لابد لي من أن أريه، بطريقة ما، أنني أميل إليه، وأنني أريد أن نكون صديقين!

ولست أدرى إن كانت القبلة قد أقنعت هيرتون أخيرًا!.. ولكنه حرص على إخفاء وجهه، لحظة طويلة، حتى لا يراه أحد!.. فلما رفعه، كان يبدو في حيرة يرثى لها، لا يدري إلى أين يوجه أنظاره!

وانشغلت كاثرين في تغليف كتاب أنيق بورق أبيض نظيف.. وبعد أن ربطته بقطعة من الشريط، وكتبت عليه (إلى مستر هيرتون إيرنشو»، رغبت إليَّ في أن أكون سفيرة لها، وأن أحمل الهدية إلى المرسل إليه.. وقالت:

- وتخبريه يا إيلين، أنه إذا قبله فسوف أحضر وأعلمه كيف يقرؤه قراءة صحيحة.. أما إذا رفض قبوله، فسوف أصعد إلى حجرتي ولن أضايقه بعد ذلك قط!

فحملت الكتاب، وأعدت الرسالة على مسامعه، بينما كانت مخدومتى ترقبني في لهفة

وقلق.. إلا أن هيرتون لم يفتح أصابعه المنقبضة، ولذلك وضعت الكتاب فوق ركبته ولكنه لم يقذف به أرضًا كذلك!.. فعدت إلى عملي، بينما توسدت كاثرين ذراعيها فوق المائدة، حتى سمعت حفيف ورق الغلاف وهو يُنزع في رفق، وعندئذ تسللت إلى حيث كان ابن خالها، فجلست إلى جانبه في هدوء.. فرأيته يرتعد، ووجهه يضطرم نارًا، وقد فارقته خشونته وفظاظته إلى غير رجعة.. ولكنه لم يستطع، في بادىء الأمر، أن يستجمع شجاعته، وينطق بحرف واحد ردًّا على نظراتها المتسائلة، وغمغمتها المتوسلة، وهي تقول له:

- قل إنك صفحت عنى يا هيرتون. قلها!.. إنك تضفي عليَّ سعادة بالغة لو قلت هذه الكلمة الصغيرة..

فانبعثت منه تمتمة غير مفهومة.. ومضت كاثرين تضيف في تساؤل:

- وهل ستصبح صديقى؟

- كلا.. فسوف تخجلين منى كل يوم من أيام حياتك، وكلما ازددت معرفة بي، ازداد شعورك بالخجل والعار، وهذا أمر لا أطيق احتماله..

فعلت وجهها ابتسامة أحلى من العسل، وزحفت إلى جانبه ملتصقة به وهي تقول:

- إذن فلن تكون صديقي؟

ولم أعد أسمع كلامًا مفهومًا بعد ذلك!.. فلما تلفت ناحيتهما ثانية، رأيت وجهين منحنيين معًا فوق إحدى صفحات الهدية المقبولة، يشع منهما الضياء والبهاء بحيث لم يعد لديّ شك في أن المعاهدة قد أبرمت بين الطرفين، وأن العدوين قد انقلبا حليفين متحابين!

كان الكتاب الذي يدرسانه مليئًا بالصور الثمينة.. وكانت هذه وجلستهما معًا قد سحرتهما بحيث ظلا بلا حراك حتى عاد جوزيف إلى المنزل.. يا للرجل المسكين!.. لقد وقف ذاهلًا مشدوهًا، وهو يرى كاثرين تجلس على أريكة واحدة مع هيرتون إيرنشو، وتسند يدها إلى كتفه!.. كان حائرًا كيف يطيق فتاه المدلل الاقتراب منها إلى هذا الحد!؟.. وكان أثر ذلك كله في نفسه من العمق بحيث لم يبد أي تعليق ليلتئذ.. وإنما وجد شعوره متنفسًا في تلك التنهدات العميقة التي راح يطلقها وهو ينشر كتابه المقدس الكبير فوق المائدة، ويضع فوقه أوراقًا مالية قذرة كان يخرجها من حافظته، وهي ثمرة الصفقات التي قام بها يومئذ.. وأخيرًا نادي إليه هيرتون، قائلًا:

- خذ هذه إلى السيد، يا غلام، وابق معه هناك.. إنني سوف أصعد إلى حجرتي!.. وهذا الجحر لم يعد صالحًا أو لائقًا بنا، ولابد لنا من أن نهجره ونبحث عن مكان غيره!

فقلت:

- تعالى يا كاثرين فلابد لنا من أن (نهجره) نحن كذلك.. لقد انتهيت من الكي، فهل أنت على استعداد للانصراف؟

فنهضت على كره وهي تقول:

- الساعة لم تبلغ الثامنة بعد!.. سوف أترك هذا الكتاب فوق رف المدفأة يا هيرتون، وسأحضر غيره في الصباح..

فقال جوزيف:

- أى كتاب تتركينه هنا سوف آخذه إلى حجرة الجلوس، وستكون معجزة لو وجدته ثانية.. فافعلى ما يحلو لك إذن!

فأنذرته كاثرين بأن مكتبته سوف تدفع الثمن غاليًا إذا ما فُقد شيء من كتبها، ثم انطلقت ترقى الدرج مترنمة بلحن جميل، بعد أن منحت هيرتون ابتسامة وضاءة وهي تمر به..

ونمت الألفة التي نشأت بينهما على هذا النحو، نموًا سريعًا، وإن صادفتها لحظات من الفتور الوقتي.. فلم يكن إيرنشو لينال الثقافة والتهذيب بكلمة أو رغبة.. كما أن سيدتي الصغيرة لم تكن فيلسوفة، أو مثال الصبر والحلم!.. ولكن تفكيرهما كان يتجه إلى هدف واحد: فأحدهما يحب، ويود أن يضفي تقديره على من يحب، والثاني يحب، ويشتهي أن يكون موضع تقدير محبوبه.. فتكاتفا في النهاية على بلوغه..

وهكذا ترى يا مستر لوكوود أن استمالة قلب كاثرين كانت أمرًا ميسورًا.. ولكنى مسرورة الآن لأنك لم تحاول ذلك.. إن أقصى آمالى أن أرى هذين الاثنين زوجين.. ولن أحسد أحدًا ليلة زفافهما، فلن تكون في انجلترا كلها امرأة أعظم سعادة منى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والثلاثون

كان إيرنشو - غداة ذلك اليوم - لا يزال غير قادر على متابعة أعماله العادية، ومن ثمت كان باقيًا في المنزل ولن يبرحه.. وسرعان ما تبينت أن حجز وديعتى بجانبي، كما كنت أفعل فيما مضى، سوف يكون أمرًا غير عملي، فقد نزلت قبلي، وأسرعت إلى الحديقة حيث كانت قد رأت ابن خالها يؤدي عملًا بسيطًا هناك.. فلما ذهبت لأطلب إليهما الدخول لتناول طعام الافطار، وجدت أنها قد أغرته بتنظيف قطعة كبيرة من الأرض من أشجار العنب البناتي وعنب الديب، وكانا وقتئذ منهمكين معًا في غرس بعض النباتات التي استجلبت شتلاتها من (الجرانج)..

وتملكني الفزع من ذلك الدمار الذي أصاب الحديقة في نصف ساعة، لا أكثر.. فقد كانت أشجار العنب البناتي الأسود قرة عين جوزيف، فإذا كاثرين تركز اختيارها لحوض الزهور التي غرستها، وسط هذه الأشجار..

فصحت مرتاعة:

- ويلاه!.. سوف يأخذ جوزيف السيد ليرى هذا، عندما يكتشفه!.. ثم أى عذر يمكنكما أن تبدياه لإطلاق أيديكما في الحديقة بمثل هذه الجرأة؟.. سوف نرى انفجارًا رائعًا بسبب ذلك، وستريان بنفسيكما!.. وإنني لأعجب يا مستر هيرتون، كيف لم تبق لديك ذرة من العقل حتى تقوم بهذا الانقلاب بناء على طلبها!

فأجاب إيرنشو وقد بدا حائرًا:

- لقد نسيت أنها أشجار جوزيف، ولكنني سأخبره بأنني الذي اقتلعتها..

وكنا نتناول طعامنا دائمًا برفقة مستر هيثكليف.. فكنت أقوم بدور سيدة الدار، في تقديم الشاى وتوزيع الطعام، ولذلك كان وجودي على المائدة ضروريًا، لا غنى عنه.. وكانت كاثرين عادة تجلس إلى جانبي، ولكنها يومئذ تسللت قريبًا من هيرتون، وما لبثت أن رأيتها لا تتستر في إظهار صداقتها أكثر منها في إظهار العداء!

وكنت قد همست لها، أثناء دخولنا الحجرة معًا:

- أرجو ألا تكثرى من الحديث واللفتات مع ابن خالك، فإن ذلك سوف يغضب مستر هيثكليف حتمًا، ويجعله يثور في وجهيكما معًا..

فأجابتنى: (لن أفعل شيئًا من ذلك!).

ولكنها، في اللحظة التالية، كانت تلتصق به، وبدأت تعابثه وتلقى بزهور الأقحوان في طبق الثريد أمامه..



ها في اللحظة التالية، كانت تلتصق به، وبدأت تعابثه، وتلقي
ر الأقحوان في طبق الثريد أمامه..

ولم يجرؤ وقتئذ على أن يخاطبها بكلمة.. بل كاد لا يجرؤ على النظر إليها.. ومع ذلك ظلت ممعنة في عبثها حتى كادت تستثير الضحك منه مرة أو اثنتين.. فعبست في وجهها، وعندئذ ألقت على السيد نظرة سريعة لترى إن كان يلحظها.. ولكنه كان مشغول الفكر بأشياء أخرى غير رفقاء الطعام، كما بدا جليًا في محياه.. فلزمت كاثرين الرصانة لحظة وهي تتفرس فيه بنظرات ثاقبة، وهيبة عميقة.. وما لبثت أن عادت إلى مجونها.. وأخيرًا أفلتت من هيرتون ضحكة مكتومة.. فأجفل مستر هيثكليف بغتة، وراح يتصفح وجوهنا بنظرة سريعة.. وقابلت كاثرين نظراته بنظرتها العادية المليئة بالسخط، بل بالتحدى، التي كان يكرهها منها.. فصاح بها:

- من حسن حظك أنك بعيدة عن متناول يدي.. أي شيطان يتملكك حتى تحملقي في وجهي دائمًا بهاتين العينين الجهنميتين؟.. اخفضى عينيك!.. وإياك أن تذكريني بوجودك مرة أخرى.. لقد ظننتك برئت من الضحك!

فغمغم هيرتون:

- لقد كنت أنا..

فسأله السيد:

- ماذا تقول؟

فأرخى هيرتون أنظاره إلى طعامه، ولم يكرر اعترافه ثانية.. فظل مستر هيثكليف يرمقه بأنظاره لحظة، ثم عاد إلى متابعة إفطاره صامتًا، وإلى استئناف الامعان في التفكير، بعد أن قطعته هذه الواقعة.. وكنا قد أوشكنا على الفراغ من الطعام، وقد تعقل الفتى والفتاة فجلسا هادئين متباعدين، حتى توقعت أن هذه الجلسة لن تشوبها شائبة بعد ذلك، عندما ظهر جوزيف في الباب، وقد بدا في شفته المرتعشة، وعينيه الثائرتين، أن العدوان الذي وقع على خمائله الثمينة قد كُشف أمره.. ولابد أنه قد رأى كاثي وابن خالها واقفين عند تلك البقعة قبل أن يذهب لفحصها، لأنه كان يتكلم وفكاه يصطكان كفكي بقرة تجتر طعامها، فيجعلان من العسير فهم ما يقوله عندما بدأ:

- يجب أن آخذ أجرى، ويجب أن أرحل من هنا!.. لقد كنت أود أن أموت في المكان الذي خدمته ستين عامًا، وظننت أن بوسعي أن آخذ كتبى وكل ما لدى من أشياء أخرى، إلى العلية الصغيرة، فأترك لهما المطبخ يمرحان فيه كما يريدان، وأنشد الهدوء والسكينة في مكان آخر.. كان من العسير أن أتخلى عن مدفأتى وجلستى بجانبها، ولكنى ظننت أنني أستطيع أن أفعل ذلك.. أما الآن فقد أُخذت منى حديقتي، وهذا شيء لا أستطيع أن أحتمله أيها السيد.. إنني أقولها لك من كل قلبى.. إنك قد تحنى رأسك تحت النير، أما أنا فلست معتادًا عليه، ورجل عجوز مثلى لا يعتاد سريعًا على النظم الحديثة!.. إنى أُفضل أن أكسب لقمتى وحسائي من فأس ومطرقة أشتغل بهما على قارعة الطريق!

فقاطعه هيثكليف قائلًا:

- مهلًا.. مهلًا أيها الغبي!.. أوقف هذا الطوفان حالًا!.. ما الذي يثير شجونك؟.. ولكني لن أتدخل في أي شجار بينك وبين نللي، فلو قذفت بك إلى داخل الموقد لما اكترثت!

- إنها ليست نللى!.. فما كنت لأشكو من نللي، ولو أنها أصبحت الآن خبيثة هى الأخرى.. شكرًا لله!.. فهي لا ترضى بأن تسلب أحدًا روحه!.. فلم تكن قط رقيقة الشعور مثلما هي الآن، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وسط الشرور التي تحيط بها!.. إنها (ملكتك) الخسيسة الشريرة التي سحرت فتانا بعينيها الجريئتين، ووسائلها الدنيئة، حتى جعلته.. لا.. إن قلبي

يتمزق!.. جعلته ينسى كل ما فعلته له، وما صنعته به، فيذهب ليزيل أكبر أشجار العنب البناتي في الحديقة!

ثم انخرط في البكاء كالنساء، وقد غلبه إحساسه بمرارة الإهانة التي لحقته، وجحود إيرنشو والحالة الخطيرة التي بلغها!

فقال مستر هيثكليف

- هل ذلك الأبله ثمل؟.. أهو أنت الذي يشكو منه يا هيرتون؟

فأجاب الفتى:

- لقد نزعت شجرتين أو ثلاثًا، ولكني سوف أعيدهما ثانية..

فسأله السيد:

- ولماذا نزعتها؟

عندئذ رأت كاثرين من الحكمة أن تمد لسانها!.. فصاحت:

- لقد أردنا أن نزرع بعض الزهور هناك.. وأنا المسئولة الوحيدة عن ذلك، لأنني طلبت إليه أن يفعله..

فقال حموها في دهشة بالغة:

- من الذي أذنك، بحق الشيطان، أن تمسى شيئًا في هذا المكان؟

ثم تحول إلى هيرتون، وأردف:

- ومن الذي أمرك بأن تطيعها؟

فلم ينبس الأخير بكلمة، وتولت ابنة عمته الإجابة فقالت:

- ما ينبغي لك أن تحقد علينا من أجل بضع ياردات من الأرض أجد فيها زينة لى، بعد أن استوليت على كل أرضى!

- أرضك؟.. متى كانت لك أرض أيتها الحقيرة الوقحة؟

فاستطردت تقول وهي تقابل نظراته النارية في ثبات وتقضم قطعة من الكعك بقيت من إفطارها: (ونقودي!)

فصاح بها:

- اخرسى!.. اذهبي من هنا..

فتابعت التعسة الطائشة كلامها:

- وأرض هيرتون وماله!.. لقد أصبحت وهيرتون صديقين، وسوف أخبره بكل شيء عنك!

وجمد السيد في مكانه مشدوهًا لحظة، وقد امتقع وجهه، وما لبث أن نهض من مكانه، دون أن يرخى أنظاره عنها طيلة هذا الوقت، وبدت في وجهه لمحة من الحقد المميت.. ولكنها عاجلته قائلة:

- إذا ضربتني، فسوف يضربك هيرتون!.. وخير لك أن تعود إلى مجلسك إذن!..

فانفجر هيثكليف كالرعد القاصف:

- إذا لم يُخرجك هيرتون من الحجرة الآن فسوف أضربه حتى أقضي عليه.. أنت أيتها الساحرة اللعينة!.. أتجرؤين على التفاخر بإثارته ضدى؟.. أخرجها من هنا.. ألا تسمع؟.. ألقها في المطبخ!.. إننى سوف أقتلها، يا إيلين دين، إذا تركتها تقع تحت نظرى ثانية!

فحاول هيرتون إقناعها بالخروج همسًا، ولكن هيثكليف صاح به في وحشية:

ـ جرها إلى الخارج!.. اسحبها على الأرض!.. هل أنت واقف لتكلمها؟

ثم دنا منها لينفذ أمره بنفسه.. فقالت كاثرين:

- إنه لن يطيعك بعد الآن، أيها الرجل الشرير!.. وسوف يمقتك عاجلًا مثلما أمقتك!

فغمغم الشاب مؤنبًا:

- صه!.. صه!.. إننى لا أقبل أن أسمعك تخاطبينه على هذا النحو!.. هيا بنا..

فصاحت به:

- ولكنك لن تدعه يضربني؟!

فهمس لها في لهفة: (تعالى إذن!).

ولكن فات الأوان.. فقد أمسك بها هيثكليف، ثم قال لإيرنشو:

- والآن، اخرج أنت!.. فهذه الساحرة اللعينة قد أثارتني هذه المرة وأنا لا أحتمل الإثارة، وسوف أجعلها تندم على ذلك طيلة حياتها..

وكان قد دس يده في شعرها وقبض على ناصيتها، فحاول هيرتون أن يُخلص غدائرها من قبضته، وهو يتوسل إليه ألا يؤذيها هذه المرة.. وكانت عينا هيثكليف السوداوان تومضان شررًا، وقد بدا عليه أنه يهم بتمزيق كاثرين إربًا.. واشتد بي الانفعال والهلع حتى عزمت على المخاطرة بإنقاذها، عندما رأيت أصابعه تلين فجـاة، ورأيته ينقل قبضته من رأسها إلى ذراعها، وهو يحدق في وجهها في إمعان غريب.. وما لبث أن وضع يده فوق عينيها، ووقف لحظة وقد بدا عليه أنه يستعيد سيطرته على نفسه، ثم تحول ثانية إلى كاثرين قائلًا في هدوء مفتعل:

- يجب أن تتعلمي كيف تتحاشين إثارة انفعـالي، وإلا قتلتك حقًّا يومًا من الأيام!.. اذهبي الآن مع مسز دين، وأبقى معها، وأقصرى قحتك وسلاطة لسانك على أذنيها!.. أما هيرتون إيرنشو، فلو رأيته يصغى إليك ويعمل بوحيك، فسوف أبعث به ليبحث عن لقمته حيث يستطيع أن يجدها!.. إن حبك سوف يجعل منه طريدًا متسولًا.. والآن، خذيها يا نللى، واتركونى جميعًا... دعوني!.. دعونى!

فأخذت سيدتي الصغيرة إلى الخارج، وكانت فرحتها بالخلاص من يده قد غلبت رغبتها في المقاومة.. وتبعنا الآخر، وبقي مستر هيثكليف وحده في الحجرة حتى موعد الغداء.. وكنت قد نصحت لكاثرين أن تتناول غداءها في الطابق العلوي، ولكنه ما إن رأى مقعدها خاليًا حتى أرسلني لاستدعائها.. ولم يخاطب أحدًا منا بكلمة، ولم يتناول من الطعام إلا قليلًا، ثم انصرف على الأثر، قائلًا إنه لن يعود إلا في المساء..

وقد أقام الصديقان في حجرة الجلوس أثناء غيبته، حيث سمعت هيرتون يصد ابنة عمته في عبوس، عندما همت بأن تدلى بأسرار مسلك حميها نحو والد الشاب، إذ قال لها أنه لن يحتمل كلمة للحط من قدر هيثكليف.. فلو كان الشيطان نفسه، فإن ذلك لا يعني شيئًا البتة!.. وسوف يقف إلى جانبه.. وأضاف أنه يفضل أن تعاود إهانتها له، كما اعتادت من قبل، على أن تتحول بها إلى مستر هيثكليف.. فازدادت كاثرين عنـادًا عنـدما سمعت ذلك، ولكنه وجد الوسيلة الناجعة ليجعلها تمسك لسانها، بأن سألها كيف يكون شعورها إذا سمعته يقول سوءًا عن والدها؟.. وعندئذ أدركت كاثرين أن إيرنشو كان يعد كرامة السيد من كرامته هو، وأنه كان متعلقًا به بصلات أقوى من أن يستطيع العقل تحطيمها.. كانت تربطه به سلاسل صهرتها العادة وقساها طول العشرة بحيث يكون من القسوة أن تحاول فكاكها.. وقد أظهرت كاثرين، منذ ذلك الحين، من طيبة القلب ما جعلها تتجنب كل شكوى أو تذمر، بل وكل كلمة تنم عن كراهيتها لمستر هيثكليف ونفورها منه.. واعترفت لي بعد ذلك بأسفها على أن حاولت إفساد العلاقة بينه وبين هيرتون.. والحق أنني لا أعتقد أنها همست بحرف واحد في مسامع هذا الأخير ضد مضطهدها بعد ذلك..

فلما انتهى ذلك الخلاف الطفيف بينهما، ارتدا صديقين ثانية، وانهمكا بعد ذلك في مشاغلهما العديدة كتلميذ ومعلمته.. وأتيت لأجلس معهما، بعد أن فرغت من عملي، فشعرت بالراحة والسكينة عندما كنت أرقبهما، بحيث غفلت عن انقضاء الوقت سريعًا.. وأنت تعلم، يا مستر لوكوود، أنهما كلاهما يعدان طفلين لى إلى حد ما.. وقد ظللت طويلًا فخورة بأحدهما، وإني واثقة الآن من أن الآخر سوف ينال من نفسي تلك المنزلة نفسها.. إن طبيعته الأمينة المتوثبة الذكية قد نفضت عنها سريعًا سحب الجهل والانحطاط التي نشأ فيها، وكان مديح كاثرين الصادق المخلص خير حافز له على المثابرة.. وكأنما أضفى تألق ذهنه تألقًا جديدًا على محياه، وأضاف إليه حيوية وثابة ونبلًا أصيلًا، حتى كدت لا أتصور أنه ذلك المخلوق نفسه الذي رأيته يوم اكتشفت سيدتي الصغيرة في (مرتفعات ويذرنج)، بعد رحلتها إلى صخور (بنستون كراجز).. وفيما كانا يعملان، وأنا أرمقهما في إعجاب، كان الغسق يقترب في خطى حثيثة؛ ويأتي معه بالسيد.. وكان مقدمه علينا بغتة، وعلى غير انتظار، إذ دخل من الباب الأمامي، وألقى على ثلاثتنا نظرة شاملة قبل أن نستطيع أن نرفع رؤوسنا وننظر إليه.. فقلت في نفسى: (حسنًا.. ما من منظر أكثر بهجة وأقل ضررًا كهذا الذي يشملنا، ومن العار حقًّا أن يفكر في انتهارهما)..

كان وهج النـار الأحمر يتألق على الرأسين الجميلين، ويكشف عن وجهين يفيضان بلهفة الطفولة واهتمامها.. فمع أنه في الثالثة والعشرين، وهي في الثامنة عشرة، إلا أن كلًا منهما كان لديه الكثير من الأشياء الجديدة عليه في الأحاسيس والعلم بحيث لا يكابد أو يظهر تلك الميول المنبعثة عن نضج واعٍ خال من الأوهام..

ورفعا عيونهما معًا لتلتقى بنظرات مستر هيثكليف.. ولعلك لم تلاحظ قط أن عيونهما متشابهة تمامًا، وأنها نفسها عينا كاثرين إيرنشو.. فليس لكاثرين الحالية أي شبه بها غير ذلك، إلا في جبهتها العريضة، وفى تقوس أنفها بما يجعلها تبدو متعجرفة متعالية، سواء أرادت ذلك أم لم ترده.. أما هيرتون، فإن شبهه بعمته أبعد مدى.. شبه اعتاد أن يبدو غريبًا دائمًا.. أما في تلك اللحظة خاصة فكان مذهلًا إلى حد بعيد، لأن حواسه كانت متحفزة، وملكاته العقلية قد نشطت نشاطًا غير عادى.. وأحسب أن هذا الشبه قد غل يدى مستر هيثكليف وأضعفه!.. فقد سار إلى المدفأة في انفعال واضح، ثم ما لبث أن سكن وهدأ عندما نظر إلى الفتى.. أو لعل انفعاله قد تغيرت بواعثه ومظاهره، لأنه كان ما يزال باديًا في محياه بعد.. وتناول الكتاب من يد هيرتون، وألقي نظرة على الصفحة المفتوحة، ثم أعاده إليه دون أن يفوه بأية ملاحظة.. كل ما فعله هو أن أشار إلى كاثرين بالانصراف!.. أما رفيقها فقد تلكأ قليلًا قبل أن يمضي في أثرها، وكنت على وشك أن أتبعهما، عندما أشار

إلى أن أبقى جالسة مكاني..

وبعد أن تحدث لحظة عن المنظر الذي شهده للتو. بدأ يقول:

- إنها نهاية تافهة، أليس كذلك؟.. أليست خاتمة سخيفة لكل ما بذلت من جهود عنيفة؟.. لقد جئت بالروافع والمطارق لأهدم هذين البيتين وأخربهما، ورحت أدرب نفسي لأكون قادرًا على العمل مثل هرقل، حتى إذا ما استعددت لكل شيء، وأصبح في يدي، إذا بالرغبة في رفع حجر واحد من أحد السقفين تتلاشي كأن لم تكن!.. إن أعدائى القدماء لم يهزمونى.. وقد تكون هذه الآونة هي اللحظة الملائمة لكي أثأر لنفسي من ذريتهم.. وفي وسعى أن أفعل ذلك.. بل ما من أحد يستطيع أن يحول دونه.. ولكن أين الفائدة في ذلك؟.. إنني لم أعد أبالي بأن أضرب ضربتى.. وليس في وسعي أن أجشم نفسي مشقة رفع يدي.. لكم يبدو ذلك كما لو كنت قد ظللت أعمل وأكد طول هذا الوقت لكي أقدم عرضًا رائعًا للشهامة والمروءة!.. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن حالتي.. إنما الحقيقة هي أنني فقدت القدرة على الاستمتاع بتدميرهما، وأنني أصبحت أضن بنفسي عن التدمير والتخريب بغير ثمرة..

إن هناك تبدلًا غريبًا في طريقه إليّ يا نللي.. وأنا الآن أجتاز ظله.. لقد فقدت كل اهتمام بحياتي اليومية العادية، بحيث أصبحت لا أكاد أذكر طعامي وشرابى.. إن هذين الاثنين اللذين غادرا الحجرة الآن هما وحدهما اللذان يحتفظان بمظهر مادي محدد أمامي.. وهذا المظهر سبب لي ألمًا يظل يتزايد حتى يبلغ مبلغ العذاب.. أما هي، فلست أود أن أتكلم عنها، ولا أريد أن أفكر فيها، ولكني أتمنى من كل قلبي لو أنها كانت مختفية عن أنظارى، فإن وجودها لا يثير في نفسي إلا مشاعر تبعث على الجنون.. ولكنه هو، يحرك مشاعري على نحو يختلف عن ذلك تمامًا، ولو استطعت - دون أن أبدو مجنونًا - لما كنت أراه بعد ذلك قط..

ولاحت على شفتيه ابتسامة مغتصبة باهتة، وهو يستطرد قائلًا:

- وربما ظننتنى مشرفًا على الجنون لو حاولت أن أصف لك آلاف الصور عن ذكريات الماضي وأفكاره التي يوقظها أو يجسدها أمامي.. ولكني أعلم أنك لن تتحدثي بما سوف أقوله لك، كما أن عقلي طال عليه الأمد في عزلته وانطوائه على نفسه، حتى اشتاق أخيرًا إلى أن يُشرك معه غيره..

منذ خمس دقائق كان هيرتون أمامي صورة لشبابي تجسدت أمامي، ولم يكن بالنسبة لي كائنًا بشريًا!.. كنت أراه وأحس به بطرق مختلفة، حتى أصبح من المحال أن أبدأه الكلام بطريقة معقولة!.. فإن شبهه المروع بكاثرين2 باديء ذي بدء، يجعله مقترنًا بها إلى حد مخيف.. ومع ذلك فهذا الذي قد تحسبينه أقوى الأسباب لشل خيالى، إنما هو في الواقع أقلها شأنًا!.. وإلا فأي شيء حولي لا يقترن بها؟.. وأي شيء حولي لا يذكرني بها؟.. إنني لا أستطيع أن أنظر إلى أرض هذه الحجرة دون أن أرى ملامحها مصورة في كل مربع منها!.. أراها في كل سحابة، وفى كل شجرة.. أراها تملأ الهواء بالليل، وألمحها في كل شيء بالنهار.. تحيط بى صورتها أينما كنت.. إن وجوه الرجال والنساء العاديين - بل أساريرى نفسها - تهزأ منى وتسخر بي بما تبديه من شبه بها!.. إن الدنيا بأسرها مجموعة مخيفة من التقارير تثبت أنها لا تزال موجودة، وأننى قد فقدتها!.. حسنًا.. لقد كانت صورة هيرتون شبح غرامي الخالد، ومحاولاتى الضارية للتعلق بحقوقى.. وهوانى، وكبريائى، وسعادتى، وعذابى!

ولكن من الجنون أن أردد هذه الخواطر على مسامعك.. كل ما في الأمر أنها سوف تجعلك تدركين لماذا كنت لا أرى في صحبته خيرًا، برغم نفوري من البقاء بمفردي دائمًا.. بل إنها

تزيد في عمق الألم الدائم الذي أكابده!.. وتساهم في جعلى غير مكترث لعلاقته بابنة عمته.. فالواقع أنني لم أعد قادرًا على أن أوليهما أي اهتمام..).

- ولكن ما الذي تعنيـه بأن تغييرًا ما سوف يحل بك يا مستر هيثكليف؟

قلت ذلك وقد أقلقتني حالته، برغم أنه لم يكن فيما أرى معرضًا لخطر الجنون أو الموت، كان في عنفوان قوته وصحته.. أما عن حالته العقلية، فإنه كان منذ طفولته يجد متعته في الاستغراق في الأفكار السوداء، والتعلق بأوهام عجيبة!.. وربما كان مصابًا بذلك النوع من الجنون الذي يتركز في شيء واحـد.. في موضوع معبودته الراحلة!.. ولكن قـواه العقلية، في غير ذلك من الأمور جميعًا، لم تكن تقل سلامة عن قواى..

فأجاب:

- إنني لن أعرفه إلا عند مقدمه.. كل ما هنالك أنني أحس به في غموض..

- ألا تحس بأعراض المرض؟

- كلا يا نللى. ليس بي شيء من ذلك..

- ألا تكون، إذن، خائفًا من الموت؟

- خائفًا؟.. كلا.. فما بى خوف من الموت، ولا أنا أتوقعه، ولا أرجوه وأتمناه.. ولماذا ينبغي أن تساورني هذه المخاوف؟.. إنني مع تكويني القوى، ونظام معيشتي المعتدل، وعدم تعرضي للمخاطر في أعمالي، كل ذلك ينبغى - بل يحتمل أن يحـدث فعلًا - أن أظل فوق سطح الأرض حتى لا تبقى في رأسي شعرة سوداء!.. ومع فلا أراني قادرًا على الاستمرار على هذه الحال.. إن عليَّ الآن أن أذكر نفسي بأن أتنفس، وأكاد أذكـر قلبي بأن ينبض!.. إن الأمر معى يشبه زمبركًا صلبًا ثني إلى الخلف.. فلو قمت بأقل عمل لا يدفعنى إليه عزم معين، فإنما أساق إلى ذلك سوقًا.. ولو انتبهت إلى شيء، حي أو ميت، لا يقترن عندي بفكرة عامة فإنما أفعل ذلك برغم أنفى.. لم تبق لي إلا رغبة وحيدة يتلهف كياني كله وحواسى كلها شوقًا إلى بلوغها.. وقد ظلت تتوق إليها وتتلهف عليها طويلًا، وفي غير تردد أو إحجام، بحيث أصبحت مقتنعًا بأنني سوف أبلغها، وفي أقرب وقت، لأنها فغرت فاها، والتقمت وجودى كله!.. إن تعجلى وقوعها قد ابتلعني وأطبق فيه عليَّ.. ولا تظني أن هذا الاعتراف قد أراحنى، أو أزاح ما يثقل كاهلي، وإنما هو تفسير لأشياء أخرى في مسلكي وتصرفاتي كانت غامضة مبهمة.. آه يا إلهي!.. لقد طال الصراع، فليته يبلغ نهايته!

وبدأ يذرع الحجرة ذهابا وجيئة، ويتمتم بأشياء رهيبة غير مفهومة، حتى ملت إلى الاعتقاد، مثلما قال إن جوزيف قد اعتقده، بأن الضمير قد أحال قلبه إلى جحيم دنيوى!.. وعجبت كثيرًا كيف يمكن أن ينتهي ذلك كله.. فعلى الرغم أنه قلما كشف في الماضي عن حالته العقلية، ولو في نظراته، فلست أشك في أن هذه هي طبيعته العادية.. وهو نفسه الذي يؤكدها، لأنه ما من إنسان كان يستطيع أن يتكهن بالحقيقة، من مظهره العام.. وأنت نفسك، يا مستر لوكوود، لم تدرك شيئًا عن حقيقته عندما رأيته، وقد كان في الفترة التي أتحدث عنها لا يختلف في شيء عما كان وقتئذ، إلا أنه كان أكثر ولعًا بالوحدة، وأقل كلامًا مع الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والثلاثون

ظل مستر هيثكليف عدة أيام بعد تلك الأمسية يتجنب لقاءنا في أوقات الطعام.. على أنه لم يكن يرضى بأن يستبعد هيرتون وكاثي من محضره بصورة ظاهرة.. كان ينفر من الخضوع لمشاعره والاستكانة لأحاسيسه، فاختار أن يغيب ساعة الطعام.. وكان يبدو أن وجبة واحدة يتناولها في الأربع والعشرين ساعة كافية لتقيم أوده..

وبعد أن أوت العائلة كلها إلى الفراش ذات ليلة، سمعته يهبط الدرج، ويغادر البيت من الباب الأمامي.. ولم أسمعه يعود إلى الدار، ثم تبينت في الصباح أنه ما يزال في الخارج.. كنا وقتئذ في شهر أبريل، وكان الجو صحوًا دافئًا، وأشجار التفاح القصيرة عند الجدار الجنوبي مليئة بالأزهار والبراعم.. فلما فرغنا من طعام الافطار، ألحت عليَّ كاثرين في أن أحضر شغلى ومقعدي، وأجلس تحت أشجار الشربين في الطرف الأقصى من المنزل، ثم أغرت هيرتون - الذي كان قد شفى تمامًا من اصابته - بأن يحفر ويسوى حديقتها الصغيرة، التي نقلت إلى ذلك الركن على أثر شكوى جوزيف وبسببها.. وكنت أنعم في مجلسي بعبير زهور الربيع حولى، والزرقة الجميلة الهادئة فوق رأسي، عندما رجعت سيدتى الصغيرة - وكانت قد ذهبت لتحضر بعض جذور عنب الديب من خمائلها بالقرب من البوابة ليغرساها حول أحواض الزهور - تحمل القليل منها، وأخبرتنا أن مستر هيثكليف عاد إلى الدار، ثم أضافت وقد علت الحيرة أساريرها:

- وقد كلمنى!

فسألها هيرتون:

- وماذا قال لك؟

- طلب إلى أن أبتعد عنه بأسرع ما يمكنني!.. ولكنه كان يبدو مختلفًا كل الاختلاف عن مظهره المعتاد بحيث وقفت لحظة أحدق النظر في وجهه..

- وكيف؟

- إنه يكاد يكون مرحًا وضاء المحيا.. كلا.. إن ذلك لا يكفي لوصفه.. كان شديد الانفعال، يطفح وجهه بشرًا وسرورًا ضاريًا..

فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث:

- إن النزهات الليلية تسليه كثيرًا إذن..

ولكني في الحقيقة كنت أشد منها دهشة، وتلهفت على التحقق من صدق ما قالته.. فإن رؤية السيد مرحًا مسرورًا ليست من المشاهد العادية التي يراها المرء كل يوم.. وانتحلت عذرًا لقيـامي، ثم مضيت إلى الداخل.. وكان مستر هيثكليف يقف في فتحة الباب، شاحب الوجه، يرتعد بدنه رعدة واضحة.. ولكن من المحقق أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب يفيض سرورًا، ويبدل شكل وجهه تبديلًا..

فقلت:

- ألا تريد بعض الطعام لإفطارك؟

وكنت أريد أن أكتشف أين قضى ليلته، ولكني لم أرد سؤاله مباشرة، فأردفت أقول:

- لابد أن تكون جائعًا الآن بعد أن ظللت تجول في الخارج الليل بطوله..

فأشاح بوجهه وقال في شيء من الازدراء كأنما حدس محاولتي في استكناه سبب مرحه وانطلاقه:

- كلا.. لست جائعًا!

فشعرت بالحيرة والارتباك، ولم أدر ما إذا كانت الفرصة سانحة لألقى عليه قليلًا من النصح والارشاد، فقلت:

- لا أظن من الصواب أن تقضى الليل هائمًا على وجهك في الخارج، بدلًا من أن تقضيه في الفراش، فإن ذلك ليس من الحكمة في شيء، في هذا الفصل الشديد الرطوبة.. وفي ظني أنك سوف تصاب ببرد أو حمى، فإن بك شيئًا ما الآن!

- ليس بي إلا ما أطيق احتماله، وبسرور عظيم، على أن تتركيني وشأني.. أمضي إلى الداخل، ولا تضايقيني!

قاطعته ولاحظت أثناء مروري بجانبه أن أنفاسه كانت سريعة متلاحقة كأنفاس القطط.. فقلت لنفسي:

- نعم.. سوف تصيبه نوبة من المرض.. ولكنى لا أفهم ما الذي كان يفعله..

وفي ظهر ذلك اليوم، جلس معنا على مائدة الغداء، وتلقى من يدي طبقًا مليئًا بالطعام، كأنما يريد أن يعوض ما فاته في صومه الماضي.. ولم يفته أن يشير إلى حديثي معه في الصباح، فقال:

- ليس بي برد أو حمى يا نللي.. وسوف ترين أننى على استعداد لإلتهام الطعام الذي قدمته لي!

وتناول شوكته وسكينته، وهم بأن يبدأ طعامه، عندما بدا كأنما غاضت شهيته فجأة، فوضعهما أمامه على المائدة ثانية، وراح يتطلع نحو النافذة في لهفة. وما لبث أن نهض وانطلق إلى الخارج.. ورأيناه يذرع الحديقة ذهابًا وجيئة بينما رحنا نتم طعامنا، وعندئذ قال إيرنشو أنه سوف يذهب ويسأله عن سبب عدم رغبته في الطعام، فقد ظن أننا كدرناه بطريقة ما..

فلما رجع صاحت كاثرين تسأله:

- حسنًا.. هل هو قادم؟

- كلا.. ولكنه ليس جائعًا.. وهو يبدو وقد غمره سرور نادر الوقوع حقًا.. غير أنه ضاق بي ذرعًا عندما خاطبته مرتين، فطلب إلىّ أن أتركه وألحق بك، وأبدى عجبه كيف يمكنني أن أنشد صحبة أي انسان غيرك!

ووضعت طبقه فوق حاجز المدفأة ليظل ساخنًا.. وقد عاد إلى الحجرة بعد ساعة أو ساعتين عندما كانت خالية منا.. ولكنه لم يبد أكثر هدوءًا وسكينة.. كانت تبدو تحت حاجبيه الأسودين تلك النظرة الغريبة نفسها التي تفيض ببهجة وسرورًا، وهي نظرة غريبة شاذة حقًا.. ثم ذلك اللون الشاحب نفسه، كأن وجهه قد خلا من الدماء.. كان فمه منفرجًا، وأسنانه بادية للعيان، في نوع من الابتسام الغريب!.. وكان بدنه كله يرتجف، لا كما يرتجف المرء من البرد أو الضعف، بل كما يرتج وتر مشدود إلى أقصى احتماله.. كان ما به هزات قوية، أكثر منها رعدة عادية..

وقلت لنفسي أنني سوف أسأله عما دهاه.. ومن غيرى أخلق بسؤاله؟.. فهتفت قائلة:

- هل تلقيت أية أنباء سارة يا مستر هيثكليف، فإنك تبدو منتعشًا إلى حد غير مألوف؟

- ومن أين تأتيني الأنباء السارة؟.. إنني منتعش بسبب الجوع، ولكنى، فيما يبدو، لا ينبغي أن آكل شيئًا..

- إن طعامك هنا على المدفأة، فلماذا لا تتناوله؟

فغمغم في عجلة:

- لست أريده الآن، وسوف أنتظر حتى العشاء.. ثم إننى أرجـوك يا نللي للمرة الأخيرة، أن تنذرى هيرتون والأخرى بأن يبعدا عن طريقي.. إنني لا أريد أن يزعجني أحد، وأريد أن تكون لي هذه الحجرة وحدي..

فسألته:

- هل من سبب جديد لهذا الابعاد؟.. خبرني لماذا تبدو غريبًا إلى هذا الحد يا مستر هيثكليف؟.. وأين كنت في الليلة الماضية؟.. إنني لا ألقى عليك هذه السؤال لمجرد الفضول وحب الاستطلاع، ولكن..

فقاطعني ضاحكًا:

- بل إنك تلقين هذا السؤال بأشد ما يكون الفضول وحب الاستطلاع.. ومع ذلك فسوف أجيب عنه.. لقد كنت فى الليلة الماضية على أعتـاب الجحيم!.. أما اليوم فإنني على مرمى البصر من جنتى!.. إن عينيّ مركزتان عليها، ولا يبعدنى عنها غير ثلاثة أقدام!.. والآن، خير لك أن تنصرفى، ولن ترى أو تسمعى شيئًا يفزعك، ولو امتنعت عن التجسس والتلصص!

فانصرفت خارجة، بعد أن نظفت الأرض والمائدة، وأنا أشد ما أكون حيرة واضطرابًا..

ولم يفارق حجرة الجلوس ثانية بعد ظهر ذلك اليوم، كما لم يتطفل أحد على وحدته وعزلته.. حتى إذا ما بلغت الساعة الثامنة، قدرت أن من الأفضل أن أحمل إليه عشاءه وشمعة موقدة، برغم أنه لم يدعنى.. فرأيته مستندًا إلى حافة نافذة مفتوحة، ولكنه لم يكن ينظر إلى الخارج، بل كان يدير وجهه نحو داخل الحجرة المعتمة.. وكانت النار في المدفأة قد تحولت إلى رماد، وامتلأت الحجرة بهواء تلك الأمسية التي تحفل سماؤها بالسحب، ذلك الهواء البارد المشبع بالرطوبة.. وكان الجو ساكنًا بحيث لم نكن نميز همسات المياه في قناة (جيمرتون) فحسب، بل كنا نسمع قرقرتها وخريرها فوق الحصى وخلال الأحجار الكبيرة التي تعترض سبيلها.. فصحت في سخط إذ رأيت الموقد موحشًا كئيبًا، وبدأت أغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى، حتى بلغت النافذة التي يجلس بجوارها، فقلت:

- هل يجب أن أغلق هذه أيضًا؟

وكنت أرمى إلى أن أنبهه حتى ينهض من مكانه، لأنه لم يكن يريد أن يتحرك قط.. وعندئذ ومض ضوء الشمعة فوق أساريره..

أواه يا مستر لوكوود!.. إنني لا أستطيع أن أعبر لك عن الانتفاضة الفظيعة التي هزت كيانى هزًّا من ذلك المنظر الذي وقعت عليه أنظاري في تلك اللحظة القصيرة!.. هاتان العينان السوداوان العميقتان!.. وهذه الابتسامة!.. وذلك الشحوب الذي يشبه صفرة الموتى!.. إنه لم يكن يبدو أمامي مستر هيثكليف، وإنما كان ماردًا من الجن!... وفي غمرة الفزع الذي ألم بي، تركت الشمعة تميل على الجدار فانطفأت وتركتني في الظلام..

وعندئذ أجاب بصوته المألوف:

- نعم.. أغلقيها.. ولكن حسبك هذا التخبط!.. لماذا أمسكت بالشمعة في وضع أفقى؟.. أسرعي، وأحضرى غيرها..

فهرعت خارجة في فزع أحمق، وقلت لجوزيف:

- إن السيد يريد أن تحمل إليه ضوءًا وتشعل النار في المدفأة..

فإنني لم أجد الجرأة على الذهاب إلى هناك مرة أخرى وقتئذ..

وحمل جوزيف بعض الجمر في المجرفة، ومضى إلى الداخل.. ولكنه عاد بها على الفور، وفي يده الأخرى صفحة الطعام، قائلًا إن مستر هيثكليف قام ليذهب إلى فراشه، وأنه لا يريد شيئًا من الطعام حتى الصباح.. وسمعناه للتو يصعد الدرج، ولكنه لم يذهب إلى حجرته العادية، بل تحول نحو تلك الحجرة الأخرى التي تحوي الفراش ذا الخزانة الخشبية.. وكانت نافذتها، كما أخبرتك من قبل، عريضة تكفي لمرور أي شخص منها، فطرأ على فكرى أنه يدبر رحلة أخرى من رحلات منتصف الليل، لا يريد أن نشك في أمرها أو نعرفها..

قلت لنفسي: (أيكون غولًا أم من مصاصي الدماء؟).. فقد سبق أن قرأت عن مثل هذه الشياطين الفظيعة المتجسدة..

ولكني ما لبثت أن ركزت تفكيري في تذكر كيف تعهدته في طفولته، وأشرفت عليه وهو ينمو إلى طور الشباب، وكيف لازمته خلال حياته كلها تقريبًا، فبدا لي من السخف أن أستسلم لمثل هذا الشعور بالفزع!.. ولكن الوساوس والخرافات عادت تهمس لي، بينما كان النعاس يقود خطاى نحو اللاشعورية: (ولكن من أين أتى ذلك الشيء الأسمر، الذي آواه رجل طيب - ذات يوم - فحاق به وبأسرته الدمار؟..) وبدأت، فيما يشبه الحلم، أكد ذهني في تخيل من يصلح لأن يكون والده، أو والدته!.. ثم رحت أستعيد تأملات اليقظة، وأستعرض حياته كلها مرة أخرى، مع اختلافات قاتمة.. وأخيرًا صورت موته وجنازته التي لا أذكر عنها إلا ما انتابنا من الضيق عندما أردنا أن نُملي العبارة التي تكتب على قبره، وكيف استشرت حفار القبور في ذلك.. لم يكن له اسم، ولم نكن نعرف عمره، فاضطررنا إلى أن نقنع بكلمة واحدة هي (هيثكليف).. وقد صح حلمي في ذلك، لأن هذا ما حدث فعلًا.. ولو دخلت إلى المقبرة لما قرأت على شاهد قبره إلا هذه الكلمة، وتاريخ موته..

وأعاد لي بزوغ الفجر هدوئى واتزانى، فنهضت وخرجت إلى الحديقة، بمجرد أن أصبحت الرؤية ممكنة، لأتحقق مما إذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته.. ولكني لم أجد شيئًا منها.. فقلت لنفسي: (لقد بقي في المنزل، وسوف يكون بخير اليوم).. وأعددت طعام الإفطار لأهل المنزل جميعًا، كعادتي كل يوم، ولكني طلبت إلى هيرتون وكاثرين أن يتناولا إفطارهما قبل أن ينزل السيد، لأنه تأخر في النوم.. ففضلا أن يتناولاه في الحديقة تحت الأشجار، وزودتهما بمائدة صغيرة حتى يجلسا في راحة..

فلما عدت إلى المنزل وجدت مستر هيثكليف في الطابق السفلي.. كان يتحدث مع جوزيف عن بعض شئون الزراعة، ويصدر أوامر واضحة دقيقة في الأمر الذي كانا يبحثانه.. ولكنه كان يتكلم في عجلة، ويدير رأسه جانبًا باستمرار، وفى محياه طابع ذلك الانفعال نفسه، بل لقد ازداد مغالاة فيه.. فلما غادر جوزيف الحجرة، اتخذ مجلسه في المكان الذي يفضله عادة، وعندئذ وضعت أمامه قدحًا كبيرًا من القهوة.. فأدناه إليه، ثم مد ذراعيه فوق المائدة، ونظر إلى الجدار المقابل وهو يتفرس - كما حسبت - في قسم معين منه، إلى الأعلى وإلى الأسفل، بعينين قلقتين لامعتين، وفي اهتمام ولهفة بحيث كف عن التنفس أكثر من نصف

دقيقة!

فدفعت إلى يده قطعة من الخبز، قائلة:

- هيا.. خذ هذه فكلها، واشرب قهوتك وهي ساخنة، فقد انتظرت الإفطار ما يقرب من الساعة..

ولكنه لم ينتبه إلى.. ومع ذلك كان يبتسم باستمرار.. ووددت لو أنني أراه يصر على أسنانه ويكشر عن أنيابه، فذلك خير من هذه الابتسامة.. وعندئذ صحت:

- مستر هيثكليف!.. سيدى!.. بحق السماء لا تحملق بأنظارك هكذا كأنك ترى مشهدًا خارقًا للطبيعة..

فأجاب:

- وبحق السماء لا تصرخي هكذا عاليًا!.. انظرى حواليك وخبريني هل نحن وحدنا؟

- طبعًا!.. إننا وحدنا طبعًا!

ومع ذلك فإنني أطعته بحركة غير إرادية، كما لو كنت غير واثقة تمامًا.. وعندئذ أزاح أواني الإفطار بحركة من يده وأفسح بينها مكانًا أمامه، ثم مال إلى الأمام ليمعن النظر في مزيد من الراحة واليسر..

وفي تلك اللحظة تبينت أنه لم يكن ينظر إلى الجدار.. لأنني عندما ركزت انتباهي فيه وحده، كان يبدو تمامًا كأنما يحدق النظر في شيء يبعد عنه بنحو ياردتين.. ومهما يكن من أمر ذلك الشيء، فإنه كان فيما يظهر، ينقل إليه السرور والألم معًا، بأقصى ما في كليهما من سحر.. أو على الأقل هذا ما كانت توحى به تعبيرات وجهه التي تنبض بالعذاب واللوعة والنشوة معًا!.. ولم يكن ذلك الشيء الذي يتخيله ثابتًا.. فقد كانت كلتا عينيه تتبعانه في مثابرة لا تكل، وكانتا حتى وهو يتحدث إلىّ، لا تتحولان عنه ولا تطرفان.. وعبثًا كنت أذكره بزهده الطويل عن الطعام.. فكلما استجاب لضراعتى مرة، وتحرك ليمس شيئًا منه، ومدَّ يده ليتناول قطعة من الخبز، كانت أصابعه تنقبض وتتقلص قبل أن يصل إليها، وتظل كذلك ممدودة فوق المائدة، غافلة عن هدفها..

وظللت جالسة، مثالًا للصبر والأناة، أحاول بين وقت وآخر أن أثير انتباهه، وأنتزعه من تأملاته التي تستغرقه كله، حتى ضاق بى ذرعًا، ونهض متململًا ليسألني لماذا لا أسمح له بأن يتناول طعامه على مهل؟.. ثم ليقول لي أن لا حاجة بي إلى الانتظار معه في المرة القادمة، بل علىّ أن أعد المائدة وأنصرف.. وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى غادر المنزل، ومضى يسير في ممر الحديقة متلكئًا، حتى اختفى عن الأنظار وهو يجتاز البوابة..

ومضت بي الساعات تزحف في قلق وانشغال، وحلت ليلة أخرى.. ومكثت ساهرة، فلم أذهب إلى حجرتي لأنال قسطى من الراحة إلا في وقت متأخر.. وعندئذ لم يطرق النوم عيني.. أما هو فقد عاد بعد منتصف الليل، ولكنه بدلًا من أن يأوى إلى حجرته، أوصد على نفسه باب الحجرة السفلى.. فرحت أنصت وأرهف السمع وأتململ في الفراش، وأخيرًا قمت فارتديت ثيابي وهبطت إلى الطابق الأرضى.. فقد كان من المضنى أن أظل راقدة أرهق مخي بمئات من الشكوك والأوهام.. وتبينت خطوات مستر هيثكليف وهو يذرع الحجرة في قلق واضطراب. كأنما كان يقيس البلاط.. وكان كثيرًا ما يخرق السكون بتنهد عميق أشبه بالأنين.. وكان كذلك يتمتم بكلمات متقطعة لم أستطع أن أميز منها إلا اسم كاثرين مقترنًا بألفاظ وحشية تنم على الإعزاز والتدليل أو الألم.. وكان ينطق بها كأنما يخاطب شخصًا حاضرًا أمامه، في صوت خافت ولهفة مضطرمة، كأنما يعتصرها من أعماق قلبه..

ولم أجد الجرأة على اقتحام الحجرة مباشرة، ولكني كنت أود أن أنتزعه من أحلامه، فمضيت إلى المطبخ ونفست عن صدري بتقليب نيران المدفأة وإزالة رمادها.. وقد جذبه ذلك بأسرع مما توقعت، فقد فتح الباب على الفور، وقال:

- تعالى إلى هنا يا نللى، وأحضرى معك ضوءًا!.. هل نحن في الصباح الآن؟

- إنها تدق الرابعة.. أتريد شمعة لتصعد بها إلى حجرتك؟.. كان ينبغي أن تشعل واحدة من نار الموقد..

- كلا.. لست أريد أن أصعد إلى حجرتي.. ادخلى، وأشعلي لى نارًا، وافعلى أى شىء هنا في الحجرة..

- ولكن يجب أن أنفخ على الفحم المتقد أولًا قبل أن أستطيع احضار شيء منه إلى هناك..

ثم حملت مقعدًا، وأخذت المنفاخ وجلست أمام النار.. أما هو فكان في هذه الأثناء يهيم على وجهه ذهابًا وجيئة وفى حالة تقرب من الذهول.. وكانت تنهداته الثقيلة تتتابع واحدة في إثر الأخرى بحيث لا تكاد تترك بينها فراغًا للتنفس.. وما لبث أن قال:

- عندما يطلع النهار سوف أبعث في طلب جرين.. فإنى أريد أن أستوضحه بعض الأمور القانونية بينما أنا قادر على التفكير في مثل هذه الأمور، وبينما أستطيع التصرف في هدوء.. إنني لم أكتب وصيتي بعد، ولم أقرر حتى الآن كيف أترك ثروتي.. وشد ما وددت لو أنني أستطيع محوها من على ظهر الأرض!

فتدخلت قائلة:

- إنني ما كنت لأقول ذلك يا مستر هيثكليف.. دع أمر وصيتك فترة أخرى، فما زال أمامك ما يكفي من الوقت التكفير عن مظالمك الكثيرة!.. وما توقعت البتة أن تنهار أعصابك إلى هذا الحد.. نعم، فإنها الآن قد بلغت غاية الانهيار.. ويكاد يكون ذلك كله راجعًا إلى غلطتك، فإن الطريقة التي قضيت بها الأيام الثلاثة الأخيرة خليقة بأن تصرع الجبابرة.. فهلا تناولت بعض الطعام، ونلت شيئًا من الراحة؟.. يكفيك أن تنظر إلى نفسك في المرآة لترى مبلغ حاجتك إلى كليهما.. لقد برزت عظام وجنتيك، وأصبحت عيناك في لون الدماء، أشبه بشخص يوشك على الموت جوعًا ويوشك على فقد بصره سهدًا..

فأجاب:

- إنها ليست غلطتي أنني لا أستطيع أن آكل أو أستريح، وثقى أن ذلك ليس خطة موضوعة أرمى بها إلى هدف معين.. فسوف آكل وأستريح عندما أجد ذلك في قدرتي.. ولكنك كمن يأمر رجلًا يصارع الأمواج بأن يرتاح وهو على قيد ذراع من الشاطيء!.. يجب أن أبلغه أولًا، ثم أستريح بعدئذ!.. حسنًا.. دعينا من مستر جرين الآن!.. أما التكفير عن جورى وعسفى، فإني لم أقترف جورًا أو عسفًا، وليس لدى ما أندم عليه أو أكفر عنه!.. إنني سعيد غاية السعادة، ومع ذلك فإنني لست سعيدًا إلى الحد الذي يكفينى!.. إن هناء روحي هو الذي يقتل جسدي، ولكنه مع ذلك لا يشبع روحي نفسها!

فصحت به:

- سعيد يا سيدى؟.. ما أغربها من سعادة!.. ولكنك إذا رضيت بأن تستمع لي بغير غضب، فربما استطعت أن أسدى إليك نصيحة تجعلك أعظم سعادة..

فسألنى:

- ما هي؟.. هاتيها..

- إنك تعلم تمامًا يا مستر هيثكليف أنك منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمرك، كنت تعيش حياة ملؤها الأثرة، مجردة من التقى والتدين، بل لعلك لم تمسك في يدك كتابًا مقدسًا طوال هذه المدة.. ولابد أن تكون قد نسيت ما فيه، وربما لا تجد الآن فسحة من الوقت لدراسته بنفسك.. فهل يضيرك أن تبعث في طلب أحد رجال الدين - من أى مذهب، فإن ذلك ليس بذي بال - ليشرح لك أوامره ونواهيه، ويريك إلى أي حد شردت بعيـدًا عن أحكامه، وكيف أصبحت بذلك غير خليق بجنة السماء، ما لم يحدث تغيير في نفسك قبل أن تموت؟

- إن شكرى لك يا نللي يحجب غضبي منك.. لأنك ذكرتنى بالطريقة التي أريد أن أدفن بها!.. أريد أن يحمل جثماني إلى المقبرة في المساء، ويمكن لك ولهيرتون أن تصحباني إليها، إذا شئتما!.. وعليك أن تحرصي، بصفة خاصة، على إطاعة حفار القبور لتعليماتي بشأن التابوتين!.. وما من حاجة لحضور أحد رجال الدين، أو الصلاة على قبرى!.. فإني أقول لك انني أوشكت على بلوغ جنتي.. أما جنة الآخرين فلا أقيم لها وزنًا ولا أشتهيها!

فقلت وقد فجعنى كفره وعدم اكتراثه:

- وهبَّ أنك ثابرت على صومك وعنادك، مما أدى إلى موتك، ورفضوا أن يدفنوك في فناء الكنيسة؟.. فكيف ترضى عن ذلك؟

- إنهم لن يفعلوا ذلك!.. ولو فعلوه، فيجب أن تتولى نقلى خفية!.. أما إذا أهملت ذلك، فسوف يثبت لك، عمليًا، أن الموتى لا يتلاشون نهائيا!

وما كاد يسمع أفراد العائلة الآخرين وقد دبت حركتهم في البيت، حتى انسحب إلى عرينـه.. وعندئذ تنفست الصعداء!.. ولكنه أتى إلى المطبخ ثانية بعد الظهر، بينما كان جوزيف وهيرتون غائبين في عملهما، وطلب مني، وهو يرمقني بنظرات وحشية، أن أذهب لأجلس معه في حجرة الجلوس.. كان يريد أي شخص معه.. ولكني أبيت، وأفهمته صراحة أن حديثه ومسلكه الغريبين قد أفزعاني، وأنه ليس بي من رغبة، أو أعصاب، لأكون رفيقته وحدنا..

فأطلق ضحكته البشعة، وقال:

- أحسبك تظنينني شيطانًا.. شيئًا فظيعًا لا يليق لأن يعيش تحت سقف بيت محترم..

ثم تحول إلى كاثرين، التي كانت معى، والتي احتمت خلفي عند اقترابه، واستطرد يقول فيما يشبه التهكم:

- هل لك أن تأتى، يا دجاجتى!.. إنني لن أؤذيك.. كلا؟.. لقد جعلت نفسي في نظرك أسوأ من الشيطان إذن!.. حسنًا.. إن هناك واحـدة لا تنفر من صحبتى.. يا إلهي!.. إنها خالية من الرحمة، لا تلين!.. يا للعنة!.. إن ذلك مما لا يطيقه إنسان من لحم ودم، حتى أنا!

ولم يعد ينشد رفقة أحد بعد ذلك، وعند الغسق أوى إلى حجرته.. وكنا نسمعه أثناء الليلة بطولها، وحتى الصباح المتأخر، لا يكف عن الأنين أو يكلم نفسه.. فاستبد القلق بهيرتون، وأراد أن يدخل عليه حجرته، ولكني طلبت إليه أن يذهب لإحضار الطبيب كينيث، ليدخل إليه ويفحصه.. فلما أتى الطبيب، رحت أتوسل إليه أن يسمح لنا بالدخول، وحاولت فتح الباب، فوجدته موصدًا.. وعندئذ انطلق هيثكليف يسبنا ويلعننا ويقول إنه أحسن حالًا، ويريد أن ندعه وشأنه.. وهكذا عاد الطبيب من حيث أتى..

وكانت الليلة التالية غزيرة المطر.. والواقع أنه ظل ينهمر حتى مطلع الفجر.. فلما مضيت أقوم بجولتي حول المنزل كعادتي كل صباح، وجدت نافذة حجرة السيد مفتوحة، والهواء يطوح مصاريعها، والمطر يتدفق إلى الداخل.. فقلت لنفسي أنه لا يمكن أن يكون في فراشه.. فإن هذه السيول خليقة بأن تغرقه حتى تبلل عظامه.. ولابد أن يكون قد استيقظ من نومه، أو أنه غادر المنزل.. ولكني لن أثير ضجة أو جلبة، بل سوف أذهب في جرأة لأرى الحقيقة بنفسي..

وأفلحت في الدخول إلى الحجرة بمعونة مفتاح آخر، ثم أسرعت لأزيح الألواح الخشبية لخزانة الفراش، لأن الحجرة نفسها كانت خالية، فدفعتها جانبًا في عجلة ولهفة، واسترقت النظر إلى داخلها..

كان مستر هيثكليف هناك، راقدًا على ظهره.. والتقت عيناه بعيني فإذا فيهما نظرة ثاقبة ضارية.. فأجفلت.. وعندئذ بدا كأنه يبتسم.. ولم يكن في وسعى أن أحسبه ميتًا، ولكن المطر كان يغمر وجهه وعنقه، وكانت أغطية الفراش تقطر ماء، وكان هو جامدًا بلا حـراك!.. وكان مصراع النافذة، والهواء يطوحه هنا وهناك، قد كشط جلد إحدى يديه، وكانت مستقرة على إفريز النافذة، ولكني لم أر أثرًا للدماء حول الجلد الممزق، فلما لمسته بأصابعي، لم يعد ثمة مجال للشك كان ميتًا، متيبسًا!

ففتحت مصراعي النافذة وثبتهما، ورحت أمشط شعره الأسود الطويل إلى الخلف، لأزيحه عن جبهته.. ثم حاولت أن أغمض عينيه لأطفيء - إن استطعت - تلك النظرة الثاقبة المخيفة التي تنم عن الرضى والابتهاج، وكأنها تنبض بالحياة، قبل أن يراها أحد غيرى.. ولكنها لم تلن تحت أصابعي، ولم تستجب لي، بل كانت تبدو كأنما تهزأ بمحاولاتي!.. بل إن شفتيه المنفرجتين، وأسنانه الحادة البيضاء، كانت كأنما تهزأ بي هي الأخرى.. وعندئذ تملكتني نوبة أخرى من الخور والجزع، فصحت أستنجد بجوزيف..

وصعد جوزيف الدرج في جلبة وضوضاء، وهو يجـر قدميه جرًا.. ولكنه رفض في إصرار أن يكون له به شأن أو يمد إليه يدًا، وصاح:

- لقد خطف الشيطان روحه، فليتول أمر جيفته أيضًا!.. فما يعنيني ذلك في شيء.. أف!.. إنـه يبدو شريرًا حتى في موته!

وكشر العجوز الأثيم عن تواجده في سخرية واستهزاء، وظننته يهم بأن يطوف حول الفراش راقصًا، ولكنه ما لبث أن استعاد سكينته، وجثا على ركبتيه، ورفع يديه إلى السماء، ثم راح يتلو صلوات الشكر لله على استعادة سيد الدار الشرعي حقوقه الضائعة، وتراثه التليد..

أما أنا فقد روعتني وشلت حواسي تلك الحادثة الرهيبة.. غير أن ذاكرتي لم تملك إلا أن تعود إلى الأيام الخوالي في نوع من الحزن الممض.. ولكن هيرتون المسكين، وكان أكثرنا استهدافًا للظلم، كان الوحيد الذي عانى ألمًا حقيقيًا.. فقد قضى الليل بطوله جالسًا إلى جوار الجثة، يبكي في جزع مرير.. وكان يضغط على يده، ويقبل ذلك الوجه الوحشي الساخر الذي كان كل انسان غيره يجفل من مرآه، ويندبه بذلك الحزن القوى الذي ينبع بطبيعة الحال من قلب كريم، مهما كان قاسيًا كالصلب المطروق..

وحار الطبيب كينيث في تقرير سبب موت السيد.. وأخفيت تلك الحقيقة الواقعة وهي أنه لبث أربعة أيام لم يذق خلالها شيئًا، خشية أن يقودنا ذلك إلى متاعب لا داعي لها.. ولكنى كنت مقتنعة أن صيامه كان نتيجة لمرضه الغريب، لا سببًا له..

وقد قمنا بدفنه، لدهشة أهل الجيرة جميعًا واستنكارهم، حسب مشيئته.. فلم يحضر دفنه

سواى، وسوى هيرتون، وحفار القبور، وستة رجال كانوا يحملون النعش.. وقد مضى الرجال الستة لشأنهم بعد أن أنزلوا التابوت في القبر، ولكننا بقينا حتى أهيل عليه التراب.. وكانت الدموع تغمر وجه هيرتون عندما راح يخلع جذور العشب ويغرسها فوق قبره - وهي الآن يانعة خضراء كتلك التي تغطى القبرين الآخرين - وشد ما أرجو أن يكون ساكنه ينام نومًا عميقًا كساكنيهما..

ولكنك إذا سألت الريفيين فسوف يقسمون على الكتاب المقدس أنه يسير على قدميه!.. فهناك من يتحدثون عن لقائهم به بالقرب من الكنيسة، أو فوق البراري، بل حتى في هذا المنزل!.. سوف تقول إنها خرافة سخيفة، وكذلك أقول أنا.. ومع ذلك فإن ذلك الشيخ الجالس بجوار المدفأة يؤكد أنه رأى الاثنين معًا يتطلعان من نافذة حجرته في كل ليلة ممطرة منذ وفاته!

ثم إنني وقع لي أمر غريب منذ شهر تقريبًا.. كنت ذاهبة إلى (الجرانج) ذات مساء - وكانت أمسية مظلمة تنذر بالرعد والمطر - فما أن بلغت منحنى الطريق القادم من (المرتفعات) حتى قابلت صبيًّا صغيرًا أمامه شاة وحملان.. كان يبكي بكاءً مروعًا، فحسبت الحملين يشاكسانه ولا يستجيبان لقيادته.. فسألته:

- ماذا هنالك أيها الرجل الصغير؟

فغمغم يقول وهو ينفطر باكيًا:

- هناك هيثكليف وامرأة معه، تحت تلك الأكمة.. ولست أجرؤ على المرور بهما..

ونظرت، فلم أر شيئًا.. ولكن لا هو، ولا الخراف، رضى أن يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام.. فأمرته بأن يسلك طريقًا آخر أسفل ذلك الطريق.. والأرجح أنه كان يتصور وجود الأشباح من كثرة تفكيره فيها، وهو يقطع البراري وحده، من كثرة ذلك الهراء الذي يسمع والديه ورفاقه يرددونه.. ومع ذلك فإنني، الآن، لا أحب الخروج في الليل!.. ولا أحب أن أُترك وحدي في هذا المنزل الكئيب!.. إن الأمر ليس بيدي، ولا حيلة لي فيه!.. وسوف أسعد كثيرًا عندما يتركان هذا المنزل ويذهبان للإقامة في (الجرانج)..

فقلت:

- هل ينويان الذهاب إلى الجرانج إذن؟

فأجابت مسز دين:

- نعم، بمجرد زواجهما في أول العام الجديد..

- ومن الذي سيقيم هنا اذن؟

- سوف يبقى جوزيف للعناية بالمنزل، وربما بقي معه أحد الغلمان ليكون رفيقًا له.. وسوف يعيشان في المطبخ وتوصد باقى حجرات المنزل..

فغمغمت قائلًا:

- نعم.. ليمرح فيه أي عدد من الأشباح تطيب له الاقامة به!

ولكن نللى هزَّت رأسها قائلة:

- كلا يا مستر لوكوود!. إنني أعتقد أن الموتى يرقدون فى سلام!.. ولكن ليس من الصواب

أن يتحدث المرء عنهم في طيش ورعونة!

وفي تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة في دفعة قوية.. فقد كان الصاحبان عائدين من جولتهما.. فقلت مزمجرًا، بينما كنت أرقب من خلال النافذة اقترابهما:

- ولكن هذين لا يخافان شيئًا.. إنهما - معًا - خليقان بأن يواجها الشيطان وعصبته جميعًا!

وفيما كانا يخطوان إلى سلم الباب، ثم يتمهلان ليلقيا نظرة أخيرة على القمر الساطع - أو على الأصح لينظر كل منهما إلى الآخر - شعرت بدافع لا يقاوم يستحثنى ثانية على تجنب لقائهما.. فدسست شيئًا للذكري في يد مسز دين، وتسللت - غير عابىء باحتجاجها على فظاظتي - إلى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال.. ولعل ذلك كان خليقًا بأن يؤيد رأى جوزيف في أمر مغامرات زميلته مسز دين، لولا أنه لحسن الحظ قد عرف أنني شخص فاضل محترم، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التي ألقيتها عند قدميه..

ولقد طال مسيرى نحو منزلى، بسبب تحولي نحو الطريق إلى الكنيسة.. فلما بلغت مكانها، ووقفت تحت جدرانها، تبينت أن الخراب قد تقدَّم بها شأوًا بعيدًا في السبعة شهور الماضية.. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء خالية من الزجاج، وكم من أحجار برزت من مواضعها، وألواح انفلتت من أماكنها في الأسقف، لتصبح وشيكًا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة..

وبحثت، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبراري.. كان أوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك أن يغطيه كله.. أما شاهد قبر إدجار لينتون فإن الطحالب والحشائش كانت تزحف عند أعتابه.. بينما كان شاهد قبر هيثكليف ما يزال عاريًا مجردًا..

تلكأت حولها، تحت تلك السماء الصافية، ورحت أرقب الفراشات وهي ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش، وأصغى إلى همسات الريح الرقيقة وأنفاسها بين العشب، وأعجب كيف يمكن لأي امرىء أن يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون في هذه الأرض الهادئة الساجية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – **Group Link**

لينك القنـــاة – **Link**

فهرس الجزء الثالث والأخير..

Notes

[←1]

(يذكر القارىء أن الباب الرئيسي تعلوه نقوش تقرأ (هيرتون إيرنشو) وتحت هذا الاسم نُقشت سنة بناء الدار 1500).

[←2]

يقصد كاثرين رفيقة صباه وأم كاثرين الشابة.